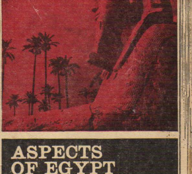


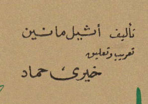
كتب سياسية

مجموعة عربية ١٠٠ ٪

صور من مصر

رحلات في الجمهورية العربية المتحدة



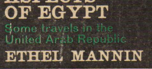


تأليف أثيل مانين

تعريب وتعليق

خيري حماد







كتب سياسية

صور من مصر

رحلات في الجمهورية العربية المتحدة

تأليف اثيل مانين

تعريب وتعليق خيري حماد

Ethel Manin

ASPECTS OF EGYPT

Some Travels In The United Arab Republic



تقدمة المعرب

كنت أسمع عن ايثل مانين قبل ان اعرفها . فقد قرات لهـــا منذ عهد بعيد بعض القصص التى كتبتها . كما قرات لهـــا كتابا عن الشرق الاوسط منذ بضع سنوات . لم اكن والحق يقال . جدمعجب به . اذ انه كان اقرب الى السرد القصصى الذى تتميز به كتب الرحلات العادية منه الى التحليل السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى تتميز به الكتب الجادة. وعرفت ايثل مانين بعد ان اصدرت كتابهـــا الاخير . « الطريق الى بئر السبع » . وبعـــد ان قراته . رايت فيـــه دفاعا صادقا عن قضـــية فلسطين . وحقوق شعبها . بقوة وايمان . بالرغم من اطاره القصصى . الذى لا يضفى على الدفاع صورة الوضوح والجلاء . ولم اتردد لحظة واحدة. عندما لقيتها فى حفل اقامه احد الأصـــدقاء لتكريمها . عن الاعراب عن اعجابى الشديد بقصتها التى تصلح للقـــارىء الغربى اكثر من صلاحها لقارئنا العربى . ولا سيما وانها ابرزت فيها دور الاستعمار البريطانى فى ضياع فلسطين . دون أن تهـــاجمه . ورســـمت صورة صـــادقة لجرائم الصهيونية وآثامها مع شعب فلسطين . وحددت باسلوب الكاتب الفنان الموهوب . دور الشباب الفلسطينى فى استعادة وطنه السليب . وتصميمه المنبثق عن وعى وايمان عميقين على هذه الاستعادة .

وعرفت ايثل مانين على حقيقتها الصافية الاصيلة . وتحررها الفكرى المثالى . عندما انعقدت ندوة فلسطين العالمية فى القاهرة . فى التاســـع والعشرين من مارس الماضى . بدعوة من الاتحاد العام لطلاب فلسطين . وقد اشترك فى هذه الندوة . لفيف كبير من مثقفى العالم ومفكريه . بالاضافة

الى ممثلى اكثر من مائة وخمسين من منظمات الشباب والطلاب . فى معظم بلاد العالم من شرقية وغربية . وارتفع صوت قوى يدافع عن حق العرب فى فلسطين . دفاعا لحمته الايمان بقضيتهم ، وسداه اليقين من ان شعب فلسطين قد حرم ابســـط حق من الحقوق الانسانية . وهو التعبير عن رأيه فى تقرير مصيره • ولم يتوان هذا الصوت المؤمن القوى. بالرغم من صدوره عن شخصية رقيقة نحيلة ، كشخصية ايشـــل . تكاد الوداعة تتجسد فى اساريرها . لتصل حدود الطيبة ، عن وضع الامور فى نصابها ، وتوجيه اصابع الاتهام فى هذه القضية التى لم يكن لهـا مثيل فى الظلم والتنكر لمبادىء الانسانية ، الى حيث يجب أن توجه ، حتى ولو كان فى توجيهها هذا ، ادانة للبلد الذى تنتمى اليه صاحبة هذا الرأى الحر . التى تخطت بحرية تفكيرها الحدود السلفية والوضعية . وانطلقت به فى أوسع آفاق السمو الانسانى •

وقد لا ينسى الذين شهدوا تلك الندوة . منظر تلك السيدة الرقيقة النحيلة ، وهى تقف على المنبر ، لا مرة واحدة ، بل مرات ، ترد فيهـــا على خطيب أو تناقشه وتفند آراءه ، وتهدر كالموج الدافق ،وتنطلق العبارات منها كالرعد القاصف ، مؤكدة ان الانسانية ، اقترفت ابشع جريمة لها فى حق شعب فلسطين ، عندما قضت عليه الامم المتحدة بقرارها الجائر ، بان يتحول الى شعب من اللاجئين ، وعندما أقام الاستعمار العالمى من تلك الدولة التى يسمونها اسرائيل ، فى قلب الوطن العربى ، قاعدة له تحقق اهدافه ، وتحمى له مصالحه وقواعده ، بعـــد أن أبعد هذا الاستعمار ، وحليفته الصهيونية ، عن الوطن اصحابه ، وعن الديار أهلها ليعيشـــوا فى ظلام التشرد ، وشقاء اللجوء ، وألم الحنين والحرمان •

هذه هى ايثل مانين • مؤلفة هذا الكتاب الذى نضعه بين ايدى القراء وهى كاتبة قصصية موهوبة ، شقت طريقها بعصامية فذة ، الى أن رسخت قدمها ككاتبة كبيرة ، تنقل قصصها ومؤلفاتها الى مختلف لغات العالم ، كالفرنسية والالمانية والهولندية والاسبانية والايطالية والاســـكندينافية والعربية • فقد ارغمتها ظروف الحياة على هجر مقاعد الدراســـة وهى فى الخامسة عشرة من عمرها ، حيث عملت كاتبة اختزال فى احدى المؤسسات الاعلانية ، لتنتقل بعد قليل الى عمل متواضع آخر ، وهو النسخ فى بعض دور النشر الكبرى ، ثم لتنتقل الى العمل كمساعدة لرئيس تحرير صحيفة « بليكان » الرياضية والفنية ، وصدرت لها قصتها الأولى وهى فى الثانية والعشرين من عمرها ، بعد ان فازت بجائزة فى مسابقة القصة • ودابت بعد ذلك على اصدار قصة فى كل عام ، بالاضافة الى عدد من كتب الرحلات

عن بورما ، والهند ، وروسيا ، والمغرب ، ومقـــاطعة بريتاني ، واليابان والشرق الأوسط . وبالاضافة الى ثلاثة كتب عن سيرة حياتها ، والى سيرتين عن شاعرين ايرلنديين من ابرز شعراء القرن التاسع عشر ، وهما جيرالد جريفين ، والاب براون ، ولا ريب فى ان الكتاب الذى أصدرته وهى فى العقد الثالث من عمرهـــا بعنوان « اعترافات وانطباعات » والذى ضمنته الكثير من آرائها الجريئة التى يصفها البعض بانها أقرب الى الفوضوية منها الى أى شيء آخر ، والذى رسمت فيه عواطف امرأة شابة بمنتهى الصراحة والجرأة ، كان من الأسباب التى حققت لها الشهرة التى تتمتع بها اليوم ، والتى لم تستطع الصهيونية اخفاء عليها ، بســـبب تاييدها لقضـــية فلسطين ، بالرغم من سيطرتها ، أى الصهيونية ، على أجهزة النشر والاعلام فى معظم البلاد الغربية ، التى تلقى مؤلفاتها فيها أعظم الرواج ٠

وكتابنا اليوم ، وهو احدث كتاب للآنسة ايثل مانين ٠ وقد اسمته «صور من مصر» ، وتحدثت فيه عن مصر عبد الناصر ، أو الجمهورية العربية المتحدة ، واستهلته ، بعرض رسم صورة صادقة للمقابلة التى اجرتها مع سيادة الرئيس ، اعربت فيهـــا عن حقيقة ما تكنه من عواطف التقـــدير والاعجاب لهذا الرجل العظيم ، وانتقلت بعد ذلك الى الحديث عن رحلتها فى النوبتين القديمة والجديدة ، وعن جولاتها فى ارجاء الجمهــورية العربية المتحدة ، وهى جولات كانت هى التى قررت مواقعها ، اذ انها زارت كل مكان أرادت هى زيارته ، دون توجيه أو ايحاء من أحد ، وقد تناولت هذه الزيارات القاهرة ، والنوبة القديمة ، والنوبة الجديدة فى كوم امبـــو ، والاسكندرية ، وبور سعيد ، والسويس والفيوم ، جائلة فى شوارعهـا كلها وطرقاتها ، متحدثة الى اهلها ، دارسة اخلاقهم وعاداتهم ، ومدونة كل ما تراه ، فى عبارات تصويرية وضعية ، تجعل كتابها من اصدق كتب الرحلات عاطفة ووصفا ٠

وبالرغم من ان الكتاب من كتب الرحلات ، وهى تتطلب فى الغالب عرض الانطباعات الشخصية ، فان مؤلفته ، تتبع فيه اســـلوبها القصصى المشوق ، عارضة الصور المتلاحقة للروى التى شهدتها ، والأحاديث التى اجرتها والتى سمعتها ، فى شكل قصة متتابعة المناظر ، تستهوى قارئها ، ببراعة الفن التصويرى فيها اكثر من استهوائه لعمق الدراســـات التى تتضمنها ، وتجتذبه بحبكة القصة ، ودقة الوصف ، اكثر من اجتذابه بكثافة الموضوع وتبحر فى التحليل ٠ ولو شئنا الانصاف لقلنا ان الكتاب عرض لقصة مصر الحديثة ، اكثر منه دراسة لنواحي التقدم فيها ٠ لافتقاره

الى ما تتطلبه الدراسات من غوص على الحقائق والارقام ، ومن تحليل للواقع ، واستقراء للاحداث وعرض للرأى ٠

استهلت المؤلفة كتابها بفصل خاص عن مقابلة اجرتها مع السيد الرئيس ، وبعد ان عرضت مواقف الناس من السيد الرئيس ونظراتهم اليه ، وهى مواقف تنطوى على الحب البالغ والولاء الصادق المؤمن ، راحت تعبر باسلوبها القصصى الممتع عما كانت تحس به من لهفة الى لقائه ، وما كانت تشعر به من رهبة اذ تحقق لها هذا الأمل ٠ اذ كانت تتساءل عما يمكنها ان تقوله الى « هذا الرجل الاسطورة » اذا ما وقفت فى حضرته، ولا سيما بعد ان قرات خطبه واقواله وعرفت منها ردوده الواضحة على جميع الأسئلة السياسية مهما كانت عويصة ٠ وبعد ان صورت بقلمها البارع كيف جاءتها الدعوة الى اللقاء ، وكيف مضت اليه وهى تحس بالرهبة ، راحت تتحدث عن المنزل المتواضع الذى رأته ، واصفة عظمة اللقاء ، وشارحة ما دار فيه من بحث تناول شتى الموضوعات العربية والعالمية ٠

وتناولت المؤلفة فى الفصل الثانى من كتابها موضوع الاشتراكية والقومية العربية فقالت ان الحزازات التى يحملها الغرب بصورة عامة ضد الرئيس عبد الناصر ، هى ظاهرة مرضية لانها لا تنبع من واقع ، ولا تصدر عن موضوعية ، واكدت ان فهم عبد الناصر الانسان لا يتأتى الا لمن يقرأ كتابه « فلسفة الثورة » قراءة ممتعة دقيقة ، بكل ما يتضمن من اعترافات وحيرة وشكوك تنم عن تنساه فى الهدوء والتفكير وامعان النظر والتحليل الذاتى ٠

فالاشتراكية والحرية والوحدة ، هى التعبير الصحيح عن الضمير القومى للامة العربية ، ولم يعد لزاما على الاشتراكية ان تلتزم التزاما حرفيا بقوانين جرت صياغتها فى القرن التاسع عشر وانما بات لزاما عليها ان تتطور مع اوضاع القرن العشرين ، وان تخدم الأمة العربية فى ظروفها الخاصة المعينة ، فالحرية فى كسب العيش ضمانة لازمة لتأمين حرية الاقتراع ٠

والاشتراكية عند عبد الناصر هى اقامة مجتمع الكفاية والعدل ، مجتمع العدل ، وتكافؤ الفرص ، مجتمع الانتاج والخدمات ٠ والديمقراطية فى رأيه هى الحرية السياسية ، اما الاشتراكية فهى الحرية الاجتماعية ٠ ولا يمكن الفصل بين الاثنتين ، اذ انهما جناحا الحرية الحقيقية ، وبدونهما او بدون اى منهما ، لا تستطيع الحرية ان تحلق الى آفاق الغد المرتقب ٠

وهكذا نجد ان المؤلفة تعرض فى هذا الفصــــل صــورة صادقة عن التطبيق العربى للاشتراكية مستندة فى عرضها الى الميثاق ، والى تعريفاته الواضحة لكل مقومات الاشتراكية وتطلعاتها ، كما تعرض نظرة عبد الناصر الى السياسة الخارجية عامة والوحدة العربية بوجه خاص .

وتناولت فى فصلها الثالث الحديث عن السد العالى فوصــــفته بانه لا يمثل مشروعا ضخما ـ يثير الدهشة لما فيه من جراة اذ لا يجسد اعظم ما حققته الثورة من انجازات مادية ـ فحسب ، وانما يمثل الرمز القومى العظيم الذى يجسد الاستقلال والتقدم ، كما يمثل الاعتزاز الوطنى بالحاضر والامل فى المستقبل ، وهو يهدف الى تامين الحياة الجديدة فىوادى النيل ، والى خلـق القوة الكهربيــة اللازمة للصــناعة ، ومن حق ابناء مصر والحالة هذه ان يؤمنوا ايمانا عميقا قاطعـا ، بانه سـيرفع من حياتهم جميعـا ، سواء اكانوا من الفلاحين ام من ابناء المـدن ، اذ انه كمـا اسـماه الســيد الرئيس « مجد الماضى وأمل الغد » .

وتحدثت فى الفصل الرابع من الكتاب ، وهو اطول فصوله عن بلاد النوبة القديمة التى زارتها فى مغامرة اشبه ما تكون بالخيال ، وعن بلاد النوبة الجديدة فى كوم امبو ، حيث التفتح للحضارة ، وحيث الاندماج مع المجتمع المصرى الذى كان النوبيون يمثلون جزءا منفصلا عنه فى بلادهم القديمة ، ولكنهم ســيمثلون فى النوبة الجديدة ، جزءا لا يتجزا منــه . وتتمثل واقعية المؤلفة فى هذا الفصل ، باهتمامها بشعب النوبة اكثر من اهتمامها بالآثار التاريخية ، وعنايتها بمستقبلهم الجديد فى ارضهم الجديدة اكثر من عنايتها بتاريخهم .

لكن المؤلفة لا تخلو فى هذا الجزء المطول من الكتاب من الهنــات التى تؤخذ على الكتاب الغربيين عادة من حيث اغراقهم فى الخيال والرومانطيقية ، وافراطهم فى وصف بعض العلائم التى تشير الى التخلف ، وكانها دلائل على وضع اجتماعى معين . ومن هنا لا تنجو الكاتبة من نقدنا لها الذى يبدو فى بعض الهوامش . فى انها اسهبت فى عرض صور لحيــاة التخلف فى النوبة القديمة ، وتبسطت فى الحديث حتى عن توافه الأمور وسفاسفها .

لكن نقدنا هذا لا يمنعنا من اطراء البراعة الفنية فى التصوير القصصى الذى تميزت به الكاتبة ، وهى تنقل الى قارئها انطباعاتها واحاسيسها اثناء الجولة الطويلة التى قامت بها فى بلاد النوبة .

وتتحدث المؤلفة فى الفصل الخامس عن اسيوط التى تعتبرها مدخل

مصر العليا ، كما تتحدث في الفصل السادس عن واحة الخارجة ومشروعات الاصلاح الزراعي فيها . وتخصص الفصل السابع لمشروع الوادي الجديد ، ومشاريع وادي النطرون وابيس والفيوم وكفر الشيخ وانشاص وغيرها .

وفي الفصل الثامن تتحدث عن الاسكندرية ، عارضة صورا رائعة لشوارعها وضواحيها . وكروم العنب القريبة منها . في حين تحدثت في الفصل التاسع عن منطقة القناة ، وزياراتها لبور سـعيد والاسماعيلية والسويس .

وخصصت الكاتبة فصلها العاشر للحديث عن القاهرة وآثارهـا ، وشوارعها . وحواريها . وقلعتها واهرامها . وقصورها . وقناطرها الخيرية، ومستشفياتها . لتنتقل منه الى فصل خاص عن السياحة ومستقبلها في الجمهورية العربية المتحدة .

وتحدثت في الفصل قبل الأخير عن زيارتهـا الثانية لقطاع غزة ، ومعسكرات العائدين ، وخطوط الهدنة هناك ، وهنا انطلقت مع طبيعتهـا التحررية الأصيلة ، تصف النـكبة التي حلت بشعب فلسـطين ، والتي لا تماثلها نكبة في التاريخ كله . وراحت تشير اشارات واضحة الى « طريق بئر السبع » ، وهو اسم روايتها السابقة عن العائدين ، مؤكدة ان هذه الطريق ستمثل طريق العودة الى الوطن السليب .

وانهت المؤلفة كتابها بفصل عنوانه « شعب يزحف » ، ذكرت فيه ان الصور التي عرضتها في هذا الكتاب لا تمثل مصر الحديثة تمام التمثيل، وانما تقدم الدليل المرشد عما هو واقع في هذه البلاد ، التي تحتل مكان الصدارة في الوطن العربي ، على اعتبار ان الرئيس عبد الناصر ، هـو الزعيم الذي تتطلع اليه الأمة العربية ، ليقودها في طريق وحدتهـا ، ومضت من ذلك الى عرض سريع لما حققته الثورة في مصر ، من نهضـة وتقدم في سائر المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعمرانية واكدت ان الجمهورية العربية المتحدة ، تمثل أكثر بلاد الشرق الأوسـط استقرارا ، واوسعها أملا . فهي مخلصـة كل الاخلاص لمثلهـا القومية والاشتراكية ، وهي القاعدة التي يتطلع اليها العرب اينما كانوا لتحقيق حلمهم في الوحدة العربية .

هذا هو الكتاب ، الذي اضعه بين ايدي القراء ، وهو والحق يقال واحد

من الكتب القليلة التى تصدر فى دنيـا الغرب ، والتى تتوخى الموضوعية والصدق فيما تكتب عن وطننا العربى .

ولا اغالى ان قلت ان ايثل مانين ، قد اقامت فى كتابها هذا الذى عربته بكل دقة وامانة ، بالرغم من بعض الهنات فيه ، الدليل من جديد ، على صادق وقوفها مع العرب فى قضاياهم الحقة العادلة .

القاهرة فى ٢٩ من يونيو عام ١٩٦٥ .

خيرى حماد



الإهـداء

الى علي محمد علي

الرفيق الطيب الذى صاحبنى فى كثير من
هذه الرحلات فى الجمهورية العربية المتحدة .

ـ المؤلفة ـ



اعترافات

لندن

شكرى العميق الخالص أولا لسيادة الدكتور محمد عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء لشئون الثقافة والارشاد القومى فى الجمهورية العربية المتحدة ٠ اذ كنت فى ضيافته اثناء زياراتى قبل قصة ترحيل النوبيين وبعدها ٠ واذ قدم الى كل التسهيلات التى مكنتنى من زيارة كل مكان اردت زيارته ، ومشاهدة كل ما رغبت فى مشاهدته ٠

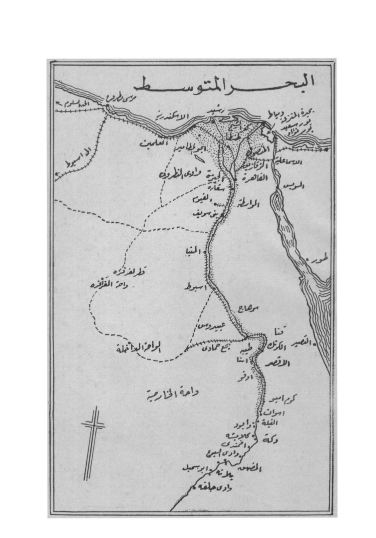
وشكرى الخالص أيضا للاستاذ أحمد انيس المستشار الصحفى لسفارة الجمهورية العربية المتحدة فى لندن ، الذى اعد كل التنظيمات والاجراءات اللازمة من هناك ، وساعد بكل وسيلة فى انجاح رحلتى ٠

وشكرى الصادق أيضا لصديقى ومستشارى الأدبى المستر جيلبرت تيرنر لما اعارنيه من كتب وما ساعدنى فيه من تصحيح المسودات واعداد الفهارس والمراجع ٠

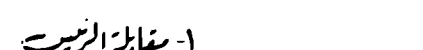
ايثل مانين



مصر الحديثة



البحر المتوسط
مرسى مطروح
السلوم
الى اسيوط
الاسكندرية
رشيد
دمياط
بحيرة المنزلة
بور سعيد
بور فؤاد
طنطا
العلمين
المنصورة
الاسماعلية
الزقازيق
القاهرة
الجيزة
وادى النطرون
سقارة
السويس
الفيوم
الواسطة
بنى سويف
المنيا
طور
واحة الفرافره
اسيوط
سوهاج
عبيدوس
قنا
القصير
الكرنك
نجع حمادى
طيبه
الواحة الداخلة
اسنا
الاقصر
ادفو
واحة الخارجة
كوم امبو
اسوان
الفيلة
دابود
دكة
كلابشة
وادى السبوع
ابو سمبل
وادى حلفه



١- مقابلة الرئيس

لا يمكن لأى كتاب عن مصر الحديثة أو الجمهورية العربية المتحدة ، الا أن يأخذ فى عين اهتمامه الأكبر . صانعها وقائدها الرئيس عبد الناصر . أو كما يسمونه هناك . وعلى الصعيد الشعبى « الريس » ٠

وقد سمعت الناس فى القاهرة ، يحدثوننى بكل بساطة ٠٠٠ قائلين ٠٠٠ « هل رأيت الريس » ، أو « هل رأيت جمال ؟ » ٠

فالشيوعيون يبغضونه (١) وقد يكون لهم الحق فى ذلك . أما الآخرون فيكادون يعبدونه على النحو الذى يعرف فيه الناس العبادة فى هذا الجانب من العالم ٠ وقد أكد لى مثقف مصرى ، على درجة عالية من التعليم والذكاء والادراك ، بشىء كثير من العاطفة التى تغلبها الحماسة ، ان روحا نبيلة كروح الرئيس ، لا يمكن أن تحبى بها الكرة الارضية الا مرة واحدة فى كل جيل ٠ وعندما جلت فى أنحاء الوطن العربى الأخرى فى السنة الفائتة ، كنت أسمع التقريظ والثناء عليه بمنتهى الحماسة ، وكنت اسمع الناس يصفونه بالقائد العربى العظيم سائلين ٠٠٠ أو هناك سواه ؟ ولا ريب فى ان السؤال صحيح وفى محله ٠

---

(١) انا اختلف مع المؤلف هنا ولاسيما بالنسبة الى الآونة الاخيرة ، فعندما كنت فى أوربا قبل بضعة أسابيع . لم أسمع من الشيوعيين العرب الا كل تقدير وثناء على سيادة الرئيس ، أما بالنسبة الى الشيوعيين المسلمين هنا فى الجمهورية العربية المتحدة ، فأعتقد أنهم مخطئون فى تقديرهم أيضا ، اذ ان الرئيس هو الذى أخرجهم من معتقلاتهم وأتاح لهم فرصة الاسهام فى بناء وطنهم ٠

(المعرب)

وكنت تواقة اشد التوق الى لقائه ، وان كنت احس فى قرارة نفسى انني اخشى هذا اللقاء ، ترى ماذا يمكن للمرء ان يقوله الى هذه الأسطورة اذا ماظهرت أمامه ؟ فقد دابت على قراءة خطبه باستمرار ، وعرفت منها ردوده على كل سؤال سياسى واضح ، فهل يمكن والحالة هذه ، ان الملم صورة منه كانسان ، وان اقوم هذه الصورة ، فى مقابلة رســــمية ؟ لكن الاساطير تثير دائما الفضول عند الانسان ، وتستحثه على ان يحاول رؤيتها بنفسه ، وان يتصل بها على الصعيد الانسانى مهما افتقر هذا الاتصـــــال الى الجدوى ٠

وكانت هناك رغبة ملحة لدى بعض الدوائر الرسمية فى ان يتم اللقاء ، ولكن انتظارها طال بضعة اسابيع ، فقد كان الرئيس فى البداية منشغلا بمشـــكلة الحدود الجزائرية المغربيـــة ، ثم اعقبت ذلك ، زيارة الامبراطور هيلاسلاسى للجمهورية العربية المتحدة ٠ وفجاة ، وكنت فى ذلك الصباح خارج القاهرة ، ازور احد مشروعات الاصـــلاح الزراعى ، جاءت رسالة هاتفية مستعجلة تقول ٠٠٠ « سيقابلك الرئيس فى الساعة السابعة والنصف من هذا المساء » ٠

واصبت بالخوف كانطباع أول لهذه الرسالة ٠٠٠

وقال المصرى الذى كان يرافقنى والذى لمس خوفى ٠٠٠ « لم تخافين؟ انك انت التى أردت لقياه ٠ وهو انسان فى منتهى اللطف والدماثة » ٠

ـ لكننى افزع دائما من لقاء الأغراب عنى ولا ســـيما اذا كانوا من العظماء ٠

ـ ثقى انك سترتاحين الى لقائه ، فهو كفيل بتهدئة مخاوفك ٠

وكنت قد سمعت من أحد شانئيه ، أن على اذا سمح لى بمقابلته ان ابعث بالاسئلة التى اود توجيهها اليه ، خطية ومسبقا ، وكنت قد رددت على هذا الشأن بأننى فى هذه الحالة لا بد ان اعدل عن طلب المقابلة ٠

لكننى فى الواقع ، لم أتلق طلبا كهذا ٠ ولم يكن صحيحا ايضــــا ما سمعته من ان على ان التقى بأحد سكرتيريه قبل الاجتماع ليرشدنى الى ما يجب ان افعله فى حضرته ٠ فعند وصولى ، لم ابق فى غرفة الضابط المسئول عن حراسة الدار الا لحظات استغرقها حديث الضابط الهاتفى مع من فى الداخل ، يخبرهم بوصولى ، ثم مشيت عبر الطريق الموصل الى داره وهى عادية حديثة الطراز ، متواضعة الارتفاع ، تقف وسط حديقة

تغمرها الأضواء انها نفس الدارة التى كان عبد الناصر يعيش فيها عندما كان ضابطا ، فى ضاحية جميلة من ضواحى وسط القاهرة ٠

وقادنى خادم عند باب الدارة ، الى غرفة جميلة ، اثاثها متواضع جميل ، وقد انتشرت فيها أصص الأزاهير تحمل الأقحوان « والجلاديول »٠ ورأيت صورة زيتية كبيرة على الموقد أثارت اهتمامى ، لأنى كثيرا ما رأيت اطرافا منها منشورة فى الصحف وراء الشـخصيات التى يستقبلهـا الرئيس ٠ وكنت اتساءل عندما ارى جزءا منها ، ترى هل هى نسـخة منقولة من صور «جويا» Goya ؟ (١) أما وقد رأيتها كاملة الآن ، فقد خيل الى أنها من رسم « جويا » فعلا ، انها تصـور فتاة فى ريعـان الشباب ٠ ترتدى لباسا فضفاضا من الحرير الأزرق ، وقد اقتعدت صخرة ، تبدى علائم الرفض لما يقدمه اليها شاب راكع على ركبتيـه فى ملابس مهلهلة ٠ ولم استطع تقدير ما كان الشاب يقدمه اليها فى يديه المنكمشتين ، لكننى رأيتعلائم الاصرار على الرفض واضحة فى عينيها ٠ وأمام الصورة، وفوق الموقد ، عدد من الصور الفوتوجرافية لعدد من رؤساء الدول ميزت بينهم نهرو وقوامى نكروما وتيتو وسوكارنو ٠ وكانت الوجوه الأخرى مألوفة لدى ، ولكنى وقد كنت اتطلع اليها محاولة تمييزها ، دخل الخادم الغرفة يحمل شرابا خفيفا على صفحة من الفضة ، فاستدرت اليه لتناول الكأس ٠ وسرعان ما دخل الغرفة رجل آخر ، ايقنت انه احد السكرتيرين ليقول بكل نعومة وهدوء ٠٠٠ ان الرئيس قادم ، ثم خرج من الغرفة كما دلف اليها بمنتهى الهدوء ٠

وكان الصمت يسود الدارة ، ولا تكاد تقطعه حتى دقات الساعة ٠ وقد انتظرت كما خيل الى ، خمس دقائق او اقل ، وان كنت قد رأيتها فترة طويلة ، متلهفة الى سماع صوت باب يصفق ، او وقع اقدام تخطو ، أو صوت يتحدث ٠ وتمنيت لو كانت معى صحيفة او مجلة او كتـاب لأسرى عن نفسى بالقراءة ، وجلست وأنا اواجه الباب ، وفجأة ، رأيته امامى ، بذلك الوجه الوسيم الذى تطل صورته باسما او عابسا من كل مكتب او حانوت او مقهى او بنـاء عام فى مصر كلها ، وحتى فى بيوت القرى النوبية المبنية من الطين ٠

---

(١) فرانسيكوجويا (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨ م) رسام اسبانى مشهور ولد فى مقاطعة اراجون ودرس الفن فى أحد الأديرة ثم سافر الى ايطاليا حيث اقام فى روما دارسا على كبار الفنانين قبل أن يعود الى وطنه . وتمتاز رسومه بطابع العنف وقد رسم كثيرا من الصور الكبيرة بالماء والزيت ومن اشهر صوره الشهرة ولواجع الحرب و ٣٣ لوحة لمصارعة الثيران ٠ (المعرب)

وقمت لنوى وصافحته مبادرة بالتحية ، وأشار الى بيده على مقعد أخذت موضعي منه ، بينما جلس هو الى مقعد عالى الظهر على مقربة منه · ولم يـكن هناك مصورون · او مسجل لتســـجيل ما يدور من حديث ، ولا سكرتير يقف وراء ستارة ، اذ لم تكن هناك في الواقع ســـتائر ، بل كنا وحدنا في ناحية من تلك الغرفة الواسعة · وكان مظهره ينم عن الجدية بصورة تفوق ما كنت اتوقعه · وقد بدا اكبر سنا مما كنت اتخيله ، كما بان الاجهاد على قسماته · وفارقتنى العصبية التى احس بها ، وبات فى وسعى ان احكم على انه مجهد ، لأن الاجهاد شيء خبرته وعرفته ·

وقلت للرئيس ··· لطيف منك يا سيدى ان تراني فى الوقت الذى لا تنقطع فيه عن رؤية الناس · فانا اقرأ فى الصحف كل يوم انك قابلت هذا وذاك · ولابد انك قد تعبت من مقابلة الناس ·

وابتسم عبد الناصر ، ومد يده الى جيبه بحثا عن ســـيجارة ، ثم قال ·· ان ما يتعبنى لا ما تقرئينـه فى الصـــحف ، بل الأمور التى لا تقرئينها ··

وكان صوته منخفضا وعميقا ، ذلك العمق المعروف عن أصـــوات الرجال العرب غالبا ·

وقدم الى سيجارة من علبته ، فهززت رأسى ، متمتمة اننى لا ادخن ، وقلت له اننى كنت راغبة فى مقابلته لأننى اضع كتابا عن مصر الحديثة ، ولأننى ، وقد قلت هنا قولا غريبا ، اشعر بأننا متشابهان فى الانتمـــاء الى اسرتين متواضعتين ··· ثم قلت ··· ولدت ونشأت اشتراكية بطبعى · ··· وهنا مضى الحديث ينساب هادئا · تماما كالسفينة وهى تمضى منسابة مع التيار ·

وتحدث الى عن المصادفة التى دفعته الى السياسة وهو صبى ، عند ما اشترك فى اجتماع عام جاء رجال الشرطة لتفريقه ، وقد اشـــترك مع المتظاهرين فى مظاهراتهم دون ان يعرف اسبابها ، فقد كان لايتجـــاوز الخامسة عشرة من عمره ، وقد اعتقل مع غيره من الطلاب ، وقضى ليلتين رهن التحقيق ، حيث اكتشف ان الاجتماع كان قد اعد لمعارضة الحكومة القائمة ومنذ ذلك اليوم اخذ على نفسه عهدا بان يناضل لتحرير بلاده من ربقة الحكم الاجنبى · وقلت ان سير تاريخه قد تحدد منذ تلك الساعة · فرد بان الحياة ارادت ذلك · ثم مضى يتحدث عن الاثر الذى يمكن لـــكل انسان منـــا ان يخلفه كفرد فى خدمة بلاده · وقلت للرئيس ان المرء

لا يستطيع ان يفعل اكثر من السير وراء « نجمه » الذى يهـديه ، وهذا ما حاولت ان افعله ككاتبه ، ناشدة دائما سبيل الحق والعدل ، فرد بان لاسلام فى العالم بدون عدل ·

وتحدثنا عن الاشتراكية وقلت للرئيس اننى لا اعتبر حزب العمال البريطانى اشتراكيا ، فضحك من قولى مقهقها ، وكان حتى تلك اللحظة يكتفى بالابتسام ·

وقلت أواجهه ··· وهل تعتبر هذا الحزب اشتراكيا ؟

فرد وهو لايزال يضحك ··· لا ·

وقلت بكل ما لدى من قوة ··· ولا سيما وانه واقع تحت سيطرة الصهيونية ·

وقادنا هذا القول الى فلسطين · وهو ما اردته منذ البداية · وقلت اننى زرت قطاع غزة ثانية ومؤخرا ، ورايت الناس هناك وقد سيطرت عليهم الحماسة من احياء فكرة الكيان الفلسطينى من جديد · وايجاد حكومة فلسطين ·· واكدت له انهم يعتقـــدون انه يعطف على الفــــكرة تمام العطف (١) ·

فقال الرئيس ··· أجل ، ولكن عليهم هم أن يقيموا كيانهم ، والا يركنوا الينا فى اقامته ·

ورددت بأن هذا ما يريده الفلسطينيون حقا ، ثم انتقلنا الى موضوع « اسرائيل » ، وقال الرئيس ان القضية الفلسطينية شائكة ومعقدة · وان لها وجهين كوجهى الصورة فهناك مشكلة اللاجئين اولا وحقهم فى العودة كما ان هناك مشكلة الخطر العســـكرى الذى تمثله اسرائيل فى الشرق الأوسط ·

---

(١) يبدو ان المؤلفة كتبت ما كتبته فى هذا الصدد قبل ظهور الكيان الفلسطينى ممثلا فى منظمة التحرير الفلسطينية التى ظهرت الى حيز الوجود فى الاول من يونيو عام ١٩٦٤·
اما ايجاد حكومة فلسطين ، فارى أن المؤلفة جد مخطئة فى تقديرها ، اذ ليس ثمة من يفكر فى اقامة حكومة فلسطين · وكل ما يجرى التفكير فيه هو قيام المنظمة بدورها فى تحرير فلسطين لتصبح البلاد بعد تحريرها جزءا لا يتجزأ من الدولة العربية المتحدة ·
وهناك نقطة اخرى لابد من التعليق عليها فى هذا الصدد ، فهناك حقيقة مقررة ، وهى انه لولا تأييد سيادة الرئيس عبد الناصر الكامل لقيام منظمة تحرير فلسطين كطليعة ثورية لتحرير الوطن السليب لما ظهرت المنظمة الى حيز الوجود ·
ـ المعرب ـ

وقال وقد بدا عليه التجهم ... « ان لديهم الوسائل لشن حرب الجرائم . ونحن نعرف هذا تمام المعرفة لأن لدينا جهازا قويا للمخابرات ونحن نعرف كل شيء » .

وقلت للرئيس ... « لكن عندما تتحقق الوحدة العربية . وتقوم كتلة عربية قوية ... »

فرد الرجل الذى جرحت عواطفه مرة .. وقد بان عليه الخجل ... « ان الوحدة لن تتحقق الا ببطء بالغ » .

ومضينا نتحدث عن سجل الجرائم الاسرائيلية واساليب الصهيونية وقال الرئيس انهم بعثوا فى عام ١٩٥٦ الى احد وزرائه كتابا فى طرد فتحته زوجة الوزير . واذا به يضم قنبلة تنفجر فى وجهها المتناهى الجمال فتشوهه . وتحيلها الى سيدة عمياء مدى حياتها . ووضعوا ذات مرة قنبلة فى طائرة ، بقصد قتل رجل واحد ، فقتلوا جميع ركاب الطائرة . وقال انهم حاولوا قتله ذات يوم عن طريق « ندل » يونانى كان يعمل فى محال جروبى التى الف ان تعد له مآدبة ، لكن جهاز المخابرات اكتشف المؤامرة التى كانت مدبرة لتسميمه . وتعنى هذه المحـــاولات كلها ان الاحتياطات اللازمة يجب ان تتخذ لحمايته عندما يسافر ، ولهذا كان يركب الســـيارة المصنـــوعة اثناء زيارته للحبشة . وقد ســافر الى الجزائر ويوجوسلافيا بطريق البحر . وهناك مركبان يستخدمهما احيـــانا فى سفراته ولا سيما أنه يحب السفر بطريق البحر . واضاف انه يحس ببعض الراحة اذا ما سافر خارج البلاد . وهو لا يتوق الا لاجازة يبحر فيهـــا ولا تتلقى ابانها الا الرسائل العاجلة والمهمة من القاهرة . وقلت له ، ان عليه فى اجازاته الا يتلقى اية رسالة ، ولكنه رد بان العمل هوايتـــه ، وانه لا يريد ابدا ان ينقطع عنه كامل الانقطاع . وفهمت طبعـــا ماعناه الرئيس ، ولكننى فهمت ايضا ، انه لا يجد الوقت الكافى لزيارة المتاحف والقصور ... وانحنى الرئيس نحوى وهو يقول : « أود أن اقول لك شيئا .. أتعرفين اننى لم ازر قصر راس التين الا منذ ســـنوات قليلة فقط » ؟ .

وتحدثنا عن امور كثيرة ، وكنت احس وكاننى اتحدث الى انسان عرفته طيلة حياتى . ودلف الخادم الذى لا يحدث حركة وهو يمشى ، فى لحظة من اللحظات ليقدم الينا القهوة العربية . ولا ادرى كيف وصـــلنا بحديثنا الى السد العالى ولكن ما أعرفه هو اننا وصلنا الى الموضـــوع . وسألنى الرئيس اذا كنت قد رأيت السد ، فرددت بالايجـــاب . واننى

رايته مرتين ، هذه المرة ، وفي السنة الفائتة ، وانطلق يتحدث عنه بكثير من الحماسة والاعتزاز • ولم يشر بالطبع الى ان المياه التى ستغمر بلاد النوبة القديمة ستتشكل بحيرة تحمل اسم ناصر ، وتغطى ما مســـاحته أربعة آلاف كيلو متر مربع ، لتكون اكبر بحيرة اصطناعية فى العالم كله •

وقلت للرئيس اننى لو كنت مكانه ، لما اهتممت بالغ الاهتمام كما يهتم هو بانقاذ معبد ابى سمبل ، مع ما فى عمليه الانقـاذ من تكاليف يبلغ ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات المصرية ، فهناك الكثير من آثار الفراعنة ومن تماثيل رمسيس الثـــانى • ولا يضير مصر فى شىء ان غرقت بعض التماثيل ولا سيما ان هناك مجالات كثيرة تتطلب انفاق المال عليها ، ورد الرئيس بأن هذه الفكرة جالت فى مخيلته بادىء ذى بدء ، ولكن سرعان ما تدخلت دول اخرى ومنظمة اليونسكو الدولية ، فاقتنع بان لابد من نقل المعبد بكامله ، لامجرد صورة منه ، الى مكان آخر على شـــاطىء البحيرة ووافقته على ان المعبد يســـتهوى السائحين ، وتســـاءلت عما اذا كانت حشودهم التى تؤم مصر فى كل عام ، تخرج منها بعد رؤية آثار الفراعنة وقد حملت فكرة ما ، عن مصر الجديدة الحيه • وضحك الرئيس ، ومضى يتحدث عن مصر الحية ، على صعيد البرامج التعليمية الفخمة • ولم يكتف بالحديث متحمسا عن التزايد فى الانفاق على الخدمات التعليمية فى السنوات الاخيرة فحسب ، وانما تحدث عن الزيادة فى اعداد الاطفال الذين يؤمون المدارس الثانوية ، ويمضون بعد انتهائهم منها الى الجامعات ، وكان كما يبدو معتزا بذلك غاية الاعتزاز • وخيل الى ان السد العالى والتوسع فى البرامج التعليمية هما الموضوعان الرئيسيان اللذان يهمـــانه أكثر من غيرهما • وسألته ما اذا كان لا يحس بالقلق من جراء ما تشير اليه احصاءات السكان ، من ان السد العالى بعد اكماله فى عام ١٩٧٠ (١) ، لن يغير من واقع الدخل الفردى ـ بسبب الزيادة الضخمة فى عدد السكان • واقر سيادته بوجود المشكلة ، وتحدث عن الزيادة الهائلة فى الســـكان فى السنوات القليلة الاخيرة ، ففى عهد محمد على كان عدد سكان الاسكندرية مثلا لا يربو على اربعمائة الف ، فاصبح بموجب احصاء عام ١٩٦٠ أكثر من مليون ونصف المليون •

---

(١) كان من المقرر ان ينتهى السد فى عام ١٩٦٨ لا فى عام ١٩٧٠ . ولكن ما طرا على برنامج العمل من تقديم نتيجة الاسراع فى التنفيذ يبشر بان الانتهاء سيكون قبل عام واحد من الموعد المقرر •

(المعرب)

وسألته ما اذا كان لايفكر فى الليل وهو مستلق فى فراشه ، بأن تغيير مجرى عظيم كنهر النيل ، لا يعتبر تدخلا ضـــخما فى شـــئون الطبيعة نفسها · فابتسم الرئيس وقال : انها على أى حال ليست المرة الأولى التى يتبدل فيها مجرى النيل ·

وتحدثنا عن الاصلاح الزراعى ، كجزء لا يتجزأ من مصر المعاصرة الحية ، وســـألنى الرئيس عما اذا كنت قد قمت بزيارة الوادى الجديد ، الذى زرته بالفعل · وقلت له اننى عندما كنت فى طريقى من اسيوط الى الوادى الجديد ، مررت بمسقط راسه فى بنى مر ، حيث زرت بيت الأسرة القديم الذى عاش فيه سيادته حتى بلغ الثـــامنة عشرة · وحيث لايزال بعض افراد الاسرة يعيشون كما قيل لى . ورد الرئيس بأن الجزء الاخير من كلامى صحيح ، أما الجزء الأول منه فخاطىء ، اذ انه لم يعش فى بنى مر حتى بلغ الثامنة عشرة ، بل انه لم يولد فيهـــا فى الواقع ، ولم يزرها الا بعد ان كان قد جاوز الثامنة عشرة · واضاف ان والده ولد فعلا فى بنى مر ، اما هو فقد ولد فى ضاحية من ضواحى الاسكندرية · ومضى سيادته يقول ان طفولته لم تكن مستقرة ، فقد دخل المدرسة فى القـاهرة والاسكندرية ، وقد عاش فى الأولى مع خال له ، ثم لما توفيت والدته وكان فى الثامنة من عمره ، انتقل الى بيت جده لامه فى الاسكندرية ، فأكثر جده وجدته من تدليله ، واعيد الى القاهرة للعيش مع خاله ، ثم عاد ثانية الى بيت جده ، فثالثة الى بيت خاله ، اذ كان والده قد تزوج من جديد · وقال ان طلبه الأول الالتحاق بالكلية العسكرية منى بالرفض ، وكان فى الثامنة عشرة ، بسبب اشتراكه اثناء دراسته فى المظاهرات المعادية للملكية · واراد والده ان يلحقه باحدى الوظائف الحكومية ، ولذا فقد ادخله كلية الحقوق فى جامعة القاهرة ، حيث قضى ستة اشهر ، قبل بعدها فى الكلية العسكرية ، نظرا لتغير بعض الظروف السياسية آنذاك · وهكذا اتضح ان القدر شاء له ان يكون جنديا وان يكون رسول الثورة الســـــياسية والاجتماعية فى بلاده · وقد ذكر فى كتابه « فلسفة الثورة » ، انه كان طيلة حياته يؤمن بالجندية · لكنه لم يبد لى ، واقعا تحت سيطرة النزعة العسكرية ، بالرغم من قضائه سنوات طويلة فى الجيش ، وبالرغم من خدمته العسكرية البارزة فى حرب فلسطين ، فهو على النقيض من ذلك ، لايؤمن بالعنف كسبيل لتحقيق غاياته الثورية · وقد شرح هذه الناحية فى كتابه فلسفة الثورة · كما ان ديزموند ســـتيوارت فى كتابه « مصر الجديدة » ، تحدث عن مقابلة طويلة جرت له مع الرئيس ، أعرب له ابانها عن اعجابه بغاندى ، كمـــا المع المؤلف فى أكثر من مناســـبة الى ميوله

السلامية المتاصلة فى نفسه ، والوصول الى قرارة تفكيره عن طريق كتابه « فلسفة الثورة »، لا يتناقض مطلقا ، كما يبدو لأول وهلة ، مع الجيشان العاطفى الذى تميز به فى فتوته ومع ما يبدو أحيانا فى خطبه اللاحقة من نغمات عنيفة حادة • ويتحدث ايرسكين تشايلدرز أيضا فى كتابه «الطريق الى السويس » • عن مقابلاته الكثيرة للرئيس ، وعن « طبيعته السلامية البارزة » ، غير منكر فى الوقت نفسه قدرته على الثورات العاطفية • وليس ثمة من شك فى ان لاتضارب هناك بين الطبيعة السلامية والثورة العاطفية •

وسألته قبل ان أفارقه عن الصورة فوق الموقد معربة عن اعتقادى بأنها من تصوير « جويا » ، فرد سيادته بانها من تصوير رسام اسبانى، وانها هدية تلقاها من السفير الاسبانى • واضاف أنه يعتقد ان الفتى يقدم بعض « الياسمين » لفتاته ، ولكنه لايعرف اسم الصورة او ماتعنيه تماما ثم قال : « والغريب ان الجميع يسألوننى عنها » •

ورحت أفكر وانا فى السيارة عائدة الى قلب القاهرة ، بالحديث الذى استغرق ساعة ونصف الساعة مع الرئيس ، وبما استطعت استنتاجه منه ، واحسست بشعور طاغ بان الرجل الذى كنت فى حضرته يتميز بالمثالية والاخلاص ، وبالطاقة النادرة على الافراط فى العمل الى حد الاجهاد ، وبانه يمثل قوة ديناميه فعالة ماضية فى طريقها لاتعبأ بمتاعب أو جهد •

وظللت أطيل التفكير فى هذا الرجل الممتاز حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة ، وتصورت ذلك الجندى الذى نظم ثورة ، أطاحت بملك عن عرشه ، ثم قادها دون أن يريق نقطة واحدة من الدم ، مصدرا أوامره الصارمة الى رجاله ، بالا يصيبوا الملك بسوء ، وقد اعترف فى كتابه « فلسفة الثورة » ، بأنه مرت هناك لحظات بعد الثورة ، كان فيها « خياله المشتعل » ، كما قال ، يميل الى فكرة الاغتيال السياسى كشىء لا مفر منه (١) • ومضى فى كتابه يقول ، وفكرت فى اغتيال الملك السابق

---

(١) اخطأت المؤلفة فى توقيت هذه الحادثة التى رواها سيادة الرئيس فى كتابه « فلسفة الثورة » : فهى تقول انها وقعت بعد الثورة بينما ينص كتاب السيد الرئيس على انها وقعت بعيد الحرب العالمية الثانية وقبل الثورة بسنوات طويلة •

(المعرب)

وبعض رجال الدين الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا . ولم يكن وحيدا فى افكاره الخطيرة هذه ، بل كانت هناك خطط كثيرة رسموها فى تلك الأيام، وكانت هناك ليال كثيرة سهرها بعد المدة للأعمال المنتظرة . ثم يمضى فى اعترافاته فيقول : « واحق اننى لم اكن فى اعماقى مستريحا الى تصور العنف على انه العمل الايجابى الذى يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا . كانت فى نفسى حيرة ، تمتزج فيها عوامل متشابكة ، عوامل من الوطنية ومن الدين ومن الرحمة ومن القسوة ومن الايمان ومن الشك ومن العلم ومن الجهل » .

ووجد رويدا رويدا ان فكرة الاغتيالات السياسية التى توهجت فى خياله ، قد خبت جذورها ، وفقدت قيمتها كتحقيق للعمل الايجابى المنتظر . وكانت ليلة حاسمة هى التى غيرت مجرى أفكاره وأحلامه عن هذا الاتجاه . فهو يقول : « و تنا قد اعددنا العدة للعمل ... واخترنا واحدا قلنا انه يجب أن يزول من الطريق ... وكانت الخطة ان نطلق الرصاص عليه وهو عائد الى بيته فى الليل ... » .

وتم اعداد الفرقة المهاجمة التى تتولى اطلاق النار كما تم اعداد فرقة الحراسة التى تحمى فرقة الهجوم ، كما تمت تهيئة فرقة تتولى تنظيم خطة الافلات والنجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح ، وسار كل شىء طبقا للخطة الموضوعة ، فقد اقبل الرجل الذى كان لا بد من زواله ، وانطلق الرصاص نحوه ، وانسحبت فرقة التنفيذ وغطت فرقة الحراسة انسحابها وبدات عملية الافلات الى النجاة ، وأدار الرئيس جمال عبد الناصر محرك سيارته وانطلق يغادر المسرح الذى شهد العمل الايجابى الذى اعدوه ، ولكنه ما لبث ان سمع فجأة أصوات صريخ وعويل ، وولولة امرأة ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة .

ومضى جمال عبد الناصر ، مندفعا ينهب الأرض بسيارته وقد غرق فى مجموعة من الانفعالات الثائرة ، وعندما وصل الى بيته ، واستلقى على فراشه كان كما قال فى كتابه : « وفى عقلى حمى ، وفى قلبى وضميرى غليان متصل ... » وان كان قد بعد عن مسرح العملية بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت ، الا ان أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ظلت تطرق سمعه .

ولم ينم طيلة الليل ، بل بقى مستلقيا على فراشه فى الظلام يشعل السجائر واحدة اثر أخرى ، ويسرح مع خواطره الثائرة ، لتتبدد كلها مع الأصوات التى تلاحقه ، ثم يخاطب نفسه مسائلا اياها اذا كان على حق

فيما فعله ، وما اذا كانت الوسيلة الوحيدة التى لا مفر منها ، اذ لم يكن فى استطاعته ورفاقه ان يفعلوا شيئا آخر سواها · وهنا يعود فى كتـابه الى التســاؤل قائلا : « أيمكن حقا ان يتغير مســتقبل بلدنا ، اذا خلصناه من هذا الواحد ، أو من واحد غيره ، أم المســألة اعمق من هذا ؟ » ·

ويقول لنفسه فى حيرة ، ان المسألة أعمق من هذا · ويصل فى تلك الليلة القاتمة التى عانى فيها الكثير من عذاب الروح والحيرة والشكوك، الى الايمان القاطع بأن العنف لا يمثل الطريق الايجابى الذى يجب أن يتجه اليه ، لأن المسألة أعمق جذورا وأكثر خطورة ، وابعــد اغوارا · واحس بالراحة النفسية الصافية ، ولكن الصفاء ما لبث أن مزقته أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة التى كانت اصداؤهــا لا تزال ترن فى أعماقه · وفجأة وجد نفسه يقول : ليت الرجل لا يموت ·

وطلع الفجر ، وكان لا يزال يضرع الى الله ، متمنيا الحياة لذلك الرجل الذى تمنى هو ورفاقه له الموت فى الليلة السابقة ···

ويمضى فى كتابه قائلا ··· « وهرعت فى لهفة الى احدى صحف الصباح ··· واسعدنى ان الرجل الذى دبرت اغتياله ··· قد كتبت له النجاة ·

وليس أقدر من العسكرى المتهن الذى خاض غمرة الحرب ، وخدم فى القوات المسلحة ، على تبين ما فى الاغتيال الســياسى من نزعة الى القتل · وقد قاد الرئيس عبد الناصر فى الحرب العربية ـ الاسرائيلية فى عام ١٩٤٨ احدى الوحدات فى العمليات الحربية ، واصيب بجراح بالغة ، ولكنه ما لبث ان غادر المستشفى ليعود الى فلسطين ، وليصبح بطلا من أبطال معركة الفالوجة ·

وتم الاعداد لثورة عــام ١٩٥٢ فى الفالوجة حيث كانت القوات الاسرائيلية قد حاصرت القوات المصرية شهرا كاملا ، وصبت عليها نيران مدافعها البرية وقنابلها الجوية · فهو يقول فى فلســفة الثورة : « فقــد كنا نحارب فى فلســطين ، لكن احلامنا كلهــا كانت فى مصر · وكان رصاصنا يتجه الى العــدو الرابض أمامنــا فى خنادقه ، ولكن قلوبنـــا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذى تركناه للذئاب ترعاه ·

« وكنا نجلس فى الحصار الذى لا نعرف له نتيجة ولا نهــاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذى يتعين علينا ان نحاول انقاذه » ، فقد

حوصرت القوات المصرية · وكان قد غرر بها ودفع بها الى معركة لم تهيأ لها ولم تعد ، وتركت هناك فى الفالوجة بغير سلاح بعد ان لعبت بمقدراتها مطامع ومؤامرات وشهوات من حكومة فاســـــدة · وتراءى لعبد الناصر ، ان مصر نفسها ليست الا « فالوجة » أخرى على نطاق أكبر واوسع ، وان ما يحدث هنا فى الفالوجة ليس الا صـــورة مصغرة مما يحدث هناك فى الوطن · وهنا يقول الرئيس : « وفى هذا اليوم اكتشفت بذور الثورة فى اعماق نفسى » (١) ·

وظل الرئيس عبد الناصر ، بعد ان قام هو ورفاقه بالثورة البيضاء فى الثالث والعشرين من يوليو عام ١٩٥٢ ، يبحث فى قرارة نفسه عما اذا كان من حق الجيش ان يتحمل هذه المسئولية ، او ان قيـامه بهـــا « جنون وحمق » ، مع انــه لم يشــــك لحظة واحدة فى ضرورة الثـورة وحتميتها · وكان كل ما يوجهه الى نفسه من تساؤل ، هو ما اذا كان من حق الجيش ان يتحمل تصريف هــــذا الواجب · وتوصـــل اخيرا وبعد ساعات طويلة من البحث فى اعماق نفســه الى نتيجة واحدة ، وهى ان من حق الجيش وواجبه ان ينفذ هذه الحتمية ، وانه لا مفر له ولا مناص من ادائها · ولكن الثورة يجب ان تكون مزدوجة ، وان تسير فى ثورتين فى وقت واحد ، ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفســـــه من يد طاغية فرض عليه او من جيش اجنبى معتد ، اقام على ارضــــه ودون رضاه ، وثورة اجتماعية تحقق العدالة الاجتماعية لأبناء الوطن الواحد ، وقد قام الجيش بالثورة السياسية فاطاح بفاروق عن العرش ، وسجل خطوة مماثلة فى طريق الثــــورة الاجتماعية بتحــــديد ملكية الأرض · وما زالت هذه الثورة سائرة فى طريقها ، ولكنها خرجت عن حدود مصر ، واصبحت جزءا من الثورة العربية الكبرى التى يتفجر بها الوطن العربى ويغلى ، وان لم تتحول بعد الى كل موحد شامل ·

ويمضى الرئيس فى كتابه فلســـــفة الثـورة قائلا : « ولا يمكن ان نتجاهل ان هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وان هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها ، حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام ·

---

(١) بالرغم من الجهد المشكور الذى بذلته المؤلفة لاعطاء الصورة الدقيقة الصادقة لمقاله السيد الرئيس فى كتابه فلسفة الثورة ، فان هنــــاك بعض التحريف اللامقصود قد جرى فى المعانى ، ولعله نشأ عن اساءة فى الترجمة · ولذا آثرت عند التعريب ان اعود الى الاصل فى كتاب « فلسفة الثورة » ·

(المعرب)

« ولا يمكن أن نتجاهل ان هناك قارة افريقية ، شاء لنا القدر ان نكون فيها ، ونحن لن نستطيع بحال من الأحوال — حتى ولو أردنا — ان نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليـــوم في أعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الافريقيين وذلك لسبب هام وبديهي ، هو اننا في افريقيا ۰

« وهناك أيضا دائرة ثالثة ، هي الدائرة التي تمتـــد عبر قارات ومحيطات وهي دائرة اخوان لنا في العقيدة يعدون بالملايين من المسلمين في آسيا وافريقيا ، وتشدهم الى الوطن العربي ، روابط لا من العقيدة الاســـلامية وحدهـــا ، بل ومن حقـــائق التاريخ العميقة الجـــذور في حياتنا (١) ۰

وكان الرئيس عبد الناصر ، يجلس وحيدا في مكتبه يفكر في هذه الخطوط ، ويقول : « وعندما أصل الى هــــذه المرحلة من أفكاري ، وانا جالس في غرفتي شاردا مع الأفكار ، أذكر دائما قصة مشهورة للشاعر الايطالي الكبير « لويدجي بيراندلو » اسماها « ست شخصيات تبحث عن ممثلين » ۰

ثم يمضي قائلا : « وظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صــــنعوا لأنفسهم ادوار بطولة مجيدة ، قاموا بها في ظروف حاسمة على مسرحه ۰ وان ظروف التاريخ أيضا مليئة بادوار البطولة المجيدة التي لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بهـــا على مسرحه ، ولست أدري ، لماذا يخيل الى دائما ان في هذه المنطقة التي نعيش فيها دورا هائما على وجهه ، يبحث عن البطل الذي يقوم به ۰ ثم لست أدري لماذا يخيل الى ان هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعبا ، منهوك القوى على حدود بلادنا ، يشير الينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ، ونرتدي ملابســـه ، فان أحدا غيرنا لا يستطيع القيام به ۰۰۰ وابادر هنا فاقول ان الدور ليس دور زعامة ۰۰۰ انما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، يكون من شانه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بهـــا ،

---

(١) لم تراع المؤلفة في نقلها هنـــا الدقة تماما ، فقد خلطت بين عبـــارات وردت هنا ، وعبارات اخرى وردت هناك في كتاب « فلسفة الثورة » لكنها جميعها من اقوال السيد الرئيس وان وردت في اماكن متفرقة ۰

(المعرب).

ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ، ترفع من شأن نفسها ، وتقوم بدور ايجابى فى بناء مستقبل البشر » ·

هذه هى فلسفة ثورة عام ١٩٥٢ ، وفلسفة الرجل الذى كان المحرك الرئيسى لها · ولم تمض عشر سنوات على قيامهـــا حتى كان يقدم الميثاق الوطنى مؤكدا الحاجة الى الثورة ، والى مبادئها واهدافها الأساسية ، وان عرضه لا على الشعب المصرى وحده ، بل على الأمة العربية كلها ·

وعلينا أن ندرس هذا الميثاق ، ففيه يتحدث هذا الرجل الذى بات أبرز شخصية قيادية فى الشرق الأوسط ، ومن الشخصيات الســياسية التى تختلف حولها الآراء فى عالمنا اليوم ·

٢ - الاشتراكية العربية والقومية

تمثل الحزازات التى يحملها الغرب ضد الرئيس عبد الناصر ظاهرة مرضية • فالذين لا يعرفون شيئا عنه أو عن نظام حكمه ، يشيرون اليه بانه حاكم ديكتاتورى ، ويصورونه بانه « هتلر الشرق الأوسط » ، كما يتحدثون عن « الدولة البوليسية » فى الجمهورية العربية المتحدة • وقد ادى تأميمه المفاجىء لقناة السويس فى عام ١٩٥٦ الى تعزيز هذه الآراء • لكن هناك بعض الناس لا جميعهم ، يمتلـــون قطاعا من الرأى العام فى الغرب ، ويحملون شيئا من العقلانية ومن الاحساس بالعدل • ولست ارى المجال فى هذا الكتاب لتلاوة قصة السويس التى يسميها المصريون « عدوانا » ، فقد تحدث عنها ايرسكين تشايلدرز فى كتابه الرائع « الطريق الى السويس » مدعما اياه بالوثائق الكاملة ، ومشيرا الى قصة الاحداث بانها تمثل « نظرية غربية من الافتقار الى النزاهة والثبات والانتهازية » •

واذا أراد المرء أن يفهم عبد الناصر الانسان ، فان من المهم بل من الضرورى أن يقرأ كتابه المذهبى « فلسفة الثورة » ، ولكن ترى كم عدد كارهيه الذين قرءوا هذا الكتاب ؟ انه ذلك الطراز من الكتب التى لا يحلم الساسة الغربيون الحاكمون فى نشرها ، بكل ما تتضمنه من اعترافات وحيرة وشكوك وخيبات أمل ، حتى بعد نجاح الثورة • وليس هذا الكتاب من طراز « كفاحى » الملىء بصراخ هتلر وناريته ، بل هو كتاب متناه فى الهدوء والتفكير وامعان النظر والتحليل الذاتى •

وقد صدر هذا الكتاب فى عام ١٩٥٤ • فما الذى حدث بعـــد صدوره ؟ بعد عامين اثنين ، وقعت ازمة السويس ، وكان فى وســـع

ما قام به الغرب من سحب العروض بتقديم القروض لتمويل عملية بناء السد العالي ، أن يسقط الحكومة ، وأن يلحق بزعيمهـــا الاذلال والاهانة والهزيمة ، لكن ما حدث كان النقيض تماما ، ففي سورة من الغضب ومن الكبرياء القومية العربية ، راح عبد الناصر ، يقوم بما كان القوميـون يتحدثون به أمامه من وقت الى وقت ، فيؤمم القناة . ومنذ ذلك التاريخ ارتفعت أسهمه لا في بلاده فحسب بل وفي الوطن العربي الى حد لم يكن قد وصله بعد . وبالاضافة الى ما في هذا العمل من احساس وطني وقومي، فقد انطوى من ناحية الفراهة السياسية على فلتة من فلتات العبقرية ، يشبه ما فعله في عام ١٩٦١ عندما ارتضى انفصال سوريا بدلا من ارسال قواته للحفاظ على الوحدة عن طريق القوة .

وقد قدم الى الجمهورية العربية المتحدة في عام ١٩٦٢ ، ميثاقها الوطني الذي يعتبر شرعة لحقوق الانســان وعهـــدا للقوميـــة العربيـــة والاشتراكية . وكان الميثاق في فلسـفته السياسية والشخصية استطرادا لما كتبه في فلسـفة الثورة . فقد كرر فيه رأيه في حتمية الثورة وأهدافها. وضمنه المبادىء الستة ، التي تحققها ارادة الثورة من مطالب النضـــال الشعبي واحتياجاته ، والتي تمثلت في القضاء على الاستعمار والقضاء على الاقطاع . والقضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم ، واقامة العدالة الاجتماعية ، واقامة الجيش الوطني القوى واقامة الحياة الديمقراطية السليمة .

وقد أكد ان هذه المبادىء الســتة يجب ألا تعتبر نظرية عمل نوري كاملة ، بل دليلا للعمل بها ، وأصر كما سبق له أن أصر في « فلســـفة الثورة » ، على ماخلفته الثورة المصرية من أثر على الامة العربية كلها وعلى وحدة شعوب الوطن العربي التي تجتمع في الأمة العربية . وهناك ايضا رؤيا أوسع وأشمل « فأصداء النصر الذى حققه الشعب العربي في مصر ، لم تقتصر على ايقاظ المنطقة العربية وحدها ، وانما كانت للتجربة الجديدة الرائدة آثارها البعيدة على حركة التحرير في افريقيا وفي آسيا وفي امريكا اللاتينية » ويعود الى الاعراب عن هذه الروح القومية في تعليقه على معركة الســويس اذ يقول : « ان معركة الســويس التي كانت أحد الأدوار البارزة في التجربة الثورية المصرية . لم تكن لحظة اكتشف فيها الشعب المصري نفســه ، أو اكتشفت فيها الأمة العربية امكانياتها فقط ، وانما كانت هذه اللحظة عالمية الأثر ، رأت فيها كل الشعوب المغلـــوبة على امرها أن في نفسها طاقات كامنة لا حدود لها ، وانها تقدر على الثورة ، بل ان الثورة

هى طريقها الوحيد » . وقد اكتشف اليمنيون بالطبع هذه الحقيقة . وكانت الجمهورية العربية المتحدة سباقة الى مدهم بالعون .

وهو يحدد الحرية والاشتراكية والوحدة على انها التعبير الصحيح عن الضمير القومى للأمة . ولم يعد لزاما على الاشتراكية « ان تلتزم التزاما حرفيا بقوانين جرت صياغتها فى القرن التاسع عشر » ، وانما بات لزاما عليها أن تتطور مع أوضاع القرن العشرين وان تخدم الأمة العربية فى ظروفها الخاصة المعينة ، فالحرية فى كسب العيش ضمانة لازمة لتأمين حرية الاقتراع .

ويتحدث الميثاق عن اقتطاع فلسطين من الوطن العربى وتسليمها الى « حركة عنصرية » عدوانية من غير سند من الطبيعة او التاريخ، ارادها المستعمر لتكون سوطا فى يده يلهب به النضال العربى ... كما أرادها المستعمر فاصلا ، يعوق امتداد الأرض العربية ، ويحجز المشرق عن المغرب » . ويشير الميثاق الى أن هذا تم بطريقة تحمل الطابع الاستفزازى، ولا تقيم وزنا لوجود الأمة العربية او لكرامتها .

ويقول ايرسكين تشايلدرز فى كتابه « الطريق الى السويس » ان الرئيس عبد الناصر ، قال له ذات يوم : « لا أدرى ، ان ما آمله ، هو انني قد فعلت شيئا » . وهو ان ابعث الاحساس بالكرامة عند افراد شعبى .

ويخصص عبد الناصر ، الذى ينعته خصومه بالديكتاتور جزءا كبيرا من الميثاق للحديث عن الديمقراطية التى يعرفها بانها « توكيد السيادة للشعب ، ووضع السلطة كلها فى يده وتكريسها لتحقيق أهدافه » .

ويعرف الاشتراكية بانها : « اقامة مجتمع الكفاية والعدل ، مجتمع العدل وتكافؤ الفرص ، مجتمع الانتاج ومجتمع الخدمات » ، ويمضى من هذا الى شيء من التحديد فيقول ان « الديمقراطية هى الحرية السياسية ، أما الاشتراكية فهى الحرية الاجتماعية ، ولا يمكن الفصل بين الاثنين ، اذ انهما جناحا الحرية الحقيقية ، وبدونهما أو بدون اى منهما ، لا تستطيع الحرية أن تحلق الى آفاق الغد المرتقب » . ويتحدث عن الديمقراطية الزائفة التى سيطرت على البلاد عند ما اعترفت بريطانيا لاول مرة باستقلال مصر ، فيصورها بانها الواجهة التى اختفى الاستعمار السياسى وراءها ، وهو تصوير جد صحيح . ويتحدث عن فساد نظام الاقتراع فى تلك الايام ، ويصور كيف كان الانتخاب يتم بطريق الاكراه وشراء الأصوات ،

وكيف كان الفلاحون فى عهد الاقطاع يرغمون على اعطاء أصواتهم للاقطاعى صاحب الأرض أو وفق مشيئته .

وينتهى هذا الفصل عن الديمقراطية بالتاكيد على انه « لابد من اعادة صياغة القوانين ، لتخدم العلاقات الاجتماعية الجديدة التى تقيمها الديمقراطية السياسية تعبيرا عن الديمقراطية الاجتماعية ... وكذلك فان اللوائح الحكومية يجب أن تتغير تغييرا جذريا من الأعماق ، فقد وضعت كلها او معظمها فى ظلال حكم الطبقة الواحدة ، ولابد ، باسرع ما يمكن ، من تحويلها لتكون قادرة على خدمة ديمقراطية الشعب كله » .

ويمضى الميثاق الى الحديث عن الاشتراكية العلمية فيصفها بانها الطريق الوحيد والصحيح لتحقيق التقدم الاجتماعى والاقتصادى ، ويوضح ايضاحا لا لبس فيه ولا ايهام ، ان سيطرة الشعب على كل أدوات الانتاج ، لا تستلزم تاميم كل وسائل الانتاج أو الغاء الملكية الخاصة ، كلها . ففى الامكان الابقاء على قطاع خاص ، يشارك فى ظل الاشتراكية فى عملية الانتاج على قواعد علمية ، وهو ما اقربه كارل ماركس نفسه ، ويتلقى فى الوقت نفسه معونة الدولة (١). لكن الشىء الوحيد الذى لا يمكن التساهل معه هو وجود الراسمالية المستغلة . ومع بقاء القطاع الخاص ، فان الميثاق ينص بوضوح على ان التخطيط الاشتراكى الكفء يتطلب أن يقع الجزء الأكبر من الخطة على عاتق القطاع العام » الذى يملكه الشعب بمجموعه ». ويتحدث الميثاق بعد ذلك عن دور القطاع الخاص وحدوده المسموح بها فى الصناعات الثقيلة والخفيفة وقطاع التجارة . فالهياكل الرئيسية لعملية الانتاج بما فيها السكك الحديدية والطرق والموانى والمطارات وطاقات القوى المحركة والسدود ووسائل النقل البحرى والبرى والجوى وغيرها من المرافق العامة يجب أن تكون فى نطاق الملكية العامة للشعب وكذلك المصارف وشركات التامين .

وينتقل الحديث الى مجال ملكية الأرض فيقول ان قوانين الاصلاح

---

(١) نشرت صحيفة «الاجيشيان جازيت» فى عددها الصادر فى ١١ من نوفمبر عام ١٩٦٣ مقالا تحت عنوان « دعوة لمساعدة الرأسمالية الوطنية » . وقد تضمن هذا المقال ان عضوا فى مؤتمر النسبة الادارية طالب بمد يد العون والتشجيع الى الرأسمالية الوطنية . على أن يشمل هذا العون تسهيل الاعتمادات المصرفية أمامها ومنحها بعض النقد الأجنبى لتمكين القطاع الخاص من الاسهام فى عملية بناء المجتمع الاشتراكى العربى .
(المؤلفة)

الزراعى ، قد حددت ملكية الفرد بمائتى فدان (١) ويثير هذا الموضوع اهتمامى ويستهوينى ، ولذا فساعود الى البحث فيه بصورة مفصلة فى الفصل اللاحق عندما ساتحدث عن بعض مشروعات الاصلاح الزراعى ، البارزة ، ومشروعات استصلاح الأراضى الزراعية . ولا ريب فى ان الاصلاح الزراعى ، اذا ما استثنينا مشروع السد العالى ، يعتبر من أبرز التطورات التى تحدث فى مصر الآن ، ومشروع السد ، مشروع ضخم وهائل ، يكاد يشبه المعجزات ، ولذا فان الحديث عنه يجب أن يحتل فصلا خاصا من هذا الكتاب .

ويقول الميثاق ان « الانـ ان العربى قد استعاد حقه فى صنع حياته بالثورة ، وانه هو الذى سيقرر بنفسه مصير امته على الحقول المخصبة وفى المصانع الضخمة ، ومن فوق السدود العالية ، وبالطاقات الهائلة المتفجرة بالقوى المحركة » ، وهو يؤكد ان « معركة الانتاج هى التحدى الحقيقى ، الذى سوف يثبت فيه الانسان العربى مكانه الذى يستحقه تحت الشمس » .

ويواجه الميثاق الحقيقة الواقعة وهى ان مشكلة التزايد فى عدد السكان هى أخطر العقبات التى تواجه التقدم الاجتماعى والاقتصادى ، ويعالج بمنتهى الشجاعة موضوع تنظيم الاسرة . ويتحدث عن السد العالى فيصوره بانه « رمز ارادة الشعب وتصميمه على صنع الحياة » ، مضيفا انه رمز ارادته فى اتاحة حق الملكية لجموع غفيرة من الفلاحين ، لم تسنح لها هذه الفرصة عبر قرون طويلة ممتدة من الحكم الاقطاعى » .

ويعترف الميثاق بان التامينات ضد الشيخوخة وضد المرض، لابد من توسيع نطاقها ، بحيث تصبح مظلة واقية للذين أدوا دورهم فى النضال الوطنى ، وجاء الوقت الذى يجب ان يضمنوا فيه حقهم فى الراحة المكفولة بالضمان . وهو يصر على ان المرأة لابد ان تتساوى بالرجل ، ولابد « أن تسقط بقايا الاغلال التى تعوق حركتها الحرة ، حتى تستطيع ان تشارك بعمق وايجابية فى صنع الحياة » . اما الأسرة فيرى الميثاق ان جميع اسباب الحماية لابد من توافرها لها .

ويقول الميثاق ان من الواجب ان تكون حرية العقيدة الدينية فى

---

(١) اخطات المؤلفة هنا . فالرقم فى الميثاق وفى قانون الاصلاح الزراعى ، مائة فدان لا مائتان .

(المعرب)

المجتمع الجديد ، مقدسة ، اذ ان الرسالات السماوية كلها ، كانت فى جوهرها ، ثورات انسانية تستهدف تقدم الانسان وسعادته . ولعل من الجدير هنا ان اذكر بان جمال عبد الناصر ، رجل يعلق أهمية ضخمة على ما فى الديانات من قيم روحية ، وانه شخصيا انسان مسلم مؤمن ، يؤدى فروض الصلاة فى أوقاتها .

ويتضمن الميثاق حتما مخططا لبناء المجتمع الاشتراكى التقدمى دون أية ادعاءات أخرى من جانب واضعه . وقد تحقق الكثير ولا سيما فى مجالى الاصلاح الزراعى والتعليم ، وهناك الكثير مازال فى طور التحقيق اذ ان الميثاق يتضمن أسسا وقواعد سيشرع فى العمل على تنفيذها . فهناك الكثير فى الحقل العلمى ، يمكن اداؤه ، ويلح الميثاق على اهميته وضرورته فيقول : « اننا لا نستطيع أن نتقاعس لحظة واحدة عن الدخول منذ الآن فى عصر الذرة . فقد تخلفنا من قبل عن عصر البخار وعن عصر الكهربا . وقد كلفنا هذا التخلف — مع ان ظروف القهر الاستعمارى الرجعى هى التى فرضته علينا — كثيرا ، وما زال يكلفنا الكثير . لكننا مطالبون الآن ، وعصر الذرة يشرق فجره على الدنيا ، بان نبدأ الفجر مع الذين بدءوه » . وهنا يتوقف الميثاق ليقول بشىء كبير من الحزم : « ولكن الطاقة الذرية من أجل الحرب ليست هدفنا ، فالطاقة الذرية فى خدمة الرخاء ، قادرة على أن تصنع المعجزات فى معركة التطوير الوطنى » .

ويتناول الفصل قبل الأخير موضوع الوحدة العربية اللاهبة فهو يقول : « وليست الوحدة العربية صورة دستورية واحدة لا مناص من تطبيقها ، ولكن الوحدة العربية ، طريق طويل ، قد تتعدد عليه الأشكال والمراحل وصولا الى الهدف الأخير ... ان اية وحدة جزئية فى العالم العربى ، تمثل ارادة شعبين أو أكثر من شعوب الأمة العربية ، هى خطوة وحدوية متقدمة ، تقرب من يوم الوحدة الشاملة ، وتمهد لها ، وتمد جذورها فى أعماق الأرض العربية .... ولابد للجمهورية العربية من أن تحرص على الا تصبح طرفا فى المنازعات الحزبية المحلية فى أى بلد عربى ، اذ أن ذلك أمر يضع دعوة الوحدة ومبادئها فى أقل من مكانها الصحيح .

ويؤيد الميثاق جامعة الدول العربية . مع بعض التحفظات التى تتناول الحدود التى تستطيع الجامعة العمل ضمنها اذ يقول : « لهذا فان الجامعة العربية تستحق كل التأييد ، على ألا يكون هناك ، تحت أى طرف

من الظروف ، وهم تحميلها أكثر من طاقتها العملية التى تحددها ظروف قيامها وطبيعته ٠

ويصل الميثاق فى فصله الأخير الى السياسة الخارجية ، ويعرف العالم كله ، فى هذا الصدد ان عدم الانحياز يؤلف المحور الرئيسى فى فلسفة عبد الناصر الحيادية الايجابية ٠ وفى هذا يقول الميثاق : « ان عمل شعبنا من أجل السلام هو الذى سلحه بشعار « عدم الانحياز والحياد الايجابى » ٠ وان ارتفاع هذا الشعار اليوم على قارات كثيرة من العالم ، هو تحية عظيمة لاخلاص شعبنا فى خدمة السلام ٠ ان الدعوة الأولى لأول مؤتمر لدول عدم الانحياز ، هى هذه الدعوة التى صدرت من القاهرة، ولقيت استجابة رائعة لدى الكثير من الشعوب ، كانت فى الوقت نفسه ، تقديرا انسانيا للمنهج الذى سلكناه فى خدمة السلام بعد ايماننا به ، واخلاصنا له » ٠ ويؤكد الميثاق اهمية : « التعاون الدولى من أجل الرخاء المشترك لشعوب العالم ، اذ لم يعد الرخاء المشترك قابلا للتجزئة ، كما انه أصبح فى حاجة الى التعاون الجماعى لتوفيره » ٠

ولا يؤكد الرئيس عبد الناصر أخيرا فى الميثاق ، ايمانه بالوحدة العربية فحسب ، بل ايمانه بالجامعة الافريقية وبالتضامن الافريقى الآسيوى ، بالاضافة الى ايمانه بانتمائه الى الأمم المتحدة وولائه لميثاقها ويقول : « ان شعبنا يعيش ويناضل من أجل المبادىء الانسانية السامية التى كتبتها الشعوب بدمائها فى ميثاق الأمم المتحدة ٠ وان فقرات كثيرة فى هذا الميثاق ، قد كتبت بدماء شعبنا ودماء غيره من الشعوب » ٠

وينتهى الميثاق بالفقرة التالية : « ان شعبنا قد عقد العزم على ان يعيد صنع الحياة على ارضه بالحرية والحق ، بالكفاية والعدل ، بالمحبة والسلام ٠ ان شعبنا يملك من ايمانه بالله ، وايمانه بنفسه ، ما يمكنه من فرض ارادته على الحياة ليصوغها من جديد وفق أمانيه » ٠

هذه هى حقائق « فلسفة الثورة » عند جمال عبد الناصر ، حتى يومنا هذا ، وقد نشرت صحيفة السنداى تايمز اللندنية فى عددها الصادر فى الأول من يوليو عام ١٩٦٢ حديثا جرى للرئيس العربى مع المستر دافيد دين ــ مورجان ، فى سلسلة المقابلات الصحفية التى نشرتها الصحيفة المذكورة ، قال فيه ان الدستور الجديد سيضع أخيرا الأسس « لقيام برلمان منتخب حر الانتخاب على أساس الدوائر الانتخابية » ، مضيفا انه يحمل « عقلا متفتحا للمستقبل » مؤكدا فى الوقت نفسه انه لن

يسمح ، بأية ديكتاتورية مهما كان شكلها » . ولقد أعطى الشعب في الدستور الجديد الحق في انتخاب رئيس جمهوريته اذ انه لا يعتزم كما قال في تصريحه : « أن يظل رئيسا للجمهورية مدى الحياة » .

وقد قدم الرئيس عبد الناصر ، الميثاق الى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية ، فاقره أعضاؤه بالاجماع . كما قدم اليه مشروع القانون المتعلق باقامة الاتحاد الاشتراكي العربي . وانى لأرى لزاما على أن أتحدث بعض الشيء عن المؤتمر الوطني وعن الاتحاد الاشتراكي اذ ان الجماهير في الغرب لا تعرف الا القليل عن نظام الحكم القائم اليوم في مصر .

وقد قسم المؤتمر الوطني للقوى الشعبية ، هذه القوى الى سبع فئات هي الفلاحون والعمال والرأسمالية الوطنية والاتحادات والنقابات المهنية وأساتذة الجامعات والمعاهد العليا وقطاع المرأة . وصدر في السابع والعشرين من يناير عام ١٩٦٢ مرسوم جمهوري يدعو الناخبين الى الذهاب الى صناديق الاقتراع لانتخاب ممثليهم في المؤتمر الوطني . واستمرت عملية الانتخاب بين الخامس والتاسع عشر من فبراير ، وأسفرت عن انتخاب ١٥٠٠ عضو انضم اليهم (٢٥٠) كانوا أعضاء في اللجنة التحضيرية . واجتمعوا لوضع أسس المؤتمر الذى افتتحه الرئيس رسميا في الواحد والعشرين من مايو ، حيث قدم اليه مشروع الميثاق الوطني ، فاقره المؤتمر كما رأينا قبل قليل بالاجماع ، وبمنتهى الحماسة .

وقد طال التفكير في الطريقة المثلى لتوزيع مقاعد المؤتمر الوطني ، وأخيرا تم الاتفاق قبل الانتخابات على النحو التالى : ٣٧٥ (٢٥ في المائة) للفلاحين و٣٠٠ (٢٠ في المائة) للعمال و١٥٠ (١٠ في المائة للرأسمالية الوطنية و ٢٢٥ (١٥ في المائة) للاتحادات والنقابات المهنية و ١٣٥ (٩ في المائة) لأساتذة الجامعات والمعاهد العليا ، و١٠٥ (٧ في المائة) للموظفين و١٠٥ (٧ في المائة) للطلاب و١٠٥ (٧ في المائة) للنساء .

وضمت فئة العمال أعضاء التعاونيات الزراعية والنقابات والاتحادات العمالية وتجمعات العمال الزراعيين الذين يخدمون في القطاع العام . ووزعت مقاعد الاتحادات والنقابات المهنية (٢٢٥) على النحو التالى : ١٦ مقعدا للمحامين و١٠ للصحفيين و١٧ للاطباء و٩ للصيادلة و٨ لاطباء الأسنان و٨ للمهندسين الزراعيين و٨ للاطباء البيطريين و٩ للمهن الفنية و٨ للمهن العلمية و٨٣ للمعلمين و٨ للمحاسبين القانونيين ومراقبي الحسابات . واختارت المرأة المصرية التى اتيح لها حق الاشتراك ممثلاتها لمائة وخمسة مقاعد من عضوات النقابات المهنية . أما الطلاب فشملوا طلبة

المدارس الثانوية والجامعات والمعاهد العليا مع تخصيص (١٢) مقعدا للطلاب الذين يتلقون العلم فى الخارج ٠

وكان من حق كل مواطن جاوز الستة عشر ربيعا ان يقترع ، شريطة الا يكون او تكون المواطنة من الذين فرض عليهم العزل السياسى والا يكونوا من الأعضاء فى الاحزاب السياسية السابقة والمحظورة ، اى الا يكونوا بصورة أخرى من أفراد الطبقة الثرية فى العهد الملكى السابق ٠ لكن هذا الاستثناء لم يوضع على اى حال ليظل سارى المفعول بصورة دائمة ، اذ ان الفرصة ستتاح امام جميع الاشخاص الذين يبدون رغبة صادقة فى الاسهام فى تطوير البنيان الاشتراكى ، فى ان يعودوا الى الحظيرة الاجتماعية للامة ٠ وتقول نشرة اصدرتها دائرة الاستعلامات عن « الاشتراكية العربية فى الجمهورية العربية » فى عام ١٩٦٣ ، ان العزل السياسى لا يعتبر مظهرا خاصا باوضاع مصر وحدها ٠ فقد رات الولايات المتحدة الامريكية على سبيل المثال بعد الحرب الأهلية، ان تحرم الذين اشتركوا فى حركة الانفصال فى ولايات الجنوب من حق الاقتراع او اشغال المناصب الوزارية ٠ وكان هذا الاجراء نتيجة الاحساس بان هؤلاء الناس قد يكونون خطرين من الناحية السياسية ويعرضون كيان الأمة فى مجموعها الى الخطر ٠ ولا ريب فى ان تطبيق هذا الطراز من المنطق هو الذى فرض ضرورة العزل السياسى على بعض الأفراد فى مصر ٠

وقد ظهر من الأرقام التى اوردتها ان تمثيل اعضاء المؤتمر الوطنى شمل جميع قطاعات الحياة القومية فى البلاد ، وهذا هو مفهوم الرئيس عبد الناصر فى الديمقراطية وتفسيره للحكم بانه « حكم الشعب من الشعب والى الشعب » ٠ وهل للديمقراطية من معنى آخر سوى انها حكم الشعب سواء أكان هذا الحكم مباشرا أم عن طريق ممثليه ؟ وتفسير هذا القول ، عمل يكثر فيه الاختلاف ، ولذا فليس من حق الغرب ان يفترض مطلقا ، كما يفترض الآن ، ان الطراز الذى يطبقه للديمقراطية هو الطراز الصحيح والأصيل ، فالنظام الانتخابى الذى نتبعه فى بريطانيا معرض للنقد ، على اعتبار ان حزب العمال قد يحرز أصواتا تفوق فى مجموعها ، ما يحرزه حزب المحافظين ومع ذلك تقوم حكومة محافظة نتيجة الانتخابات لأن مقاعد البرلمان توزع على أساس الدوائر الانتخابية لا على أساس مجموع الأصوات فى البلاد كلها ، وهناك من يقول من الناحية الأخرى ، وهم من مؤيدى التمثيل النسبى ان النظام الذى نتبعه فى ان

لكل انسان صوتا واحدا ، نظام يخلو من العدل ، لأن الأقليات لا تمثل فيه ، وهو قول لا يخلو من المنطق ٠

والهدف من اقامة الاتحاد الاشتراكي العربي ، قيام الاطار اللازم لبناء الحكم الديمقراطي ، أو على حد تعبير الرئيس عبد الناصر « ضمان مبدأ القيادة الجماعية النابعة من الارادة الشعبية » ٠ وقد ذكر الرئيس أيضا ان الاتحاد الاشتراكي هو الشكل المحدد لسلطة الشعب ، وانه يعلو جميع السلطات ٠ وعضوية الاتحاد الاشتراكي مفتوحة لكل مواطن ويكون الأعضاء على نوعين الأعضاء العاملون والأعضاء المنتسبون ٠ وتقدم طلبات العضوية التى تجرى دراستها بحيث يحال بين الأفراد الذين تبثت عليهم في الماضى تهمة الرشوة والاستغلال ، وبين القيام بدور فعلي فى تقرير سياسات الحكم ٠ ويقدر عدد الذين قبلوا فى عضوية الاتحاد الاشتراكى بنحو من خمسة ملايين بينهم ربع مليون امرأة ، انتخبت اربعة آلاف منهن عضوات فى اللجان الأساسية٠ وقد حددت أهدافه بتحقيق الديمقراطية السليمة، ممثلة بالشعب وللشعب ، لتكون الثورة بالشعب فى أسلوبها وللشعب فى غاياتها واهدافها ، وتحقيق الثورة الاشتراكية التى هى ثورة الشعب العامل ، ودفع امكانيات التقدم ثوريا لصالح الجماهير ، وحماية الضمانات التى قررها الميثاق ، ونقل سلطة الدولة الى المجالس المنتخبة تدريجيا (١) ومبدأ القيادة الجماعية هو الهدف على جميع المستويات وقد تم ارساؤه على ارفع مستويات الدولة عن طريق اقامة مجلس الرياســـة والمجلس التنفيذى ٠ (٢) ويكون المجلس الأخير مسئولا أمام المجلس الأول ، وعليه أن يقدم تقارير دورية عن جميع نواحى النشاط الحكومى ٠

فنظام الحكم فى الجمهورية العربية المتحدة نظام لا حزبى ، وهو ديمقراطى من حيث ان المجالس المنتخبة والممثلة للشعب هى مجالس ديمقراطية ٠ وليست ثمة معارضـة منظمة ، ولكن المجال فســـيح للنقد

---

(١) شاءت المؤلفة ان تختصر سرد الأهداف التى حددتها مقدمة قانون الاتحاد الاشتراكى لكفالة الحد الأدنى لتمثيل العمال والفلاحين ودعم التنظيمات التعاونية والنقابية وارساء حق النقد والنقد الذاتى ٠

(٢) وقع تبدل فى التنظيم الذى تشير اليه المؤلفة . فقد حل مجلس الوزراء محل المجلس التنفيذى ، واستعيض عن مجلس الرئاسة بنواب لرئيس الجمهورية ٠

(المعرب)

والنقد الذاتي ، وقد بينت التجربة المصرية فســـاد الأحزاب السياسية وأثرها في تفسيخ الأمة وتبديد طاقاتها . لكن الديمقراطية العربية ليست غربية الطراز ، وليس ثمة ما يدعوهـا الى أن تكون على الطراز الغربي ، فقد اختارت نظام الحــكم فيها على ضوء تجربتهـا لمواجهة المشـــكلات العربية ، وضمنت الحرية في ان تتطور على الخطوط العربية التي تقوم جذورها الروحيــة العميقة في الاســـلام وجذورها السياسية المتأصلة في القومية العربية .

٢ - السد العالى أعظم من الأهرام

ليس السد العالى مجرد مشروع ضخم يثير الدهشة لما فيه من جرأة اذ يمثل أعظم ما حققته الثورة من انجازات مادية فحسب ، بل هو ايضا ، وكما سبق لى أن بينت الرمز القومى العظيم الذى يجسد الاستقلال والتقدم . وهو يمثل الاعتزاز الوطنى فى الحاضر ، والأمل فى المستقبل. ويهدف المشروع العظيم الى تأمين الحياة الجديدة لقرى وادى النيل عن طريق اضافة مليون فدان جديد الى الأراضى المزروعة (١) ، والى خلق القـوة الكهربية الرخيصة اللازمة للصـناعة فى الحاضر نظرا لما تعانيه من متاعب نتيجة تكاليف الفحم المستورد من الخارج . ويؤمن أبناء مصر ايمانا قاطعا بأن السد العالى ، سيرفع من حياتهم جميعا سواء أكانوا من الفلاحين أم من أبناء المدن .

ويسمعهم الزائر يقولون ، بشىء من الحماسة والحب ... اننا فى حاجة الى السد العالى .

وسمعت الشاب الذى رافقنى ابان زيارتى الثانية فى جولتى فى ارجاء السد ، يصرخ بمنتهى الحماسة ، ونحن نطل من عل على الفجوة التى سيحول اليها النهر قائلا ... « انه عمل عظيم لبنى الانسان » .

وكنت أسمع فى كل مكان ، حتى من الرئيس نفسه ، عن السؤال

(١) سيؤدى مشروع السد العالى الى استصلاح مليونى فدان تقريبا من الأرض الصحراوية لا مليون واحد كما تقول المؤلفة .

(المعرب)

... وهو هل رأيت السد العالي ؟ وفي كل سؤال عين الحماسة واللهفة والاهتمام .

وكنت أسمع سؤالا مغايرا أحيانا ، اذ يبادرني احدهم قائلا ... « ما رأيك في السد العالي ؟ » وكأن المفروض في كل انسان أن يكون قد رآه .

وهل هناك رد على مثل هذه اللهفة أكثر من أن يقول المرء ... « رائع ! انه رائع للغاية ! » وهو يعني حقا ما يقوله .

فالسد العالي رائع حقا ، وهو اضخم من ان يستطيع تفهمه الانسان العادي .

وقد أطلق عليه عبد الناصر اسم « مجد الحاضر وأمل الغد » . ولا ريب في ان هذه التسمية تعكس وجهة النظر العامة كلها في موضوع السد بعبارة موجزة مقتضبة .

وقد يكون من الضروري لتفهم حاجة مصر للسد العالي أن نعرف شيئا عن نهر النيل نفسه . وفي وسع من يعرفون الحقائق التي ساوردها ان يتجاهلوها ، أما الذين لا يعرفونها ، فلا بد أن تثير اهتمامهم كما اثارت اهتمامي بالفعل . والحقيقة الأولى عن هذا النهر الذي لعله اطول نهر في العالم ، هي ان فيضانه يدوم كل صيف نحوا من اربعة اشهر ، أي بين يونيو وسبتمبر . وهذا يعني ان الرياح الصيفية المحملة بالأمطار (المونسون) تتساقط مطرا غزيرا عند اصطدامها بجبال الحبشة . فيمتلىء النيل الأزرق ونهر عطبره بالسيول المندفعة من الجبال . لتعلو مياه النيل عند عطبره حيث يلتقي نهر عطبرة بالنيل الأبيض الذي يكون قد التقى بالنيل الأزرق عند الخرطوم . ويرتفع مستوى النيل في مصر العليا الى ما يتردد بين السبعة والعشرين والتسعة والعشرين قدما ، في حين يرتفع مستواه عند الدلتا الى خمسة عشر او سبعة عشر قدما ليس الا . ويعني هذا أيضا ان مياه الفيضان تغمر مناطق واسعة من الأرض في كل عام ، مما يلحق الضرر على حسب تقديرات الحكومة المصرية بنحو من اربعين الف اسرة . ومن الحق أن يقال ان مصر العليا والدلتا معا يعتمدان على هذا الفيضان السنوي في ري الأراضي التي لا تروى من مياه الأمطار ، وان هذا الاعتماد ما زال قائما حتى اليوم ، ومنذ أيام الفراعنة القدامى . ولكن لما كان من العسير التكهن بمدى الفيضان مسبقا فان الري في كل عام ، كان يسير على اسس عفوية ، اذ تكون المياه غزيرة في احد الأعوام

وشحيحة فى العام الذى يليه . وكان لا بد حتى من ايام الفراعنة من ابتكار السدود والقنوات ، وان لم يكن فى وسعها ان تتحكم بالقوة الهـائلة لفيضـــان النيـــل ويروى لنا اميل لودفيج ، عن تلك الأيـام قائلا ... (١) « وكثيرا ما بدت المدن والقرى فى فصل الصيف وكأنها جزر فى وسط مياه منتشرة فى كل مكان ، اذ ان الفيضان قد أحال ارض مصر الضيقة الى بحيرة » .

وتم بناء سد أسوان فى مستهل القرن العشرين ، ثم جرت تعليته فى عام ١٩٣٢ . وكانت هناك سيطرة جزئية على مياه النهر قبل هـذا التاريخ اذا اقام محمد على القناطر الخيرية خارج القاهرة فى بداية الدلتا ، ولكن سيطرة هذه القناطر ، وسيطرة خزان أسوان لم تكونا كاملتين فى اثناء الفيضان ، كما كان الجفاف الظاهرة البارزة فى سنوات كثيرة أخرى. ولو امكن بناء خزان ضخم لتجميع المياه فيه وتخزينها ، فلن تضيع مياه الفيضان بددا فى البحر ، ولن تكون هناك مياه تغمر الأرض دون جدوى بل ومحدثة فيها الاضرار ، مع تعاقب سنوات أخرى من الجفاف .

وعندما كنت فى مصر فى خريف عام ١٩٦٣ ، كانت مياه النيل قد بلغت اعلى مستوى لها ، وكانت قد أغرقت ضفتيه فى مناطق عدة ، وكان فى امكان المرء أن يرى وهو يرتحل جنوبا معاكسا مجرى النيل ، ما احدثه الفيضان الذى لا سيطرة عليه من اضرار بالغة على جانبى النهر وتدفقت مياه الرشح فى القاهرة عبر المجارى فغمرت الشوارع ، واصبح السير متعذرا فى عدد منها باستثناء اســـتعمال الحجارة لقطع الشوارع عليها او الالتفاف مسافات طويلة حول هذه المياه الآسنة . وكان الأطفال فى حوارى المدينة وازقتها يخوضون ويلعبون فى هذه المياه القذرة التى شممت رائحتها ذات يوم بدافع الفضول وانا أتوغل فى بعض الدروب الضيقة التى غمرتها المياه . وتظل الشوارع على هذا الوضع الى ان يبدأ النهر فى الهبوط ، مستغرقا فى ذلك مدة طويلة ، اذ رايت حتى فى شهر نوفمبر بعض الشوارع التى كانت المياه لا تزال تغمرها .

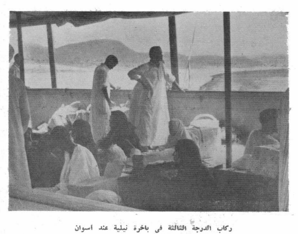
ولكن بعد الانتهاء من بناء السد العالى ، سيصبح فى الامكان وقف الفيضان واختزان المياه والسيطرة عليها ، وتم تحويل النيل الى قنـاة التحويل فى مايو عام ١٩٦٤ ، وكان من المقرر ان ينتهى العمل بهـذا الجزء من المشروع الجبار ، اذا سارت الأمور كلها طبقا للخطة المرسومة

(١) اميل لودفيج فى كتابه « النيل ـ قصة حياة نهر » ـ الطبعة الانجليزية لعام ١٩٣٦ والطبعة الكاملة فى مجلد واحد فى عام ١٩٤٠ .

قبل نهاية العام . ومن المتوقع ان يكون المولد الأول من مجموع المولدات الكهربية الثلاثة قد أكمل بناؤه فى عام ١٩٦٧ ، ولن ينقضى العام الذى يليه حتى يكون الجزء المركزى أو الجزء الرئيسى من السد قد اقيم ، واعدت المولدات الثلاثة الأخرى ليصبح جهاز التوليد كاملا ويعنى هذا رخص الكهربا فى القاهرة ، وتأمين انتاجها لسد متطلبات التطور الصناعى الكامل ، واستغلال الثروة المعدنية فى كل جزء من أجزاء البلاد .

وسيفيد السودان أيضا من السد العالى ، اذ سيحصل على كمية مقررة ومضمونة من الماء ، وقد تم هذا باتفاق عقد بين حكومتى السودان والجمهورية العربية المتحدة ، لضمان « التنسيق فى توزيع المياه التى تعتبر حيوية لحياة كل من البلدين » .

والنيل هو أحسن الأوقات لزيارة السد العالى . فالطقس أكثر برودة كما ان الجو أكثر شاعرية . وقد قمت بزيارتى الأولى فى شهر مارس عام ١٩٦٣ ، حيث كانت الحرارة قد اشتدت وان كانت من النوع الذى لا يطاق كما كانت فى زيارتى الثالثة والأخيرة فى ابريل عام ١٩٦٣ . أما فى زيارتى الثانية ، وكانت فى أكتوبر عام ١٩٦٢ . فكانت اسوان أشبه بالفرن اثناء النهار ، حتى ان الليل كان لا يطاق ايضا . وكانت حرارة الجو فى النهار عالية الى الحد الذى كان فيه من المستحيل أن يمضى المرء فى السيارة وقد فتح زجاج نوافذها ، اذ ان الريح كانت تلهب الوجه وكأنها سياط من النار ، مما يرغم المرء على رفع يديه الى وجهه ليدفع عنه أذاها . ويؤلف موقع السد منطقة صحراوية مرتفعة تضم الرمال والصخور ، لا زرع فيها ولا ضرع ، وانما رهبة شديدة ، وقد عكست كتل الصخور وكثبان الرمال ، الحرارة المتجمعة . وقد شاء الله لهذه المنطقة ان تخلق خالية من الأشجار منذ الأزل ، ولكن عمال السد ، راحوا يزرعون ببسالة اشجارا صغيرة من النوع الصحراوى والنخيل ، حول « البناجل » التى يقيمون فيها والنوادى الخاصة بهم ، كما ان المرء يرى بعض الأزاهير نامية هنا أو هناك وقد أحاطت بعمود أو « بدكة » حجرية عالية ، وقد استهلكت من الماء ما يعلم الله قدره للبقاء حية ومزهرة فى ذلك الجحيم المحرق . وقد أقام مجتمع السد عالما خاصا به وقائما بذاته بين الصخور والجنادل فى تلك الحرارة المرهقة التى لا تعرف الظلال . فهناك طرقات مدنية تنتشر حولها « البناجل » الخشبية ، كما ان ثمة بعض المقاهى التى تنتشر ارصفتها ،



ركاب الدرجة الثالثة في باخرة نيلية عند أسوان

حيث يجلس الرجال ، بجلابيبهم ، على الأرض ، على اضـــواء المشـــاعل ينعمون بالبرودة النسبية وبســـاعات الراحة ، وأمام بنســـاجل الخبراء ونواديهم ، يجلس الرجال بملابسهم الأوربية ، من سراويل قصـــيرة او طويلة ، وفوقها قمصان بيضاء مفتوحة العنق ، وقد اقتعدوا مقاعد عادية ، تلفهم حرارة الليل ، يحتسون أقداحا من الجعة المثلجة • وليس ثمة نساء فى مكان العمل فهم رجال بلا نساء ، لكن هناك نساء فى البيوت ، وزوجات يذهبن مع رجالهن فى الأمسيات الى الفنادق المكيفة الهواء فى اسوان حيث يجلسون جميعا فى ابهائها وحاناتها • ويمضى الى هنـــاك أيضا عدد من الشبان العزاب ، فهم ينتظرون فرصة الليل ، ليخلصوا من حريق النهار ، ولا سيما أن ليس امامهم شيء آخر يعملونه (١) ولكن كثيرين منهم أيضا يظلون فى أماكنهم بعض الأمسيات يجلسون على هذه المقاعد غير المريحة ، وتحت أقدامهم جعتهم المثلجة ؛ وقد ســـخنت من حرارة الطقس •

وعندما تغادر اسوان متجها الى موقع الســـد ، وتبدأ الطريق فى الصعود تمر بمجموعة كبيرة من الأبنية المرتفعة تكاد تؤلف مدينة قائمة بذاتها اذ تضم مالا يقل عن خمسة آلاف انســـان من المهندسين والفنيين وعائلاتهم (٢) • وهناك ناد روسى حديث الطراز يكاد يشبه سفينة كبيرة ساطعة الأنوار •وقال لى سائق السيارة بشيء من الاعتزاز ، كانت هنا فرقة لينينجراد لرقص الباليه قبل فترة قصيرة ، • وهناك حانوت كبير للجمعية التعاونية الاستهلاكية ، حيث تمضى الأسر ، وكثير منها من الروس ، لشراء حاجاتها • وفى هذه الحوانيت كل شيء • ففيها اللحوم والخضار والخبز والسلع المعلبة • وهى تشبه الى حد كبير الحوانيت الأمريكية الحاشدة بالسلع والتى أقامها الأمريكيون لأسرهم فى المانيا فى السنوات التى تلت الحرب •

ويقدر عـــدد الخبراء والفنيين والعمـــال الذى يعملون فى مشروع

---

(١) يبدو ان المؤلفة بأسلوبها الشاعرى الرائع ، قد تناست صور الحياة الاجتماعية التى أمنتها السلطات المسئولة لعمال السد • فهنـــاك بالاضافة الى النوادى الاجتماعية والرياضية والثقافية ، التى يؤمها العاملون فى السد ، عدد من أجهزة التلفزيون الشعبية التى اقامتها الجهات المسئولة للترفيه عنهم •

(٢) خلطت المؤلفة هنا بين مدينتين احداهما مدينة السد ، والثانية مدينة شركة كيما ، وهما متجاورتان وفى الطريق بين اسوان وموقع السد •

(المعرب)

السد بنحو من عشرة آلاف (١) ويستمر العمل آناء الليل واطراف النهار فى ثلاث « دوريات » متعاقبة · وتظهر ضخامة العمل اذا عرفنا الحقيقة الواقعة وهى ان مساحة موقع السد تبلغ خمسين كيلو مترا مربعا تقريبا · والأرقام المالية من الضخامة بحيث تبدو كالرموز على الورق للرجل العادى لاتعنى له شيئا ، ولكن من المعروف ان السد بعد اكماله بمافيه من قوى كهربية سيضاعف الانتاج القومى بشكل عظيم بحيث يصبح فى الامكان تسديد القرض السوفياتى كله فى غضون عامين · وقد قدمت روسيا بالاضافة الى القرض ، الخبراء والآلات والمعدات لكن مهندسا انجليزيا ، زار السد وتحدث الى بعض الشبان فيه ، قال لى بشىء من الانشراح ان الآلات الروسية « كانت اعجز من ان تخرق الصخر ، وانهم اضطروا الى أن يبعثوا الى انجلترا فى طلب المعدات» · (٢)

وكانت الشاحنات الضخمة التى تزن الواحدة منها ثلاثين طنا والتى تشق طريقها عبر التراب من صنع بريطانى · وكان المهندس الذى حدثنى لا يخفى دهشته من نقل هذه السيارات الهائلة من الاسكندرية الى أسوان على الطرق الراهنة · لكن السيارات وصلت على أى حال وهى من النوع الهائل ، ومحملة بالصخور ، لتستريح فى أعقاب عمليات مجهدة تستمر آناء النهار المحرق والليل الذى غدا نهارا من أضواء الكهربا ·

والمقاولون العرب هم الذين يتولون العمل فى السد بالرغم من أن الروس هم الذين يمولونه وهم الذين يزودونه بخبرائهم · وعندما يقترب الزائر بسيارته من أول المشاغل والمستودعات فى موقع السد ، يرى أمامه لوحة كبيرة تحمل اسم المؤسسة وهى « المقاولون العرب لبناء السد العالى » وهو الاسم الذى حملته مؤسسة عثمان أحمد عثمان وشركاه للأعمال الهندسية والانشاءات العامة السابقة والتى كان الأخوان المهندسان عثمان أحمد عثمان ومحمد أحمد عثمان قد أسساها فى عام ١٩٥٠ ·

وعندما يفخر المصريون كما يفخرون فعلا بأن السد العالى يمثل عملا « أعلى من المسلات واعظم من الأهرامات » فى ضخامته وعظمته وروعته،

---

(١) تشير الاحصاءات الرسمية الى ان عدد العاملين فى السد بلغ ثلاثين الفا ، لا عشرة آلاف فقط ·

(٢) لم نسمع بهذه الرواية التى نقلتها الآنسة ميتون عن المهندس البريطانى ، من أى مصدر آخر · ولعلها من النوع الذى يصدر أحيانا عن المرء بصورة لاشعورية لارضاء بعض احاسيسه النابعة من دهشته ·

(المعرب)

فانهم انما يتحـــدثون عن مصر الحية القـائمة ، مصر الجمهورية العربية المتحـدة ، التي وجدت للانســـان العادى ، والتى تعمل على اقامة المجتمع الاشـــتراكي الديمقراطى التعـاونى ، لا عن مصر الفرعونية التى مضت وانقضت بأبنيتها الضخمة المرتفعة وجهودها الهائلة ، والتى مثلت عقيدة تمجيد الملوك الذين انطووا وانتهى امرهم ٠

ويعنى بناء الســـد العالى ولادة اسوان الجديدة ، التى بالرغم من تشييدها للفنادق الجديدة الممتازة لتقبل عدد أكبر من السائحين ، ستكون أكثر من مجرد مركز ســـياحى ، تقوم فيه « اليخوت الطـائرة » حاملة السائحين الى معابد أبى سمبل التى سترفع من اماكنها التى ستغرقها بحيرة ناصر ، الى اماكن جديدة فوق شـــاطىء البحيرة ٠ انها ســتكون المركز الصناعى الناجح للبلاد ٠ فهناك الآن مصنع للأسمدة على الطريق الى موقع السد ٠ وهناك مقاطع للحديد الذى يشحن الى مصانع الحديد والصلب فى حلوان فى الشمال ٠ وهناك مجموعات كبيرة من الأبنية تظهر فى كل شهر فى ضـواحى المدينـة فى الطريق الممتد الى كوم امبو ٠ لكن أيا من هـذه التبدلات لن يقلل من جمال شاطىء المدينة على النهر الذى تغطيه الأشجار٠ والمواجه عبر الجزر العديدة المنتشرة وسط النهر ، التلال الرملية على الجانب الآخر ، وقد انتشرت فوقها الأضرحة التى تشبه المساجد ، وحولها بعض اشجار النخيل ٠ لكن شيئا واحدا سيظل فى اسوان ، وهو سحرها الذى يجمع بين سحر الصحراء وحرارتها وازاهيرها وبين تلك الفنادق الفخمة المكيفة الهواء ، التى يفر اليها الناس عندما تصبح الشمس عمودية فى كبد السماء ٠

٤ - بلاد النوبة

كثيرا ما تسمع الناس يقولون ... « آه بلاد النوبة ! أجل بالطبع، ابو سمبل وكل تلك المعابد التى ثار الضجيج حولها ... » .

ولكن هناك عددا اكبر من المعابد الفرعونية على طول النهر النوبى من معبد ابى سمبل . وفى النوبة اشياء اخرى أكثر من ابى سمبل ، وفى ابى سمبل نفسها اكثر من المعابد والنقوش الحجرية ، اذ على الطرف الآخر من النهر ، حيث لا تصل الباخرة النيلية المريحة التى تقل السياح قرية ابى سمبل نفسها . ولم يكن ثمة داع الى ذهاب الباخرة الى ذلك الجانب . اذ لا شىء عليه الا بيوت القرية المبنية من الطين والا اهلها وحضارتها البدائية .

وقد اهتم العالم بأسره بانقاذ معابد النوبة ، ولكن احدا خارج مصر والسودان لم يكترث بما سيحل بارواح أهل النوبة ومساكنهم واراضيهم وقطعانهم وماشيتهم وأبقارهم ، مع ان هؤلاء النوبيين يعدون بالآلاف . فى النوبة المصرية كان ثمة أربعون قرية تضم نحوا من سبعة وأربعين الفا من السكان . وكان لا بد من نقل هؤلاء جميعا ، وسكان بلاد النوبة السودانية واسكانهم فى اماكن اخرى ، قبل ان تغرق مياه السد العالى المنطقة بأسرها فى عام ١٩٦٦ . وآنذاك لن تظل فوق شواطىء بحيرة ناصر الواسعة أو الى الداخل وراء هذه الشواطىء من بلاد النوبة الا تلك المعابد التى كان فى الامكان انقاذها ، اذ ان النوبة القديمة ستختفى من عالم الوجود .

وكانت بلاد النوبة قبل ان يحدث هذا تمتد على مساحة (٦٠٫٥)

ميلا مربعا من الارض تبدأ عند الشلال الاول على النيل عند اســـوان ، وتنتهي تقريبا في الشلال الســـابع عند الخرطوم حيث يلتقي النيلان الابيض والازرق . ولم يكن لهذه المنطقة حدود واضحة ، وكان يطلق عليهم اسم « التعبير الجغرافي ليس الا » لكن الفراعنة كانوا يسمونها بلاد الكوشي ، واسماها الرومان بلاد الحبشة . وتحدها الصـــحراء الليبية الى الغرب ؛ كما يحدها البحر الاحمر الى الشرق ، ويقع معظمها في منطقة لا تصلها الامطار ، وان كنت قد شهدت فيها مطرا خفيفا دام بضـــــع دقائق ، على شكل زخات قصيرة حادة تندفع فجأة من سماء سوداء الزرقة مخيفة ، وتحملها رياح عنيفة تسوط الوجوه عبر الصـــحراء لتحولها الى عاصفة رملية .

وينتمي النوبيون الى مزيج من الجنســين الســـامي والحامي مع بعض الدم الاسود . وهم على الغالب من رجال ونساء ، طوال القامة ، انيقو القوام ، سود البشرة ، جميلو الصورة . وكانوا قد تحولوا الى النصرانية في اواسط القرن السادس للميلاد ، حيث ظل جزء منهم عليها حتى القرن الرابع عشر عندما اجتاحتها جيوش المماليك من مصر ، وبدا العهد الاسلامي الذي ظل قائما حتى اليوم .

وليس لبلاد النوبة اي وجود اداري مستقل ، فالنوبة المصرية تمتد حتى وادي حلفا على حدود السودان ، حيث تبدأ منطقة النوبة في شمال السودان .

ولم يكن شروعي في الاهتمام ببلاد النوبة نتيجة تلك الضجة التي ثارت حول معابدها بل نتيجة تلك الرسائل التي بدات اتلقاها منذ ربيع عام ١٩٦٣ من صحفية انجليزية تعيش في مصر وتعمل فيها . وكانت قد زارت المنطقة قبل فترة قصيرة ، فاستهوتها طبيعة الصحراء الساحرة فيها ، ومزايا اهلها ، وصورتهم لي على انهم آخر من تبقى على ســـطح هذه الكرة الارضية المعذبة من اقوام ســـعداء وطيبين ، واعربت لي عن فجيعتها لان المياه ستغرق عما قريب بلاد النوبة ، ولان فلاحيها سينقلون الى كوم امبو على مقربة من اســـوان ، حيث تم اســـتصلاح الارض الصحراوية ليفلحوها ، واقيمت قراهم الجديدة ليســـكنوها وقالت انها تعتزم القيام بزيارة اخرى للمنطقة في الخريف لتشهد بنفسها عملية نقل القرية النوبية الاولى ، وراحت تقترح في النهاية ان ارافقها في رحلتها .

وعندما بحثت موضوع الزيارة مع الســفارة العربية في لندن ؛ راح

رجالها يقترحون على الفور أن اكون ضيفة وزارة الثقافة والارشادالقومى فى القاهرة على النحو الذى قمت فيه بزيارة مصر فى العام السابق .

وهكذا توسع موضوع الزيارة من بلاد النوبة الى غيرها ، فهذه المنطقة ليست فى الواقع الا جزءا من الجمهورية العربية المتحدة . وسأرى النوبة القديمة قبل ان تغمرها المياه الى الابد كما ارى النوبة الجديدة فى كوم امبو ، كصورة اخرى من مصر الجديدة .

وتم اعداد كل شىء ، وكنت بعد ظهر احد ايام شهر سبتمبر احتسى قدحا من الشمبانيا على الطائرة العربية وهى على ارتفاع ثلاثين الف قدم ، ولم اكن احلم انذاك اننى بعد اسبوعين اثنين ساشرب مياه النيل غير المكررة ، من النهر مباشرة وقد امتلأت بالطمى .

عنبية العاصمة الادارية :

سافرنا الى اسوان بالقطار . والسفر بالقطار احسن وسيلة لمشاهدة وادى النيل ، ولكنها كانت سفرة طويلة شاقة . وقد استقلينا القطار من القاهرة فى السابعة والنصف صباحا ، ووصلنا الى اسوان قبيل منتصف الليل . وكانت عربة الدرجة الاولى التى استقليناها مكيفة الهواء ، وقد رافقنا فيها السيد على محمد على من ادارة فلسطين فى مصلحة الاستعلامات ، الذى عهد اليه بالعناية بى اثناء وجودى فى الجمهورية العربية المتحدة ، والذى اصبح كما يقول العربى « صديقى واخى » . ولم تكن هناك حاجة لان يرافقنا ولكنه احس ان واجبه يدعوه الى ذلك ، وانى لأقول فى الواقع انه لم يكن سعيدا بهذه المغامرة النوبية واحس بالحاجة الى الاستعانة بالحماية الرسمية ، الى الحد الذى يمكن تأمينها فيه ، وهى حماية لم تكن واسعة .

وظللت ساعات طويلة ارى على جانبى الخط الحديدى المنظر المصرى المألوف ، منظر الرجال والنساء وهم يعملون فى الحقول الفسيحة ، ومنظر مجموعات من اشجار النخيل ، والابقار والجواميس وهى تدير السواقى ، والزراعات وهى تبدو ممتدة حتى الافق البعيد . وسرعان ما رأيت حقول الارز وقد غمرتها المياه ، وحقول الذرة الخضراء ، والارض المحروثة الحمراء ، والغابات الخضراء المرتفعة من قصب السكر ، وحقول القطن وقد ازهرت ازاهيرها البيضاء فوق شجيراتها الصغيرة . فالارز والسكر والقطن والذرة على طول الطريق وعلى طرفى الخط الحديدى ، ساعات طويلة ، وبعدها خط طويل من التلال العربية على

مسافة قصيرة وواحات النخيل . ثم مناطق تغمرهـا ميـاه الفيضان وقد تكونت بحيرات كبيرة من الماء ، تنتشر فيها البيوت المعزولة ، وقد غطت سقوفها اكياس من القش ، بينما ارتفعت شجيرات القطن فوق الماء الذى يسبح فيه الاطفال ، وتعوم فيه الجواميس . ورأيت على قطعة جافة من الارض ، شابا اسمر البنية ، عاريها يجرف الطمى من الاخاديد .

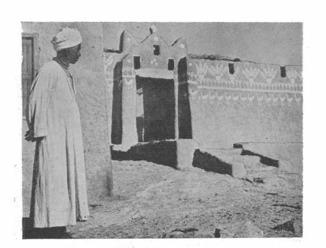
وعندما شارف النهار على الانتهاء اطلت شمس المغيب القرمزية الهائلة على الارض التى تغمرها مياه الفيضان ، وبدت التلال السوداء ، واشجار النخيل السامقة وكانها مناظر يابانية غريبة .

والى الجنوب ، كانت ارصفة المحطات حاشدة بالنوبيين بقاماتهم الفارعة والمشوقة وقد ارتدوا جلابيبهم البيضاء او المخططة ، وقد جاءوا من اسوان او من كوم امبو . حيث يجرى العمل ليلا ونهارا فى بناء القرى الجديدة استعدادا لاستقبال الوافدين من بلاد النوبة ومنطقة السد .

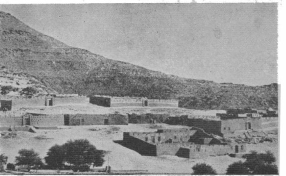
واخيرا وصلنا الى محطة الاقصر الجديدة التى صممت على طراز معبد الكرنك العظيم . اجل وصلنا الى منطقة المعابد ، ولكن الظلام كان قد ارخى سدله ، ولم يعد فى وسعنا ان نرى شيئا ، وكان الخروج الى الرصيف ، لتحريك السيقان التى تجمدت عضلاتها ، يعنى الخروج الى الفرن .

وجلسنا عند منتصف الليل ، فى بهو الفندق الابيض الحديث الذى اقيم فى اسوان بعد زيارتى الاخيرة لها فى العام الماضى ، وعلى مقربة من الفندقالقديم ذى اللون الاحمر كالرمل بحدائقه المجدرة الهابطة نحو النهر ، وقد نعمنا بالهواء المكيف نحتسى اكواب الجعة المثلجة . وكان النذل قد عرض علينا عددا من انواع الجعة الاجنبية وبينها الجعة الانجليزية السوداء ولكننا آثرنا عليها جعة مصر . ومع ذلك فقد احسست بالدهشة من وجود جعتنا السوداء هناك ، فطلبت رؤية زجاجة منها وعندما جاءنى الساقى بواحدة رايت انها من طراز جينيس . واوضحت له انها ليست بالجعة وانها ليست انجليزية وانما تسمى « ستاوت » ، ولكنه نظر الى بشىء من الريبة وارانى ما كتب عليها بوضوح « جعة سوداء من انجلترا » .

وشعرت بالحرارة الخانقة فى غرفة النوم بالرغم من مكيف الهواء .



بيت نوبى



قرية نوبية

وفتحت النافذة على الشرفة لحظات فى هداة الليل وسمعت اصوات « الصراصير » ونقيق الضفادع يقطع هذه الهداة · وبدت سخونة الليل ثقيلة ملموسة وكان في وسع الانسان ان يمسك بها · أما السماء فكانت وضاءة بارقة ، وبدت قريبة منا · أجل اننا قريبون من مدار السرطان · وهذه هى الحقيقة ·

وكانت خطتنا الاولى ان نمضى الى قرية المضيق حيث يعيش عم نوبى تعرفه رفيقتى من القاهرة ، لكن سفينة البريد السودانية التى تمضى فى طريقها مرة فى الاسبوع متوقفة عند جميع القرى كنت ملاى بالركاب . وقررنا بعد طويل جدل ونقاش ان نستقل بعد ظهر ذلك اليوم الباخرة السودانية التى كانت ستغادر اسوان بعد ظهر ذلك اليوم الى أبى سمبل ، وان كنا قد قررنا ان نغادرها قبل ذلك ، اى عند عنيبة ، التى تعرف رفيقتى شيخها · وكان زميل السيد محمد على ، المسئول عن الثقافة فى اسوان يعرف المسئولين عن الامن ، فراح مع السيد محمد على برتبان أمر حمايتنا مع الشرطة ، وان كنا لم نعرف شيئا عن الموضوع آنذاك ·

وسألنا الصحب ، ما هى الأماكن الأخرى فى النوبة التى تودان زيارتها ؟ فحددنا لهم هذه الاماكن . ورحنا نؤكد لهم اكثر من مرة ، بشىء من العنف ، اننا لسنا فى حاجة الى عون · ولكن العنف فى اسوان التى ارتفعت فيها درجة الحرارة الى المائة كان متعذرا ، ولذا فسرعان ما هدأنا .

وصرخ محمد على ··· « ولكن اين ستقيمان فى كل هذه الاماكن » وردت رفيقتى بمرح ··· « هناك دوار العمدة ··· » ·

والعمدة هو رأس القرية او رئيس بلديتها . ولكل قرية عمدتها ، ولكن الحقيقة التى كنا نجهلها ، هى ان القرية النوبية الواحدة قد تمتد خمسة عشر كيلو مترا او عشرين او ثلاثين على طرف الجبل المحاذى للبحيرة ، وان دوار العمدة قد يبعد اميالا عن مرسى الباخرة ، وان الطرق معدومة فى هذه القرى .

وتقرر على اى حال ان نمضى . وعندما ازفت الساعة الثالثة بعد الظهر ، وكانت اسوان اشبه بالفرن ، رحنا بالسيارة عبر الصحراء المحرقة الملأى بالرمال وصخور الجرانيت الى النقطة التى تقلع منها البواخر الآن على مقربة من السد العالى .

ومنيت بخيبة الأمل لانني لم ار جزيرة الفيلة التي تغطي مياه الفيضان معظمها عندما يفتح سد اسوان اى بين شهرى اغسطس وديسمبر ، والتى نقف على مقربة منها . ويعود الجزء القديم من معبدها الى القرن الرابع قبل الميلاد ، اما الاجزاء الباقية فقد بنيت بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن الثانى بعده . وكان هذا المعبد مكرسا فى البداية لعبادة الالهة ايزيس الى ان اصبحت النصرانية الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية . وهناك فى الصحراء العالية وراء ضريح اغاخان عبر النهر من اسوان ، يقوم دير القديس سيمون الذى يعود الى القرن السابع للميلاد ، والذى يعتبر من اضخم الاديرة الباقية منذ تلك الايام فى العالم .

وتبينت ان الباخرة كانت مثلثة الاجزاء ، ففيها الجزء الرئيسى الذى يضم الدرجتين الاولى والثانية وقد امتد قارب فى كل جانب من جانبيها ، بينما كان لها ظهران احدهما فوق الآخر ومظلة لركاب الدرجة الثالثة . وكنت قد استخدمت مثل هذه الباخرة فى نهر ايراوادى فى بورما ، وانا انتقل من مدينة مندلاى فى ولايات شان العليا الى مدينة تيانجو فى اقصى الجنوب .

وليست هناك فى باخرتنا النيلية ولا فى بواخر بورما اية قمرات لركاب الدرجة الثالثة . فالركاب يقعون او يستلقون على ظهرها مع « بقجهم » وصناديقهم وسلالهم واطفالهم وتقبع الماشية فى زاوية من زوايا الظهر المنخفض . ولا يمكن للمرء ان يتصور ما على ظهرها من ازدحام وحرارة واضطراب . ورايت مع الركاب عددا كبيرا من البطيخ يطفئون به ظماهم ، وفى نهاية كل من الظهرين ، براميل ضخمة من الماء يشرب منها النساس وكانت روائح المراحيض تزكم الانوف بالرغم من المطهرات المستعملة فيها .

وهناك ابهاء وقمرات وصالة طعام فى وسط الباخرة . وكان الطعام معقولا ،والجعة مثلجة ، اجل انها صور حضارية ومترفة اذا قورنت بما كنا سنشهده فيما بعد .

ورايت على جانبى النهر ، والباخرة تشق عبابه متجهة الى الجنوب سلاسل لا يحدها البصر من الجبال الصخرية الجرداء لا تبعد اكثر من نصف ميل عن النهر . وقد انتشرت على طول هذه الجبال ، القرى النوبية ببيوتها الداكنة كالجبال . وقد بنيت من الطين ، بينما ازدان بعضها برسوم بسيطة بدائية طليت باللون الابيض على الجدران . وعلى

ضفاف النهر مساحات ضيقة من الارض الخضراء المزروعة ، ومعظمها ملأى بالذرة ، وان كانت ثمة رقع فيها البقول وبعض اشجار النخيل التى انهار قسم منها وذبل من جراء الفيضان السنوى . ولاريب فى ان منظر النخلة الذابلة محزن للغاية ، اذ تتدلى فروعها وقد اصفر لونها بعيدا عن قمتها .

وكنت وانا اتطلع الى هذه المناظر ساعة بعد اخرى ، ادهش وانا اعود بفكرى الى الغد عند ما تغمر المياه جميع هذه الاماكن الماهولة ، والاراضى المزروعة ، والجبال الصحراوية ، والصخور الشاهقة ، لتغور بعيدا فى اعماق البحيرة الهائلة الضخمة التى سيكونها النيل حقا انه شىء لا يكاد يصدقه العقل .

وسيرتفع الماء ببطء عاما بعد عام ، ولن يحل عام ١٩٧٠ حتى تكون قرى النوبة ، المصرية منها والسودانية ، قد غرقت فى الماء ببيوتها ومدارسها ومساجدها ، ومعابدها ، ونقوشها الصخرية وتماثيلها . اذ يتعذر انقاذها كلها ، وستغرق ايضا تلك الجبال الصخرية العالية . وستصبح النوبة الاطلانتيد الجديدة(Atlantis)(١) الارض الضائعة الى الابد .

وقد يكون من العسير على المرء أن يفهم كل هذا ، اذا لم يعش كما عشنا هناك فى بيوت النوبة ، ويدوس تراب قراها باقدامه . لكنه ان فهمه ، احس مثلنا بكثير من الاسى ، لكن هذه التضحية كانت حتمية . انها التضحية بالجزء ليعيش الكل .

ومع اقرارنا بضرورة السد العالى وحتميته ، فاننا لا نستطيع الا أن نحس بسوء طالع النوبيين (٢) . ولا يغير النفع الذى سيصيبهم هم

---

(١) جزيرة اسطورية . يعتقد انها كانت تقع فى الغرب وسط المحيط الاطلسى الراهن . وقد اغرقها الماء وقد ذكرها افلاطون فى كتبه راويا عن صولون ما عرفه عنها وعن وجودها من احد الكهنة المصريين ويقول افلاطون انها غرقت فى البحر قبل تسعة آلاف سنة عقابا لما تميز به اهلها من فسق وفجور .

(٢) اعتقد ان صورة المؤلفة هنا رومانطيقية اكثر من اللزوم . فقد كان اهل النوبة من اكثر الناس فقرا فى العالم . لانعدام الموارد الزراعية وغير الزراعية فى بلادهم . يضاف الى هذا ان الطبيعة الجغرافية لمنطقتهم ما كانت لتساعدهم على العيش فيها . ولذا كان ابناؤها يرحلون الى الشمال طلبا للرزق . واذا ما رغب احدهم فى العودة فى اجازة الى اهله استغرقت سفرته اسبوعين على الاقل ليصل مسقط رأسه . اما اليوم ، فقد أصبحت قراهم الجديدة فى الشمال ، مبنية على أحدث طراز وفيها =

ايضا من واقع الامر شيئا ، وكان سوء الطالع قد بدا يلحق بهم منذ مستهل قرننا الحالى ، عندما بنى سد اسوان الاول فى عام ١٩٠٢ ، اذ اجبروا على الابتعاد عن النهر الذى عاشوا على شطآنه يزرعون أرضها. وعادوا فرجعوا الى الوراء ثانية فى عام ١٩٣٢ ، الى الجبال ، لتجنب الفيضان السنوى من خزان اسوان ، الذى جرت تعليته ، وعادوا فى عامى ١٩٦٣ و ١٩٦٤ ، فنقلوا من اماكنهم من جديد للمرة الثالثة والاخيرة ؛ فقد انتهت النوبة القديمة ، وهم يجدون انفسهم وقد انقطعوا عن الارض التى عاشوا فيها يتوارثونها منذ وعى التاريخ نفسه ، وقد فقدوا بانقطاعهم عنها صلتهم بالارض التى عملوا فيها .

واعدنا ساعتنا الى الوراء ساعة ، اذ بالرغم من اننا كنا لانزال فى مصر ، فقد كنا على باخرة سودانية ، وكان علينا أن نراعى توقيت السودان . وكانت حرارة النهار قد اخذت فى الارتفاع بسرعة هائلة ، وقيل لنا اننا سنصل الى عنيبة فى الثامنة ثم فى العاشرة ثم فى الثانية عشرة . ولم يكن احد يعرف الحقيقة فى الواقع . ولم تختلف مناظر اليوم عن مناظر الامس ، أماكن مزروعة ، وقرى طويلة ممتدة على سفوح الجبال الصخرية ، والزخارف تعلو بعض البيوت . ورأينا قطعانا كبيرة من الاغنام والماعز تهبط الى النهر لتشرب منه . كما رأينا الابقار والجواميس ، ولكن كان من الصعب على المرء ان يتصور كيف تعيش هذه الماشية ، وكانت هناك مساحات كبيرة مزروعة بالذرة والبقول ، ومجموعات من أشجار النخيل ، وان كانت الارض فى مجموعها مساحات صحراوية لا أشجار فيها ، قاحلة ولاهبة ، على طرفها خط اخضر ، يقوم على شاطىء النهر عند القرى الآهلة .

وتحدثت الى نوبى شاب ، يعمل ناظرا للمدرسة ، كان فى طريق عودته الى عنيبة ، فقال ان النوبيين سيفقدون فى حياتهم الجديدة طيبتهم وكرمهم ، نظرا لاختلاطهم بالآخرين ، وانهم لن يحبوا بيوتهم الجديدة لأنها اصغر من بيوتهم القديمة ، ولكنهم سينعمون بالخدمات الصحية والطبية التى لم يكونوا يعرفونها فى قراهم القديمة .

وبدا لى ان ما يقوله من انهم لن يحبوا بيوتهم الجديدة ، امر منطقى فى البداية على الاقل ، ولكننى لم استطع ان اقبل قوله بانهم سيفقدون

---

* جميع الخدمات الصحية والتعليمية • وسيزرعون الارض التى استصلحت لهم لتنتعش احوالهم . كما باتوا عن طريق القطار والسيارات على اتصال بالعالم الذى كانوا معزولين عنه . (المعرب)

طيبتهم وكرمهم ، اذا كانت هذه الطيبة وذلك الكرم اصيلين عندهم . ثم من الذين سيختلطون بهم ؟ ان هذا النوبى الشاب يعود من اجازته التى قضاها فى القاهرة ، فهل يعتبر نفسه قد فسد لأنه اختلط باهلها . ان النوبيين يعتبرون انفسهم منفصلين عن غيرهم ولايتزاوجون معهم ، وقد لايكونون من العرب ، بالرغم من أنهم يتكلمون العربية ولكن بلهجة مختلفة (١) لكنهم مواطنون فى الجمهورية العربية المتحدة ، ولهم ما لغيرهم من الحقوق الاجتماعية والمدنية والسياسية .

ووصلنا اخيرا بعد الظهيرة الى عنيبة ، وكنا الغريبتين الوحيدتين اللتين تهبطان ارضها . وكانت الحرارة قد بلغت حدا لايطاق . ولم نر امامنا مايدل على وجود قرية ، وانما رأينا منحدرا رمليا شديدا يصل النهر ، وهناك فى المرتفع ، أرض صحراوية تنتشر فوقها بعض الأشواك . وكان حشد كبير من الناس قد جاء الى المرسى للقاء الباخرة ، اولاد ورجال فى «جلابيبهم» البيضاء ، واثنان يرتديان ملابس الخاكى ، احدهما فى رتبة «نقيب» ، أما الآخر فعقيد الشرطة نفسه ، وان لم نعرفه فى تلك اللحظة ، فالشرطة فى مصر ، منظمة على غرار الجيش برتبه وألقابه ، وكان وجود هذين الرجلين ثمرة الجهود التى بذلها السيد محمد على فى اسوان . ولوح «النقيب» لنا بيده ، ثم هتف بنا ونحن مازلنا على سطح الباخرة ، وجاء ليحيينا عندما اجتزنا الممر الخشبى الضيق من الباخرة الى الساحل . ورفع احد الناس مظلة فوق راسينا ، ولكن لم يكن ثمة سبيل لدفع الريح الصحراوية الساخنة التى كانت تلسعنا وكأنها سياط من النار .

ووقفنا فى اماكننا أمدا طويلا كنت اتساءل بشىء من القلق عن الزمن الذى يقضيه المرء تحت الشمس قبل ان يصاب بضربتها ، وفجأة رحنا نتعثر فى مشيتنا ، نرتقى المنحدر الى السهل الرملى الحارق الذى يقف فوق رءوسنا .

ولم تكن المسافة التى قطعناها طويلة قبل أن نصل الى استراحة الشرطة ، ولعلها لاتتجاوز نصف الميل ، لكن السير كان شاقا بسبب الخوض فى الرمال ، كما كانت الحرارة شديدة ، بحيث تحرق الارض

---

(١) الرأى الغالب هو ان النوبيين قبائل عربية هاجرت الى مصر منذ آلاف السنين . ونقيم عدة ادلة من علم اللغات واصول الأجناس البشرية البرهان على صحة هذا الرأى . (المعرب) .

نعل الحذاء . مما يحمل المرء على الصراخ . بالاضافة الى الريح المحرقة التى كانت تلسع وجوهنا . ولم يكن الوضع مما يطاق . ولكن كان علينا أن نطيقه اذ لامفر منه . لا من الرمل المحرق تحت أقدامنا ولا من الريح اللاهبة التى تلسع وجوهنا . وكنت أريد أن اذهب الى بلاد النوبة . وهذه هي النوبة .

وظللنا نتعثر بأقدامنا فوق ماحسبته النار . حتى وصلنا الى منزل تقوم أمامه بعض أشجار نلقى ظلالها . لا الى المكان الذى كنا نقف فيه والذى كنت آمل أن تصل الظلال اليه . وانما الى جهة أخرى من الرمل الساعر . وسرعان ما رأيت أمامي بعض الأبنية لعلها مراكز الادارة كما قدرت من اتساعها وضخامتها . فهذه الجحيم الصحراوية المرعبة هي على أى حال العاصمة الادارية لبلاد النوبة . ولم يكن فى وسع المرء أن يميز ازن جدران هذه الابنية وأبوابها عن الرمال التى تلفحها من كل جانب وتوقفنا أخيرا أمام احدى « البناجل » الكبيرة ، وهي الاستراحة .

ودلفنا الى غرفة معتمة تنتشر فيها بعض المقاعد المتواضعة التى تستخدم عادة فى المطابخ وقد انتشرت حول مائدة غطيت بالمشمع . والى جانب هذه الغرفة المطبخ . وحمام صغير فيه حوض صغير . ورشاش . ومرحاض . بالاضافة الى غرفتين للنوم ينفتح باباهما على القاعة وكلها جرداء خالية وخصص لنا سريران من الحديد فى احدى غرفتي النوم . ومعهما مائدة صغيرة عارية ، وخزانة ذات أدراج . وبدت لى الغرفة حقيرة ومعتمة ولكنها كانت مترفة اذا ماقورنت بما كنا سنراه فيما بعد . ففي الغرفة على الاقل ضوء كهربى وفي الحمام رشاش وأدوات صحية . والارض كلها مغطاة بالخشب .

واغتسلنا فور وصولنا واستعدنا بعض نشاطنا . ثم قادونا فى درب رملى ضيق الى منزل قريب . وكان المنزل الى جانب بناء كبير الى حد ما . يضم المدرسة الثانوية الى الشمال وبعض المكاتب الادارية الى اليمين .

أما المنزل فكان مسكن ناظر المدرسة . وقد رحب بنا ترحيبا بالغا. وسرعان ماأبلغنا أنه مسيحى قبطى وان زوجته بروتستانتية . ولم تكن الزوجة تعرف الانجليزية ، ولكنها رحبت بنا بالعربية ، ثم مضت الى الداخل لتأتى لنا بالطعام ، بعد أن أصر زوجها على أن نشاركه اياه . وان كنا قد اعتذرنا عن الطعام من جراء شدة الحر ، وعادت صاحبة المنزل، وقد اعدت على المائدة صفحة ملأى باللحم المطبوخ ، وصفحة أخرى ملأى

بالارز وسلة من الخبز ، وشرائح من البطيخ ٠ واعتذر مضيفنا عن تواضع الوجبة ، معتذرا بصعوبة الحصول على الضروريات في هذا المكان ٠ ورددنا عليه بان الوجبة ممتازة ، ولكن نظرا لعدم تعودنا على مثل هذه الحرارة، فان كل ما نستطيع تناوله هو البطيخ ٠ وشدد صاحب المنزل علينا ، وخشيت ان نتهم بقلة الذوق ، فتناولت قليلا من الارز والحســاء في طبقي ، ولكن هذا اثار المضيفين فكوما الطعام في الطبق محتجين بأن على أن أتناول المزيد ٠ والكرم العربي مخيف احيانا ، وهذا ما قدر لي أن أجربه مرارا وتكرارا فيما بعد .

وعندما انتهينا من طعامنا قادنا مضيفنا معتزا الى الحديقة التي كان يحاول خلقها من الرمال ٠ وكانت الحديقة في الواقع باحة خلفية ، ولكن كان من حسن حظ صاحب المنزل ، أن هذه الباحة تضم شجرة نخيل رائعة في وسطها . ورأيت في جانب منها بعض صفوف الخضراوات المزروعة وهي ترتوي من قناة تنقل المياه القذرة من المنزل . وكان هذا الجهد مثيرا للاشفاق ، اذ أنه سينتهي في غضون شهرين بالرغم من أن عمليات النقل لن تتم قبل شهر مايو القادم ، ولكنه اوضح لي أن عمليات الري والزراعة يجب أن تتوقف في غضون شهرين أو ثلاثة حتى اذ ما حان موعد النقل كان كل شيء قد مات في المنطقة .

ويقوم منزل رئيس الشرطة الكبير امام منزل ناظر المدرسة ، وهو يضم عددا من الاشجار ، بينها النخيل والليمون وبعض الازهار . وكان الآخر بدوره معتزا ، كما علمنا فيما بعد ، بانه خلق حديقة من ارض رملية مجدبة ، ولكنه كان قد ارتضى نصيبه ايضا بانها مقضي عليها بالزوال . وكان جهد الناظر اكثر اهمية ، لانه لم يكن قد وصل الى المنطقة الا منذ شهر تقريبا ، وكان يعرف أن هذه الحديقة التي يجهد نفسه في خلقها لن تعيش أكثر من بضعة شهور ٠ ولم تكن الزوجة قد خرجت من المنزل منذ وصولهما اليه قبل شهر ، اذ لامكان في تلك الصحراء المجدبة تستطيع المضي اليه مع وجود تلك الحرارة اللاهبة . وستكون عملية النقل بالنسبة الى الموظفين المصريين الذين لاتشدهم روابط عاطفية الى النوبة القديمة بمثابة انقاذ لهم ، ففي النوبة الجديدة سيكونون على اتصال على الاقل بحوانيت أسوان وحياتها ، وبالقاهرة أيضا التي لاتبعد عنهم أكثر من ست عشرة ساعة بالقطار .

وكانت هناك حوانيت في عنيبة ، ولكنها لاتعدو في الواقع أخصاصا من القصب ، فيها السجائر والصابون والدبابيس واغطية الرأس القطنية ٠ ورأيت في البلدة قهوة ، ولـــكنها عش آخر من القصب انتشرت خارجه

المقاعد الخشبية الطويلة (الدكك) والكراسى ، حيث يجلس الرجال فى شبه دائرة يحيط بهم الغبار وبعض الاشجار ٠

ورأيت بعض الرجال فى حقل فى اسفل المنحدر على طرف النيل يقطعون محصول الذرة التى ارتفعت سيقانها اربعة اقدام ، فهو المحصول الأخير قبل ان تغمر مياه السد المنطقة كلها الى الابد ٠ وعندما اقتربنا من الحقل ، توقف الرجال عن العمل ، واخذوا يتطلعون الينا ، وقد علت وجوههم الدهشة ، ولما وصلنا لاحت الابتسامات على الشفاه ومد الجميع ايديهم السوداء لمصافحتنا ٠ وتحلق حولنا الاطفال الصغار الذين تبعونا من البلدة ، وهم يتفرسون فينا بنظرات تجمع بين الاحترام والتسلية ، لمرآنا الذى يثير الدهشة ٠ ورأيت طفلة صغيرة فى العاشرة من عمرها ، تحمل رضيعا يتعلق بذراعيها الصغيرين ، والذباب ينتشر حول عيون الاطفال المصابة بالتقرحات والرمد ٠ وخجلت الفتيات الصغيرات من تصويرهن ، ففررن على الفور ، أما الاولاد فقد اقتربوا منا ، وقد استهواهم منظر آلة التصوير ٠

وكنا على وشك الصعود ثانية من الشاطىء الى القرية ، عندما رأينا رجلين ، يرتديان الجلابيب ويهرعان مسرعين نحونا فوق الرمال ٠ وعندما وصلا ، كانا يتحدثان بشىء من الجد ، بالعربية ٠ وترجمت لى رفيقتى ما قالاه ٠٠٠٠« هما يقولان انك مطلوبة للتحدث هاتفيا مع اسوان ٠٠٠٠ »

فقلت دهشة ٠٠٠ « هاتف من اسوان بحق السماء ! لاريب فى انه السيد على ، يريد ان يطمئن على راحتنا وحسن استقبالنا ٠٠٠

ــ لو انه اراد ذلك ليس الا ، لكان فى وسع الشرطة ان تخبره ٠ انها مكالمة هاتفية شخصية لك ٠ قد تكون دعوة عاجلة الى القاهرة لتقابلى الرئيس على الفور ! »

وخيل الى ان هذا احتمال بعيد ٠ وظللنا نحدس ونخمن بما ستكون عنيه هذه المحادثة ، ونحن نسرع الخطو عائدتين الى مبنى الشرطة ، مندهشتين من أن يظل هذا المتحدث سواء أكان السيد على أم غيره ، طيلة الوقت منتظرا على الجانب الآخر من الخط حتى نصل اليه ٠ وكان سيرنا بطيئا بالرغم من جميع محاولاتنا للاسراع فى خطونا ٠

وعندما وصلنا الى المبنى ، قادنا الرجلان اللذان وفدا لاستدعائنا ، عبر رواق طويل ، مررنا فيه برجال كانوا يجلسون عاطلين عن كل عمل

على مقاعدهم ، حتى وصلنا الغرفة التى يجلس فيها العقيد وراء مكتبه الكبير ، وقد وقف النقيب الى جواره .

والقيت التحية ، وسألت اذا كان فى امكانى ان اتلقى الحديث الهاتفى فى غرفة العقيد .

ورد العقيد قائلا ... ليست هناك مكالمة هاتفية . ولكننى رايتكما من نافذة مكتبى وانتما تسيران وحيدتين فى الصحراء ، فبعثت بطلبكما ، بحجة المكالمة الهاتفية لأضمن عودتكما . وكان عليكما اذا رغبتما فى السير أن تبلغانى ، لأزودكما بالحراسة الكافية ، فانا مسئول عن سلامتكما .»

وقلت محتجة ... « ولكننا أيها العقيد ، لم نمض الا الى النهر . وقد رايتنا بنفسك من النافذة . فاى ضير قد يصيبنا من ذلك ؟ ان الشاطىء ليس بعيدا ، والناس هنا جميعا فى منتهى اللطف والود » .

ورد العقيد بصرامة ... « ولكننى مسئول عن سلامتكما ، وانا اطيع ما لدى من أوامر ليس الا . فقد نصت التعليمات الواضحة التى تلقيتها من اسوان على العناية بكما ، وكل ما ارجوه ، أن تبلغانى اذا اردتما شيئا لأعد كل شيء لكما » .

وقالت رفيقتى بصرامة مماثلة ... « نرغب غدا فى زيارة صديقى الشيخ . ولا نحتاج الى اى اعداد ، وكل ما فى الامر أننا سنذهب الى هناك » .

وتطلع اليها العقيد بشيء من الاستغراب ثم قال ... ولكن كيف تذهبان اليه ؟

ــ فى وسعنا أن نمشى . ان المكان لايبعد أكثر من ثلاثة كيلو مترات فقد سبق لى أن كنت هناك . وسنمضى فى الصباح الباكر قبل ان تشتد الحرارة .

ــ ساوفد رجلا اليكما مع حمارين فى الساعة السابعة .

ــ لا نريد أن يرافقنا اى من رجال الشرطة !!

وقلت متمتمة ... حقا لا ضرورة لذلك .

وقال النقيب بلهجة تحمل الرجاء ... « اسمعى يا آنسة مانين . أنت ضيفة الحكومة ، ولدينا اوامرنا » .

وعاد العقيد يقول بلهجة فيها الحزم والعزم مع الود ... « اذن فالى السابعة صباحا . أما فى هذا المساء فستتناولان العشاء فى منزلى » .

وهب من مقعده ، يتناول قبعته من مكانهـــا ، ثم قال ... « هيا فلنمض الى هناك » .

وجلسنا فى مكان دائرى صغير فى حديقة منزله ، يحيط بنا سور منخفض . وجاء النقيب معنا ، كما انضمت الينا زوجة العقيد الشـــابة ، وخادمة تحمل طفله صغيرة فى حضنها لا يتجاوز عمرها السنة الواحدة . وكان العقيد ينحنى بين الفينة والفينة ليداعب الطفلة ، تاركا المداعبة بعد ذلك للنقيب الذى يكملها ، وتحدث هذا ، واتضح من حديثه انه يحن الى الاسكندرية مسقط راسه . حيث تعيش زوجته وابنتـــاه . ولم يكن فى وسع الزوجة ان تنضم اليه فى هذا المكان النائى ، لحاجة الفتاتين اليها ، ولذا فقد تحتم عليه أن يعيش عزبا ، وهى حياة لم يجد حاجة للتعبير عن كرهه لها ، اذ رأينا هذا الكره واضحا فى سماته وحركاته . واحسست بشىء من اليأس الذاتى فى نفس هـــذا الشـــاب . فقد حاول الانتقال من المكان ، ولكنه لم يفلح ، وكان قد استنفد جميع أجازاته ، وبات لزاما عليه أن يقضى ثلاثة أشهر أخرى فى هذا المكان ، الذى لا يحوى الا الحر والغبار والفراغ . واحسست حقا بانعطف عليه . ورحت اسأله عن الطريقة التى يقضى فيها أوقاته .

قال بشىء من الابهام ... آه ، هناك تقارير نعدها .

وقلت ... ولكنى يخيل الى أن الجرائم قليلة هنا .

فقال ... لا اهناك لصوص وكثيرا ما يقع ا لنزاع بينهم .

ودهشت من قوله ، فقد ذكرت لى رفيقتى ان رئيس الشرطة السابق فى عنيبة كان قد ذكر لها ابان زيارتها الاخيرة ، أنه قضى سنتين من الخدمة فى المنطقة دون أن تقع جريمة أو سرقة واحدة ثم أضاف قائلا.. « ولو قدر لك أن تنسى حقيبتك أو آلة تصويرك فى أى مكان هنـــا ، فلن يحلم أحد بمسها أو أخذها ، وستجدينها فى المكان الذى خلفتها فيه فى الغد أو بعد شهر أو سنة » .

وقال النقيب ... ونحن نبعث برجالنا متنكرين بملابسهم العادية ليختلطوا بالنوبيين بحيث لايعرف أحد أنهم من مخبرى الشرطة، وسرعان ما نعثر على المجرمين .

وقلت له ··· ولكن ما الذى تفعله اذا لم تكن لديك تقارير تكتبها ؟

ـ ليس ثمة ما يستطيع المرء عمله ·

وكنت أود أن أقول له ان فى وسع الانسان أن يقرأ وأن يكتب الرسائل ، ويستمع الى المذياع ··· ولكننى توقفت فقد خشيت أن يكون اصرارى تدخلا فى أموره الخاصة ·

وكانت الأنوار ساطعة فى مبنى المدرسة الكبير · وأوضح لى الرجلان أن الاولاد يعودون الى الدراسة فى المساء بين السادسة والنصف والثامنة والنصف لبرودة الطقس وقتها بدلا من بعد الظهيرة عندما تكون الدراسة مستحيلة بسبب حرارة الطقس · وهنـــا اربعمائة فتى فى المدرسة من جميع أنحاء النوبة بالاضافة الى آخرين ينتظرون دورهم فى القبول ·

وظللنا فى أماكننـــا حتى ساعة متأخرة ، وحمـــل خادم الينا بعض المرطبات وأقداح الشاى ثم صحاف الطعام · وكان العقيد يتطلع مسرورا الى أشجار الليمون وشجيرات الزهور فى حديقته مكررا القول أن الارض كانت مجدبة عندما جاء اليها ، وانها ستغرق فى المياه بعد فترة قصيرة ، وان زوارق السـائحين التجارية وتكسياتهم المائية الطائرة ، ومراكب صيدهم، ستنسى عباب بحيرة ناصر فى المستقبل فوق هذا البيت العـالى وأشجاره· لكن الموضوع لا يهمه ، فقـد يمتع فى مكانه فى الماضى وما زال متمتعا به فى الحاضر اما الغد فلم يأت بعد · وظل يداعب طفلته ، ويمزح مع زوجه ، ويهمس مع ضيوفه ، وقد بدت عليه علائم الرجل الســـعيد مع أسرته · أما النقيب فكان يجلس منزعجا فى مقعـده ، يعيش مع وحدته · ينتظر الخلاص من سجنه ، وبعد الايام والليالى وكأن لا نهاية لها ·

وجاءنا بعيد الساعة السابعة من صباح اليوم التالى رجل يرتدى جلبابا أبيض ومعه حماران أحدهما يركبه والثانى يقوده · وقلنا له اننا لسنا فى حاجة اليه ، ولـكنه أصر مع ذلك على مرافقتنا ، مهرولا خلفنـا أحيانا ، وسابقا ايانا أحيانا أخرى ، ولكنه ظل معنا على أى حال ·

ورحنا نخوض الرمال فى طريقنا الى القرية التى كانت تبعد عنا نحوا من ثلاثة كيلو مترات · وبالرغم من قصر المسافة ، فقد كانت الرحلة شاقة عبر الرمل الرخو الذى يصعب السير فيه ، اذ كثيرا ما كانت تواجهنـــا الصخور والحصى ، وأحيانا أكوام الشوك والعوسج ، وسرعان ما تبخرت برودة الصباح الاولى مخلفة وراءها القيظ الشديد ·

ومررنا في طريقنا بمقبرة اسلامية حيث رأينا الهياكل البشرية ، ظاهرة من بعد القبور الخفيضة • ومر بنا الرجال يمتطون حميرهم أحيانا وجمالهم احيانا أخرى • ولم يكن ثمة ظل نتقي به ، ولذا فقد بدأ وهج الشمس يحرقنا وغدت الحرارة شيئا لا يطاق • وحين دنونا من القرية ، قابلنا الشيخ يرافقه رجلان آخران وقد امتطوا جميعا حميرهم • وسرعان ما عرفنا انهم كانوا في طريقهم الى المجمع الاداري لقضاء بعض الاعمال • وكان الشيخ رجلا عجوزا ، ذا لحية بيضاء ، وابتسامة دائمة • وتبودلت التحيات بيننا وبينه وبين رفاقه ، ثم ما لبث هؤلاء الرفاق أن قدموا الينا حميرهم لنركبها • ورفضنا بكياسة هذا العرض ، وظللنا جميعا باستثناء حارسنا والشيخ ، نسير على أقدامنا •

وبدت لنا القرية وكأنها تتألف من شارع واحد طويل وعريض ، لا ظل فيه ، تغمره الاتربة ، وتقوم الى جانبيه أسوار طينيــة عالية تضم وراءها الدور وافنيتها • ولم يكن في وسعنا أن نرى شيئا سوى هذا الخط الطويل من الاسوار ، وفي وسطهـا أبواب من الخشب ، تؤدي الى غرف المساكن النوبية التي تطل على افنيتهـا • ولم تكن أسوار هـذه البيوت مزخرفة ، وان كنا قد رأينا بعض صحاف الصيني مزروعة في الطين فوق الابواب وحولها لتعكس الشمس • وكانت هذه الصحاف تبدو للناظر من مسافات بعيدة وكأنها من الاصداف ، مضفية على البيوت منظرا زخرفيا •

ومضينا الى استراحة الشيخ أو مضافته ، فلكل بيت نوبي مضافته الخاصة وهي غرفة واسعة أشبه ما تكون بمخزن الغلال ، وفيها سريران أو ثلاثة لايواء الضيوف • وكانت عوارض السقف المرتفع لهـــذه الغرفة من جذوع النخيل وقد رسمت عليها بعض الرسوم البسيطة باللونين الاحمر والأزرق وكانت الغرفة مفتوحة من طرف فيهـــا ، لتطل على مدخل صغير مربع من الارض الرملية ، وقد حفلت جدرانه بالاطباق، والحصر المنسوجة من سعف النخيل ، وباطباق معلقة في السقف في شبكات ، كانت خيوطها مزخرفة بالأصداف ، وفي أقصى جزء من الغرفة ، صندوق خشبي ضخم عليه نقوش وصور • والى جانبي المدخل سريران عليهما المراتب والوسائد، يدعوان الضيف للاستلقاء والراحة •

وخلعنا أحذيتنا ، واسترحنـا ، واقعى مضيفنا على حصـــيرة قرب المدخل ، حيث جلس حارسنا أيضا ، بعد أن ربط حماره الى السور الخارجي• ودخلت فتاة في مقتبل الشباب تلبس لباسا فضفاضا وطرحة سوداء على رأسها ، تحمل طباقا من ذرة « الفشـار » والتمر ، والخبز البلدي الرقيق وضعتها على مائدة صغيرة بين السريرين ، وراحت تخرج من الطرف الثاني

للحجرة وهى تحمل أقداح الشاى · وبالرغم من اعتراضاتنا الشـــديدة ، ومن قولنا ان شدة الحرارة لا تساعد على الأكل ، واننا لسنا بجائعتين ، فقد أصر مضيفنا على ان نأكل ، وحملت الفتــاة بعض البيض المقلى ، انه الكرم الذى لا يعرف الرحمة ثانية ·

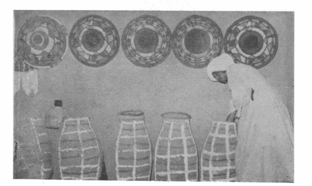
واصر الشيخ على ان نقضى اليوم بطوله والليلة التالية عنده ، بل واصر ان نقضى أياما وليالى عدة ، ملحفا فى اصراره ، لكن الشرطة كانت فى انتظار عودتنا ، وكنت بدورى راغبة فى العودة : ولم استطع ان أتصور كيف سنقضى النهار كله عنده · فهــو لا يعرف الانجليزية ، وان كانت رفيقتى تدبر نفسها فى التحدث اليه بالعربية وانقضت الساعات ونحن على هذا النحو ، وحرارة النهار تشـــتد لحظة بعد اخرى واخيرا تطلعت الى ساعتى ، وقلت ان علينا ان نمضى لمشاهدة القرية لنعود الى مكاننا الاصلى قبل شمس الظهيرة المحرق ·

ولكن الحرارة كانت لا تطاق عندما غادرنا تلك الغرفة الواســـعة ، ومضينا نسير فى شارع القرية ، ودعتنا سيدة كانت تطل براسها من خصاصة أحد الابواب وقد غطت طرحتها السوداء نصف وجههـــا ، الى دخول بيتها ·

وخضنا عبر الرمال الرخوة المحرقة الى الجانب الآخر من الطـــريق وسرعان ما فتحت بابا خشبيا ضخما لندخل الى فضـــاء المدخل الصغير ومنه الى الكهف المعتم الذى يسمى بالغرفة · ورايت امراة تقعى على مقربة من موقد على الارض فى طرف الغرفه تخبز الخبز البلدى ، تضرب العجين بيديها وتصفقه لتنشره على شىء يشبه الجاروف فوق النار · واختلطت اشعة الشمس التى كانت تنفذ من ثقب الجـــدار الطينى الثخـــين مع الدخان المتصاعد من الموقد · ورايت قدرا واسعا وضحلا من الماء عـــلى الأرض فى جانب من الغرفة ، والى جانبه صينية عليها بعض القدور والحلل ورايت فى القدر الماء وكانه قد استعمل فى غسل الأطباق · ولم أتميز فى بادىء الأمر ذلك الكيان المظمى الصغير الذى كان يخطو بضعف متجها الى قدر الماء ، وسرعان ما ادركت انها قطة صغيرة · وكانوا قد ربطوا خيطا حول عنقها · وراحت تجرر اقدامها بصعوبة ووصلت الى قدر الماء القذر ثم تطلعت اليه بشىء من الياس ، وفتحت فمها بمواء لم يسمع صـــوته ثم سقطت على الأرض · وكل ما املت فيه فى تلك اللحظة أن تموت هــــذه المخلوقة التعسة فى اسرع وقت ممكن ·

واحتشدت النساء والاطفال ، لرؤية هاتين الغريبتين ، وقد بانت على الوجوه علائم الفضول المتلهف · وكانت رفيقتى تحاول القاء بعض الضوء

امراة نوبية تصنع الخبز



داخل منزل نوبى ـ جرار الماء

عن طريق المرآة على المرأة السوداء التى تصنع الخبز لتلتقط صـــورتها ٠ واحسست بالشقاء والغضب لرؤية تلك القطة الجائعة ٠ وكان كل همى ان نغادر المكان بسرعة وخرجت من الغرفة الى وهج الشمس المحرق وعثرت على قطعة صغيرة من الظل وراء الجدار ، حيث جلست ، فى حين كان حارسنا يجلس عند طرف الجدار مع حماره منتظرا بفارغ الصبر مضينا عن المكان ٠ ولا ادرى ما حل بالشيخ اذ اننا لم نره بعد خروجنا الى الشـــارع ، وان كان لم يودعنا قبل الخروج ٠

وخرجنا من المنزل اخيرا ، ورحنا نسرع فى الطلوع من القرية باتجاه بعض أشجار النخيل المتفرقة ، لنسير فى طريق وعر نحو احدى الأقنية ، حيث راينا بعض الأجمات الصفراء اللون وبعض الاشجار الشوكية الرفيعة والى جانبها بعض القطع من الارض المزروعة وسرنا مع القناة أمدا طويلا حتى وصلنا الى مشارف المجمع ٠ وقد نلنا قسطا من الراحة بعض الوقت تحت احدى الاشجار ، وذكر لنا حارسنا ان المصابين بالأمراض يؤمون تلك الشجرة ليجلسوا تحتها فيشفون لأنهـا شجرة الشـــفاء ٠ وكانت هذه الشجرة تلقى ظلالا قليلة ولكن بعض الشىء خير من عدمه ، واحسسنا بكثير من الرضا ٠

وعندما عدنا الى المركز الادارى فى المجمع ، حيث زرنا العقـــيد ٠ وقد ابلغنا هذا ان فى وسعنا ان نسافر الى ابى سمبل بعد ظهر ذلك اليوم اذا كنا ما زلنا راغبتين فى الذهاب ٠ وسرعان ما غرق فى حديث طويل بالعربية مع النقيب ، الذى عاد فابلغنا بالانجليزية أننا لا نستطيع الرحيل قبل الغد ٠ وعاد الرجلان الى التحدث بالعربية وراح العقيد يعلن بعد ذلك أن الغداء (اللنش) سيكون جاهزا فى الثانية ٠

ورحت اساله ٠٠ وهل سنتناوله فى الاستراحة ؟

ودهش العقيد من سؤالى وراح يتطلع الى النقيب ٠ وبعد مشاورة استغرقت لحظات قال النقيب بلهجة ناعمة بطيئة يستخدمها الناس عادة فى كل مكان عندما يوجهون حديثهم الى غرباء محدودى الفهم ٠٠ يود العقيد ان تفهما ان الزورق البخارى (اللنش) ، سيكون على أهبة للسفر فى الثانية وعليكما ان تكونا مستعدتين ، وسنرسل من يحملون لكما متاعكما ، كما سنتحدث هاتفيا الى ابى سمبل ليستقبلوكم هناك ٠

وراح العقيد يضيف قائلا ٠٠٠ سيكون الزورق تحت تصرفكما ٠ وفى وسعكما ان تاكلا فيه وان تناما وان تذهبا حيث تشاءان ٠

وقلت .. شكرا ، ولكن هل هو زورق خاص ؟

فرد العقيد ··· انه في خدمتكما ·

وعدنا الى غرفتنا ، واستلقينا متعبتين على سريرينا ، وأخذنا نناقش الاحتمالات كلها · ترى هل وضعوا زورقا بخاريا خاصا تحت تصرفنا ؟ العله زورق حكومي؟ وتذكرت انني وعدت ذات يوم بان اعطى زورقا خاصا في ماندلاي في بورما لاستقله في رحلتي في نهر ايراوادي · ولا ريب في انها فكرة رائعة ان يكون لدينا زورق خاص ننام فيه وناكل ونذهب حيث نشاء · ترى هل أعد لنا العقيد مثل هذه المفاجاة الضخمة ؟

وحزمنا امتعتنا ، ثم رحنا نجتاز الفناء لنودع ناظر المدرسة وزوجته وقد اعرب الرجل عن اسفه لاسراعنا في الرحيل ، واعطانا بعض البطيخ والخيار لنقتات عليه في رحلتنا ، كما أوفد احد الخدم لنقل هديته الثمينة الى الاستراحة التي ننزل فيها ·

وما كدنا نعود اليها حتى جاء الحارس مع حميره فحمل عليها حقائبنا ، وآلة الطباعة ، والبطيخ ، والخيار ، ثم مضينا باتجاه النهر نتعثر في خطانا عبر الرمال المحرقة ، اذ ان الشمس كانت اشبه بالبطارية اللاهبة ·

وبدت الطريق طويلة امامنا ، وسمعنا مرات عدة صوت صـــافرة احدى البواخر ، وتضايقنا ، اذ كان من المسير ان نزيد من سرعتنا على هذه الارض القفر القاسية ، ولا سيما ان احذيتنا كانت تغطس في الرمال · ووصلنا أخـيرا الى النهر ، ووجدنا ، زورقنا الخاص ، انه مركب اسـود مرعب محمل بصفائح الجازولين ، وليس فيه الا طريق ضيقة توصـل الى سطح من الصلب · ولم يكن ، الزورق الخاص ، الا احدى ناقلات الزيت التي تذرع النيل صعودا وهبوطا حاملة الوقود لمحطات الرى · وقد اركب العقيد هذا المركب ، مسافرتين أجنبيتين لتمضيا على ظهره الى ابى سمبل·

وكان البحارة ينتظروننا بفارغ الصبر ، ولم نكد نصعد الى المركب حتى كان يسحب مراسيه مقلعا في مياه النهر · ولم نجد مكانا نجلس عليه على الظهر فهبطنا بضع درجات عمودية الى قمرة صغيرة عارية · وكانت هناك دكة خشبية يستطيع المرء ان يستلقى عليها ، كمـــا كان الذباب منتشرا الى حد مرعب · ووراء القمرة مرحاض مخيف ، ماكدنا نفتح بابه حتى سارعنا الى اغلاقه ، في حين كان صوت آلة المركب داويا ·

وجلست حينا من الزمن على الدكة الخشـــبية ينهشـــنى الذباب ، ويتصبب منى العرق ، وانا ادون بعض الملاحظات · واستلقت رفيقتى على

الطرف الثاني من الدكة وقد اطلت برأسها من فجوة في الجدار ، ترقب المناظر النوبية المتشابهة فنجدها ساحرة رائعة · وبعد لحظات صعدت الى الظهر ، واقترضت سكينا من احد البحارة ، عادت بهـــا لتقطع احدى البطيخات وتقسمها بيننا وبين البحارة ·

وعندما انتهت من عملها ، عادت الى الظهر · حيث لمحت بهـا بعد لحظات لأجدها جالسة في مقـــدم المركب ، بين براميــــــل الزيت تدخن سيجارتها ·

ووقف وراءها احد البحارة ، وقد افترش صحيفة على الارض يؤدي عليها صلاة العصر ·

ومضت ساعات القيظ متباطئة · ورأينـــا صفا طويلا من اشـجار النخيل ، والخط الطويل المتموج من الجبال الصحراوية السوداء ممتدا الى السماء القرمزية ، وفجــــاة خيم الظلام ، وطلعت النجوم التي لا تعد ولا تحصى ·

ابو سمبل :

ولما كنا قد اقتربنا من ابي سمبل في جنح الظلام · لذا لم نستطع رؤية تماثيلها المشهورة ، المحفورة في بطن الصخر ، وان كنا قد رأينـــا اضواء ، سفينة الآثار ، وقد رست الى جوارها · اما قرية ابي ســمبل ، فتقوم على الجانب الآخر من النهر ، تبعد نحو ميل الى الداخل ، بعيدة عن الفيضان ، ولا تبدو منها التماثيل اذ يحجبها النهر والنطاق الكثيف من اشجار النخيل التي تقف بينها وبين الماء ·

ولم نكن نعرف من سيكون في انتظارنا ، اذا كان هناك من سينتظرنا فعلا ، ولكننا رأينا بعض الأشخاص يرتدون الجلابيب البيضاء ، ويحملون المصابيح في ايديهم ، يقفون على الشـــاطيء الذي ندنو منه ، ولا ريب انهم كانوا في انتظارنا · وحمل البحارة متاعنا الى الشاطيء ، وسرعان ما التقطه الآخرون · كانوا ثلاثة او اربعة من الشبان الفارعي العود ، ومعهم غلام ودار حديث بالعربية بينهم وبين البحارة وسرعان مانزلنا الى الشاطيء ·

كان القمر بدرا ، وكان ضوءه كافيا لنرى ان الطريق الذي نسير فيه محاذ لقناة للري ، وان الأشجار العالية التي تحيط بالقناة والطريق المغبر كانت من الكافور والصفصاف · ورأينا بقعـــا من الارض مزروعة بالذرة ، واجمات من الشوك ، وبعض شجيرات الموز ، مع اشجار النخيل منتشرة

في كل مكان تحت نور القمر الساطع الذى غمر كالماء كل ما هنــاك من نبات • وظللنا نتعثر مجهدتين عبر الرمال العميقة وضوء القمر الدافىء • كان كل شيء مرعبا ويثير الارتباك • فهؤلاء الرجال المتشحون بالبياض ، يسيرون صامتين ومعهم المصابيح الجازيه ، وذلك السير الطويل عبر حقول الذرة وغابات النخيل ، لنصل الى ارض قفر من الرمال والحجارة ، حيث يشق السير ، وتتراءى من بعيد الأضواء الخافتة منبعثة من البيوت المبنية من الطين • وضاعف من هذا الاضطراب تلك الموسيقى الخشنة المنبعثة من مذياع فى احدى المقاهى الصــغيرة ، حيث يجلس بعض الناس ، على ضوء مصباح جازى • وكانت القرية تقع على أرض مرتفعة بعض الشيء ، وسرعان ما وصلنا الى شارع ينتشر فيه الغبار ، لنواصل السير فيه عبر منازل من الطين على جانب منه وحقول من الذرة على الجانب الآخر • وظلت الطريق تصعد بلطف ، وقد امتدت امامها غابات النخيل الى جانب النهر ، الذى بات واضحا أمامنا عبر ضباب ضوء القمر •

وصلنا أخيرا الى جدار عال يحيط بفناء واسع ، وخيل الينــــا اننا عند دار العمدة ، وان كانت فى الواقع دار أخيه او ابن عمه ، اذ اننا لم نعرف تماما هوية مضيفنا • ودلفنا عبر باب خشبى ، الى فناء واسع تقف الى جانبه شرفة ذات أعمدة ونقل متاعنا عبر هذه الشرفة الى الغرفة التى راينا فيها مصباحا كبيرا على مقعد ، فى حين ظل مصباح آخر أمام الباب • وعندما عدنا ثانية الى الفناء • راينا رجلا يرتدىجلبابا ابيض عارى الراس يتقدم منا مرحبا بنا بعبارات حارة • وسرعان ما امتلأ الفناء بالرجال الذين يلبســون الملابس البيضاء • فصافحناهم جميعا •

ووجدنا انفسنا نجلس الى دكة على الشرفة الى جانب مائدة • وسرعان ماحملوا الينا الطعام ، وكان مؤلفا من البيض المسلوق والشــاى والخبز البلدى • وظلت الوجوه السوداء الباسمة الصديقة ترقبنا ونحن نتناول طعامنا ، او بينما كنا نحاول تنـــاول الطعام فى الواقع ، اذ لم يكن من المعقول أن تتفتح ، الشهية ، فى مثل هذا الجو من الاضطراب والاجهاد والحرارة المحرقة • وكنا متلهفتين الى الاغراق فى النوم والوحدة • ولكننا كنا محاطتين بالغرباء ، الذين قدموا الينا الطعــــام والمأوى • وكان اقل مانفعله هو ان نقابلهم ببعض ابتســمات والكلمات •

وكان مضيفنا يتحدث بعض الانجليزية • وعندما فرغنا من طعامنا ، راح يسألنا اذا كنا نود لقاء «حريمه» • وكان ردنا اننا سنسعد بذلك • ثم تبعناه عبر الفناء ، لنخرج من الدار فنعبر الشارع الضيق الى البيت المواجه للفناء • ووجدنا امرأة عجوزا تجلس على شرفة تشبه تلك التى غادرناها

تقطف أوراق الملوخية من عيدانها ، لتضعها في حلة ضحلة ، والى جانبها امرأة في ريعان الشباب جميلة الصورة مهندمة اللباس الفضفاض ، وهي تقف متكئة الى العمود ، وقد تعلقت طفلة صغيرة بثوبها ٠ وقد قدمهـا الرجل الينا على انها زوجته ٠ أما العجوز فقـد قدرنا ان تكون والدته او والدتها ، وقد واصلت عملهـا في « ملوخيتها » دون أن تعير وجودنا اي اهتمام ٠ وابتسمت المرأة الشابة ، ووجهت رفيقتي اليها بعض العبارات اللطيفة بالعربية ٠ وأبدينا اعجابنا بالطفلة الحلوة أكثر من مرة ٠ واشار مضيفنا الى بساط نستطيع الجلوس اليه ، ولكننا رجوناه ان يسمح لنا بالانصراف ، مؤكدتين أن الاجهـاد أخذ منا كل ماخذ ، بعد تلك الرحلة الطويلة الشاقة نظرا لحرارة الطقس من عنيبه ، فراح يرافقنا في العودة الى الاستراحة ٠

وكنا قد اتفقنا من قبل على خطة الاستيقاظ في الخامسة من صباح اليوم التالي لنستقل « فلوكة » الى تماثيل ابي سمبل باكرا حيث نستقبل شروق الشمس عندها ٠ ونرى اعماق المعبد والشمس تضيئها قبل ان تغيب عنها لتغرق في ظلمتهـا الدائمة ٠ وجاء مضيفنا « بمراكبي » تم الاتفاق معه على اعداد الرحلة ٠ ولكننا وقد عدنا الآن الى « الدوار » ، كان الاجهاد قد أخذ منـا كل ماخذ ، بحيث قررنا تأجيل هذا الجهـد الجديد ، وطلبنا ارسال من يبلغ المراكبي عدم المجيء في تلك الساعة المبـكرة ٠ وفهم مضيفنا ماطلبناه منه ، ثم مضينا نقول ان الحر لا يطاق داخل البيت واننا نقترح اخراج « المراتب » الى الشرفة لننام في العراء ٠ وبدا مندهشا مما طلبناه ، وقال انه في مثل هذه الحالة لابد أن ينضم الينـــا ، اذ ليس في وسعه أن يسمح لنا بالنوم وحيدتين في العـــراء ٠ واكدنا له أن في وسعنا ان نفعل ذلك ٠ واننا نؤثره على النوم في الداخل وان أي ضير لن يلحق بنا ٠ ولكنه ظل قلقا ، وانقضى وقت طويل قبل ان نتمكن من اقناعه وان كان قد خلفنا متبرما ، وكأنه يحس في قرارة نفسه أنه قد تخلى عنا اي انه قد تخلى عن أجنبيتين غريبتين دون حماية ، مع انهمـا تنزلان في رعايته وضيافته ٠

وفرشنا المراتب وسط الفناء فوق الرمال الرخوة ، واستلقينا عليها وبالرغم مما كنا نحس به من اجهاد فلم يكن من السهل علينا أن ننام ، اذ ان ضوء القمر الحار لم يكن مريحا ، وكانت الكلاب تواصل عواءها القريب والبعيد ، باستمرار وتتابع ، لتتلوها اصـــوات ابن آوى وهي تقترب وتنأى ، يقطعها بين الآونة والأخرى نهيق حمـار ٠ وكانت هناك أصوات البعوض المزعجة وهي تدنو من آذاننا لتلسعنا ٠

ورحت بعـــد فترة وجيزة انبطح على وجهى ، متكئـة على مرفقى ، لأتطلع الى ما حولى ، معودة نفسى على رؤية كل مايحيط بنا من غرائب ، وسرعان ما رايت والدهشة تعرونى حجرا كبيرا يقف وراء الباب المقفل • وتبينت ان شخصا ما قد جاء بمنتهى الهدوء من فوق الجدار • ووضع هذا الحجر ، كاجراء احتياطى يحول دون اى تدخل او تطفل من الخارج ، ثم عاد من حيث أتى دون ان ياتى بحركة • ولم يكن فى وسعى أن اتصـــور كيف حدث هذا مع وجود هذا الجدار العالى ، وان كنت قد أيقنت أنهـا الطريقة الوحيدة لوصـــول هذا الحجر الى مكانه • وبالرغم من أن العملية قد استهدفت حمايتنا فانها كانت مثيرة للاعصاب على اى حال •

ورحت فى اغفاءة لم استيقظ منها الا بصورة مفاجئة ، عندما سمعت صوت الدلو يقذف بالبئر الواقعة فى زاوية من الفناء • وافقت مندهشة لأجد مضيفنا يقف عند البئر • ولم يكن نور القمر ظاهرا آنذاك ، وانما كانت خيوط الفجر التى تســـبق الشروق قد لاحت واضــــاءت المكان • وتطلعت الى ساعتى فوجدت أن عقاربهـا تشير الى الخامسة • ولم تتحرك رفيقتى النائمة الى جوارى والتى غطت نفسهـا بالأغطية البيضاء • وعدت فاستلقيت فى فراشى متظاهرة بالنوم • فقد كنـــا على اى حال قد الفينـا مشروعنا للاستيقاظ فى الخامسة •

ورفع مضيفنا الدلو من البئر ، وافرغ ماءه فى ابريق حمله ، عابرا به الفناء ليضعه على مقربة منا • وسرعان ما اتى بمقعد من الشرفة وضع عليه قدحا مزخرفا بالميناء ، ثم تراجع منسحبـا • ولم تمض لحظـات حتى سمعت صراخا عاليا • فاستدرت لأرى بعض الرؤوس تطل من فوق الجدار وبينها رأس « المراكبى » الذى كانوا قد استـدعوه الى الفنـاء فى الليلة الماضية ولوح بذراعه مشيرا الى أن علينا أن نستيقظ • وانطلقت صيحات أخرى ، قبل ان ييئس هو ورفاقه منسحبين من اماكنهم •

ورأينا أن فى وسعنا ان نستيقظ وان نمضى الى النهر ، اذ أن النهار كان قد طلع ، ودبت حركة الناس فى كل مكان يملئون جرارهم من الآبار ، ويطلون علينا من فوق الجدار • وحملنا فراشنا الى غرفة الاستراحة ووضعنا المرتبتين على السريرين وحاولنا استئناف النوم ، لـــكن الغرفة المظلمة كانت شديدة الحرارة ، ومليئة بالذباب ، ورأينا مضيفنا ، ونحن لانزال نحاول الاستغراق فى النوم ، يدخل الغرفة ، يحمل الشاى على الطريقة الغريبة ، بابريق الشاى واقداحه والحليب والسكر ليضع كل ذلك عـلى مقعد بين السريرين • وبينما كنا لا نزال نرشف الشاى من اقداحنا ،

عاد الرجل يحمل جرة كبيرة ملأى بالماء ، ولها انبوب طويل يكاد يشبه انبوب « ابريق القهوة » ، وقدحا كبيرا ليقول مبتسما راضيا : « هــذا الماء لتغسلا به وجهيكما » . فشكرناه على لطفه ، ولكنه لم ينسحب ، وانما جاء عدد من الرجال يلبسون الجلابيب البيضاء واعتموا بالعمائم ، يبتسمون ابتسامات الود . وقد جلسوا على المقاعد ، يتطلعون الينا ونحن نجلس مشعثي الشعر على سريرينا نحتسي الشاى .

وبدت لنا الغرفة فى ضوء النهار معدمة جرداء ، فالسقف لا تعلوه الرسوم كما فى منزل الشيخ فى عنيبة . وليس ثمة اى شيء على الجدران القائمة ، ولم تكن ارض الغرفة مفروشة بالرمال وانما بالتراب الرخو ، الذى انتشرت فوقه اعقاب السجائر والفراشات الميتة ، ولم يكن فى الغرفة الا ثلاثة سرر احدها غير مستعمل اذ كومت فوقه الوسائد ، والحشيات ، واللحف ، والا بعض المقاعد المتواضعة من النوع المستعمل فى المطابخ .

واحسسنا بالضيق من رؤية جميع هذه العيون تتطلع الينا ، فراحت رفيقتى تقول بالعربية المخلوطة بالانجليزية ، اننا نريد أن نبقى وحدنا لننهض من فراشنا ونغسل وجهينا ونرتدى ثيابنا . وابتسم الحاضرون جميعا ، بشكل ودود وحنوا رءوسهم ولكنهم ظلوا فى اماكنهم .

وتطلعت رفيقتى أخيرا الى مضيفنا ووجهت الحديث اليه قائلة : « نود أن يخرج الجميع من هنا ، فنحن نريد أن نظل وحدنا فترة قصيرة » .

ونهض الرجل من مكانه على الفور وقال : « هناك حمام وفيــه رشاش « للدوش » . وسادلكما عليه .

وقفزنا من سريرنا ووضعنا اخفافنا فى ارجلنا ، ورحنا نتبعه عبر التراب ، ومضى يقودنا الى الشرفة لنمر بها ثم فتح بابا فى نهايتها يؤدى الى غرفة حارة معتمة . ورأينا هنا قدرا ضحلا وكبيرا على الارض وبجانبه جرة ماء . وفى جانب من الغرفة كان هناك بعض حصر القش وقد لفت الى بعضها . وتناول مضيفنا احداها ، ثم فرشها الى جانب القدر وقال « ... هيا اغسلا ... نفسيكما » .

وما كاد ينتهى من حديثه حتى كانت الغرفة قد امتـــلأت بالرجال الذين كانوا معنا فى الغرفة الأولى ، وقد بانت الســــعادة على وجوههم ، وانطلقت الابتســامات معجبة بهذه اللطائف التى امنها صـــاحب البيت لضيفتيه .

وكان الذباب منتشرا فى هذه الغرفة اكثر من انتشـــاره فى تلك

ورأينا عددا كبـــيرا من الفراش يزحف بين الفراشـــات الميتة المنتشرة على الارض ، وكانت الحرارة لاتطاق فيها اذ انها كانت مغلقة ولذا فقد تصبب العرق من ابداننا ٠

وصرخنا باعلى صوتينا ٠٠٠ شكرا ، شكرا ، ولكن اذهبوا ودعونا وحدنا ٠ وفهموا ببطء من كلماتنا واشاراتنا ، اننا نريد أن نظل وحيدتين، فراحوا يخرجون من الغرفة ٠ واغلقنا بابها الخشبي الضخم الذى يشبه ابواب مخازن الغلال ، وراحت الواحدة منا تصـب الماء على رفيقتهـــا بالتناوب ، اذ لم يكن الطـست يتسع لاكثر من واحدة ٠ وجمعت هـــذه الطريقة بين الاستحمام فى الحمام وبين الوقوف تحت المرش ، وكانت مفيدة لنا ٠ وعندما انتهت العملية كنا قد غدونا نظيفتين ، وشعرنا بشىء من البرودة ٠

وخرجنا الى الشرفة ، وجاءت اقداح الشاى من جديد ومعها الخبز البلدى ٠ لكننا لم نستطع الا احتساء شاينا ، وكانت الشمس قد ارتفعت من الافق مع ان الساعة لم تكن قد جاوزت السابعة ، وان كانت الحرارة قد اشتدت للغـــاية وانتشر الذباب فى كل مكان ٠ وكنت احمل معى « مروحة » صغيرة أهديت الى فى طوكيو ، وقد غدت الآن فى بلاد النوبة من اثمن ما املكه ، وبالرغم من انها لم تكن تمنحنى اية برودة ، اذ لا تفيد اية وسيلة مع تلك الحرارة الطاغية فانها كانت تبعد الذباب عنى ٠

ورايت النساء يمضين جيئـــة وذهابا الى البئر ٠ وكن يرتدين ملابس سوداء طويلة لها ذيول يجررنها على التراب ، أما قماشها فشفاف كالنايلون ، يغطى ملابس ملونة مطعمة بالازاهير يرتدينها تحت اللباس الاسود ٠ وكن يتزين جميعا بمقادير وافرة من المجوهرات ، من القلادات الذهبية والمزركشة والاقراط فى الاذان والاساور فى الايدى ، والخلاخيل فى الارجل ٠ وكن جميعا نحيفات القوام ، جميلات الصورة ، بل ان بعضهن كان مفرطا فى الجمال الطبيعى الذى لازخرف فيه ، يتميزن باسنان رائعة البياض وعيون مزججة بالكحل ٠ وكنت ارى عشرا او اثنتى عشرة منهن كل مرة عند البئر ، يقمن بتأمين الماء لعدد من البيـــــوت ٠ وكن يقفن يتحدثن أو يجلسن مقعيات على الأرض عند البئر منتظرات دورهن لملء دلائهن ٠

وكانت البئر مسقوفة فى الوقت الذى ارتفعت الى جانبها عدد من شجيرات النخيل ٠ أما الدلو فينزل الى اعماق البئر بحبل مشدود الى دائرة خشبية ، واذا ما ارتفع من الماء أفرغت النسوة ما فيه فى صفائح من صفائح

الزيت ، يحملنها عندما تمتلىء على رءوسهن · ولم أر الا رجلا واحدا يفد على البئر ، لان حمل الماء من اعمال النسوة · وتقوم كل امراة بعدة رحلات الى البئر لاستيفاء حاجتها منها . بعضها فى الصباح المبكر وبعضها قبل مغيب الشمس ·

وتكون اغطية الراس التى ترتديها النساء ، سوداء موشاة بالذهب او مطرزة بالحرير المتعدد الالوان ، ولا ريب فى ان منظرهن بهذه الملابس ، يضفى عليهن اناقة مذهلة · ولا ترتدى جميع النوبيات هذا اللباس ، بل انه خاص بنساء قرية ابى سمبل · وفى جميع القرى النوبية ، يرتدى جميع الرجال والنساء والاطفال فى اقدامهم ــ اذا لم يكونوا من الحفاة ، اذ كثيرا ما يكونون ــ اخفافا بشبعة من المطاط ، تتعدد الوانها ، اذ منهـــا الازرق والاصفر والقرمزى ، وكثيرا ما تختلط الخلاخيل المطاطية فى سيقان النساء بالخلاخيل الفضية ·

وكان على نساء النوبة القديمة ان يجهدن فى العمل ، اذ ان رجالهن يعملون فى خارج المنطقة ، اما فى اسوان او فى القاهرة ، كســـقاة فى الفنادق والمطاعم وبوابين وسائقى سيارات · ولذا فان معظم العمل فى الحقول يقع على عاتق النساء ، كما يقمن برعاية قطعان الاغنام والماعز ، وملء الدلاء بالماء فى الاصباح والامساء · وتعنى هذه الحقيقـــة ان هاته النسوة يعشن معظم ايام السنة متبتلات الا عندما يعـــود ازواجهن فى الاجازة لقضاء بعض من الوقت · وكثيرا ما يعود الرجال الى اماكن عملهم وقد خلفوا نساءهم حاملات لايلبثن ان يضعن مواليدهن قبل عودة الرجال فى الاجازة التالية · وكنت ارى على وجوه بعض النساء اللائى جاوزن سن الصبا واللائى كن يجلسن امام بيوتهن يقطفن اوراق الملوخية أو يرضعن اطفالهن ، دون الثانية من العمر ، بعض علائم الوحدة ، وكان اعمالهن اليدوية الشاقة ، وانجابهن العدد الكبير من الاطفال قد اجهدهن ، دون ان يجدن فى صحبة ازواجهن القصيرة ما يخفف عنهن عناء هـــذه الحياة القاسية التى يعشنها · ولا ريب فى ان الأمل مركز فى القاهرة الآن على ان تقوم النوبة الجديدة باجتذاب الرجال للعودة الى قراهم الجديدة للعمل واستئناف الحياة العائلية الطبيعية فيها ·

وقررنا ان نمضى بعض الوقت فى جولة فى القرية قبل ان تشتد حرارة الرمل فيصبح المشى متعذرا فى وسط النهار · ورحنـــا نســـير فى الطريق نفسها التى عبرناها فى الليلة الفائتة لنصل الى المقهى حيث

ورأينا الرجال يجلسون فى اشعة الشمس كما كانوا يجلسون فى ضوء القمر فى الليلة الفائتة ٠ ورأيت فى الارض العراء امام المقهى حمارا ذكرا يغازل أتانه مربوطة الى جواره ، فى حين يثير غزله هذا حمارا ثالثا ربط على مقربة منهما ٠ وكان الرجال يرتشفون الشاى فى المقهى وهم يرقبون هذا المنظر ، فليس امامهم شىء آخر يرقبونه الى أن وصـــلنا نحن ٠ وسرعان ما تحول اهتمام الجميع الينا ٠ وكانت الحرارة من النوع الذى لايطاق والذى يخمد اهتمام الانسان بأى شىء ٠

وقطعنا الارض العراء لنرى امامنا دائرة البريد على ربوة ترابيـة خفيضة ٠ وتسلقنا الربوة حتى وصلنا شرفة الدائرة الضيقة ، ووقفنا نرقب شابا نوبيا يرتدى الملابس الفرنجية ، وهو يصرف بعض الاعمال عند النافذة التى يقف امامها ٠

وعندما انتهى الشاب من عمله ، أخذنا دورنا واوضحنا للموظف رغبتنا فى ان نبعث ببرقية لنحجز مكانين لنا فى الباخرة المتجهـــة الى المضيق بعد يومين ، وهو الموعد المقرر لوصولها الى ابى سمبل ٠ ودعانا موظف البريد لدخول مكتبه ، وسرعان ما دخلنا غرفة صـــغيرة يملؤها مكتبان كبيران ، وتعلو جدارها صورة كبيرة للرئيس عبد الناصر ، وقدم لنا الموظف مقعدين جلسنا عليهما لنتناول اقداح الشاى التى جاءت بعد لحظات ٠ وانضم الينا الشاب النوبى وكان يتكلم الانجليزية ، وسرعان ما عرفنا منه انه يعمل فى مصرف فى القاهرة وانه جاء الى النوبة فى اجازة يقضيها مع أهله ٠ وراح يرافقنا عندما غادرنا دائرة البريد ٠

ودخلنا بعض الحوانيت الصغيرة المنتشرة ورأيناها حافلة بالأخفاف البشعة التى مججناها ، وبالقماش والصابون ومختلف الحاجات الاخرى ٠ وكان الناس يدعوننا فى كل مكان لاحتساء القهوة او الشاى ٠ وارتقينا الارض المرتفعة وراء الحوانيت لنصل الى دروب تقوم الجدران الطينية على جانبيها مخفية وراءها افنية ومساكن للناس ٠ ولم تكن هناك طرق معبدة او ممرات ، ورأينا النفايات والذباب فى كل مكان ٠ وبدا لى ان من المؤسف الا يكون الناس قد تعلموا احراق نفاياتهم ، اذ انها المكان المثالى لتفريخ الذباب ٠ لكن الوقت كان قد فات الآن ، اذ ان المياه ستغمر كل شىء هنا ، ولا ريب فى ان الوسائل الصحية فى النوبة الجديدة ستكون افضل من سابقتها ٠٠٠٠

ووصلنا الى مدرسة تقوم ايضا على ربوة عالية ، وراح مرافقنا الشاب الذى تعلم فيها عندما كان صبيا ، يدخلنا اليها ويعرفنـــا على عدد من

المعلمين ، لنعود فندعى الى الجلوس ثانية وتدور اقداح الشـــاى علينا ٠ ورايت كل استاذ يحمل عصـــا قصيرة فى يده ، وعندما علقت على ذلك ناقدة ، رد احدهم وهو يضـــحك ٠٠٠ « اننا لانضرب الطلاب بها بل نخيفهم » ٠

ورايت فى الفناء الذى يقع تحت الشرفة التى كنا نجلس عليهـــا ، معلما وبعض الطلاب يحاولون خلق « حديقة » يخططونهـــا بالزجاجات الفارغة ، التى يزرعونها فى الرمال ٠ وقد قسم الفناء الى حوضـــين ، احاطت الزجاجات بكل منهما من كل جانب ٠ ورايت المعلم وطلابه يعملون بنشاط وحماسة بالرغم من الحرارة اللاهبة ٠ ورايت على الجدار الابيض الذى يقوم الى جانب مدخل الفناء ، صورة فرعونية كان المعلم نفسه قد رسمها ، وكانت جميلة ومزخرفة الى حد كبير ٠

وكانت هذه المدرسة هى المدرسة الابتدائية ، ويتخرج فيهـــا الطلاب اللامعون ليذهبوا الى المدرسة الثانوية فى عنيبة ، او الى تلك التى ستقام فى النوبة الجديدة على مقربة من كوم امبو ٠

وعدنا من المدرسة نهبط باتجاه المقهى ٠ ورأينا على باب حانوت قريب منها جديا مذبوحا وقد علق ليشرع رجل فى سلخ جلده عنه ، فى حين كان رجل آخر يقطع اللحم الى قطع يتراكم عليها الذباب ٠

وجلسنا على دكة خشبية فى المقهى امام مجموعة من الرجال من ذوى الملابس البيضاء الذين كنا قد رايناهم فى المكان نفسه عند مرورنا به قبل مدة ٠ وكان منظر الحمار واتانه لايزال يستهوى شواخصهم ٠

وخرج الاطفال من صبيان وبنات من المدرسة ، وراحـــوا يتحلقون حول الحيوانين ٠ وعندما رات الفتيات هاتين الاجنبيتين ، تحول اهتمامهن الينا ٠ أما العملية الحيوانية فظلت المغناطيس القوى الذى يشد الاولاد ، فى حين تحلقت الفتيات حولنا يتهامسن ويتحدثن ، لتحاول بعضهن الاقتراب منا ولمس ملابسنا باصابعهن ٠ وخرج صاحب المقهى اخيرا من كوخه المظلم يحمل اقداح الليمون التى طلبناها منه ، فراح يصرخ بالطفـــلات اللائى تراجعن خائفات ليقفن على بعد منا ، يواصلن التطلع الينا ٠ وعندما عاد الرجل الى كوخه ، رحن يقتربن ثانية منا ، وكانت الواحـــدة منهن اذا ما حظيت بابتسامة منا ، احست بنشوة غامرة من الفرح والاضطراب ٠ أما الاولاد فظل منظر العملية الحيوانية يستهويهم ، وهم يقهقهون ويصرخون، وتتارجح اجسادهم الصغيرة من الضحك جيئة وذهابا ٠

وسرعان ما انتهى هذا المنظر ، فقد جاء رجل يرتدى جلبابا ابيض، فحل الاتان من مربطها ومضى بها ، وسرعان ايضا ما قمنا نحن من مكاننا فدفعنا ثمن شرابنا لنغادر المقهى ، ويتفرق الاطفال ، ماضين فى طريقهم وقد اثاروا عاصفة من الغبار ، واعلن رفيقنا الشاب انه يعتزم زيارة بعض اقاربه فى الطرف الثانى من القرية فى حين حزمت انا ورفيقتى امرنا على ان نهبط عبر حقول الذرة الى غابات النخيل والنهر ، فلعل الشـاطىء اكثر رطوبة من مكاننا ، ولعلنى استطيع ان ارى التماثيل للمرة الاولى ٠

واذا ما نظر المرء عبر النهر وفى وضح النهار الى هذه التماثيـل الصخرية المنحوتة والمومياوية لرمسيس الثانى المتعطش الى الدماء ، وجد انها لاتثير الكثير من الانطباع ٠ وبعد يوم او يومين ، استيقظنا فى الخامسة صباحا ، وجاء « المراكبى » وقادنا عبر طريق مختصرة بين حقول الذرة الى « فلوكته » ، حيث استخدمناها فى العبور الى الجانب الآخر من النيل ، لنصل قبل الشروق ٠ ولكن بالرغم من وصولنا مع اشـعة الشمس الى المعبد ، فان اشعتها لم تصل الا الى عمود واحد داخل المعبد ، وابلغنـا الدليل الذى فتح لنا الابواب ، ان الشمس لاتضىء تماثيـل الالهة فى الداخل الا فى اواسط شهر اكتوبر ، وهكذا ذهبت الجهود التى بذلناها لرؤية التماثيل ادراج الرياح ، باستثناء نتيجة واحدة حققنـاها وهى الوصول الى هناك والعودة الى مكاننا قبل اشتداد الحرارة وانتشـار الذباب ٠

ولعل الانطباع الاول الذى تخلفه هذه التماثيل فى النفس عندما يقترب منها هو ضخامتها ٠ وقد وصف ريجنالد رينولدز باقتضـاب انطباعه عندما راى الاهرامات بانها «ضخمة للغاية» ، ولا ريب فى ان نحت هذه التمـاثيل من الصخور ، بعد كبنـاء الاهرام مضيعة كبرى للجهد الانسانى ، وهى تتالف من صفين من التماثيل لرمسيس الثانى وهو جالس ارتفاع الواحد منها خمسة وستون قدما ٠ وهناك تماثيل صغيرة للملكة وغيرها من افراد الاسرة المالكة تقع بين اقدام الفرعون فى الاقصر ، وهى ماخوذة بتماثيل رمسيس الثانى ٠ ويتضح من هذا ان تماثيل الملكة تظهر عادة بصورة متواضعة الى جانب الملك الفرعون ٠ ويقوم التمثالان الضخمان للملك وهو على عرشه واللذان يعتبران اضخم التماثيل فى العـالم على جانبى المدخل الى المعبد الذى يتالف من قاعة عالية منحوته الى مسافة ١٨ قدما داخل الصخر الاصم ، مع اربعة اعمدة ارتفاع الواحد منها ثلاثون قدما ، وهناك فى نهاية القاعة وعلى شكل ضريح اربعة آلهة على عروشها

وبينها اله الشمس امون راع ورمسيس نفسه في صـــورة اله · ويزدان الجدران برسوم ملونة · منقوشة على الصخر ، تصور المناظر الدينية ، وبينها صورة تمثل رمسيس الملك يقدم الهدايا والقرابين الى رمسيس الاله ·

وكان تخطيط المعبد بحيث يمثل الاحتفال بالشروق · وهناك صورة الاله الشمس ذي رأس الصقر ، تعلو الباب ، وتتجه الى الشرق ، بحيث تقع أولى أشعة الشمس عند شروقها على آمون راع وعلى رمسيس اللذين يؤلفان الصور الرئيسية في المعبد · وقد أقيم هذا الاثر التاريخي بكل ما فيه في اواسط القرن الثالث عشر للميلاد ، وظل أكثر من الف عام تحت رمال الصحراء الى أن اكتشفه بوركاردتBurchardt (١)العظيم صدفة في عام ١٨١٢ ·

وعلى مسافة قصيرة من المعبد الرئيسي يقـــوم معبد نفرتاري الذي يفصله عن المعبد الأول ،خندق صغير ، وقد خصص لعبادة الالهة هاتور · وقد ازدانت واجهة المعبد بستة تماثيل ضخمة ارتفاع الواحد منها ستة وثلاثون قدما ، لرمسيس وزوجته الملكة نفرتاري ، وقد وقفت هنا على قدم المساواة مع زوجها · ولم يثل هذا المعبد شهرة عند السائحين تضاهي شهرة المعبد الرئيسي المشهور · حيثتقام كشك يوم وصول باخرة الســـياح لبيع البطاقات البريدية عند مدخل المعبد ، وحيث يشـــتغل الكوخان اللذان يبيعان المرطبات ، ببيع اقداح الشــــاي والمشروبات المرطبة للزائرين ، في حين تحوم الكلاب الضالة الهزيلة حول المكان ، مؤملة في طعام تلقاه ·

البلانة :

ومضينا بعد ظهر اليوم نفسه الذي قضيـــنــا فيه بزيارة المعبد عند الشروق ، تستقل الزورق الى قرية البلانة التي تقع على بعد ثمانية اميال الى الجنوب من أبي سمبل · وقد استغرقت رحلتنا اليها خمس ساعات وان كانت رحلة العودة لم تستغرق أكثر من ثلاث ساعات ·

وكان القصد من هذه الرحلة ، نقل طفل مريض الى العيادة · وكان هذا الطفل الذي لم يعد ثمانية عشر شهرا من عمره ، نحل شفيق مضيفنا

---

(١) جون لويس بوركاردت (١٧٨٤ – ١٨١٧) – رحالة انجليزي – سويسري المولد اشترك والده في الثورة الفرنسية · قام برحلات في افريقيا · وقد تنكر في زي مسلم وقضى سنتين في أسنا تعلم اللهجة العربية · زار تدمر ودمشق ولبنان ثم مضى الى القاهرة حيث صعد مع أعالي النيل الى صحراء النوبة · ووضع كتبا عدة منها كتاب « رحلات في بلاد النوبة » · (المعرب)

من زوجته الشابة، اذ كان له ولدان آخران، وكان والده كما فهمنا شريك شقيقه في اضافتنا وبدا لنا الطفل مريضا للغاية ، اذ لم تكن لديه رغبة في الحبو أو اللعب ، وكان يرفض الطعام ، وكل مايريده هو حليب امه ٠

وكانت « الفلوكة » وهي من الطراز نفسه المستخدم في القاهرة وأسوان والأقصر لحمل السـياح ونقلهم في جولاتهم . نشـبه الطراز التقليدي الذي لا ظهر له . والمستعمل في منطقة البحر الابيض المتوسط كلها ، وقد جهزت بمقاعد ووسائد من جميع جوانبها ٠ اما « الفلوكة » التي استخدمناها في عبور النيل من قرية أبي سمبل الى المعبد ، والتي حملتنا في ذلك اليوم الى البلانة ، فكانت مغطاة ، وفيهـا معبر الى غرفة صغيرة ملأى بالحبال والسلال وسائر معدات الملاحة والصراصير ٠ ولم يكن في الغرفة أي مكان للجلوس ، ولذا كان على ركاب « الفلوكة » ان يجلسوا على الظهـر ، بعيدين ما أمكن عن السـارية والدفة ٠ وبدا لنا الشراع الكبير المثلث الزوايا هائلا ٠ وكان المراكبي قد اقام مظلة ممزقة في مقدمة الزورق ، رحنا نستظل تحتها من اشعة شمس الظهيرة المحرقة ، اذ كنا مجموعة من الناس تضم بالاضافة الينا نحن الغريبتان ، الرجل النوبي البدين المتوسط العمر ، والد الطفل ، وزوجته الجميلة الشابة ، والطفل المتعلق بذراعيها والشاب الذي يعمل في مصرف القاهرة ٠ وكان « المراكبي » رجلا نحيل الجسم مقطب الوجه ، ذا لحية كثة ، وقد وقف الى جانب مجداف في حين وقف الى جانبه صبي يعمل مساعدا له ، وقد أرخى حراما من الصوف ليقينا من ريح غير موجوده ٠

ودفع الملاح زورقه ببطء وتراخ الى وسط النهر ، ثم راح يسحب مجدافه الثقيل من الماء ، ويلقي الى جانب الدفة ، ونحن جالسون بلا حراك ننتظر الريح ٠ وخيل الينا أمدا طويلا ، وكاننا بحركتنا البطيئة هذه لن نبعد عن التماثيل ، وراح والد الطفل وقد تعـلم منا الكلمة الانجليزية للشيء الذي نطلبه ، يكرر وبعبارة متواصلة ٠٠٠ « الريح ! الريح ! تعالى أيتها الريح » ٠

وظلت الشمس تلسعنا بتلك الحرارة المخيفة المعروفة عند مـدار السرطان ، في حين ظل الطفل يبكي ويتاوه ، مضفيا الى شقائنا شقاء ٠ وامه تربت على ظهره حاضنة اياه الى صدرها الفتي الاسود كالليل ، في حين تعطيه رشفات من ماء النيل ترفعها في قدح من الصفيح ٠ وكنت حتى تلك اللحظة أرفض شرب ذلك الماء الطافح بالوحل ، اذ أن البطيخ

كان لايزال متوافرا لدينا ، ولم تكن قضية نزح الماء المرعبة التى خبرناها فيما بعد ، قد وقعت بعد .

وشطرنا بطيخة ورحنا نوزعها على الجميع . واخذ الطفل شطيرة منها فى فمه ولكنه ما لبث ان بصقها كما تعود ان يبصق كل شىء يبتلعه باستثناء مياه النيل غير المكررة .

ومررنا ببطء امام التماثيل وغابات النخيل فى ابى سمبل وما لحقها من صخور شـــاهقة وحقول للذرة ، ورأينا عددا كبـــيرا من السواقى ومضخات المياه ، مهجورة ومفككة ، استعدادا لترحيلهـــا الى النوبة الجديدة فى الشمال . وكنا نشاهد بين الفينة والفينة امراة فى ملابسها الفضفاضة تسوق حمارا ، او بعض الاطفال يهرعون الى الطريق الطينى الضيق المجاور للنهر ليلوحوا لنا بأيديهم . وظللنا نصعد مع النيل ببطء ، وقد خمد الشراع الضخم عن الحركة كجمود ركاب « الفلوكة » وملاحيها .

وفجأة اندفع من الســماء الزرقاء الصـــافية صفير حاد أصابنا بالدهشة . فقد اعولت الريح ، وطار « الحرام » الصوفى من يد الصبى ، فى حين امتلأت الأشرعة بالهواء ، واندفع الزورق يمخر عباب النهر . وقفز الملاح من مكانه صارخا ، وامسك الصبى بجنون بحبال تكاد تفلت من يديه ، وشدت الأم رضيعها الى صدرها ، فى حين امسك الوالد اليدين بهما يقيهما من الوقوع عن ظهر المركب متدحرجين كالبطيخة ، وشددت انا ورفيقتى قبضتينا على طرف الزورق . وقفز الملاح من مكانه وقد افلح فى الامساك بقماش الشراع ، فى حين دار هذا حول نفسه دورة كاملة ، وانكمش الصبى فى رعب ، والمـــلاح يصرخ عليه ، ويود لو كانت يداه طليقتين ليضربه . وانهارت المظلة فوق رءوسنا وهى تصـــفق بعنف كالشراع ، وامسكنا بأعمدتها ، وانقذناها من السقوط على ظهر الزورق ، لكن الريح كانت قد مزقت قماشها الذى أتلفته الشمس الى مزق وقطع .

ولكن سرعان ما هدأ العويل فجأة كما جاء ، وعاد المركب يتهادى فى مشيته من جديد ، وان كان قد غذ سيره الآن مدفوعا بنسيم ثابت . وهبت عاصفة اخرى بعد قليل ، وترنحنا فى أماكننا فزعين ، وعادت بى الذاكرة الى سنوات خلت ، عندما كنت أملك زورقا شراعيا ماكان من حق من يجهلون السباحة كما أجهلها ان يغامروا فى الابحار فيه ...

ومضت ساعات بعد الظهيرة الساخنة ببطء ، ورأيت الزراعة النهرية تتكاثف على جانب من النهر ، فى حين ترتفع الصخور على الجانب الآخر ،

مؤلفة قمما عالية تعلو الخرائب ذراعا . وبدت وراء الأكمة التى تغطيها أشجار النخيل العالية البيـــــوت الأولى من قرية البلانة ، وهى مبنية من الطين أيضا ، ورحنا ننســـل نحو الشـــاطىء الذى تعلوه ضـفة ملأى بالأوحال ، يطاردنا كلبان كبيران شرسان ، ظلا يركضان على ضفاف النهر أكثر من ميل كامل .

وشدتنا زورقنا الى مرسى تملأ جنباته شـــجيرات الخروع وبعض النباتات البشعة المنظر ، تحمل فواكه خضراء فارغة ، ورحنا نسير على دكة خشبية ضيقة الى الشاطىء ، لنصعد الى أرض قفر ساخنة تملؤها الرمال التى تتصاعد الى صف من الأكواخ المهدمة التى سرعان ما تبينا فيها حوانيت مشرعة الأبواب ، ومقاهى تواجه عبر قناة ضيقة صفا مشابها من الاكواخ . وكان الماعز يقضم ما أمامه من خضرة الى جانب القناة ، فى حين ربطت الحمير الى ظل ضئيل تضفيه بعض أشجار السنط (الاكاسيا) الهزيلة . ورأينا بعض أشجار النخيل ، وبعض الاطفال الشاردين ، كما شاهدنا رجالا بجلابيبهم البيضاء يجلسون الى موائد صغيرة يحتسون أقداح الشاى .

ودلفنا الى أحد الحوانيت الصغيرة المفتوحة الابواب ، حيث رأينا زجاجات من المرطبات مصفوفة على أرففها القائمة على الجدار الاسود ، وأخذ رجل فى الحانوت على عاتقه اعداد أقداح من عصير الليمون الطازج لنا . واقتعدنا بعض المقاعد خارج الحانوت ، وظللنـــــا ننتظر . ومضى الصبى الى الجانب الآخر من القناة عبر جسر ضيق ، ليبحث لنا عن بعض البطيخ . وكان « المراكبى » قد ظل على « فلوكته » ، أما الزوجان فقد مضيا بطفلهما الى العيادة التى قيل لنا أنها تقوم على قارب مشدود الى الشاطىء . وكنا قد اتفقنا على أن نلحق بهما فى العيادة ، بعد أن نطفىء لظى ظمئنا الساعر .

وكانت البلانة بالرغم من منظرها السيىء المطل على القناة من أنجح القرى ، اذ تنتج كميات كافية من الذرة والفواكه لتصديرها الى أسوان وغيرها فى حين يزاول أيضا صناعة « القلائل » المدرعة بالرصـــــــــاص وسرنا فى طريق تملؤه الاتربة ، عبر حقول من الذرة والفول ، لنعود ثانية الى النهر بعد أن مررنا ببعض البيوت وبمدرسة رأينا أمامها زورقا بخاريا مشدودا له ظهـــران علوى وســـــفلى . وكان هذا الزورق عيادة القرية . ورحنا نهبط الدكة الخشبية ، يرشدنا صراخ الطفل الى المكان الذى ننشده .

ووجـــدنا الأسرة في قمرة الزورق ، مع رجلين يرتديان الملابس البيضاء ، احدهما هو الطبيب المصرى والثانى مساعده · وكان الطبيب قد أعطى الطفل « حقنة » من الفيتامينات . كانت السبب فى عويله الذى لم يهدأ بالرغم من جميع المحاولات التى قامت بهـــا امه ، فى حين كانت الاستعدادات تجرى لتقطير أذنى الوالد ·

ومضينا الى ظهر الزورق العلوى حيث أديرت علينا أقداح الشاى · وسرعان ما انضم الينا الطبيب ، ودار حديث مختلط ، علمنا ابانه من الطبيب أنه جاء من القاهرة قبل ثلاثة أشهر ، وأنه يعيش فى هذا الزورق، وسيظل فيه ثلاثة أشهر أخرى · ورأيت حزمة من أوراق اللعب على مقعد بجوار المائدة ، ففهمت كيف يقتل هذا الطبيب أوقاته فى هذه العزلة التى يعيشها والتى يدير فيها تلك العيادة العائمة فى ذلك المكان النائى ·

وقال الشـــاب الذى رافقنـــا انه ســـيمضى لزيارة بعض اقاربه فى البلانه وانه سيعود الى المركب فى المساء · وعندما سالته مندهشة عما اذا كان يعرف الطبيب ، رد بالسلب ، ولكنه اضاف بانه سيكون سعيدا بمعرفته · وأحسست بانفعال شديد من هذه الدماثة ، وشعرت بأننى مدينة للشاب كثيرا ·

وعندما عدنا الى مركبنا عند المغيب ، جاءوا الينا بكيس ملىء بالبطيخ بنوعيه المخطط والعادى ، وبكيس آخر من الذرة الخضراء ذات السيقان الطويلة ، وان كنت لم أفهم لماذا تنقل الذرة الى أبى سمبل الملآى بها ·

ولم تكن ثمة ريح تدفعنا فى رحلة الاياب ، ولكنها لم تكن مهمة ، اذ اننا كنا نســـير مع مجرى النهر · وظل « المراكبى » المقطب الوجه ، يجلس عند دفته ، لا يتحدث الى انسان ، وانما يتطلع الى الافق البعيد · وكانت حالة الطفل قد تبدلت تماما ، اذ دبت فيه الحيوية والنشاط ، ولم يعد يتطلع الى ثدى أمه · وانما ظل جالسا يلهو مع أبيه · وذكر لنا الوالد أن الطبيب قد افهمه بأن سبب ما كان يحس به الطفل من قلق وافتقار الى «الشهية»؛هو النقص فى «فيتاميناته» · واضاف ان الطبيب أعطاه بعض « الحقن » وان هناك معلما فى مدرســـة القـــرية يحسن اعطاءها ·

ووصلنا الى أبى سمبل حوالى الساعة الثامنة مساء ، ثم رحنا نجتاز غابات النخيل وحقول الذرة ، والارض الرملية الجرداء ، باتجاه القرية ،

لمنصل الى البيت الذى نحل فيه . وجلسنا فى الشرفة بعض الوقت ، ثم مالبثوا أن جاءوا لنا بالشاى والطعام . .

والكرم النوبى كالكرم العربى أمر لا يعرفه الغرب . فبالرغم من أننا غريبتان ، بل واجنبيتان . فقد كان الجميع يستضيفوننا فى كل مكان فى قرى النوبة ، يؤمنون لنا المأوى والمطعم ، ويطلبون الينا البقاء ما طاب لنا ، مقدمين بسخاء كل ما يملكونه من فراخ ولحم ماعز ، و « مكرونة » و « لبن رائب » ، وأكوام من الخبز البلدى ، وبعض الحمام ايضـــا . وليس الخطا خطاهم اذا كنا لم نذق الخضار منذ غادرنا اسوان ، اذ أنهم يفتقرون اليها باستثناء الملوخية . ولكن هذا النقص لم يضرنا فى شىء ، اذ أننا لم نكن ناكل الكثير بالفعل ، وكان غذاؤنا يتالف فى الغالب من الشاى فى الصباح وفى أية ساعات من ساعات النهـــار ، ومن بعض البطيخ اذا ساعدنا الحظ فى العثور عليه .

وكانت الحرارة الشديدة تقضى على كل «شهية» الى الاكل . يضاف الى هذا أن كثرة « البهارات » فى الطعام الذى يقدم الينا بسخاء ، كانت تسبب لنا المتاعب ، ولى بوجـــه خاص . فقد احسست فى أبى سمبل بنوبات من القىء المشفوعة بالألم ، وأصبحت لا اتصـــور شيئا سوى البطيخ . وكانت هناك فاكهة « المانجا » فى القاهرة قبل مغادرتنا لها ، بكل ما فيهامن مذاق رائع وحلاوة تفوق حدود التصور ، الا اننا الآن لم نكن نشتهيها ، ولا نريد الا البطيخ ، والماء ، ولا شىء غير الماء حتى ولو كان من الماء المشوب بالوحل . وانقطعت «شهيتنا» ايضا الى البطيخ ولم تعد نتشهى الا الماء الذى بتنا نشربه باستمرار .

وحلمنا ونحن فى ابى سمبل بالشراب المثلج على ظهر الباخرة الى المضيق ، سواء كان هذا الشراب عصير ليمون ام جعة يحس الانســـــان ببرودتها عنـــدما يلمس زجاجتها . وهكذا ظل هذا الوهم ، يعـــاودنا باستمرار .

وسمعنا فى الليلة التى سبقت ذهـــابنا الى المعبد بعض القرع على الطبول وقد بدأ فى ساعة مبكرة من المســـاء . وكان الناس فى القرية يرقصـــون احتفالا بزواج جديد يوشـــك على الوقوع . وراحت الطبول تقترب منا مع مضى ساعات الليل ، وعندما كانت الساعة قد ازفت على «الثانية صباحا ، قفزنا من سريرينا فى الفناء ، وكان مضيفنا قد أخرجهما الى الفناء ظنا منه بأن مما يخالف الذوق أن ننام على الارض ، وصعدنا على

بعض المقاعد التى استندناها الى الجدار ، لنرى الموكب المقترب · ورأينا الرجال والنساء والاطفال يدنون منا وهم يرقصون فوق الرمال ، يحملون الطبول والمشاعل ، وأصوات النسوة ترتفع فى غناء عال رتيب · وضحك الجميع وهم يرون رأسينا يطلان فوق الجـــدار ، فى حين قفز الرجال لمصافحتنا · ورأينا شابا صبوح الوجه أنيق البزة ، يرتدى جلبـــــابا أبيض فى منتهى الجمال ، يمر عبر الحشد · انه « العريس » · وصافحنا اليد التى امتدت الينا ، فى حين ظل رفاقه يرقصون ويغنون حوله · وعلمنا ان هذا الموكب فى طريقه الى بيت العروس · واقترح «العريس» أن ننضم الى الموكب ، فاعتذرنا بأن المراكبى سيأتى الينا فى الخامسة صباحا ، ولا سيما أن بيت العروس كان نائيا ، اذ يقع فى الطرف الآخر من القرية · وقيل لنا انه يقع هناك على مقربة من دوار العمدة ·

وقررنا فى ليلتنا الأخيرة فى القرية ، وبعـــد مغيب الشمس ، ان نمضى لمشاهدة هذا الدوار · ورحنا نشق طريقنا عبر درب رملية تقوم بين الشجيرات الشوكية ، واشجار الخروع وبعض الاخضرار واشجار النخيل المتفرقة على سفح جبل صخرى مرتفع · وكان الاطفال يتطلعون الينا مندهشين ، فى حين نتلقى التحيات من النسوة · وسرعان ما دعانا رجل باصرار وعناد لدخول بيته · ودلفنا من الباب القائم فى الجدار الى الفناء ، حيث رحبت بنا مجمـــوعة من الصـــبايا ، الرائعات الجمال ، والانيقات بملابسهن الفضفاضة ، ومعهن سيدة عجوز ذات جمال مذهل ، فارعة العود ، مهيبة الطلعة ، ذات تقاطيع رائعة ، ولم تصب الشيخوخة وجهها بأى ضر او اذى · وذكرتنى هذه القروية النوبية العجوز بصورة سيدة ايرلندية ارستقراطية تدعى مودجون فى شيخوختها · وكانت هذه القروية كمود ، فارعة العود منتصبة ، وفى هذا العود الفـــارع كل الجمال والهيبة · وكانت الصبايا جميلات أيضا بعيونهن الحور وانوفهن الدقيقة ، وأسنانهن البيضاء الرائعة ، وابتساماتهن المشرقة ، وبشرتهن التى تشبه الابنوس · لكن جمـــال العجوز بمهابته ، كسف كل جمال الصبا والشباب · وكن يتحلقن كالعادة منــذ أيام التوراة حول البئر ، وقد ارتدين ملابسهن الفضفاضة ، واشتملن بالطرحات على رءوســـــهن ، فى حين كانت قطعان الاغنام والماعز تساق فى طريقها الى الحظائر لقضاء الليل ·· وكلها مناظر تذكرنى بما جاء فى « العهد القديم » ·

ودعينا الى الدخول الى دار الضيافة ، ولكننا رجونا منهم أن نظل فى الهواء الطلق ، حيث الطقس أقل حرارة · وجلسنا على سلم من الحجر

في طرف الفناء ، حيث جاءوا لنا باقداح الليمـــــون • وتركز الحديث حولنا ، فهم يسألوننا عن البــلاد التي جئنا منهـــا ، وعن الاماكن التي زرناها ، وتلك التي نقصـــدها • ورحنا نسألهن عن كــوم امبو ، وعن شعورهن تجاه الانتقال الى بلادهم الجديدة • وكان الرد واحدا ، وهو أن البيوت صغيرة كما سمعن ، وان ليس في المنطقة اية جبال أو ظلال ، ولكنها مشيئة الله ، ولا راد لمشيئته •••

وجاء شقيق مضيفنا ، وهو والد الطفل الذي رافقنا الى البلانه ، الى البيت الذي كنا فيه ، وقال ان متاعنا سيصل على ظهور الحمير ، وسنمضي بعد ذلك الى بيت العمدة ، حيث نمضي لنستقل الباخرة من هناك •

وكان بيت العمدة طويلا ومنخفض السقف ، وهو يواجه ارضا خلاء من الرمال تصل الى يباب من الاشواك والشجيرات تمتد هبوطا حتى غابات النخيل • ووراء البيت يقوم تل صخري يتصل بجبال النوبة ، التي تعكس بصخورها العارية حرارة النهار المخيفة • وكانت السماء قرمزية اللـــون وقــد امتلات بشفق المغيب • ورأينا الرجــال والغلمان يروحون جيئة وذهابا على ظهور حميرهم ، في حين يتقاعس الاطفال في ملاعبهم عن العودة الى بيوتهم برغم هبوط الظلام • وكانت النســوة تمر بنا سائرات الى جانب الجدران الشاحبة ، يجررن ذيولهن الطويلة وراءهن فوق التراب ، وقد ارتفعت الجرار والصفائح الملأى بالماء فوق رءوسهن ، يسرن بسرعة ، منتصبات العود ، بشكل لا تعرفه الا القليلات من سيدات الغرب • وكان منظرهن ومعهن اطفالهن في لحظة الغســـق ، أشــــبه بالفراشات • ويبدو أن المكان لا يظلم أبدا ، اذ لا تكاد الشمس تختفي وراء الافق ، حتى يطل القمر من الافق الثاني ، ناشرا أنواره على عناقيد النخيل ، وعلى الصحراء البعيدة وغابات النخيل وجدران المنـــازل التي تختفي البيوت وراءها •

وخرج بعض الرجال من بيت العمدة عندما اقتربنا منها ، لتحيتنا فقد رأونا من بعيد • وحملت المقاعد وصفت أمام حاجز منخفض يقوم أمام الجدار ، ورحنا ننتظر اياب العمدة من المكان الذي كان قد قصده • ووضعت امامنا مائدة عليها أطباق التمر والذرة ، ثم جاءوا بأقداح القهوة لتتلوها أقداح الشاي •

وعندما جن ظلام المساء ، جاءوا بمصـــابيح قــوية تبعث الحرارة ويرتفع صفيرها ، فوضعوها امامنا على الحاجز ، مؤلفة قوسا من الضوء الذي لا يطاق داخل تلك البركة الكبيرة من خيوط القمر الذهبية ، ومضفية

على المكان حرارة لا تطاق ، تضاف الى تلك التى يعكسها بنيان البيت الطويل . ورأينا شابا مهيب الشكل يمتطى حمـــارا يكاد يبلغ ارتفاع البغل فى ضخامته ، يقترب منا ، وقد ادار جهازا للترانزستور يحمله . وعندما ترجل عن ركوبته ، قفز رجل ليسوق الحمار بعيدا الى مربطه . وحيانا القادم تحية مقتضبة ، ثم مضى بجهازه الى داخل البيت وقد انطلق منه صوت غناء لمطرب مصرى مشهور يغنى احدى اغنيات الحب .

ولم يكن الشاب هو العمدة او نجله ، كما لم يكن ثمة داع لبقائه معنا الى ان يعود العمدة . وجلسنا فى دفء ضـوء القمر ،وبدات أحس بشىء من الاجهاد والاعياء ، اذ غدوت تواقه الى الهبوط الى النهر ، حيث كنت أتصور وجود بعض النسمات ، وحيث لن يكون هناك صوت هذه المصابيح المزعج ، ولا حرارة النهار القاتلة تعكسها جدران هذا البيت الذى نجلس الى جواره .

وجاء العمدة أخيرا بقامته النحيلة القصـــيرة ، وكان يرتدى جلبابا وعمة ناصعى البياض ، وقد سار بخطى سريعة قادما من اتجاه النهر والى جانبيه لفيف من الرجال بجلابيبهم الداكنة اللون . وقدمنا الى العمدة ، فحيانا بشىء من المهابة الوقور . وجاءوا بمقاعد أخرى ، وأديرت أقداح الشاى من جديد ، لتتلوها أقداح القهوة الحلوة العادية . وجرى الحديث بالعربية طبعا ، فشعرت بالحســرية فى ان اتطلع الى النجوم الطالعة وان أصغى الى هدير الباخرة وهى تقترب فى وســـط النهر . انها الباخرة الغالية التى ننتظرها ، والتى نتوقع ان نجد على ظهرها طعاما نأكله ، وجعة مثلجة نحتسيها ونلمس برودتها على اطراف زجاجاتها الباردة ..

وسمعنا الصوت الذى كنا نتلهف على سماعه ، ينطلق صافرا بلحن فيه شىء من الحزن ينادينا ، للتوجه الى الباخرة ، ورحنا نقطع الارض الرملية الماثلة امامنا لنصــــل الى غابات النخيل ، متعثرين فوق الحصى والحجارة واشواك الصحراء ونباتاتها ، تعوق المصابيح المشتعلة سيرنا بدلا من هدايتنا سواء السبيل .

وبدت لنا الطريق عبر النخيل طويلة لا نهـاية لها ، وفجاة وجدنا أنفسنا امام النهر ومعنا حشد كبير من الناس والحيوانات . وبينما ربطت الحمير بين الحشائش والأشواك المحاذية للطريق . كان الناس يجلسون وقد حملوا أربطتهم من المتاع ، الى جانب الحاجز الذى يقف فوق الطريق المؤدية الى الارض الطينية المجاورة للماء . وكانت هناك شجرة شوكية غمرها الضوء من مصباح وضع فوقها ، وقد ظهـــرت ازهارها الشبيهة

بازهار الميموزا ، مضيئة براقة . وكانت هناك مجموعة كبيرة من الرزم والسلال والصناديق ، كما كان نهيق الحمير مستمرا ، واصوات مختلطة ببعضها ، والناس الذين يتشحون بالبياض يمرون جيئة وذهابا . وكان ثمة عدد من النسوة بملابسهن السوداء ، وقد وقفن او أقعين فى حلقات صغيرة تخفيهن الظلال . وكان من السهل عليهن أن يبقين بلا حراك . اذ انهن لم يكن على وشك الرحيل .

وعندما اطلت الباخرة بعد فترة طويلة علينا قادمة من وادى حلفا على الحدود السودانية ، ارتفع الهتاف داويا من الناس .

وبدا هيكل السفينة فى الظهور أمامنا تحت شعاع القمر ، متقدمة ببطء وقد خفتت أضواؤها ، وانطلق صفيرها الحزين . وعندما وقفت مواجهة لهذا الحشد الزاخر من الناس ، انطلق من ظهرها العلوى نور كشاف ساطع ، يعرض كل صغيرة وكبيرة على الشـــاطىء ، ورحنا فى ضوئها الذى يعشى البصر ، نخترق الحاجز ونقف الى جانب الماء ، وتهادت السفينة مقتربة من الشـــاطىء لنرى فيها الصـــورة المالوفة للقوارب الثلاثة المشدودة الى بعضها فى شكل عوامة مشوشة الشكل . وسرعان ما امتدت « صقالة » من السفينة الى الشــاطىء ، لنسمع ضجة وحركة عنيفتين للناس وهم ينتقلون اليها ، لا تضاهيها الا الضجة المعهودة فى أية محطة من محطات السكك الحديدية فى الهند . وكانت معجزة حقا ان يسير هؤلاء الناس الذين يحملون رزما وصـــــناديق كبيرة على أكتافهم ورءوسهم فوق « الصقالة » دون أن يقعوا فى الماء . لكن شيئا من هـــذا لم يحدث ، وعندما رأينا الضجة قد هدأت رحت وصديقتى نضع أقدامنا على الصقالة فى الطريق الى الباخرة .

وبدا لنا منظر الشاطىء من السفينة غريبا للغاية . فهناك مجموعتان منفصلتان احداهما بيضاء تضم الرجال والاخرى سوداء تضم النسوة ، وبينهما يقف المصباح فوق الشجرة عاكسا أضواءه على الاشواك . وسار موكب طويل من الحمير المحملة باكياس الحنطة عبر الطريق . وقد اظهر الضوء الساطع الذى ينشره كشاف السفينة كل حركة من حركاتها .

ووجدنا الجعة التى كنا متعطشين لها أخيرا ، ولكنها لم تكن من النوع الجيد ، ولا كثيرة البرودة . انها جعة ســودانية مرة المذاق ، وخفيفـة التركيز . وكان الطعام الوحيد المتوافر على ظهر الباخرة ، ممثلا فى بعض المعلبات المحشورة فى مكتب صغير مضوا بنا اليه لنختار منه ما نشــاء ،

بالرغم من ان مجال الاختيار كان ضيقا ، فهنـــاك بعض علب السردين والتونة وسمك الرنجة وعصير « الاناناس » . وقررنا ان نبتاع من سمك الرنجة ، ورفضنا عصير « الاناناس » اذ كان غاليـا ، فالعلبـة باربعين قرشا . وهكذا تناولنا عشاءنا من السمك المعلب مع بعض قطع من الخبز اليابس . واكتشفنا ان شهيتنا لم تكن الآن احسن منها عندما كنا على الشاطىء ، ولم تأكل الواحدة منا الا صفيحة واحدة من السمك وكسرة من الخبز . وكنا قد تصورنا وجود بعض «الفراخ» المطهية ، و «السلطة» ، دون ان نفكر لحظة واحدة ، كيف يمكن لباخرة قادمة من وادى حلفا ان تحمل مثل هذه المشهيات .

وكان حمقا منا ايضا ان نتوقع ان تكون الليلة التى سنقضيها فى الباخرة اكثر هدوءا من الليلة النـوبية ذات الضجيج على السـاحل بكل ما فيها من اصوات عواء الكلاب وابن آوى ونهيق الحمير . فقد كانت ليلة البـاخرة لا تقل عن تلك ضجيجا . وكان الحـر لا يطاق حتى كان من الصعب على المرء ان يفـكر باغلاق البـاب الموصل من القمرة الى ظهـر السفينة ، مما عنى تعرضنا لسماع هدير السفينة وكل ما عليها من جلبة وضوضاء ، يثيرها ركاب الدرجة الثالثة وهم جالسـون او مستلقون على ظهرها . وخيل الينا ان هناك شجارا عنيفا بين عدد من الرجال ، وان كان الواقع انهم كانوا يتحدثون حديثا عاديا استمر طيلة الليل ، وعندما اطل الفجر بنوره ، سمعنا صوت امراة تصرخ بشكل لا يتصور ينضم الى اصوات الرجال .

وعندما حلت الساعة الثامنة والنصف من الصباح . كان الحر قد غدا من النوع الذى لا يطاق . ووقفت بنا الباخرة عند عدد من القرى ، كانت جميعها متشابهة تقريبا ، اذ تقام البيوت على ربوة صخرية مرتفعة، هى جزء من الجبل المطل على النهر ، وبعضها ذو اعمـدة تشـبه اعمدة المعابد الاغريقية ، وقد زينت جدرانها بصـور بدائية بسيطة رسـمت باللون الابيض . وكنا نجد عند النهر ، وفى كل قرية من هذه القرى التى تقف فيها السفينة ، عين المجموعتين المنفصلتين من الرجال البيض الثياب والنسـاء السود اللباس . ودخلت الألوان فى الصورة مع انقضاء ساعات النهار الطويلة الشديدة الحرارة ، اذ رأينا نسوة يرتدين ملابس فاقعة الاخضرار أو داكنة الاحمرار والاصفرار .

ولا يفصل هذه القرى عن بعضها ، الا منظر صحراوى رتيب يتالف من جبال صحراوية صخرية جرداء وتلال رملية خفيفة ، مع حزام دائم من

الخضرة المزروعة بالذرة او البقول الى جانب النهر ٠ وكانت رفيقتى دائمة الاعراب عن اعجابها بجمال المناظر النوبية ، معربة عن الها لأنها ستحرم منها عما قريب بعد أن تختفى بكل مافيها من جبال صخرية ومســـاكن مزدانة بالصور تحت مياه السد العالى ٠ وقد تبدو مناظر النوبة جميلة لأولئك الذين يحبون جمال الصـــحراء ، أما أنا فانى أشترك مع الرحالة المشهور فى القرن التاسع عشر السير صـــمويل دايت ، الذى كتب عن النوبة يقول (١) ٠٠٠ « تبدو الارض وقد حملت شيئا من لعنة جهنم ، بما فيها من بشاعة وقحط وحرارة تشبه حرارة المواقد ٠ فالصخور المطلة خالية من كل اثر من آثار حيـــاة النبات ، وهى تعكس حرارة الشمس بصورة يجب أن يذوقها الانسان ليفهمها » ٠

وكنت ورفيقتى الاجنبيتين الوحيدتين على ظهـــر الباخرة ، ولكننا مالبثنا فى ساعة متأخرة من النهار ان مررنا بباخرة للسياح فى طريقهـــا الى أبى سمبل ، ورأينا ركابها يحتشدون فى مؤخرتها وقد صوبوا آلات تصويرهم الينا ٠ ورأينا بينهم عددا من النسوة الشفراوات الشاحبات وبعض الشبان الذين يرتدون السراويل القصيرة ٠ وقد ظهرت سيقانهم وكأنها « الجمبرى » المشوى ٠ ولاريب فى أن منظرهم جميعا كان قمينا اذا ما قورن بالنوبيين الفارعى الاعواد والممشوقى القامات فى مهابة وجمال. وسيمضى هؤلاء الى تماثيل أبى ســـمبل ٠ ويصورونها ثم يعـــودون الى باخرتهم ، دون أن يعرفوا أن هناك قرية على الطرف المقابل من النهر ٠ فهم لا يعرفون عن النوبة الا « معابد النيل » ، ولا يعـــرفون انها ارض مأهولة بالناس ٠ يا لهم من أغرار ٠

ورأيت اعلانا معلقا فى القمرة ٠٠٠ انه يقول ٠٠٠

« انتم الآن فى بلاد اسلامية لا ترضى عن بعض المعايير فى الملابس النسوية التى اصبحت معروفة بصورة تدريجية فى الاجزاء الاخرى من العالم ٠

« وتلبية لرغبة الحكومة السودانية نطلب الى السيدات ان تتكرمن بتجنب الارتداء العلنى لبعض الملابس كالسراويل القصيرة و « مايوهات الشمس » ٠ ولا ريب فى انهن بعملهن هذا يتجنبن اظهـــار أية اساءة للسودانيين الذين يسافرون فى بلادهم » ٠

---

(١) كتاب « فروع النيل فى الحبشة » ـ لندن عام ١٨٩٤ ـ ص ١ـ٢ ٠

المضيق :

ووصلنا الى المضيق في جحيم الظهيرة ، اذ كانت الشـمس عمودية في كبد السماء • وكان الحشد المألوف من الناس ينتظر الباخرة ، كما كان هناك التدافع والاصطدام الخطر على اللوح الخشبي (الصقالة) • وتقدم منا شاب طويل القامة ، يرتدي جلبابا ابيض وعمة بيضاء ، شاقا طريقه عبر الحشود ، ليحيينا بالعربية ، فهو مضيفنا الذى سننزل فى رحابه ، وهو عم صديقنا النوبى المقيم فى القاهرة •

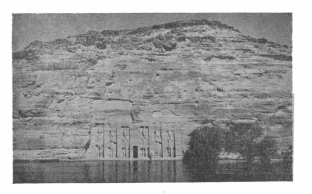
وامسك عدد من الرجال من ذوى الجلابيب البيض بمتاعنا ، ورحنا نرتقى ارضا منحدرة لنصل منهـا الى أرض منبسطة شفقتها الشمس ، وكانت مزروعة فى يوم ما ولكنها غدت الآن قفرا يبابا ، بعـد ان جنى حصاد انتاجها الأخير ، وبات أصحابه يتوقعون الانتقال الى ارضهم الجديدة فى الشمال • وكانت هناك بعض زراعات الذرة على مقربة من الشاطىء ، ولكن كان من المقرر بعد جمع انتاجها الا تزرع ثانية • وظهرت السـاقيات وقد تعطلت عن العمل ، بين القرية والنهر تنتظر دورها فى الرحيل ايضا.

وصعدنا اخيرا الى بيت يشبه ذاك الذى كنا نقيم فيه فى أبى سمبل، ولكن اعمدة الشرفة الضخمة القائمة أمام غرفة الضيافة ، كانت تضفى على الدار منظرا يشبه منظر المعابد القديمة • وكانت هذه الغرفة كتلك التى اقمنا فيها فى أبى سمبل تطل على فناء فسيح ، ولكنه يخلو من البشر ، اذ لم تكن فى القرية اية آبار وانما يعتمد اهلها فى سقايتهم على مياه النيل مباشرة • وكان مضيفنا قد خصص لنا غرفة فى شقة « الحريم » ، وهى تواجه فناء آخر يقل مسـاحة عن الفناء الأول ولا يبعـد عنه الا بضع خطوات • وتقوم فى هذا الفناء جرات ضخمة تصب فيها النسـوة اللائى يأتين بالماء كل صباح من النهر محتويات ما يحملنه من صفائح • وكان ثمة عدد كبير من الغرف التى تطل على الفناء ، وفيها حشد كبير من النساء والاطفال • ورأيت فى زاوية من الفنـاء ، كنـا للدجاج ، وقد اقيم وراء حائط من الطين ، اما المرحاض فكان خارج الفناء وقد اتجه بابه الى الجبل الصخرى ، وكانت الطريق المؤدية اليه والمفروشة بالحصى فى حد ذاتهـا مرحاضا تنبعث منه الروائح الكريهة •

وكانت الغرفة التى وضعوها تحت تصرفنا مظلمة وحارة • ولم تكن فيها اية نوافذ ، ولذا فان الضوء الوحيد اليها ، كان ينفذ عبر شق فى اعلى الجدار الطينى • اما الأرض فمفروشة بالرمل ، كأية غرفة اخرى رأيناها فى تلك المنطقة • ورأيت فى الغرفة سريرا من الحديد وعليه



الأطباق معلقة فى بيت نوبى



معبد نفرتارى فى أبى سمبل

« مرتبة » وبطانية من الصوف ووسادة · وهناك صندوق ضخم وبعض الأوانى الفخارية المعلقة الى أكياس من القش على الجدران · وعلقت على حبل يمتد فى الغـرفة لبعض الملابس والاغطيـة · وقد استخدمنا هذه الغرفة لتبديل ملابسنا ، واستحمامنا ليس الا · وكان فى وسعنا أن ننام فى الفناء ، ولكن الحرارة كانت فيه لا تطاق · اذ انه محجوب بجدرانه الأربعة عن العراء ، يضاف الى هذا ان النساء واطفالهن ، كانوا كثيرى الاهتمام بنا ، ولم يكن فى وسعنا أن نخلد فيه الى ساعة واحدة من الراحة التى تخلقها العزلة ·· ولم تكن هناك عزلة فى النوم فى الفناء الثـانى أيضا ، اذ ان الرجال كانوا ينامون فيه ، ولكنهم لم يكونوا يفرضـون وجودهم علينا ، وانما كانوا يصرفون أوقاتهم فى الحديث والمزاح مع بعضهم البعض ، أو فى الجلوس الى الأرض حول مصباح من الجاز ، يمارسـون بعض الألعاب ، متجاهلين وجودنا تماما · وكانت هناك غرف تطل على الشرفة ، وتضم بعض الأسرة ، وكان فى وسعنا أن ننام فيها بشىء من الحرية والعزلة ، ولكن الراحة فيها كانت لا تطاق ، وكان العراء هو المكان الوحيد الصالح للنوم · يضاف الى هذا انه كان فى وسعنا أن نرى من هذا الفناء ، وعبر سور خفيض ، الأراضى غير المزروعة التى تفصلنا عن النهر ، وان نتطلع من الناحية الثانية الى الجزء الآخر من القرية هو الجزء الغربى ، الذى تقوم وراءه تلال رملية خفيضة ·

وكانت الجبال الرملية الصخرية تقوم أيضا وراء الدار التى نقيم فيها ، وكانت الشمس تطل علينا من ورائها فى السـابعة صباحا · وان كانت الشمس تشرق هناك من الخامسة ، وهكذا كنا نستقبل يوما جديدا بعد انقضاء الليل المتعب والحافل بالضجيج ، وقد انضم سعال الرجال الى أصوات ابن آوى والكلاب والحيوانات الأخرى ·

ولم يكن فى وسع المرء أن ينام كثيرا فى هـذه الليالى النوبية ، فبالاضافة الى الحرارة التى لا تطاق ، والأصوات المزعجة ، والبعوض الذى لايقل ازعاجا فى الليل عن ازعاج الذباب فى النـــهار ، كانت الأسرة من النوع الغليظ الذى يحطم العظام · وكنت اقضى ساعات طويلة ، اتطلع فيها الى النجوم ، وهى تضىء بشكل فذ ، قريبة وقوية ، متلهفة الى تلك البرهات القصيرة التى يخفت فيها بريق النجـــوم قبل بزوغ الفجر ، لتتلطف برودة السماء نسبيا · وكانت هذه الفترة جد قصيرة ، ولذا فقد كانت لا تقدر بثمن ، اذ لا تكاد الشمس تشرق ، حتى تشتد الحرارة ويبادر الذباب الى العمل بشكل لا رحمة فيه · وكانت ريح عاتية تهب عند الظهيرة باستمرار ، فيشتد معها لسع الذباب ·

وكنا لانزال ، عاجزتين عن أكل أى شىء باستثناء بعض اللبن « الزبادى » ، وكنا نتلهف على بعض البطيخ ، ولذا بذلت محاولات كثيرة لضمان بعضه لنا ، وقد نجح بعضها • وكانت رغبتنا الوحيدة هى أن نشرب الماء ، بالرغم من ان ما كنا نشربه هنا هو الماء الذى ياتوننا به من النيل • وكان يبدو كعصير الليمون فى القدح ، وكنا بدورنا نصب فيه بعض عصير الليمون الذى اشترينا زجاجة منه فى أبى سمبل لنجعله سهلا على المذاق • وهكذا ظللنا نشرب ونشرب • وكنا اذا اجهدنا انفسنا بعض الشىء ، شعرنا بحلقينا يجفان ، وبلسانينا يحترقان ، وبات من العسير علينا ان نتحدث • وتضاعف القىء الذى احسست به فى أبى سمبل ، هنا ، وكنت ارغب فى أن اظل طيلة الوقت مستلقية على ظهرى ، وقد وضعت منشفة مبتلة بالماء على راسى وعنقى ، على أن يوفر لى الماء لأشرب باستمرار •

ولم يكن فى وسع أحد أن يفعل شيئا عند الظهيرة ، سوى الاستلقاء ، ترقبا لهبوط قيظ الهاجرة فى العصارى • ولم يكن فى وسع انسان ان يتحرك فى ذلك الجحيم ، حتى الكلاب كانت تستلقى فى ظل الجدران وهى تلهث • وهكذا كنت اقضى الساعات أبلل المنشفة اذا ما جفت ، واشرب أقداح الماء واحدا اثر آخر ، مبعدة عن وجهى الذباب ، محدثة نفسى ، بانى سانسى كل هذه المتاعب فى غضون بضعة أسابيع ، وان الوقت سيمضى لأن انقضاءه أمر حتمى فى هذه المغامرة النوبية •

وكانت رفيقتى فى مثل هذه الساعات أكثر نشاطا منى ، فهى تذهب الى « الحريم » لتتحدث الى النساء فيه بالعربية ، ولتلتقط لهن بعض الصور ، أو تجلس الى حافة سريرها متحدثة الى مضيفنا والرجال الآخرين الذين كانوا يغدون الى الفناء • ولكننى رايتها ذات يوم وقد بان الاعياء فى عينيها ، واعترفت لى بأنها مريضة •

ومع ذلك فما كنا لننقطع عن بذل الجهود بين الفينة والفينة • ونمت لدينا الفكرة الطموح ، بأن نمضى بالمركب « الفلوكة » الى وادى السبوع الذى مررنا به فى أثناء رحلتنا من أبى سمبل • وقيل لنا ان هناك سفينة لعلماء الآثار ، وصفهم البعض بانهم من الالمان بينما وصفهم البعض الآخر بأنهم من الفرنسيين ، وسواء أكانوا من هؤلاء أم اولئك ، فقد كان فى وسعنا أن نلقى لديهم بعض اللطائف التى حرمناها والتى كنا نتوق اليها وفى مقدمتها الجعة المثلجة •

وادركنا اننا اذا لم نمض الى وادى السبوع فسنظل فى هذه القرية

أسبوعا آخر ، وهو موعد وصول الباخرة التالية ٠ وتصورنا ان وادى السبوع يعنى تبدلا فى نمط حياتنا الرتيبة ولا سيما ان هنـــاك باخرة علماء الآثار بكل ما فيها من احتمالات ٠ وقيل لنا انهم يعملون فى نقل احد المعابد من مكانه هناك ، وان من الطريف أن نشاهد عملية النقل ٠ وبحثنا الموضوع مع مضيفنا ، وتم الترتيب مع احد الملاحين لينقلنا بمركبه فى الصباح التالى ٠ ولم تكن ثمة حاجة لحمل اى متاع معنا ، فقد كان فى وسعنا أن نمضى الى هناك لنقضى الليل ثم نعود فى اليوم التالى ٠

ومضينا الى النهر فى الصباح التالى ، قبل أن ترتفع الشمس فى السماء ، ورأينا بعض النسوة ، يستقين الماء من النهر ، ويجنين بعض الذرة ، ويسقين قطعان المعيز والأغنام ٠ ولم نر أثرا لأية « فلوكة » ٠ وظللنا نطوف فى المكان متطلعتين الى الشقوق الضخمة فى الطين ، والى بعض الحلزونات البطنية الأرجل ، التى تعشش جراثيم البلهارسيا فيها ٠

وارتفعت الشمس فى كبد السماء قبل ان يظهر شراع قادم من وراء منعطف على شـاطىء النهر ، وسرعان ما بـدا المركب أمامنا مقتربا من الشاطىء ٠ وحيانا الملاح مرحا ، ودنا «بفلوكته» الى الشاطىء ٠ ثم مد لوحا من الخشب نستعمله فى الانتقال اليها ، وصعدنا الى « الفلوكة » وجلسنا على بعض الوسائد عند ظهر المركب الذى كان نظيفا وجديدا ، على النقيض من ذاك الذى استخدمناه فى رحلتنا الى البلانة ٠ ولم يعرض الملاح علينا اى سبب لتأخره ، ولكنه ما لبث بعد أن رفع اللوح عن الشاطىء ، ان شرع فى حديث معنا عن الأجر الذى سندفعه ، وان كنا قد فهمنـــا فى السابق انه قد اتفق عليه منذ الأمس مع مضيفنا ٠ وجلسنا ونحن نرفض الحديث فى الموضوع ، فى حين رفض المراكبى الاقلاع الى أن نتفق ٠ ولم أكن أشارك رفيقتى حبها الشاعرى « للفلايك » ، ولذا فقد اشرت عليها بالتخلى عن الرحلة كلها ، وخيل الى اننا سنقضى الصباح الشديد القيظ كله بين اصرارها الثائر ، وعناد المراكبى فى أن يحصل على الأجر غير المعقول الذى طلبه ٠

وكانت النتيجة النهائية انه نقلنا الى الشاطىء الآخر من النهر ، حيث خلفنا هناك مدعيا انه مرغم على الذهاب الى القـرية ٠ ورايناه وهو يخطو بجلبابه الأبيض عبر الأرض الرملية التى لا ظل فيها والممتدة بين النهر والتلال الرملية ، ليصعد بين الصخور ، ويختفى بين مجمـــوعة البيوت الظاهرة ، وظللنا نرقب عودته أمدا طويلا ، فى حين كانت الشمس تشتد فى حرارتها ، واخيرا ، رأينا انفسنا نغادر مكاننا الدافىء على ظهر

القارب لنهبط الى الشاطىء عبر « الصقالة » الخشبية · وكنا قد رأينا شراع « فلوكة » أخرى ، تقف على مبعدة منا صعودا مع النهر ، وخيـل الينا انها قد تعيدنا الى مكاننا على الشاطىء الآخر · وتصورنا انه حتى فى حالة رفضها حملنا ، فلابد أن يكون هناك زورق يمضى الى الشاطىء المقابل فيحملنا معه · وكنا نؤثر أى شىء على الانتظار فوق ظهر تلك الفلوكة تلسعنا اشعة الشمس ·

وتبين لنا ان طريقنا طويلة قبل أن نصل الى الشراع ، وان سيرنا شاق فى تلك الأرض الصلدة التى لا ممرات فيها تحت أشعة الشمس المحرقة ، ولا سيما بعد ان شرع الجبل الصخرى يعكس لهيبه السـاعر فى كل اتجـاه · وعنـدما دنونا من المكان تبين لنا ان هنـاك شراعين «وفلوكتين» ، تقفان جنبا الى جنب ، يصل بينهما لوح من الخشب ، وعليهما رجال يرتدون الملابس البيضاء ·

وما كدنا نصـل الى المكان حتى رأينـا الرجال ينقلون اكياسا من الدقيق من «الفلوكة» القريبة من الشاطىء الى الفلوكة الكبيرة الواقفة على بعد منها فى النهر ، وبدت لنا سارية هذه الفلوكة ، وداقلها ، ومحمالها ، تحمل صورا ملونة بالأحمر والأزرق والأخضر ، فى حين كانت الأجراس التى توضع فى رقاب الأبقار تتدلى منها ، مصلصلة مجلجلة · ورأينا شراعها المتارجح هائلا ضخما ·

وتوقف الرجال عن العمل وراحوا يتطلعون الينا بود ورعاية ، يسـألوننا بالعربية ، اذا كان فى وسعهم أن يحملونا الى الشاطىء الآخر · واضافوا ان مركبهم سيحملنا الى هناك ، اذ انه سيمضى فى ذلك الاتجاه، وبينما كنا غارقين فى الحديث ، جاء عدد من الأطفال يركضون من القرية القائمة على الجبل ، يقفون متكاتفين ، وهم يتطلعون الينا ، ويتهامسون · وقال أحد الرجال شيئا لفتاة يافع ، فهرعت عائدة باتجاه القرية · واقترح الرجال علينا أن نمضى لنجلس الى ظل شجرة شوكية ، على بعد قليل من المكان ، ولكننا آثرنا الجلوس على اللوح الخشبى لنضع أقدامنا فى الماء، فالظل تحت تلك الشجرة قليل ، وكان علينا ان نعانى الكثير من الرمل الملتهب قبل أن نصل اليها ·

وانقضى وقت طويل · وكانت عملية الشحن قد انتهت ، ولكن الرجال لم يكونوا على عجلة من أمرهم ، فهم جالسون على ظهر المركب يدخنون ويتحدثون · وعادت الفتـاة التى كانت قد هرعت مسرعة الى القرية ، تحمل أقداح الشاى · واشتدت حرارة الشمس · ووضـعت

المتشفة التي كنت احملها دائما في الماء ، لأبللها ، ثم نشرتها على راسي وذراعي · ولاحظ احد الرجال مافعلناه ، فاقترح ان نمضي الى المركب ، لنجلس في ظل صغير يقوم وراء الشراع ·

وتوالت الساعات اللاهبة الطويلة . ومضت رفيقتي في احدى اللحظات صاعدة الى الجبل لتفحص بعض الرسوم الظاهرة على جدار من الصخر ، ولتصورها · وجلست وحيدة في « الفلوكة » افكر في هؤلاء الناس الذين يقضــون حياتهم كلها في تلك البيــوت المبنية من الطين متعلقين بقمم تلك التلال الرملية أو جوانبها ، وخيل الى انه مهما كان شكل كوم امبو ، فان حياتهم في اماكنهم التي سينقلون اليها ، لن تكون اسوأ من حياتهم الراهنة ان لم تكن احسن منها بكثير · ولم استطع مشاركة رفيقتي في غضبها لاغراق بلاد النوبة وتهجير أهلها الى الشمال· وكان في وسعي ان احس مع الناس بحزنهم على فراق مساكنهم وارضهم التي عاشوا فيها أجيالا متعاقبة ، وبقلقهم من المستقبل المجهول الذى ينتظرهم في اماكنهم الجديدة ، لكن حياتهم في بلادهم القديمة لم تكن ارفع بكثير من حياة الحيوانات ، بل وبدا لى انها لم تشهد اى تطور منذ أيام الفراعنة القدامى ، وتصورت ان النوبة الجديدة ستضم مشروعات المياه والشرب ، والمدارس والتسهيلات الصحية ، والسيارات التى تنقلهم الى أسوان ، وقد تقام لهم المصانع هناك ، بحيث لا يضطر الشبان من أهلها الى مغادرة المنطقة بحثا عن العمل ، بل قد يعود اليها المهاجرون الكبار ، ليستأنفوا الحياة العائلية العادية في قراهم الجديدة · وكان النوبيون في الماضي دائما ، ذوى حظ سيىء ، فهـــم يدفعون ثمن ما يتحقق لمصر من تقدم اذ يدفعون الى الوراء نحو الجبال الصخرية ، كلما ارتفعت مياه سد أسوان ، أما اليوم ، فسيخرجون من المنطقة مرة واحدة ولــــكن ليشتركوا مع بلادهم في التقدم الذى سيحققه السد العالي ، وليكون لهم نصيب في المنافع الناجمة عن ذلك المشروع الذى ضحوا من أجله بخروجهم من ديارهم واراضيهم ·

وعادت رفيقتي من الجبل وقد استبدت بها الحماسة لما اكتشفته ، وما كادت تعود حتى قرر ملاحو المركب التحرك · وعبرنا الى المركب البعيد فوق اللوح ، وجلسنا فوق أكياس الدقيق ·

وبدت لنا طريق العودة طويلة ومتعبة ، ولكننا كنا قد قطعنا نحوا من ميلين على شاطىء النهر ، كما ان المركب كان يسير بمنتهى البطء ، وسالونا عن المكان الذى نود ان ننزل فيه ، فاشرنا الى ارض مزروعة بالذرة والى جدار من الحجر ، كنا نظن ان النقطة التى ابحرنا منها في «الفلوكة»

الأولى تقع على مقربة منهما • ورحنا نســـأل الرجال بكثير من الاحجام والخجل ، عما نحن مدينان لهم به لحملنا ، فردوا بكثير من الاباء ، بأننا لسنا مدينتين بشيء • وشكرناهم على كرمهم ، وصافحناهم فردا فردا ، راجين لهم السلامة فى ترحالهم ، ثم هبطنا الى الشاطىء •

ومررنا عبر حقول الذرة ، وفوق الأرض المتشققة ، والرمل الرخو الذى يحرق الأقدام ، لنصـــل الى بيت أبيض يشـــبه المعابد الاغريقية ، وسرعان ما اكتشفنا انه غير البيت الذى نقيم فيه ، وانما هو بيت لم يسبق لنا أن رايناه ، والى جانبه عدد من البيوت الشبيهة به والتى لا نعرفها • وكانت الشمس قد أصبحت آنذاك عمودية فى كبد السماء ، وكانت جوانب الجبل الصخرى والبيوت تعكس حرارتها بشكل لا يتصوره عقل انسان • وبالرغم من اننا لم نسر مسافة طويلة ، وبالرغم من الأرض التى صعدناها للوصول الى القرية ، لم تكن عمودية ، فاننا كنا قد اجهـــدنا ، ورحنـــا نلهث بقوة وكاننا على وشك الانهيار • وكان اللعاب قد جف فى حلقينا ، وبتنا فى ظمأ قاتل • وأصبحنا فى حاجة الى الماء ولا شيء غير الماء ، فبدونه لا نستطيع المضى فى سيرنا ، وكان لابد من عثورنا عليه بسرعة •

ودلفنا نتمايل فى ظل سور البيت ، وقد عشيت أعيننا من وهج الشمس ، نتطلع بحثا عن الماء • وابصرنا بعض النسوة والأطفال ، يطلون علينا من فوق السور •

وصرخنا بأعلى صوتينا : نريد ماء .

ووصلنا الى المدخل ، لندلف منه الى حظيرة رملية صغيرة ، وتمايلنا فى سيرنا حتى وصلنا الى البيت . واعتقد ان النســوة كن قد دعوننا ،ولا ادرى كيف دخلنا الى غرفة خالية من كل شيء • وقد ظهرت جدرانها من الطين وأرضها من التراب الرخو ، ورحنا نهبط الى الأرض متراخيتين مجهدتين • وجاءت امراة تلبس ملابس ملونة فضفاضة ، تحمل بســـاطا فرشته لنا على الأرض • وتحلق النساء والأطفال حولنا ، وقد تجمع الذباب حول عيون الأطفال • وسلمتنا امراة صفيحة قديمة للزيت وقد ملأتها بماء النيل المشوب بالطمى . وشربنا جرعات كبيرة منه ، واستعدنا وعينا لنبتسم فى وجوه النسوة ، ولنطلق بعض عبارات الشكر • واقعت النســوة ومعهن اطفالهن الى جانبنا يتطلعن الينا بامعان وقد بانت على وجوههن علائم الدهشة • وخرجت امرأة لتعود بعد لحظات تحمل قدرا من الفخار ، يضم عددا من قطع الخبز وقد بللت بالماء وانتشر عصير الليمون فوقها، ونطقت

السيدة بضع كلمات بالعربية فهمنا منها ان هذا الخبز يقى من شدة الحر ، وتناولتها أنا ورفيقتى بالدور لنشرب منها بعض العصير المشوب بالماء ، وكان مذاقها حسنا ، كما تركت اثرا فوريا فى تلطيف ما نحس به من حرارة • وناولتنا امراة اخرى ملعقتين من الالومنيوم ، وطلبت الينا بعد ان شربنا ما فيه الكفاية ان ناكل شيئا • وتناولنا ملعقة او ملعقتين من الخبز المبلل ، ولكننا لم نستطع الاستمرار ، لا لان مذاقه كان بشعا بل لاننا كنا فى حاجة الى الماء ليس الا • وكانت النسوة يتطلعن الينا باهتمام زائد ، ولا ريب فى انهن وقد رأين امتناعنا عن الأكل ، حسبن اننا مججنا ما قدمنه الينا • وقالت احداهن والأسى ينضح من كلماتها : « اننا فقراء ، وهذا كل ما نستطيع تقديمه » • ولا ندرى ان كانت تشكراتنا واقوالنا قد اقنعتهن بان الحرارة هى السبب فى عجزنا عن الاكل • وسرعان ما اديرت القصعة على الحاضرات ، فلم يبقين فيها على شيء • وجلست صبية تستند بظهرها الى الجدار ، تطرز احدى تلك « الطواقى » التى يضعها الرجال تحت عمائمهم • ورأينا عددا من العجائز تنتشر الأخاديد فى وجوههن وكأنها رسوم خرائط ، فى حين كانت هناك عدة جيلات من النساء الشابات يرضعن اطفالهن من صدورهن السمراء ، وهن يمثلن الجمال النوبى الهادىء والاصيل •

وعندما استعددنا قوانا ، قررنا ان نمضى الى حال سبيلنا ، بعد ان قدمنا خالص الشكر وعرفان الجميل للنسوة ، وخرجنا من جديد الى الفرن فى الخارج ، وتبينا اننا فى الطرف النائى من القرية واننا بعيدتين عن الدار التى نقيم فيها • ومضينا نتعثر عدة دقائق فوق الرمال التى تعذبنا ، وسرعان ما دعانا رجل كان يقف على « صفة » بيته المواجه لنا وكان يرقبنا الى الاستراحة بعض الوقت فى داره ، مؤكدا اننا لن نستطيع المضى فى مسيرنا فى مثل هذا اللهيب الساعر ، واحسسنا بلهجة آمرة فى حديثه ، ورحنا نصعد الدرجات الطينية التى احرقتها الشمس والمؤدية الى بيته ، لنلقى بنفسينا على سرير حديدى يقوم الى جانب الجدار ، وجاءوا لنا بالماء المشوب بالطمى فورا ، وعندما استعدنا قوانا من جديد ، الح مضيفنا بان ندخل داره ، حيث الحرارة اقل بسبب اغلاقه دائما •

وتبعناه الى غرفة مظلمة مقفلة تفوح رائحة المبيدات الحشرية منها حيث استلقينا على سريرين عند الجدار وعندما فتح الباب بعض الشيء كان فى وسعنا أن نرى على الجدار صورة كبيرة للرئيس جمال عبد الناصر ، وبعض الصور الملونة لكواكب السينما فى مصر •

وظللنا مستلقيتين امدا طويلا ، نتحدث بعصبية ، وننهض الفينة بعد الفينة لنجرع شيئا من الماء . ونبعد الذباب الذى كان يشق طريقه الينا فى كل مرة ينفتح فيها الباب .

وعندما بلغت الحرارة اقصاها فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، دخل مضيفنا الذى عرفنا بنفسه وانه يدعى حسين محمد حسن ، يحمل صينية كبيرة مدورة من اوراق النخيل وعليها « سلطانية » كبيرة ، وبعض الملاعق والامواس ، وصحاف الحساء . ووضع الرجل ما يحمله على حصير على الارض ، ثم جاء بوسادة فرشها ودعانا الى الجلوس عليها لنتناول غداءنا .

ووجدنا فى السلطانية بعض « الفراخ » المسلوقة ، تعوم فى حوض من الحساء الحار الملىء بالبهارات ، كما وجدنا قصعة كبيرة ملأى بالملوخية وكومة كبيرة من الخبز البلدى ، وتناولنا قطعتين من « الفراخ » مع بعض الحساء ، وكان السيد حسن يجلس الى سرير قريب يرقبنا ويحثنا على الاكل .

وكان من غير المجدى ان نحتج كما فى عنيبة ،بان شهيتنا الى الطعام غائبة ، وان كل ما نحتاج اليه هو الماء ، وليس ثمة من شك فى ان كرم الضيافة عند النوبيين طاغ كشأنه عند العرب ، ومن العسير على المرء ، عندما تكون الحرارة فوق المائة ، ويكون قد قضى اياما متلاحقة من المرض والاجهاد ، ان يتقبل هذا الالحاف فى حسن الضيافة بصدر رحب ، ولا سيما اذا كان المضيف يلحف على ان نتناول طعاما حارا حاد المذاق ، ولكننى اعتقد انه لو عرض علينا طعام بارد خارج من « الثلاجة » فى تلك الساعة لما استطعنا ان نتناول شيئا ايضا ، فقد كانت الحرارة هناك اشد مما كانت عليه فى عنيبة او ابى سمبل ، وان كان العرق لا يتصبب منا .

وعندما عدنا الى بيت مضيفنا فى ذلك المساء ، لم نستطع ان ناكل شيئا كذلك ، ورحنا نستلقى مبكرتين على سريرينا فى فناء الدار ، وكان مضيفنا متغيبا تلك الليلة ، وكان ثمة الكثير من اللهو المزعج المشوب بالشذوذ .

وخيل الى ان الواجب كان يدعونا الى الانسحاب بتواضع الى فناء الحريم ، ولكن تصورنا جدرانه العالية التى تحجب كل برودة ، منعتنا من ذلك ، يضاف الى ذلك اننا لم نكن نتصور ان فى وسعنا ان نبذل اى جهد جديد .

هناك عزلة مرعبة تحيط بالمضيق ، التي تميزت بارضها غير المزروعة وسواقيها المهجورة ، وكانت بعض المنازل فى القرية قد غدت خالية ، اذ ارتحل عنها اهلها قبل ان يحين موعد الرحيل العـام ، وكانت معظم البيوت مزدانة من خارجها برسـوم كتلك التى يرسمها الاطفال لطيور او حيوانات أو زهور مختلفة الالوان بينها الازرق والاحمر والبنى ، فى حين تحتل الصحاف الخزفية المثبتة فوق المداخل والابواب دور العدسـات التى تعكس الشـمس ، ورأيت احد البيوت ، تزينه « لمبات » كهربية مختلفة الحجوم والالوان ، وهناك مسجد صغير ، فى حين تظهر بيوت عدة بشرفاتها ذات الاعمدة ، وكأنها معابد قديمة ؛ لكن معظمها خالية فى الداخل الا من بعض الأسرة ، وبعض الصور الفوتوجرافية ، وبعض القصعات والصحاف المعلقة من السـقف أو تلك الداخلة فى بناء الجدران .

وكانت ملابس النساء فى المضيق تفتقر الى الجمال الذى رأيناه فى ملابس النسـاء فى أبى سـمبل ، وكن يلبسـن ما يشـبه « السـارى » فى الهند ولكن كثير الثنايا والطيات ، اما شعورهن ، فتصـفف فى جدائل صغيرة رفيعة ، وقد قيل لى ان امرأة جاءت من قرية أخرى ، قضت نحو شهر فى تصـفيف شعرها ، ودفعت نصـف قرش مقابل كل ضفيرة، ولكن بالرغم من هذا الاسلوب فى تصـفيف الشعر الذى لم يستهونى ، فقد رأيت ان معظم نسـاء القرية كن من الجميلات ؛ وان بعضهن كن رائعات الجمال حقا ، ولعل اجملهن ، فتـاة يافعة السـن لم تكن قد تجاوزت الخامسـة عشرة ، برغم انها متزوجة ، وكانت تضع حلقا ضخما فى انفها يكاد يتدلى على فمها ؛ وكانت هذه الصغيرة احـدى زوجـات مضيفنا ، وقد قيل لنا ان النساء لا يضعن مثل هـــذه الحلى ، الا عندما يكون ازواجهن غير غائبين .

وكنا احيانا نجهد انفسنا فى الهبوط الى النهر فى الساعات المتأخرة من بعد الظهيرة، عندما تكون شدة الحرارة قد انحسرت ، نحاول استنشاق الهواء ، بعيدا عن الجدار الصخرى الذى يقوم وراء القرية والذى يعكس اشعة الشمس ، وكنا نلقى النساء صاعدات من النهر ، وقد حملن صفائح الماء على رءوسهن ، فنقف معهن ، نتحدث ، وكانت احدى العجائز ، مولعة بانشاد اغنية عن كوم امبو تتحدث فيها عن قرب رحيلهن اليها ، حيث الخضرة الشـاملة الدائمة ، وحيث المـاء يتدفق من صهاريجه ... وقد عادت بى الذاكرة الى هذه الاغنية عندما زرت كوم امبو فيما بعد ، وبدا لى أن النسـاء كن اكثر ميلا من الرجال الى الرحيل ؛ وان بعضهن كن يتطلعن اليه بشىء من اللهفة ، ويبدو لى أيضا انهن ما كن يخشين شيئا

من الرحيل ، اذ ليس ثمة ما يفقدنه ، ففي كل مساء ، تواصل الاذاعة التحدث اليهن عن مزايا الحياة في النوبة الجديدة ، داعية الجميع الى عدم الخوف والقلق محددة مواعيـــد الرحيل وخططه ، ومحـــددة عن التعويضات التي ستدفع ، ومنهية الحديث باغنية مرحة عن النـوبة تبعث في النفوس العزيمة والتشجيع .

وظهرت ذات مساء ، سحابة كثيفة سوداء هائلة في كبد السـماء ، ولم تعد هناك نأمة ريح او حركة نسيم حتى عند النهر . وتوقعت ان تمطر السماء او يحدث شيء ما ... ولكن شيئا لم يحدث وان بدت السـماء الهابطة وكأنها تكاد تصطدم بالارض . وكانت هذه السحابة ذروة الشؤم ليوم مشئوم . فقد نقلت الأنباء في الصباح ، ان احد أبناء القرية قد توفي بعيدا عنها ، وجاءت النسوة من كل جهة يندبن ويعولن ، وبعضهن يذرف الدمع سخينا ، وهن يتدافعن الى بيت اسرة الشاب ، ومضى مضيفنا عـلى ظهر حماره يعزي بالفقيد . واقترحت رفيقتي أن نمضي نحن أيضا ، ولكنني كنت مريضة للغاية ، وكان الاعياء قد أخذ مني كل مأخذ نتيجة الافتقار الى الطعام والنوم ، ونتيجة الاجهاد من الحر المخيف ، ولكن رفيقتي مضت وحدها ، وعادت لتنقل الى صورة عما شاهدته ، انها صورة « مشعوذة » ، اذ رأت البيت مزدحما بالناس وهم يرقصون رقصات هستيرية لابعـاد الأرواح الشريرة .

ولم تمض ساعات حتى كانت النسوة يعدن من بيت الفقيد ، وقد بدا المرح على وجوههن ، واختفت آثار الندب والبكاء . وعادت بي الذاكرة الى سهرة مماثلة في ايرلنده ، حيث يتبدد الحزن مع مضي الساعات ، على كل ، كانت الحادثة مثيرة ، اشغلت أهل القرية النوبية بعض الوقت .

لكن موت الفقيد كان محزنا ، فقد كان في الرابعة والعشرين من عمره ، وكانت خطوبته على احدى الفتيات قد أعلنت .

وادي السـبوع :

لم يكن هناك من يعرف على وجه التحديد ، موعد وصول الباخرة ، اذ ذكرت لنا مواعيد مختلفة ، منها الساعة الثانية أو الثالثة أو الرابعة ، وعندما شارفت الساعة على الثانية ، ولم تكن الباخرة قد ظهرت بعد ، مضينا الى النهر حوالى الثالثة ، وكانت حرارة النهار في ذروتها ،لننتظر أمدا ظننا أنه لن ينتهي . وكان ثمة ظل قليل من شجرة شوكية ، وقد احتشد فيه قبل أن نصل عدد كبير من الرجال والنساء والأطفال يحملون

متاعهم وسلالهم وصناديقهم · وكان معظمهن من النساء ، اذ ان الرجال ، كانوا يجتمعون فى حلقات على شاطىء النهر ، اجل كان الحشد كبيرا ، والناس بين جالس وواقف او « مقرفص » ، على الأرض التى الهبتها الشمس · ولم تكن الحرارة من النوع الذى يطاق ، لكن تحتم علينا ان نحتملها ، اذ لا مناص لنا من هذا التحمل ·

وكنا عندما افقنا من نومنا ، قد طافت بنا خيالات عذبة ، عن شراب بارد نحتسيه ، اذ انه يوم وصول الباخرة ·

لكن الباخرة كانت تخلو من أى شراب بارد ، فقد أدى اشتداد الحرارة فى اليومين السابقين لوصولها الى المضيق الى استهلاك كل ماعليها من شراب · وكان جل ما وجدناه ، شايا سيىء المذاق ، والماء الذى تمتلىء به الجرار على ظهر السفينة ، والذى يلعق منه ركابها حاجتهم ساعة بعد ساعة ·

ولم نكد نصعد الى ظهر الباخرة ، حتى هبت ريح صرصر عاتية ، تحمل الرمال · التى تسوط الوجوه فى شكل عاصفة هوجاء ، دفعت النساء الى الفرار والصراخ هربا منها ، بينما حاولت الحمير اتقاءها ، بادارة ظهورها الى الاتجاه الذى تهب منه ، وانفتحت أشرعة بعنف ، وسارع الملاحون لوقايتها · وزعقت النسوة ، ووسط تلك الفوضى ، حدثت المعجزة ، فقد نزل المطر ، فى شكل زخة سريعة وقصيرة ، لم تدم اكثر من عشر دقائق · ولم ينجح المطر فى ترطيب الأرض العطشى ، اذ لم يعد اثرها ، مايخلفه منديل مبتل بالماء على راس انسان · لكن الجو تلطف بعض الشىء ولفترة قصيرة ، وبات فى وسعنا ان نتنفس ·

ولم يكن على ظهر السفينة ما يؤكل ، ولكننا لم نكن جائعتين ، مع اننا لم ناكل سوى بعض البقول فى المضيق طيلة النهار · وشربنا الشاى برغم سوء مذاقه ، كما شربنا الماء الساخن الملىء بالطمى من الجرار المنتشرة على ظهر الباخرة ·

واخذت المناظر النوبية الرتيبة تمر بنا ببطء ، من تلال صحراوية خفيضة ، وجبال صخرية ، ومجموعات من أشجار النخيل المنعزلة ، التى ملت غمرها كل سنة بمياه الفيضان ، ومجموعات أمامية من حقول الذرة، وامراة هنا أو هناك بملابسها الزاهية تجنى محصول الذرة ، وحمار وحيد مربوط الى حجر أو صخرة ·

وجن علينا الظلام ، دون ان نعرف اين نذهب · وكان مصباح

الباخرة الكشاف يلقى اضواءه الساطعة ، على هياكل بيضاء على الساحل يكشف المصابيح التى فى ايديها • وهبطنا مرة ثانية الى الشاطىء ، دون أن يكون ثمة تدافع على «الصقالة» الخشبية ، ولم يكن هناك هذه المرة من ينتظرنا على الشاطىء • وامسك بعضهم بمتاعنا ، وتحلق حولنا عدد من الرجال المتشحين بالبياض • وظهرت وجوه النوبيين السوداء كالأبنوس ، فى الضوء الساطع من كشاف الباخرة • وسالنا أحدهم عن المكان الذى نقصده ، وهل هو دار العمدة ، فرددنا بالايجاب وقالوا ان داره بعيدة للغاية • وفجأة قال رجل يقف فى طرف المجموعة : « ستأتيان معى الى دار شقيقتى » • كان رجلا رقيق البنية قصير القامة ، وله شارب يعلو شفته العليا • وكان يرتدى جلبابا أبيض ، وقد وضع على راسه طاقية بيضاء مستديرة الشكل • والتقط احدى الحقائب ، واحتججت بأنها ثقيلة للغاية ، وقد خيل الى ان أحد الشبان الأقوياء البنية الواقفين فى الجمع ، أقدر على حملها منه ، ولكنه رد بأنها خفيفة ، ثم مضينا نتعثر فى مسيرتنا عبر الظلام وفوق الأرض القاسية الصلبة • وقد ابلغنا انه يدعى نورا وانه سيكون النور الذى يضىء لنا طريقنا • وكانت مجاملة طيبة ، ولكننا كنا فى حاجة الى مصباح ، اذ ان الأرض كانت ملأى بالحصى ، وتعثر غلام كان يحمل آلة الطباعة ، فسقط فى حفرة فى الأرض • وانفجر الجميع ضاحكين ، فى الوقت الذى جزعت فيه على آلتى المسكينة الأمينة التى رافقتنى فى جميع جولاتى حول العالم •

ورأينا على منأى منا فوق التل البعيد ، مصباحا يتحرك ، وادركنا انه رجل يلوح لنا بمصباحه •

وقال نور فرحا : « ان بيتى هناك » ، أما انا فقد سقط فؤادى جزعا اذ تساءلت هل تحتم علينا أن نصعد ذلك التل الصخرى المرتفع فى ذلك الظلام الشديد الحرارة لنصل الى داره •

ولكن القدر شاء لنا هذه التجربة • وكنا قد اجتزنا نحوا من نصف ميل فى سيرنا من النهر ، ولكننى شعرت بأننى على وشك الانهيار ، أو أننى قد أصبت بالاجهاد ؛ اذ ألفت منذ الليلة التى غادرنا فيها أبا سمبل ، أن يشتد خفقان قلبى كل ما اجهدت نفسى وان يجف حلقى ، وأن اصبح عاجزة عن السير • وعندما شرعنا فى الصعود بين الصخور الشاهقة ، واقدامنا تتعثر على الحصى الصغيرة ، غلبنى الاغماء ، فوقعت على صخرة ، وقد وضعت رأسى بين ركبتى ، وقلت بصوت خافت : « يوشك الاغماء ان يغلبنى »

لكن النوبة ما لبثت أن فارقتنى . ورحنا بعد بضع دقائق ، نواصل التعثر فى سيرنا ، صعدا فى طريق الجبل . ولاحظت ان نورا لم يعد يحمل الحقيبة الثقيلة .

ووصلنا أخيرا الى القرية . انها قرية أخرى من تلك القرى الملأى بالغبار ، والجدران الطينيــة العاليــة . تخفى وراءها افنيــة ، وتكتظ بالكلاب الضالة الكبيرة . واسترشدنا بالمصباح الخافت البعيد عنا ووصلنا أخيرا الى دار اخرى من دور الضيافة وقد امتدت باحة كبيرة امامها . ولم تكن هناك اعمدة هذه المرة او شرفة ، بل بساط صغير مد فى وسـط الباحة والى جانبه مصباح صغير . ووقعنا اعياء على البساط ، وجاءتنا امرأة تضع على رأسها « طرحة » سوداء طويلة بشىء من الماء . وعرفنا نور بشقيقته فصافحناها . وسرعان ما رأينا أطفالا يقفزون فى الظلمة لا يكاد الضوء الخافت يظهرهم . وقد جلسوا على الجدار الصغير المحيط بالباحة يتطلعون الينا باستغراب . ونقل متاعنا الى داخل البيت المؤلف من غرفة واحدة تقع الى جانب من الباحة . وكانت هناك مسالك فى الجدار القائم وراء البيت وباب خشبى يؤدى الى فناء البيت الداخلى الكبير .

ومضى نور وشقيقته عبر هذا الباب جيئــة وذهابا يحمــلان بعض الصحاف على صوان مدورة من ســعف النخيل ، ورأينــا بعض السردين والمربى ، والخبز البلدى ، وبعض الفطائر الشرقية واقداح الشاى الشديد الحلاوة . كان هذا ما اكرمنا به هذان الكريمان ، وكان اسفنا شديدا لاننا لم نستطع ان نأكل شيئا . وكنا نواجه دائما نفس الصعوبة وهى افهام هؤلاء النــاس الكرماء ، اننا لانرفض طعامهم ، بل اننــا لا نستطيع ان نأكل ، لأننا لم نألف مثل هذا الحر الشديد ، الذى يقتل شهيتنا ، والذى لا نســتطيع معه الا ان نشرب . ولكن كان من الصعب افهــامهم ذلك ، لأنهم لم يألفوا فى الواقع الا مثل هذا الطقس ، كما انهم لم يكونوا من المتعلمين الذين يعرفون كل شىء .

وكان من حسن حظنا ان الظلمة كانت شديدة ، ولذا فقد تظاهرنا باننا نأكل ، من الخبز الســاخن الطازج ، ونحتسى الشــاى ، مدعيتين أمامهما اننا نأكل .

وعندما رفع الطعام ، ونقلت الصحاف عبر الباب القائم فى الجدار الى الداخل ، جاءت شقيقة نور ومعها صبى يافع ببعض الوسائد . وبمرتبة واسعة ، نشرت فوق البســاط الذى كنا نجلس عليه ، ودعتنا السيدة الى

ان نستريح كما نشاء ، وهذا ما فعلناه حقا ، بعد ان رتبنا الوسائد الى الجدار لنستند اليه .

وجاءت عدة نساء انضممن الى شقيقة نور ، وعندما سألناهن عن صناعاتهن اليدوية ، خرجن ليعدن وقد حملن عينات منها ، من الصوانى المحيكة من سعف النخيل ، وأغطية الاطباق ، والشباك المصنوعة من الخرز للاضواء الكهربية ، وذكرن ان جميع هذه العينات معدة للبيع ، اذ انهن يملكن الكثير منها ، ولا سيما ان شباك الاضواء الكهربية لا تنفعهن لعدم وجود الكهربا فى القرية . وذكرن ان بعض صناعاتهن تباع للسياح فى اسوان ، اذ يحملها ازواجهن واولادهن الى هنــاك عنــدما يعــودون الى أعمالهم . واعربن عن رغبتهن فى ان يبعن شيئا لنا اذ انهن فى حاجة الى بعض المال عندما يذهبن الى كوم امبو حيث الحوانيت فى القرى هناك ، وحيث يحتجن الى المال اذا ما ذهبن احيانا الى اسوان .

وسألت نور عما اذا كانت اخواته ، وكن عديدات ، راغبات حقا فى الذهاب الى قريتهن الجديدة فى كوم امبو ، فرد بأنهن قلقــات ، اذ سمعن ان البيوت صغيرة ، وان ليس ثمة جبل أو نهر ، بل الصحراء ، حيث لا ظل ، يتقين به ...

وسمعت هــذا القول الذى حيرنى من كثيرين ، وتساءلت عن الظل عندهم فى النوبة القديمة ، أما الجبل ، فلا عمل له الا ان يعكس الحرارة. ولكنهم ولدوا ونشئوا وهم يرون الجبل خلفهم والنهر امامهم . فهذا هو الوجود الذى يفهمونه ولا وجود سواه ، بالرغم من الاحاديث الاذاعية التى يسمعونهــا كل مســاء ، وبالرغم من الرؤى التى تتراءى لهم عن الحوانيت وعن المال الذى سينفقونه ، وعن الذهاب الى أسوان ، وعن التحول الى جزء كبير من العالم الذى يؤلفون جزءا منه ، والمتمثل فى مصر .

وذكر لنا نور انه يعمل بوابا فى احــدى عمــارات القاهرة ، وانه يعيش فيها مع زوجته التى آثرت البقاء فيها عندما رأى العودة الى القرية فى اجازة ، لانها تؤثر الحياة فيها . وقال انه لا يود الذهاب الى كوم امبو، فقد الف حياة المدنية ، حيث يعمل احيانا سائقا للسيارة . ولكنه اراد العودة هذه المرة ، ليرى اخــواته للمرة الاخيرة فى القــرية القــديمة ، وليساعدهن فى حزم متاعهن ، اذ لا بد من أخذ الابواب واطاراتها وخشب السقوف الى اسوان ، نظرا لقلة الاخشاب فيها .

ومضت النسوة بعد ذلك عنــا ، ولحق بهن اطفالهن ، واستلقيت

ورفيقتي على الفــراش ، بينما جاء السيد نور ، بحصــيرة نام عليها على مقربة منا ، وهذا ما داب على فعله كل ليلة ٠

وطلع القمر وكان قد أصبح في الثلث الاخير من الشهر ، والقى نهر المجرة ، وشاحا على النجوم في كبد السماء ٠ وبات في وسعنا الآن ان نرى بمزيد من الوضوح ، الخط الطويل لجدران القرية العالية ، وان نرى على الجانب الآخر وقبل الصحراء ، الرمال الفسيحة المنتشرة والصخور البركانية السوداء ٠ وكانت الكلاب تنسل كالاشباح في هداة الليل ، نابحة حينا ، فهي لا ترى امامها الا الماء ، الا اذا بعدت في بطن الصحراء وهي هائمة ، فلا تلقى الا الموت جوعا ٠

وكانت المرتبة التى انام عليها مع رفيقتي ضيقة وقاسية ، وهبت ريح حارة عالية طيلة الليل حتى الفجر ، وسمعت مع بزوغ أضواء الفجر الاولى ، نباحا مرعبــا من الكلاب ٠ ولم اكن قد نمت طويلا ، ولذا فقد احســست بالراحـــة ، اذ قمت من مكاني اسير في زوايا البيت ، ثم أقعى في الفناء ، الى جانب جرة من الماء حيث غسلت وجهي بقليل من الصابون لأستكمل تاهبي للنهار الجديد ٠ اما رفيقتي فكانت اكثر مني احتفاظا بمستوياتها ، اذ كانت تلف نفسها بوشاح ابيض من الذى يلبسه العرب في الصحراء ، ثم تمضى الى كوخ من الطين بعيدا عن البيت حيث بعض جرار الماء ، فتنتزع ملابســها عنها ، وتصب على جســدها بعض الماء ٠ وكنت قد اكتشفت منذ سنوات طويلة ، انني بالرغم من ان عادتي قد جرت على الاغتسال يوميا ، فانني كنت في الحالات التى يصعب فيـــها الاحتفاظ بهذه العادة ، اتخلى عنها كلية او الى حد كبير ، ولما كنت هذه المرة ، قد واجهت الحرارة المرعبة ، والاجهاد ٠ والاوضاع البــدائية في النوبة ، فقد كنت أرى في رش وجهي بالماء وتنظيف اسناني عند طلوع النهار ، مرة واحدة ، جهدا يكفيني حتى اليـــوم التالي ، ولم اكن لأحس باى شعور بالذنب أو بالخجل من هذا الكسل ٠ وكنت أحس بشيء من الفضل لنفسى لأننى لا أراها تضطرني الى بذل أى مجهود ٠

وكنا عندما ننتهي من وظائفنا هذه ، نشرب الشاى الذى يحمله لنا السيد نور ، ونبدأ بعد ذلك يومنا الطويل الحار الذى لا جدوى فيه ، اذ لا تكاد الشمــس تصعد في الســماء ، حتى نصبح عاجزين عن عمل اى شيء الا ان نستلقي وأن نحاول طرد الذباب عنـــا ، ننتظر مرور الساعات الطوال ٠ وكنت اقول لنفسى في النهاية ، ان الوقت لا بد ان ينقضى لأنه لابد ان يمر ٠ ولعل هذا الايمان مصحوبا بالعدد الذى لا نهاية له من

أقداح الماء الممزوج بالطمى ، هو الذى اعاننى على احتمال الحياة فى النوبة .

وبعد ان تناولنا الشاى فى ذلك الصباح الأول ، مضينا مع السيد نور الى حانوت القرية ، وهو حانوت يشبه البيوت المبنية على طراز المعابد ، ويضم غرفتين ، وفى الغرفة الخارجية منهما سريران ، يجلس رجل عجوز على مقعد بينهما يدخن نرجيلته . أما الغرفة الداخلية التى يطل بابها على الغرفة الخارجية ، فملأى باكياس الدقيق والشاى والفول الجاف وكانت ثمة نافذة فى كل من الغرفتين ، تطل على منظر شامل للتلال الصحراوية والسهل امامها والنهر ، والتلال على الجانب الآخر منه . وكانت الارض فى الغرفة الامامية ملأى بالغبار ونوى التمر واعقاب السجائر . وخرج شاب رقيق الهيئة من الغرفة الداخلية ورحب بنا عند دخولنا ، وشرع يعد الشاى على مصباح صغير ، ثم جلسنا على السريرين نحتسى اقداحه ، بينما راحت رفيقتى تتحدث الى الرجال ، الذين يدخنون سجائرهم مدة طويلة ، على النحو المتبع فى الشرق ، حيث لا قيمة للوقت . وشعرت بالملل لجهلى بالعربية ، ولكننى انا المسئولة عن هذا الخطأ .

ورحنا اخيرا نهبط الطريق عبر الصخور الى السهل ، وهى عين الطريق التى كنا قد تعثرنا فى اثناء سيرنا فيها فى الليلة الفائتة . ورأينا عددا من الرجال المتشحين بالملابس البيضاء والصبية يسوقون اغنامهم وماعزهم عبر السهل الى الوادى ، حيث يجرى جدول عريض بحرية بين الاعشاب الشديدة الاخضرار . آه ، انها مراع خضراء ! المراعى الخضراء الجميلة ! ولكن على الانسان ان يعرف الصحراء ، قبل ان يقدر قيمة الخضرة .

ورأيت عند طرف السهل ، عددا من البيوت الخربة التى هجرها اصحابها فى عام ١٩٣٢ ، عندما اضطر النوبيون الى الارتفاع بمساكنهم صعدا مع الجبل ، للخلاص من مياه الفيضان بعد تعلية سد اسوان . وكانت المياه تغمر هذه البيوت تماما فى كل عام طيلة الثلاثين سنة الماضية ، ولم يبق من بعضها الا قواعدها ، ولكننى وجدت جزءامن بيت ، سليما تماما وله سقفه ونوافذه المغلقة وبابه المدهون باللون الاخضر . ونبتت بعض الاشجار فى خرائب البيوت ، وكانت هناك فى كل مكان بقايا اشجار ميتة ، تنتظر ان تغمرها المياه لآخر مرة .

ومضينا فى طريقنا عبر الأرض المشققة ، وقد نبتت فيها أشواك الصحارى وشجيراتها واعشابها حتى وصلنا الى النهر بحثا عن قارب

يحملنا الى الجانب الآخر ، لرؤية المعبد هنــاك ، وزيارة « سفينة علمــاء الآثار » . وكان نصف القرية على الشاطيء الثاني من النهر ، وقد ارتفعت منازلها البيضاء بين الصخور ، وكان ثمة مدرسة هناك ، وان كان اطفال هذا الجانب من القرية لا ينتفعون منها على الاطلاق اذ ليس ثمة من ينقلهم عبر النهر اليها .

وكان حظنا طيبا بالنسبة الى القوارب ، فقد كانت هناك « فلوكة » مربوطة الى الشاطيء ، وبجانبها قارب كبير . ورأينا عددا من الرجال يجلسون فوق العشب الجاف على حافة النهر ، والى جانبهم عدد من الواقفين . وتحدث السيد نور اليهم بعض الوقت ، وتم الاتفاق على ان ينقلنا صاحب القارب عبر النهر ، ثم صعدنا اليه . وما كدنا ثلاثتنا نستقل القارب حتى لحق بنا عدد من الرجال ، واصبح عددنا اكثر من عشرة على قارب لا يحمل اكثر من ستة اشخاص .

وكان من الواضح اننـا لا نستطيع الرحيل في مثل هذا القـارب المفرط في حمولته ، ولذا اتجه اصرارنا الى النزول ، اما بحثا عن قارب آخر ، او انتظارا لعودته بعد ان يكون قد نقل ركابه الى الجانب الآخر . ولكن « المراكبي » رفض اقتراحنا ، ودار نقاش عنيف طويل ، نزل في اثره ثلاثة من الركاب الى الشاطيء . وكان هذا الحل خاطئا ، اذ ان هؤلاء الرجال كانوا اسبق من غيرهم في المجيء ، ولكنهم ارادوا انقاذ الموقف والخلاص من الجدل . وواجهنا في وسط النهر تيارا شـديدا ، وسررت بالغ السرور لان مركبنا لم يكن مفرطا في حمـولته ، اذ ان غرقنـا كان محتملا ، ولا سيما أن المراكبي واجه صـــعوبة شديدة في التغلب على التيار ، ودفع القارب بمجذافيه الى الشاطيء الآخر .

ووصلنا الى الشاطيء أخيرا ، وهبطنا في مكان يواجه معبدا صغيرا ، نصل اليه عن طريق ممر صغير محاط بالتماثيل التي تمثل في مجموعها رمسيس الثاني ايضا . وكان هنــاك عمل متواصل على « الصقالات » الخشبية ، مع بعض الروافع ، ومجموعة كبيرة من الخيام . وتصورنا ان زيارة المعبد الذي يدور فيه العمل على قدم وساق ، تتطلب اذنا مسبقا ، ولذا فقد قررنا القيام بزيارة علماء الآثار أولا .

ومضينا في طريقنا عبر الشاطيء الذي جففته الشمس ، متجهتين الى سفينة علماء الآثار ، حيث رأينا عددا من الرجال يرتدون القمصان الأوروبية ويجلســون على ظهرها . وراحـوا يتطلعون الينـا بشيء من الاهتمـام الدمث عنـدما اقتربنـا منهم . ترى هـل هم من الألمـان أو

الفرنسيين ؟ لكنهم لم يكونوا يبدون فرنسيين ولا حتى من الالمان. ولكن مهما كانت جنسيتهم ، فلا بد ان نجد لديهم شرابا مثلجا مخزونا فى ثلاجات كبيرة بيضاء .

وعندما اصبحنا على مقربة منهم ، رحت اصرخ بأعلى صوتى : « هل فى امكاننا ان نصعد اليكم ، لنراكم ؟ » .

وحتى رجل اشيب الشعر فى شيخوخته ، يتميز بالوقار والمهابة راسه وقال فى لغة انجليزية مشوبة بلكنة اجنبية .. « أجل ، تفضلا » .

وعبرنا على اللوح الخشبى الى ظهر السفينة ، ورحت اقول بشىء من الحياء ، اذ ان رفيقتى امرتنى بان اتولى الحديث معهم بوصفهم من الاوروبيين : « نحن انجليزيتان ، ونقيم فى بيت نوبى على الجانب الآخر من النهر . وقد سمعنا هناك أن بعض علماء الآثار الغربيين هنا ، فجئنا لنراكم . وقد ذكر لنا بعضهم انكم من الفرنسيين .. » .

وضحك الرجل الشيخ ، ثم قال : « لا نحن مصريون . وكان هنا بعض الفرنسيين ولكنهم ارتحلوا منذ امد بعيد » .

وقدموا لنا بعض المقاعد ، وعرضوا علينا ان نتناول طعام الافطار ، ولكننا طلبنا بعض الماء المثلج وسرعان ما لبى طلبنا . وعرفناهم باسمينا، وتحدثنا اليهم عما نفعله فى بلاد النوبة ، وراحوا يحدثوننا بدورهم عن المعبد الذى تحول منذ امد بعيد الى كنيسة قبطية ، وذكروا انهم يقومون بنقله حجرا حجرا الى مكان يبعد خمسة كيلومترات ، ليعاد « تركيبه » هناك فى مكان عال ، لا تصل اليه المياه بعد انتهاء السد العالى . واكدوا لنا ان هذه العملية ستكلف الحكومة نحوا من مليون جنيه . وسألت كبيرهم ، وهو الرجل الشيخ ، اذا كان يظن ان فى الامكان انقاذ تماثيل ابى سمبل . ورد بانه يؤثر شخصيا لو انها اغرقت ، اذ انها منحوتة فى الصخر ، وقد تتحطم اذا جرت محاولة لنقلها ، يضاف الى هذا انها تمت الى المكان الذى تقوم فيه لأنها جزء من الصخر . وذكر بان التماثيل الصغيرة هنا التى تمتد على جانبى طريق المعبد تغرق فى الماء كل عام ، باستثناء رءوسها . وسيجرى نقل معبد وادى السبوع الى مسافة خمسة كيلو مترات فى الداخل . واضاف ان فى وسعنا أن نزور المعبد ، على أن نعود الى ضيافتهم على ظهر السفينة بعد ذلك .

وشكرناه على لطفه ، ثم انتقلنا الى البر ، حيث كان السيد نور فى انتظارنا بفارغ الصبر ، وقد جلس الى الشاطىء المنحدر الذى احرقته

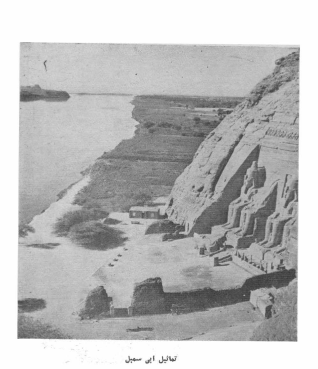
الشمس ، ومضينا معه فى طريقنا تحت لظى الشمس المحرقة الى موقع المعبد ، حيث كان الجو اشد حرارة ، من جراء انعكاس اشعة الشمس على حجارته ، وتقدم الينا حارس المعبد بثيابه البيضاء ، وعندما اوضحنا له هدفنا ، فتح بوابة خشبية دخلنا منها الى المعبد الذى يتمثل أهم ما فيه بصورة غريبة ، يبدو فيها رمسيس الثانى وهو يقدم بعض الازاهير الى القديس بطرس ، ورأينا بعض الصور القبطية الاخرى وقد اقحمت على صور امون راع القديمة وغيره من الآلهة ، ورحنا انا والسيد نور ، نتهامس ونحن نطوف فى المكان بأن انفاق مليون جنيه على نقل هذه الاعمدة المتهشمة والصور المرسومة على الجدران شىء كبير ٠٠٠

ورأينا فى وهج الشمس ، مجموعة كبيرة من الرجال ، وقد تخففوا من الكثير من ملابسهم ، يجرون بالحبال الطويلة ، حجرا ضخما ليوصلوه الى سيارة شاحنة كبيرة تقف على مقربة ، وقد اقيمت فوقها رافعة ، وخيل الى وانا ارقب هذه العملية ، أن هذه الطريقة هى التى اتبعت قبل الوف السنين فى بناء الأهرام ٠

وبدت لنا على مبعدة ، بعض البيوت المزخرفة تطل من بين صخور التل الرملى ، لكن افكارى كانت متجهة الى الجلوس على ظهر سفينة علماء الآثار ، لأشرب جرعات طويلة من الماء النظيف المثلج ، فى حين كان هم نور ان نعود الى الشاطىء الآخر ، حيث تعنى له الحياة فيه الكثير ٠

ومررنا فى طريق عودتنا الى النهر عبر المعسكر الذى انتشر القش فوق ارضه ، وتصورت على أى حال ، ان كل هذا الجهد يعنى العمل ، وانه لابد ان يكون المئات يشتغلون فى الموقع ، وعندما تتم اعادة بناء المعبد فى مكان آخر ، ويغرق وادى السبوع تحت الماء ، سيصل السياح بالعشرات من اسوان على ظهر السفن الخاصة بالسياح ، لرؤية المعبد الفرعونى الذى تحول الى كنيسة ، ولما كانت الحكومة ترغب فى تشجيع السياحة فان هذا العمل مشروع ناجح ، على كل هذه هى مشيئة الله ، وكل شىء بارادته حتى الحرارة والذباب ، وان كان السيد نور لا يشكو منهما ، لانه ولد فى هذا الجو ونشأ عليه ٠

تجسدت مظاهر الحياة على السفينة كلها ،فى رجلين من بحارتها يستلقيان شبه عاريين على الظهر الاسفل عند الدفة ، اما علماء الآثار فكانوا عند خرائطهم فى المكتب العائم ، أو فى المعبد نفسه ، وارانا رجل يعمل فى المطبخ الشديد الحرارة ، كرارا مكيفا مليئا بالبطاطس والبطيخ ،



تماثيل أبي سمبل

وفيه ثلاجة كبيرة ، مقترحا علينا ان نقضي فيه بعض الوقت ، وقبلنا هذه الدعوة الكريمة شاكرتين ، وظللنا في ذلك المكان البارد ساعات طويلة من النهار · حقا كان اشبه بالجنة . وكنا نواجه الجحيم عندما نخرج الى الفرن في الخارج ·

وصعد جميع علماء الآثار الى ظهر السفينة في الواحدة والنصف ، وانتقلنا جميعا الى غرفة صغيرة للطعام قرب « الكرار » · ورأينا امامنا شرائح كبيرة من البطيخ المثلج ، وصحافا ملأى باللحم والبازلاء والأرز وكان اللحم من الماعز ، وهو لذيذ الطعم . كما بدت لنا البازلاء شيئا رائعا بعد هذا الامد الطويل الذى حرمنا ابانه كل خضـــار · ولم يكن في وسعنا بالطبع ان ناكل كل ما شاء كرمهم السخي تقديمه الينا ، ولكن كان في وسعنا أن نفهم على الأقل بأننا لا نزدرى طعامهم وانما نحبه · وضحكنا كثيرا عندما اقترح أحدهم أن نزوج رفيقتي هناك الى شاب من علماء الآثار ، وذكر الشاب ان له زوجة في القاهرة ولكن الشريعة تسمح له بزواج اربعة ، ولذا فهو يرحب بالفكرة اذا قبلت الآنسة الاقتراح · ارادت الآنسة مواصلة المزاح ، فاعلنت قبولها ، وسرعان ما رحنا نشير اليهم بالزوجين · وقد وعدها بان ينجب منها عددا كبيرا من الاطفال ·

وعنـدما انتهى الغـداء ، ودار حـديث قصير ، راح علمـاء الآثار والرسامون ينسلون واحدا اثر آخر الى قمراتهم لينالوا قسطا من النوم · وكنا نرحب بمثل هذه الراحة لو اتيحت لنا ، ولكن لم يكن ثمة مكان ننام فيه الا اذا شئنا النوم على ظهر السفينة الشديدة الحرارة · وكان في وسعنا ان نمضي بحثا عن قارب ينقلنا الى الجانب الآخر من النهر ، ولكن حتى لو فرضنا اننا عثرنا على هذا القارب ، ووجدنا صاحبه على استعداد للتخلي عن نومه بعد الظهر ، فما النفع من قيامنا بمثل هذا الجهد المنهك في تلك الساعة الشديدة الحرارة ؟ وكان مجرد التفكير بالطريق الطويلة التي لا ظلال فيها والتي سنقطعها من النهر في الجانب الآخر الى سفوح التلال ، لنعود فنصعد بين الصخور الى القرية ، يقض علينا مضاجعنا · وقد يكون صحيحا ان ليس لدينا ما نفعله في السفينة ، ولكن لم يكن لدينا ما نفعله ايضا في القرية ، ولذا فالبقاء في السفينة افضل ، ولا سيما أن هناك الماء النظيف المثلج · وكان في وسعنا أن نمضي ايضا الى الكرار المكيف الهواء لنقف فيه · وكنا قد طلبنا الى نور ان يبعث الينا بقارب لينقلنا الى الطرف الآخر من النهر عندما تهبط الشمس اى في الساعة الخامسة · ورأينا مروحة كهربية في قمرة تضم بعض الرسوم والخرائط،

ولكنها كانت تدفع الهـواء السـاخن الذى يفوق فى حرارته حرارة ظهر السفينة . وراحت الدقائق والساعات تمضى ببطء .

وعاد علماء الآثار من راحتهم ، ودار الحديث من جديد ، مصحوبا بأقداح الشاى . وراح شاب مرح ذو لحية صغيرة يغنينا أغنية « عد بى الى القاهرة » ؛ وعرفنا منهم انهم مضوا عدة اشهر على ظهر هـذه السفينة وانهم سيقضون فوقها شهرين آخرين . وكان رئيس البعثـة قد اعد بحثا قيما عن العمل ، وكان يتسـاءل عما اذا كان سيدرج فى مقدمة الكتاب انه اعده « بالاشتراك مع » او « بمساعدة » ، اعوانه . وكان الرد ان اختيار العبارة يتوقف على مدى تعاونهم معه فى اعداده . واثار الشاب ذواللحية صديقى عندما قال ان تضحية النوبيين ببيوتهم واراضيهم لا تقاس بالخير العميم الذى سيحققه السد العالى لمصر كلها وأبنائها بما فيهم النوبيون . ولم تهدأ ثائرة هذه الرفيقة ازاء اصرار الشاب على رأيه الا عندما شرع يغنى من جديد « عد بى الى القاهرة » ثم يمضى بعيـدا عنا . وهبطت معها الى الشاطىء تلبية لاقتراحى ، لنعد وسيلة النقل ، ولا سيما أن الشمس قد هبطت منذ أمد بعيد من كبد السماء ، ولم يبد اى أثر للقارب الموعود .

ولاحظنا ان سفينة علماء الآثار تحمل محركا بالاضافة الى قارب بخارى مشدود اليها . وخيل الينا اننا لو بينا لهم المشكلة التى وقعنا فيها، فانهم سينقلوننا فى ذلك القارب البخارى بسرعة ، دون أن يحملوا اى عناء .

وعبرنا فوق لوح خشبى الى ذلك القارب الغريب . كان شـديد الظلمة فى داخله ، ويبدو انه كان يستخدم فى نقل كميات كبيرة من الحجارة من المواقع الأثرية ، وحيانا شاب مصرى بمنتهى اللطف والدماثة ، وبدا راغبا فى مساعدتنا اذ مضى ليتحدث الى « رئيسه » فى موضوعنا . واتضح ان الرد بالايجاب ، اذ سرعان ما جاء شاب آخر قادنا الى القارب ثم لحق بنا ليدير محركه على الفور .

وكان الغسق قد حل عندما هبطنا على الشاطىء الآخر . ولم يكن ثمة مجال للتحدث الى الشاب فى موضوع الأجر ، وسرعان ما رافقنا بلطف الى الشاطىء ، ثم ودعنا بابتسامة ودودة مشرقة وعاد يقفز الى قاربه متجها الى الضفة الأخرى .

وتمكنا من العثور على طريقنا عبر الصخور فى ساعة الغسق حتى

وصلنا الى القرية . وكان منظر الأرض الصحراوية العالية بتلالها المدببة والمندفعة من قفر من الرمال والصخور فى منتهى الغرابة فى تلك الساعة التى يغيب فيها الضوء ، وسرعان ماتبينت انها تشبه المخروط البركانى ، بكل ما فيه من غرابة وبعد عن الأشياء الأرضية المألوفة . وقد ازدادت هذه الصورة وضوحا عندما سمعت بعد حلول الظلام اصوات طبول بعيدة. ورايت اشباحا تسير تحمل المصابيح تحت جدران البيوت لتدفع عنها الأرواح الشريرة .

وقد اعجبنى بعد شهور طويلة ، وبعد ان كنت قد عدت الى لندن ان اجد السير صمويل بيكر (1) يتحدث فى كتابه الرائع عن الطبيعة البركانية لهذه المنطقة . وكان قد أدار ظهره للنيل عند قرية كروسكو الواقعة الى الجنوب قليلا من وادى السبوع ، وارتحل ممتطيا الابل فى الصحراء النوبية . ولم تنقض بضع ساعات على توغله فى الصحراء ، حتى واجه « صفا » من التلال المهشمة ، كلها من أصل بركانى ، تقسم الهضبة المسطحة ، التى تغلى كالفرن . ورايت قمما مدببة من الصخور البركانية هنا وهناك ترتفع الى مئات الأقدام ، وتشبه اذا ما نظر اليها المرء من بعيد اهرام مصر الدنيا مما يشير الى أنها كانت النموذج الذى احتذاه بناة الأهرام فى تشييدها . وكانت تلال البازلت الأسود تبرز من الارض الرملية المجدبة ، فى حين يهتز الهواء الذى أذابته الحرارة فوق قمة هذا المنبطح الصحراوى المخيف الذى تصل الحرارة فى الظل فيه الى ١١٤ درجة فهر نهايتيه وفى وهج الشمس الى ١٣٧ » .

وقد بدا رحيله من اسوان فى عام ١٨٦١ وعثر على بقايا معبد الفيلة وما فيه من « آثار رائعة فى النيل بسبب وقوفها الفذ فوق جزيرة صخرية تسيطر على معابر النهر فوق الشلال .. ورايت اثار القلاع القديمة على جانبى النيل . ولا ريب فى ان ما فى المنظر من اقفرار على مقربة من جزيرة الفيلة يبعث سحرا فى النفوس . فالصخور الجرانيتية المجدبة والعارية من كل شىء الا من الرمل الذى يغطى بعض صفحاتها ،

---

(1) السير صمويل بيكر (١٨٢١ - ١٨٩٣) - مكتشف بريطانى . ارتحل فى أسيا الصغرى وشرق أوربا . بدأ اكتشافاته فى حوض النيل فى عام ١٨٦١ وهى التى اشهرته . اكتشف نهر عطبرة وفيكتوريا نيانزا . ومنابع النيل . عينه اسماعيل حاكما عاما للمناطق الاستوائية فى الجنوب ومهد الطريق لخلفه جوردون . وضع عددا من الكتب عن النيل .

(المعرب)

وغابات النخيل التى تطلع فجاة امام العين فى هــذا القفر الصحــراوى عندما يطل المرء من منعطف فجائى على النهر ليكتشف قربه منه ، والسماء الصافية الزرقاء التى لا تتجمع الغيــوم فيها ابدا ، والنيل الذى يعتبر المنحة الالهية الوحيدة لهذه الارض ، يجرى صامتا بين جدارين متجهمين من الصحراء ، نحو الارض البعيدة فى مصر الدنيا ، كلها تشترك فى خلق منظر لا يمكن للانسان ان يراه الا على النيل » ٠

وجاءوا لى بسرير وضعوه فى الباحة امام « المضافة » ، وهذا عنى ان تصبح رفيقتى مالكة للمرتبة المفروشة على الارض وحدها ٠ وابعدتها شيئا ما عن الحصيرة التى ينام عليها السيد نور ، ولا سيما لم يكن ثمة ما يدعو مع وجود هذه المساحات الشاسعة من الصحراء حولنا ، الى ان ينام الواحد منا قريبا من الآخر ٠

ولم يدر فى بال أحد منا ، ان نوم السيد نور فى المكان نفسه الذى ننام فيه امر غير لائق اطلاقا ٠ فالامور تجرى على طبيعتها هنا ٠ يتناول المرء طعامه ، وهو جالس على الحصير ، ثم يجلس ويتحدث ويدخن لحظات أو يستمع الى اذاعة « صوت امريكا » على جهاز الترانزستور أو الى اذاعة القاهرة ، ثم ينبطح حيث هو لينام او ليحاول النوم على الاصح فى مثل هذا الجو من الهواء الشديد الحرارة ومن الكلاب النابحة القريبة منها او البعيدة ٠ ولم تكن الواحدة منا تنزع ملابسها لتستبدلها بملابس النوم، اذ لا داعى لذلك اطلاقا ، ولا سيما أننا كنا منذ امد طويل ، ومنذ وجودنا فى هــذا الجحيم لا نرتدى ايا من الملابس الداخليــة ٠ وكثيرا ما كانت الواحدة منا تغسل ثوبها بالماء البارد وتنشره على الجدار أو على صخرة ، فيجف بعد لحظات ، هذا اذ لم تمسكه بيديها ليجف فى دقائق ٠ وهكذا لم يكن غسيل الملابس يمثل لنا اية مشكلة ٠

وكانت المشــكلة الوحيــــدة التى نواجهها هى كيف نقضى تلك الســاعات الطوال فى عذاب الذباب ٠ وكنــا اذا ما ارتفعت الشمس فى الجوزاء ، نلجأ الى الداخل ، اذ ان الحرارة فيها والذباب اقل منهما فى الخــارج مهما كان الامر ٠ وكنــا نستلقى على سريرينا نهش الذباب عن انفسنا وننتظر مرور الساعات الطوال ٠ وكانت غرفة الضيافة قاتمة ومخيفة ، اذ لا شىء فيها نتطلع اليه سوى الجدران الطينية ، وكنا نسر بمرأى الاطفال وهم يدخلون الينا ، وان كنا نبدأ الاحساس بالضيق بعد دخــولهم بفترة وجيزة ٠ فهم يقعــون على التراب الى جــوار سريرينا ،

يتطلعون الينا ويبتسمون بخفر واستحياء دون ان يفوهوا ببنت شفة وان تهامسوا بعض العبارات باللغة العربية ٠وكانت «مروحتي» اليابانية تجتذب انتباههم دائما . فاسلمهم اياها ، ليتفحصـوها ، ويروحون يفتحـونها ويغلقونها ضاحكين ليعيدوها الى بعد ذلك ٠ ولم ار « لعبا » فى أيديهم من اى نوع حتى من النوع البدائى المصـدنى او الخشبى ، ولا يعـرفون من الالعاب الا ان يجرى الواحد منهم وراء رفيقه مهددا اياه بعصا غليظة ، ولم يكن ثمة ما يشغل عقول اولئك الاطفال الذين لا يؤمون المدرسة كاطفال فى ذلك الجزء من قرية وادى السبوع ، طيلة الساعات الطويلة الحارة التى يجلسـون فيها فوق الرمال ، ووراء الجدران ينتظرون مرور الزمن .

وجاء بعضهم ذات يوم ، وكنت ورفيقتى مستلقيتين على سريرينا ، وقفزت الرفيقة من مكانها وجلست معهم فوق التراب ، ثم راحت تصنع لهم بمقص وبمسـاعدة بعض الدبابيس من بعض الأوراق الاعلاميـــة التى حصلنا عليها فى اسوان، صفوفا من البيوت، وسفنا من الورق، واقزاما من الرجـال ، وكانوا يراقبونها بانظارهم وهى تعمـل ماخوذين ، ولكنهم ما لبثوا عندما اسلمتهم الاشياء التى صنعتها ان مزقوها اربا ، ولم تفلح جهودها فى حملهم على ان يعملوا اشياء جديدة ٠ وكانوا نظرا لافتقارهم الى المنافذ الخلاقة لطاقاتهم ، يصرفونها فى دفع بعضهم البعض وتبـادل الضربات والخطف ٠ وبدا لى أن الضرب بالعصا هو التسـلية الوحيدة للصبيان ٠ ومع هذا ، كان الاطفال قد تعلموا من رفيقتى عندما كنا فى ابى سمبل شق الاقنية فى الرمل ، ودفع الميـاه فيها فراحوا يشـقون الاقنية ويبنون الشلالات المصغرة ٠ ورأينا الاولاد ايضا فى مدرسة ابى سمبل يقبلون بلهفة على اعمال البستنة وزراعة الحدائق التى يخططونها بالزجاجات ، خالقين اشكالا هندسية فى منتهى الجمال ٠ ولكن هنـاك مدرسة فى أبى سمبل ، وقد أنمت المدرسـة بوجودها بعض الروح الخلاقة لدى الاطفـال ٠ اما هنا فى هذا الجانب من وادى السبوع ، فليس ثمـة وجود لمدرسـة ، وهذا أمر فى منتهى الاهمية ٠ ولو لم يكن للنوبة الجديدة فى كوم امبو من حسـنة سوى المدارس الجديدة ، فهذا امر كاف ، اذ انها ستتيح للاطفال فرصة التعليم الذى ينمى طاقاتهم الخلاقة ويوجهها ٠ وانى لاعتقد ان اطفال وادى السـبوع ، لو اتيح لهم الوقت والصبر ، لخلقوا الكثـير من المواد المتوافرة لهم ، وكان جـل ما يحتاجون اليه التوجيـــه والتشجيع٠ ويقدر هؤلاء الاطفال كل شىء مهما صغر ، فالصفيحة الصغيرة كنز ثمين ٠ ولكل قصاصة ورق قيمتها عندهم ، وكذلك الحال بالنسبة الى اية علبة فارغة من علب السجـائر ، أو زر أو دبوس ٠ ورأيت طفلة

صغيرة تخطف «دبوس مشبك» من متاعي، وتفر بعد ان وضعته على صدرها وكأنه قطعة ثمينة من قطع المجوهرات . وكانت « اللفة » العادية من خيوط القطن الاسود ، تثير لديهم الكثير من البهجة . وحاولنا تعليمهم كيف يصنعون الاراجيح من الحبال ، ولكن عملنا لم يستثر الكثير من الاهتمام ولم يحاولوا تقليده .

وكانت الفتيات بل وبعض النسوة يقفن على مبعدة احيانا ، يرقبنني وانا اسرح شعري الأشقر الطويل ، ويبدو انهن رأين في عملي منظرا عجيبا ، بل وشريرا الى حد ما ، فقد ارتعدت فرائصهن من رؤية الشعر في لون الرمال . كما ذهلن من تلك البشرة القرمزية التي يشتد احمرارها في وهج الشمس. وكان اللون الطبيعي للشعر والبشرة عندهن هو اللون الاسود اللامع البراق . وبدأت أشاطرهن هذا الشعور مع مضي الوقت ، ورؤيتي نفسي محاطة دائما بهذه المخلوقات السوداء الجميلة ، ورحت افكر في وضع كتاب بعنوان « سوداوات ولكن جميلات » أتحدث فيه عن أهل النوبة .

وحل يوم ، كان من الايام الطبيعية ، اذ لم تكن الشمس فيه قاسية الحرارة . ومضيت ورفيقتي مع السيد نور وابن أخيه ، وهو يافع في الخامسة عشرة من عمره ، على الطريق عبر الصخور ، بعيدا عن المنظر البركاني الى السهل . وعندما عبرنا الوادي عثر الصبي على سمكة ضخمة ميتة في الجدول ، قام وعمه بتفحصها ، ثم دفنوها بين الاعشاب ، لنمضي في طريقنا عبر السهل ، ونصل الى مكان تنتشر فيه الصخور والاعشاب البرية وشجيرات الشوك على سفح تل لم تكن اشعة الشمس قد وصلت اليه بعد .

وجلسنا هناك بعض الوقت ، وانضم الينا رجل وطفلاه . وقد ذكر لنا الرجل ، ان هناك كهفا بين الصخور يقيم فيه ثعبان مقدس منذ مئات السنين . واضاف الرجل انه لم ير الثعبان وانه لم يكن ميالا قط للبحث عنه ، ولكن هذا ما سمعه من الآخرين . وآمنت رفيقتي بوجود الكهف واعتقدت انه يضم بعض النقوش ، فقررت أن تصعد ، اما نحن ، وكنا أقل نشاطا وحماسة منها فقررنا البقاء في الظل الساخن ، في حين راح الاطفال يلهون ببعض الثمار الخضراء والجوفاء التي رأيناها تنمو في البلانة وابى سمبل . وأخذ الرجلان في الوقت نفسه يتبادلان الحديث بالعربية .

وعادت رفيقتي بعد لأي دون ان تعثر على الكهف او الثعبان او النقوش . ومضى الرجل وطفلاه في طريقهم الى القرية ، ورحنا نحن نهبط

الى السهل متجهين الى شجرة كبيرة من الشوك ، حيث ذكر السيد نور اننا سنجد الماء عندها ۰ وقد دهشت من قوله هذا ، ولكننـــا ما كدنا نصل الشجرة ، حتى وجدنا جرة كبيرة من الفخار مثبتة في جذع الشجرة، وكان ابناء القرية يتناوبون يوميا نقل الماء اليها من النهر ، وقد وضعت فوقها صفيحة معدنية يستعملها الشاربون كوعاء للشرب من الجرة ، وتمنع عن مائها الحشرات والسحالي والاوراق ۰

وروينا ظمأنا الى الماء ، وجلسنا تحت الشجرة نرقب مرور «فلوكة» عساها تحملنا الى الدكة الواقعة على منتصف الطريق الى اسوان ۰ وقدرنا انه في حالة فشل هذه الخطة ، فلا بد من الانتظار يومين آخرين ، حتى تصل سفينة البريد السودانية ، وهما ليسا بالمدة الطويلة ، وان كانت الســاعات لا تنقضي في ذلك المكان ۰ لكنني لم اكن ميـالة الى هـذه « الفلوكة » ۰

ورأينا « فلوكة » كبيرة راسية الى الجانب الذي نقيم عليه من النهر ، وهي اشبه ما تكون بالسفينة العائمة ۰ ورأى نور ان هذه الفلوكة بعـد ان تنهي عملها في شقي القرية الواقعين على شـــــاطىء النيل ، لابد ان تتجه شمالا ، وقد يكون صاحبها على استعداد لحملنا معه كمسافرتين ۰ وراح يوفد ابن أخيه ليتثبت من ذلك ۰

وعاد الغلام يقول ان هذه الفلوكة متجهة الى المضيق ، لا الى « الدكة » ، ولكن هناك قاربا اصغر منها ، وصاحبه على استعداد لحملنا ، وان كان لا يقتني رخصة تمكنه من هذا العمل ، وبعثنا بالصبي مرة ثانية ، وجاء يقول ان صاحب القارب على استعداد لحملنا الى الدكة مقابل عشرة جنيهات مصرية ۰

وقال نور ۰۰۰ لا بأس ــ فقد تكون هناك فلوكة اخرى ۰ وعلينـــا ان نبحث ۰

وكانت هناك نسائم باردة عندما وصلنا الى الشــــجرة اول مرة ، ونعمنا بهذه النسائم التي رحنا نعب منها عبا ۰ وفي حين كنا نرقص مع هذه النسائم ونور يتطلع الينا بدهشة مصحوبة بالارتياح ، رأينا جماعة من النسوة والفتيات تتجه نحونا بملابسهن الحمراء والزرقاء الزاهية ، « والطرحات » البيضاء منتشرة فوق رؤوسهن ، وقال نور انهن ماضيات الى حفلة عرس تقام على بعد ثلاثة كيلو مترات ورأينا عندما دنون منا انهن يضعمن الكثير من الحلي والقلائد والاقراط والاســاور والخلاخل ، ويضعمن

فى اقدامهن « اخفافا » من البلاستيك · وافترت شـفاههن عن بسـمات ودودة ، انطلقت وراءها اسنان بيضاء كالثلج من تلك الوجوه السمراء · وتبودلت التحيات بالعربية طبعـا · وبدت هذه النسـوة فى ملابسهن الزاهية ، كالازاهير المتفتحة ، لا يفسد جمالها الا تلك « الاخفاف » ·

وواصلن سيرهن ضاحكات ، وعندما مضين عنـا ، لم يعد النسيم عليلا ، فاستلقينا على ظهرنا على الارض المشـققة ، ورحنـا نقطع الوقت بالتطلع الى غضون الشجرة الصغيرة ، التى صنعتها اشعة الشمس باللون الاحمر ، والتى تعشش فوقها العصافير الشاحبة والداكنة اللون · وجاء طائر جميل ابيض صغير · ورأينا عددا من السحالى تصـعد فوق جذع الشجرة وتهبط ، وهى ترفع رءوسها الذكية مستعدة لسـماع كل حركة. وبالرغم من ان الشجرة كانت تحمل بعض البراعم الصغيرة الا ان اوراقها كانت ميتة ، فى الغالب ، مما يشير الى ان الشجرة كانت تسير فى طريق الموت بسبب فيضان الماء عليها فى كل عام · وها هى الآن تعيش ايامها الاخيرة ·

ولم يعد للنسيم وجود عند الظهيرة ، واصبح الحر لا يطاق ، اذ غدت الشمس عمودية فى كبد السماء ، تطل باشعاعاتها عبر الفروع والاغصان، وبعث نور بالغلام فى مثل هذا الحر القاتل ، ليبحث عن الغداء ، عابرا السهل الخالى من كل ظل ، ومارا بالطريق الضيقة بين الصخور ، ليصل الى دروب القرية الترابية ، ويعـود حاملا طبقا من المعدن على راسـه · وحاولنا ان نصرف نور عن ايفاد الصبى فى هذه المهمة الشاقة ، ولكن العم ضحك قائلا : لا · انه فتى ، وفى وسعه ان يعمل ذلك ·

ولم تمض ساعة حتى كان الغلام يعود وقد حمل على راسه «صينية» من سـعف النخيل ، فوقها الاطبـاق والامواس والشـوكات ، وبعض الشطائر ، واكوام الخبز البلدى المعهودة ·

ولم تكن شهيتنا متفتحة للطعـام ، ولكن الرحلة مثلت تحولا فى حياتنا الرتيبة ، صرف اذهاننا بعض الوقت عن الحرارة الرهيبة · وكنا لا نزال فى نفس المكان عندما راينا امراة تتجه الينا قادمة من السهل ، وعلى رأسها «طرحتها» السوداء وقد حملت شيئا فوقها · وسرعان ماتبينا فيها شقيقة نور اذ جاءت تحمل الشاى الينا ·

وكان حر بعد الظهيرة من النوع الذى لا يتصوره العقل فى السهل ، ولم تعد الشجرة تؤمن لنا اى قدر من الحماية · ولم يعد الواحد منا يحدث

الآخرين ، او يتطلع بحثا عن شراع مركب ، اذ لم يكن في وسع احد ان يفعل شيئا سوى الاستلقاء على الأرض منتظرا مرور الموجة الثقيلة من الحر . وصببت بعض الماء من الجرة على المنشفة التى احملها ، ووضعتها فوق راسى ومنكبى ، ولكن ما كنت اكاد اضعها حتى تجف ، لاعود فاكرر المحاولة من جديد . وهنا تبينت ان ما افعله مخالف للروح الاشتراكية . فالماء هناك ليشربه الناس لا ليضيعوه كما اضيعه . وقررت ان اهبط الى النهر . وليست الطريق شاقة على اى حال ، فالمسافة قريبة . ومهما كانت النتائج فعلى المرء ان يبذل جهده .

وكانت الطريق محنة بالفعل . وخطر فى بالى وقد وصلت النهر ، وانا التى لا احسن السباحة ، ان خير ما افعله هو ان انزل فى الماء حتى رقبتى وان اظل فيه ، دون ان ازعج خاطرى لحظة واحدة بخطر البلهارسيا.

وكان ذلك الاستلقاء عارية فى النيل فى ذلك اليوم القائظ الذكرى الممتعة الوحيدة التى ما زلت احملها حتى اليوم عن ذلك الكابوس النوبى. وخيل الى اننى قد فهمت النيل ، شريان الحياة فى مصر ، ونعيم بلاد النوبة الوحيد .

وعندما اشرفت الشمس على المغيب ، عدنا الى الوادى . وبين لنا نور ان فى وسعنا ان نستحم هناك كما نشاء ، فالماء وافر ، ولن يضايقنا احد بوجوده . وقادنا الى ناحية يجرى فيها الماء العميق سريعا وقال والسرور يبدو على محياه .. « هنا ماء كثير ، ولن ياتى احد الى هنا » . ثم راح يفارقنا ليعبر الوادى الى الجهة الاخرى متجها الى القرية دون ان يلقى نظرة واحدة الى الوراء .

ورحنا نشغل أنفسنا بالتوافه ، متطلعين الى الخضرة حولنا والى البرك العميقة ، نرقب الطيور المائية والفراشات ، دون ان احس بالرغبة فى الغطس فى الماء . وشعرت بغرابة فى كل ما حولى . وكنت عندما عدت من النهر قد احسست بكثير من النشاط ، ولكن الجهد الذى بذلناه فى عبور السهل الى الوادى ، قد اعاد عملية الجفاف الى بدنى ، واحسست بحلقى كالصخر ؛ وبلسانى قد تورم ،وبمذاق رهيب مر فى فمى ،وزحفت الى الجدول ولعقت بعض الماء ، ولكن دون جدوى . واشتد الألم بى ، واصبحت الحركة أمرا مجهدا لا تحتمله قواى .

وبدت لى الطريق طويلة قبل ان نصل الى سفح الربوة التى

سنتسلقها لنصل الى القرية . ورايت عددا من النسوة يملان صفائحن من ينبوع يخرج من بين الصخور فى بطن الوادى . وبدأنا نصعد الربوة، وقد امتص الجهد آخر نقطة من الرطوبة من ابداننا . وكان جفاف حلقنا من النوع الذى لا يطاق ، ولم يعد فى وسعنا ان نتكلم . وحاولت ذات مرة بدافع الفضول ان ابصق ، فلم يخرج شىء من فمى .

ووقفت بعض النســـوة ومعهن اطفالنا الى جانب جـدار يرقبننا ونحن نجاهد فى صعودنا ، ورحن يرشدننا الى الطريق الصحيح ، عندما رحنا نسير فى طريق خاطئة . وتقطعت انفاسنا عندما وصلنا اليهن ، ولم يكن فى وسعنا ان نقول شيئا سوى « ماء ! ماء ! » . وجلسنا على سلم أمام المدخل ، وسرعان ما حملت النسوة الماء الينا . وتحلقن حولنا وقد حملن اطفالهن الرضع .. انهن جميلات ، بقاماتهن المشوقة ، وعيونهن الحـور ، وتقاطيعهن الرائعة ، وبتلك الحـلاوة فى تعبيرهن ، ودعوننا الى الدخول الى الفناء ، لنجلس ونستريح ، وبالرغم من أننا اجتزنا العتبة ، الا اننا ما لبثنا ان اتكأنا الى الجدار قرب جرات الماء ، ورحنا نعب عددا من الاقداح ، ثم شكرناهن ، وودعناهن ، ومضينا فى طريقنا عبر الشارع الترابى الى بيت السيد نور ، حيث كان الرجل ينتظرنا فى الفناء .

واعدت لنا وجبة فاخرة فى تلك الليلة ، ضمن الامكانات المتوافرة، اذ راينا السمك والســباجيتى والعدس بالاضافة الى حســاء الفراخ . وتساءلت ورفيقتى عن مصدر هذا السمك . فلعلها تلك السمكة الميتة التى عثرنا عليها فى الصباح فى الوادى . وبدا لنا ان الصدفة فى العثور على تلك السمكة فى الصباح ، واعداد وجبة من السمك فى المساء ، فى منتهى الغرابة . وسواء اكانت وجبتنا من تلك السمكة الميتة ام لا . فقد كان طعم الفحم الذى طبخت فوقه غالبـا عليها ، بحيث لم نســتطع أن ناكل منها الا قطعة واحدة . وعلى كل حال كانت شهيتنا الى الطعـام مفقودة كالعادة ، ولم نتناول الا بضع ملاعق من العدس ، وآثرنا أن نلقى ببعض قطع من الفراخ الى الكلاب الضالة مخافة ان يعود نور فيرى اننا لم ناكل من طعامه . واحسست بأنه كان معتزا بوجبته التى صورها بانها وجبة من الطراز الغربى ، فقد ذكر وهو يضع الطعام امامنا على المائدة فى الفناء الى جانب السرير .. « حساء ، سمك ، فراخ ، مكرونة ، ونوعان من الخبز » . وكان من البشاعة بمكان ان نطعم الكلاب من هذه الوجبة ، ولكن ما العمل . اننا خيبنا امله اكثر من مرة ، وازعجناه بقلة اكلنا ، وكان يقول كل مرة ، والأسى ينطلق من محياه .. « انكم لا تحبون طعامنا .. انه لا يصلح لكم » .

وتناولنا طعامنا فى الظلام تلك الليلة ، اذ لم يكن هناك «جازولين» فى المصباح ، واطفأت الريح شمعة كنا قد اخرجناها من متاعنا .

وطلع القمر فى ساعة متأخرة ، وكان فى اواخر ايامه ، ولكن النجوم كانت هائلة فى بريقها وتعدادها . وسمعنا مذيع صوت امريكا ينقل الينا على جهاز الترانزستور ، نبأ العملية الجراحية التى اجريت للمستر مكميلان .

وكنت اود ان امضى فى اليوم التالى الى حيث كنا بالأمس ، ولكن رفيقتى اكدت انها تحس بمرض شديد ، وانها عاجزة عن بذل اى مجهود. يضاف الى هذا ان «نور» كان مشغولا فى ذلك اليوم بثمن البيت ، اذ كانت الحكومة قد اعلنت انها ستدفع للناس نصف القيمة المقدرة لبيوتهم ، وكان عليه ان يساعد اخواته فى تقرير هذا الموضوع ، وفى الحصول على أية تعويضات اخرى لهن . وشعرت باننى لا استطيع القيام بالمحاولة وحدى، ولذا جلست على السرير الذى نقلوه الى الغرفة فى الداخل واخذت اعد بعض المذكرات ..

ودونت فى مذكراتى .. « الحر هنا اخف وطأة من الخارج ، ولكن الذباب اثقل ظلا . وامامى الارض الترابية القذرة المألوفة . وفوقى السقف المشدود الى الواح من جذوع النخيل . وهناك نافذتان مغلقتان فى جانبى الغرفة ، وقد دهنتا من الخارج فقط باللون الاخضر الذى بهت منذ امد طويل ، والى جانب السقف ثلاث كوات صغيرة ، كانت مغطاة بالأسلاك ، ولكن بعضها قد تقطع وهناك شقوق اخرى فى السقف على اى حال . وتتألف الجدران من الطين الجاف ، وقد طليت باللون الرمادى الى ارتفاع اربعة أقدام . وليس فى هذه الغرفة الا السرير والا مائدة غليظة يقدمون الطعام الينا عليها ، وامام الغرفة صخرة نستعملها كدرجة تصل بنا الى الفناء الرملى .

وعاد السيد نور الينا يحمل سكينين ، وحجرا مائيا صغيرا . وراح يشحذهما على الحجر وهو واقف عند النافذة . وانضم اليه الغلام الذى اخذ يرقبه بهدوء .

ورحت أسأله .. اتريد ان تقتل احدا ؟

ـ اريد ان اذبح ماعزا .

وسرعان ما خرج من الغرفة مع الغلام .

وعنـدما رأيته للمرة الثـانية ، رأيت بعض الدم يلوث جلبـابه الابيض • ولم تمض ساعة او نحوها ، حتى كان يعود الينا يحمل قدرا يتصاعد البخار منه ، وصحنين أبيضين •

• وقال نور ••• هذا كبد الماعز •• انه لذيذ للغاية •

وأكلنا شيئا منه ، دون شهية ، حقا كان لذيذا ولكنه كان دسما، وكانت الحرارة قد غدت لا تطاق وقت الهاجرة • ولم يكن فى وسعى ان ابعد بخيالى عن صورة ذكر الماعز وهو مذبوح تقطر الدماء منه ، وقد علق من رجليه ••

وتبدو القرى النوبية لنـاظرها من بعيد وكأنها من قلاع القـرون الوسطى أو كالقرى الهندية القائمة على الحدود الشمالية الغربية بأسوارها العالية ، وعوارضها البارزة •

وتشبه هذه القرية مكانا فى مخروط بركانى ، اذ تختلط الرمال فيها بالحجارة السوداء ، وبالصخور الغريبة التى تشـبه كتل السـائل البركانى • وتنتشر الطرقات التى أبلتها قدم الانسان فى جميع الاتجاهات عبر التراب والرمال والصخور والحجارة والبراز الانسانى والحيوانى •

وتماثل معظم بيوت القـرية ، تلك البيوت التى يبنيها الاطفـال الصغار من احجار البلاستيك ، بأبراجها غير المتساوية ، وبأبوابها التى تقوم فوقها وفى وسط الجدار ما يشبه المداخن ، وكلها من طراز صبيانى يشبه الصور البدائية ذات الالوان البيضاء والزرقاء التى تزدان بها المنازل نفسها • وتسود الفوضى وراء الجدران ، فهنـاك الحمير تلوك اكواما من القش اليابس فى الزوايا ، وبعض الدجاج الرومى والفراخ التى تنتشر فوق التراب وقد سقط عنها ريشها ، وفى احـــدى الزوايا زير ماء ، والاطباق الفـسيل ، والى جانبها ابواب تفتح لتقود الى غرف معتمة ، فيهـا بعض الاسرة ، وقد تكومت فوقها « المراتب » التى تنـام عليها النسـاء والاطفال •

ورأيت فى فناء احد البيوت بطة مسكينة تقف على قدم واحدة ، بينما شدت القدم الاخرى بخيط رفيع ، وظلت المسكينة تقف فى هذه الشمس المحرقة الى ان هبطت اعياء على التراب • ورأيت عجوزا عمياء ، وقد شدت الرباط على عينيها ، كمـا رأيت رجـلا شيخا قيل لى انه تجـاوز المائة

والعشرين من عمره . حقا ان المكان كله ، تسوده الفاقة والشقاء والبؤس .

وتساءلت عما يمكن لهذه النسوة ان يجدنه من موضاعات يقطعن فى الحديث عنها رتابة حياتهن . فهن يعشن فى خواء ، وقد بعد رجالهن عنهن ، كما ان اطفالهن لا يجدون ما يلهون به او يلعبون ، وتنقصهم الحوافز على المضى الى الوادى ، حيث الخضرة والعشب والماء البارد ، ليضعوا زوارق من الورق تمخر عباب الجدول . انهم يفتقرون الى الابتكار . وكل ما يفعلونه هو الاستلقاء على التراب .

وتأكدت من ان الحياة فى كوم امبو ، ستكون خيرا من حياتهم الراهنة فهنا حياة فى التراب اشبه بحياة الحيوانات . والنساء مفتقرات حتى الى الحياة الجنسية .

. واعجب صبى صغير اعرج القدم ، ببقايا شمعة قذفناه بها ، واعتبرها ملكا له ، اذ ان هؤلاء الاطفال لا يملكون شيئا . ويعجب جميع الأطفال بالمروحة التى احملها ، وكدت أتخلى عنها لطفلة صغيرة رأيتها تتشهاها ، ولكننى ما لبثت ان عدلت عن ذلك . اذ لم يكن من العدل ان اعطى طفلة واحدة دون الأخريات اى شىء .

. وهذه القرى ميتة ، اذ انها خالية من كل حياة ، وتعمل النسوة فيها ما يكفى لاقامة الاود ليس الا ، كتقطيع الاعشاب للحيوانات ، ودفع الماشية الى النهر لسقايتها ثم العودة بها ، ومن ثم الجلوس فوق التراب ، يتهامسن ، دون ان اعرف عم تدور احاديثهن ..

. حقا انه وجود خاو لا يتصوره العقل . فليس فى هذه الساعات الطويلة الحارة التى يقضيها الجميع دون عمل ، ما يشغل حتى تفكيرهم .

. وقد عنى السد العالى لهؤلاء الناس ، التضحية بكل ما عرفوه ، من بيوت ومن جبال تقف وراء هذه البيوت ، ومن نهر يقوم أمامها . وهو يعنى عندهم نهاية عهد وبداية عهد جديد . وهو يعنى لغيرهم ، نهاية طراز من الحياة وبداية طراز آخر . انه طراز التحرر من حياة خاوية عاشها هؤلاء الناس مع التراب .

. الساعة الرابعة والنصف صباحا . ونجمة الصبح تتحرك فوق خط الجبال السوداء ، والاحمرار يعلو السماء ، والقمر ينتقل ببطء ، بينما الشحوب يداهم الكواكب ببطء .

«الساعة الخامسة والنصف صباحا . . تتحرك اشــباح النسوة اللابسات السواد ، وكأنهن من الراهبات ، بصمت وراء الجدران العالية ، وقد حملن جرار الماء على رءوسهن . وفجاة انطلق صوت الكلاب فى نباح الفجر .

• طلع الصباح ، وهاجمتنا اسراب الذباب فورا .

• كان الهواء باردا لفترة قصيرة . واصلت الريح الساخنة الشديدة الهبوب طيلة الليل . ولم نتوقف الا قبيل الفجـر . وآنذاك ، سادت نعمة البرودة القصيرة العمر .

• الساعة السابعة صباحا . . الجميع ينتظرون سـفينة البريد ، ولا يعرف احد موعد وصولها . ولذا بدأنا نرقبها منذ طلعت الشمس . ويتكأكأ الناس فرادى وجماعات على الصخور والجنــادل عند الســهل ، يرقبون وينتظرون ، والانتظار طويل وممل ، والسـاعات تنقضى واحدة اثر اخرى مع اشتداد فى الحرارة . انه الحادى عشر من اكتوبر وهو يوم عيد ميلادى الثالث والستين . وبدا لى ان من الغرابة ان احتفل بالعيد وانا اجلس الى صخرة فى الصحراء النوبية انتظر سفينة البريد السودانية الصغيرة قادمة من وادى حلفا .

• وهناك مواكب مستمرة من الناس يمضون الى النهر وهم يحملون الرزم والصناديق على رءوسهم واكتافهم . ويمضى بعضهم يدفع حميره وقد حملها رزما كبيرة ، وصناديق تضم المتاع الذى ينقلونه سلفا الى اسوان ترقبا ليوم الرحيل النهائى . ورأيت النسوة يحملن رزما ضخمة على رءوسهن . ويتمرغ الاولاد فى جلابيبهم القذرة المخططة فوق التراب ، واندفع ثلاثة منهم نحونا يطلبون مالا ، ولا يصل السياح الى هذه القرى البعيدة عن التماثيل التى يريدون لمشاهدتها ولكن يبدو ان الاطفال يشقون طريقهم الى السياح ، حتى ولو اجبروا على عبور النهر » .

وجاءت الســفينة اخيرا فى الحادية عشرة ، معلنة حضورها بصفير متقطع ، دفع المترقبين الى النشاط والعمل ، ومضينا نهبط الى النهر مع السيد نور وشقيقاته ، وقد حمل عدد كبير من الاولاد متاعنا وبعض متاعه ، وكان الحر لاهبا فى الارض التى عبرناها من الجبــل الى النهر ، ورأينا هناك مجموعة كبيرة من النسوة اللاتى يرتدين الملابس السوداء ، وقد تحلقن فى ظل شجرة واحدة ، وقد جئن يودعن المجموعة الكبيرة من

الرجال والصبيان المرتدين الجلابيب البيضاء . وقد وقفوا بعيدا عنهن تحيط بهم صناديقهم وسلالهم ورزم متاعهم ·

وجاء الازدحام المألوف ، والتناكب والتدافع . وكان ثمة خطر في وقوع الانسان عن اللوح الخشبي الممتد من السفينة الى الشاطىء ، وكنا آخر من وصل الى ظهرها ، حيث الحرارة اللاهبة . والقذارة على سطحها السفلي ، حيث اكتظ بالناس من رجال ونساء واطفال ، ومعهم حيواناتهم ومتاعهم · ولا يتصور المرء ذلك السعير المزدوج من حرارة الشمس وحرارة آلات السفينة ·

وما كدنا ننتهي من اماكن الدرجة الثالثة والثانية . حتى وصلنا الى قمرة فيها مروحة ، وفيها بعض الجعة الباردة وان لم تكن مثلجة ·

وعندما استلقيت في القمرة ، تحت المروحة ، تاركة الباب مفتوحا الى الخارج ، بات في وسعي ان اتنفس بعض الشيء ، عندما تحركت السفينة ، ورأيت ان في وسعنا ان نأكل شيئا في المساء ، ولا سيما أننا لم نتناول شيئا طيلة اليوم ، باستثناء قدح من الشاي · وتمنيت صحنا من «السلاطة» ، ولكنها كانت معدومة طبعا · وكان كل ما وجدناه حساء كثير التوابل والبهارات ، وبعض « العجة » والبطاطس المقلي ، وشرحات من لحم الماعز ، وكانت الشرحات رقيقة ولذيذة فاكلتها بشهية ·

وبعثنا تحت جنح الظلام بشيء من طعامنا الى السيد نور الذي كنا قد دعوناه الى مكاننا ليتناول معنا بعض الجعة الباردة · وعندما اكتشفه المسئولون عن السفينة ، وأمروه بالذهاب الى الدرجة الثالثة ، كان قد فرغ من عشائه ·

ووصلت بنا السفينة الى الدكة في المساء ، واقترحت رفيقتي بشيء من التردد ان نهبط اليها ، ولكنني كنت قد حملت كل شيء ، وصممت على العودة الى اسوان والحضارة ، ولم يكن منظر هذه القرية يختلف كثيرا عن مناظر القرى السابقة ، فشاطئها صخري ، وان كانت هناك بعض الاشجار الصحراوية وبعض الزراعة الخضراء على طرف النهر · وفي القرية معبد ، تغمره مياه الفيضان في كل عام كجزيرة الفيلة في اسوان· وهناك معبد آخر في جرف حسين القريبة من القرية ، ويقال انه يشبه كثيرا ابا سمبل ، اذ ان رمسيس الثاني هو الذي أمر بنحته من الصخر · وتقول نشرة سياحية ان المرء يصل اليه « وسط صفين طويلين من تماثيل الملك الهائلة » ·

وكانت الباخرة تلقى بانوار كشافها الضخمة على الشاطىء عند دنوها من كل قرية ، فنرى الرجال بملابسهم البيضاء ، ينتظرون وصولها بمتاعهم • ورايت فى احدى هذه القرى رجلا يقعى على الارض ليبيع البطيخ الى الذين يزمعون ركوب السفينة ، وقد كسف « كشاف » السفينة نور مصباحه الصغير • ورأيت جملا فى احدى القرى ، وكان قد انقضى وقت طويل لم نر فيه الابل ، ورايت فتاة ترتدى لباسا ازرق، ووشاحا اصفر اللون ، وفى قدميها خفان زرقاوان • والمعروف ان نساء النوبة الشمالية يلبسن الملابس الزاهية الالوان • ورايت مجموعات من الماشية تحمل الى ظهر الباخرة ، كما رايت الناس يتدافعون ويتصايحون •

وظلت الضجة قائمة طيلة الليل فى منطقة الدرجة الثالثة من الباخرة ، وكانت أشبه بليالى النوبة الصاخبة • ووصلنا الى كلبشة فى الثامنة صباحا ، وهى القرية التى تضم معبدا من المعابد الرومانية الحديثة التى بنيت فى القرن الأول للميلاد • وكنا قد اتفقنا على زيارة المكان ، قبل ان نحس بوطأة الحرارة • وتطلعت اليه رفيقتى بعينين تواقتين ، مؤكدة انها ستعود اليه عندما تخف حرارة الطقس • اما انا فقد مررت به دون اسى أو أسف • فقد شبعت من كل شىء (١) ، وظلت المناظر على صورتها الرتيبة طيلة الوقت •

ولعل كل ما آسف له ، هو اننى لم أتمكن من مشاهدة جزيرة الفيلة ، وكتب الدكتور هيرمان كيس العالم الألمانى المشهور والخبير بالآثار المصرية عن هذه الجزيرة الصغيرة المقدسة يقول(٢) : «ظلت هذه المعابد الرائعةتقوم فوق الجزيرة منذ ايام الفراعنة فى القرون التى سبقت ميلاد السيد المسيح ، مؤلفة تلك المدينة الفريدة بآثارها التى اغرقتها مادية العصر عندما بنى سد اسوان فى مطلع القرن » • وكان المعبد الرئيسى مكرسا لعبادة ايزيس • وكان هناك معبد آخر بنى فى العهد الرومانى لعبادة الاله النوبى مانديليس الذى بنى معبد كلابشة خصيصا له• وتظل المعابد

---

(١) لكننى ما لبثت ان رايت هذا المعبد بعد ستة أشهر ، وكان قد نقل الى مكان فوق النهر، على مقربة من أسوان ، وعلى بعد اربعين كيلومترا من مكانه الأصلى • وكان نقله حجرا بعد حجر . وفى نفس صورته الأولى على أيدى مؤسسة المانية من ايسين • وبضم المعبد بعض الصور المسيحية • وعندما ترتفع مياه السد . سيندفع الهيكل فى قلب الماء تماما كما كان فى مكانه الأصلى ، حيث كان يظل تسعة أشهر فى السنة تحت الماء • اما الآن فسيظل سليما الى الأبد فوق بحيرة ناصر •

(المؤلفة)

(٢) كتاب « مصر القديمة ـ طوبوغرافيا حضارية » ـ لعام ١٩٦١ •

قائمة بالرغم من مياه الفيضان التي تغمـرها في كل عام ، وقد رايت بنفسي شريطا سينمائيا يعرض هذه المعابد وهي بارزة من قلب النيل ، ويمكن زيارة هذه الجزيرة بسهولة من اسوان ، ولكنها ستغرق نهائيـا عندما يصل بناء السد العالي مرحلته النهائية في عام ١٩٦٧ ٠

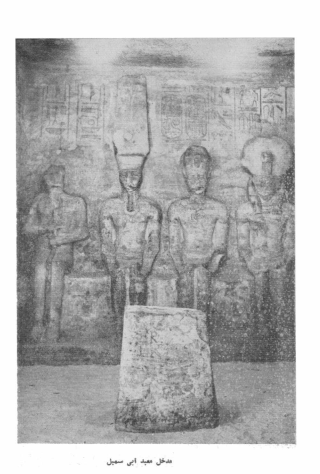
ويتحـدث اميل لودفيج في كتـابه العظيم عن النيـل ، بصـورة شاعرية ، وباحاسيس عميقة عن جزيرة الفيلة ، معربا عن أسفه لتعلية خزان اسوان الاخيرة في عام ١٩٣٢ فوصفه بانه نشر القلق لمسافة مائتي ميل من الاقسام القريبة من النـــوبة ، وحرم الوف الفلاحين بيوتهم ، دافعا اياهم الى الوراء ليعيشوا في الجبال الجرداء ، بعد ان اغرق نخيلهم ، ليغرق بعد ذلك معبد الفيلة ٠٠

وكان لودفيج قد كتب هذا في عام ١٩٣٦ أي بعد اربع سنوات من عملية التعلية التي دفعت بالنوبة القديمة الى الوراء ٠ ولكن لم يمض نحو من ربع قرن حتى كانت النوبة القديمـة تتحول الى جـزيرة الاطلانتيد الجديدة ، ولتقوم بدلها النوبة الجديدة في الشمال ٠

كوم امبو

تقوم في كوم امبو بقايا معابد يقول عنها اميل لودفيج : انها تعود في تاريخها المتأخر الى عهد بناء معبد الفيلة ، وتفوق في « جمالها ، معابد الكرنك المشوشة » ٠ ولم نر هذه المعابد ، لاننا لم نتطلق من اسوان لنرى روائع الأمس بل انتصارات الغد ٠ (١) وكانت المسافة طويلة بالنسبة الينا وقد قطعناها في طقس حار قائظ متجهين الى الشمال من اسوان ، وان كانت في الواقع لاتعدو عشرين ميلا ٠ وكانت طريقنا تسير بحذاء النيل من ناحية والسكة الحديدية والصحراء من الناحية الاخرى ٠ وهناك خيط عريض من الزراعة ، يضم الذرة والخضـار والسكر ، وان كان الاخير هو اهمها ٠ بل ولعله اوسع حظا من نوعه في الوجه القبلي ، لابسبب خزان اسوان ، بل نتيجة نظام للضخ ، يوصل الماء الى سـهل كوم امبو الذي يرتفع خمسة واربعين قدما فوق مستوى النهر في الايام العادية وسبعة وعشرين في ايام الفيضان ٠

(١) لكنني عدت بعد سنة اشهر فرايت معبد كوم امبو الرائع الجمال ، والذي يقوم على شاطيء النيل ٠ ورايت في هذا المعبد صورا رائعة منقوشة على الصخر ، تفن عبقري رائع ، ينبض بالحياة والحركة ، مشيرا الى عمل فنان عظيم ٠ (المؤلفة)



مدخل معبد أبى سمبل

وكان النهار الذى مضينا فيه الى بلدة كوم امبو الصغيرة من ايام الآحاد ، ورأيت عددا كبيرا من الناس يغادرون احدى الـــكنائس بعد الصلاة . وقد بين لنا الشاب الذى يعمل فى مصلحة الاســتعلامات فى اسوان والذى رافقنا فى رحلتنا هذه الحقيقة بمنتهى الرضا مع انه شاب مسلم .

وقال الشاب مؤكدا ... انها كنيسة مسيحية . وهم يخرجون منها بعد أن ادوا صلواتهم .

ولم تمض لحظات حتى اشار بيده الى مسجد اسلامى وقال ... وهذا مسجد يتعبد فيه المسلمون .

ومضى بنا هذا الشاب المجد النشــيط اول ما مضى الى بيت اسرة زوجته لنتناول بعض المرطبات ، لنمضى بعده الى مكتب المســئول عن مشروع اسكان النوبيين والذى يقوم فى بناء حديث . وكان هذا المسئول ، ضابطا سابقا فى الجيش ، يتحدث الانجليزية بطلاقة . ويوحى لناظره بأنه رجل فى منتهى النشاط والكفاية . وزودنا الرجل بمعلومات فى منتهى الاهمية والدقة . فهناك سبعة عشر الف منزل ستبنى ، بعضها يضــم غرفة ، والبعض الثانى غرفتين والثالث ثلاث غرف . وستكون لكل قرية مدرستها ومسجدها ، وستحمل القرى الجديدة ، نفس اسمائها القديمة ، كما سيكون التنظيم الجغرافى بينها معادلا لما كان فى الســابق . (١) وستكون قرية دابود هى القرية الأولى التى سيتم نقل اهلها، فهى اقرب القرى النوبية القديمة الى اسوان ، وقد تم بناء قريتهــا الجديدة التى نستطيع زيارتها . واضاف انه سيجرى نقل ثلثمـــائة نوبى فى اليوم الواحد ، وان مشروع كوم امبو سيتم نهــائيا فى عام ١٩٦٦ (٢) .

---

(١) يقوم مشروع مماثل فى الاقسام النوبية الموجودة فى السودان ، اذ تنتقل القرى التى كانت مجاورة للنيل لتصبح مجاورة لنهر عطبرة . وســتكون لكل قرية مدرســتها ومسجدها ووحدتها الصحية وسوقها وحوانيتها . وعندما أعلن مشروع الاسكان لأول مرة فى السودان احتج بعض القرويين لبعد المكان الجديد عن النيل ، وطالبوا بأن يكون الاختيار فى مكان جديد . وذكرت صحيفة التايمز اللندنية فى عددها الصادر فى العاشر من يناير عام ١٩٦٤ ان نهر عطبرة كان غريبا عليهم . ولكن الذى لا شك فيه ، ان هذا التبدل كان فى سبيل الأفضل .

(٢) اذا كان المقصود باتمام المشروع بناء القرى ، واسكان النوبيين . فقد تم كل هذا قبل عام ١٩٦٤ . كما تم استصلاح الاراضى كلها ، واقيمت محطات الضخ فى أماكنها اما اذا كان المقصود بالرى الذى يعتمد على مشروع السد العالى ، فذلك لن يتم قبل اواسط عام ١٩٦٦ . اذ أن العمل فى المرحلة الثانية فى السد العالى قائم على قدم وساق .

المعرب

واقيمت المضخات لدفع مياه النيل الى ارتفاع اربعة عشر قدما او خمسة عشر . وتم استصلاح عشرة آلاف فدان .(١) واصبحت جاهزة للزراعة. وسيعطى فدان واحد لكل اسرة . على ان يرفع هذا الرقم فى المستقبل . ويجرى بناء المصانع ، التى ستكون مستعدة للعمل فى غضون عامين او ثلاثة . وبينها مصانع للالبان ومنتجاتها والسكر . والخضراوات المعلبة . ويامل المسئولون ان يؤدى تأمين فرص العمل على هذا النحو ، الى بقاء الشبان النوبيين فى منطقتهم بعد استكمال دراستهم ، وان تخف هجرتهم الى اسوان والقاهرة ، كما يأملون ان تؤدى الى اجتذاب الازواج للعودة الى قراهم ، بحيث تقوم الحياة العائلية على اسس سليمة ، خلافا لما كان قائما فى بلاد النوبة القديمة التى لاتسكنها الا النسوة مع الشيوخ والاطفال . وستكون لكل قرية وحدتها الطبية الخاصة بها ، كما سيكون هنـاك مستشفى مركزى كبير فى قرية النصر وهى مركز بلاد النوبة الجديدة . وستزود القرى بمياه الشرب النظيفة ، بحيث تكون هناك حنفية ماء لكل مائة منزل . وستفتح فى القرى المخازن التعاونية والاسواق العامة كما ستزود بالخدمات البرقية والبريدية ، وبمراكز الشرطة والقوة الكهربية التى ستصل الى البيوت مع انتهاء العمل فى كهربة السد العالى (٢) .

وتحدث المسئول عن الصعوبات التى واجهها المخططون فى اعداد هذا المشروع الضخم . وقال انهم واجهوا .. « الثعابين والافاعى السامة والحشرات وحرارة الصحراء المحرقة » .

وسألته عن الاجراءات المقترحة لضمان بعض البرودة فى البيوت ، طالما ان القرى الجديدة تخلو من الاشجار ، ومن الجبال التى تلقى شيئا من الظل ، ولا سيما أن بعض النوبيين أثاروا هذا الموضوع معى .

ورد المسئول قائلا .. ستزود معظم البيوت بسـقوف مزدوجة على النحو المتبع فى حجز الحرارة .

---

(١) حدثنى المسئول عن مشروع كوم امبو . عندما قمت بزيارته فى العام الماضى أنه تم استصلاح نحو من ثلاثين الف فدان . ستروى من مشروع السد العالى . وسيجرى توزيعها أيضا .

(٢) كتبت المؤلفة هذا الفصل كما يبدو قبل الانتهاء من اقامة قرى النوبة الجديدة وقد قمت بزيارة هذه القرى بعد استكمالها وسكنى النوبيين لها . فرأيت أن جميع هذه الوسائل الحضارية قد تمت فيها . باستثناء الكهربا التى ستزود بها بعد انتهاء العمل فى كهربة السد العالى . ورأيت الارتياح على وجوه النوبيين الذين تحدثت اليهم بعد أن مروا بالتجربة التى كانوا يجهلونها عندما وضعت المؤلفة كتابها .

(المعرب)

– الا نزود جميع البيوت بهذه الوسيلة ؟

– معظمها على الاقل – أهناك أسئلة أخرى ؟

وسألته عن الطريقة التى سيعتمدها الناس فى معاشهم الى ان تبدأ الأرض الجديدة انتاجها ، مضيفة اننى سمعت بأن ماشيتهم ستذبح فى أسوان ، وان المواشى الجديدة ستوزع عليهم فيما بعد ، فرد بأن الحكومة اقرت معونة مالية بمعدل جنيهين لكل فرد فى الشهر الواحد للسنوات الثلاث القادمة ، وانها لن تستوفى منهم شيئا عن هذه البيوت فى هذه المدة ، وانما ستقسط عليهم بعد انتهائها ولمدة عشرين عاما .

وقلت ولكن كيف سيدبرون أمر غذائهم ، فهم يعيشون الآن على حليب الماعز ، كما انهم يذبحون الماعز أو الفراخ أو الأغنام اذا ما احتاجوا الى اللحم ، ولكن ما الذى سيحدث بعد ان يفقدوا ماشيتهم ؟

فرد المسئول بأنهم سيزودون بالأرز والسكر والشاى التى يحصلون عليها من الجمعيات التعاونية بأسعار رخيصة محددة ، وهكذا سيتاح لهم أن يبتاعوا ما يشاءون الى ان يشرعوا فى جنى محصولاتهم .

واردت ان اعرف كيف ستصرف النسوة أوقاتهن ، فهن يمضين الآن الى النهر ليحملن الماء منه فى الأمسيات والأصباح ، وهن يتولين رعاية مواشيهن ، والعناية بفراخهن ، وقطع المحصولات من الذرة وغيرها أما فى بلادهن الجديدة ، فما الذى سيشغلهن الى أن تنبت المحصولات وتتوافر الماشية .

فرد المسئول : سنقيم لهن مراكز للصناعة اليدوية .

وتوقف الحديث هنيهة ، ثم عاد الرجل يسأل : أهناك أسئلة أخرى ؟

وكان فكرى منصرفا الى التفكير بعدد من القضايا العسيرة ، ولكننى لم استطع صياغتها بسهولة فى عبارات ، ولما كانت رفيقتى لم تفكر بأى سؤال ، اذ انها كانت كثيرة الشكوك فى المشروع كله ، فقد اتفقنا على الا نضيع من وقت الرجل زمنا آخر ، وان نمضى الى زيارة دابود الجديدة ، وشكرناه على سعة صدره ثم ودعناه وودعنا كل من كان معه .

وانطلقت بنا السيارة مسافة قصيرة على الطريق الرئيسى لنصل الى المنطقة الصحراوية التى يجرى عليها تنفيذ المشروع ، وبدت لنا القرية بمساكنها التى تشبه الصناديق والمشيدة من الأسمنت المسلح

للوهلة الاولى ، اقرب ما تكون الى مخيمات اللاجئين ، لكن الشجيرات المزروعة فى كل مكان لن تلبث أن تنطلق وتنمو لتضـــفى ظلالا وارفة ولا ريب فى أن قيظ الصحراء المجدبة والخالية من الظل ، قد جعلت من المنظر الجديد الذى لم تكتمل فيه المساكن بعد ، صورة قاسية .

واطلعنا الموظفون الذين رافقونا فى زيارتنا على كل شىء بمنتهى الاعتزاز ، وأكد الشاب الذى جاء معنا من أسوان ، ان كل شىء منظم خير تنظيم ، ورأينا المدرسة والمسـجد واستراحـة القرية القريبة والمركز الصحى ، والسوق العامة ، «والعين» وثلاثة بيوت يضم الواحد منها ثلاث غرف وقد بنيت على الطراز النوبى ، اذ تفتح أبوابها على فناء شكاالنوبيون من ضيقه ، وتساءلت عن السبب فى تضييق الفناء مع ان الارض الصحراوية متوافرة ، فالنهر يبعد كيلو مترين او ثلاثة ، وبالرغم من ان المسافة ليست كبيرة ، فان القرية لاترى النهر ، وهو ما سيالم له هؤلاء الناس الذين ولدوا الى جانب النهر وعاشوا على ضفافه ، ترى هل يألفون العيش الى جانب الطريق الرئيسى والسكة الحديدية بدلا من النهر ؟ وهل سيكون الفتية المتضايقون فى قراهم الحالية أكثر ضيقا فى قراهم الجديدة ؟ أولا يزيد العالم الجديد الذى وجدوا أنفسهم فيه من قلقهم وهم يرون السيارات والقطر تمر مسرعة بهم ، فلا يقفزون فى أول قطار ينقلهم الى أسوان ؟

وليس ثمة من ينكر ان القرى الجديدة تضم لطائف الحياة الحضارية من تعليمية وطبية ومن وسائل صحية ، كما ستضم المصانع التى تؤمن العمل للناس ، ومن هنا لابد أن تكون هــذه القرى أفضل من تلك التى ستختفى بعد قليل ، ولكن على المسئولين أن يهتموا بالعنصر الانسانى ايضا ، ولعل هـذا فى رأيى هو الذى كان يعوز ذلك التخطيط العلمى ، الذى تعاونت فيه وزارات الأشغال العامة والاصلاح الزراعى والاسكان والشئون الاجتماعية .

وكنت قد قابلت قبل سفرى الى بلاد النوبة، السيدة حكمت ابوزيد وهى الوزيرة القديرة والظريفة والشابة للشئون الاجتماعية ، وتحدثت اليها فى مشكلة اسـكان النوبيين . وكانت هى قد قامت بزيارة النوبة حيث تحدثت الى نسائها ، واسـتقبلت اسـتقبالا حارا ، وقد آمنت بان النوبة الجديدة ستفتح للنوبيين آفاق حياة جديدة وفضــلى ، وتولد لدى انطباع قوى بأن السيدة الوزيرة تحمل احساسا انسانيا عميقا وعطفا شديدا على هؤلاء الناس واخلاصا كبيرا لواجبها ، ولذا فقد قررت بعـد

هذه الزيارة التى قمت بها لدابود الجديدة ، ان القاها مرة ثانية ، وان انقل اليها مخاوفى المتعلقة بالزاوية الانسانية ، وكان فى الامكان أن يقال انني قد لا انتظر منها كوزيرة الكثير ، باستثناء وجهة النظر الرسمية ، لكنني لم ار هذا الراى ، فقد احببت السيدة ، وتولد لدى شعور بأنها قد احبتنى ايضا ، وقد وضعت فيها ثقتى ، ولذا فقد كان اول عمل فكرت فيه بعد عودتى الى القاهرة ، وبعد ابلالى مما عانيته من جراء رحلتى ، أن اطلب الى السيد على محمد على ، ان يؤمن لى مقابلة ثانية مع الوزيرة ، وبالرغم من مشاغلها الكثيرة فقد استقبلتنى فى غضون بضعة أيام ، وحيتنى بحرارة كنت أتوقعها منها .

ونقلت اليها انباء زيارتنا لبلاد النوبة ، ولكوم امبو كما حدثتها عن مخاوفى ، وقلت لها أن المخطط الذى وضعته وزارتها للمجتمع النوبى الجديد ، والذى ضمنته النشرة التى أصدرتها ، رائع وممتاز ، لكن ما قد يكون ممتازا من الناحية النظرية قد لايكون كذلك من الناحية العملية عندما ينتقل المرء الى التعامل مع الناس ، ولا سيما أن هناك مشكلتين تشغلان بالى بالنسبة الى كوم امبو ، اولاهما طريقة حمل النسوة النوبيات على تكييف انفسهن للحياة فى بيوتهن الجديدة الصغيرة اذا ما قورنت ببيوتهن الكبيرة ، ولا سيما وقد سمعت الحديث عن هذه المشكلة فى كل مكان ، وما اذا كن لن يشعرن بالضيق عندما ينتقلن الى مساكنهن الجديدة ، فيمتنعن عن التعاون فى تنفيذ كل ما خطط لهن ، اما المشكلة الثانية فهى ما ستعمله هذه النسوة فى الفترة التى ستسبق انشغالهن بمحصولاتهن والعناية بماشيتهن ، واضفت أن كوم امبو لا تضم شيئا يمكن لهن أن يشغلن أنفسهن حتى بالتطلع اليه سوى الصحراء .

وقلت للوزيرة ، ان الموضوع اجتماعى صرف ولكنه انسانى أيضا ،

واقرتنى على رايى ولكنها قالت ان من حسنات الناس كبشر ، انهم صالحون للتكيف ، ولا سيما النساء منهم ، واكدت انها تثق بالمراة النوبية تمام الثقة ، واضافت أن الأستاذ صفوت الذى يشرف على مشروع الترحيل والاسكان ، والذى كنت قد قابلته ايضا قبل ذهابى الى النوبة ، كان يحس بمثل هذا التخوف ، ولكنه ذهب الى دابود الجديدة ، وراى الناس فيها بعد سكناهم ، واقتنع بأنهم راضون عن اماكن اقامتهم الجديدة ، وقالت انها ستواصل الاتصال بالنسوة النوبيات ، وستزورهن بين الفينة والاخرى ، كما ستقيم مركزا للشئون الاجتماعية هناك ، واقترحت على أن اقوم بزيارة كوم امبو معها فى السنة القادمة عندما أعود فى زيارة

أخرى الى القاهرة ، فرحبت بالفكرة أشد الترحيب ، وقالت ان النسوة سيعلمن عددا من الصناعات اليدوية ، ولن ينقضى وقت طويل قبل ان تتوافر لهن الماشية ليعنين بها وقالت انهن ســـيعملن الآن فى زخرفة بيوتهن ،ـ وينصرفن الى العناية بأطفالهن ٠

وسألتها ٠٠٠ او تظنين ان الرجال سيعودون للعيش مع نسائهم فى القرى الجديدة ؟

وابتسمت وهى تقول : هذا أملنا ٠

حقا انه تعبير عربى شائع ٠٠ ولم لا ، فبالأمل يعيش الانسان ٠

وسألتها عما اذا كانت لاتظن بان الفتيان سيشرعون فى الرحيـــل الى أسوان والقاهرة ، بعد انهاء الدراســة ، يشجعهم قرب المكان وتوافر المواصلات البرية والحديدية ، ورفضت الوزيرة الفكرة رفضا باتا ، واكدت ان الفتيان سيتعلقون أشد التعلق بقراهم ، وقالت ان الرجال قد مضوا عن قراهم القديمة لأن الأرض عندهم لم تكن توفر عيش الـكفاف لعائلاتهم ، وكان همهم عندما يذهبون أن يكسبوا المـــال ليبعثوا به الى أهلهم ، أما فى النوبة الجديدة ، فسيجد الشبان العمل المجزى سواء فى فلاحة الأرض أو فى المصانع ، واعربت عن ايمانها بأن الجيـــل النوبى الجديد سيشعر بنفسه جزءا من المجتمع النوبى الجديد ٠

وعادت بى الذاكرة الى ما سبق لى أن سمعته من السيد صفوت ، وعن ايمانه بالفرص الجديدة التى تهيئها النوبة الحديثة للجيل الجديد ، بعد ان كانت النوبة القديمة بعزلتها ، تمثل لهم شيئا لاحياة فيه ، ففى النوبة الجديدة ستتوافر لهم فرصة اختيار العمـــل الذى يشـــاءونه ، وسيحسون بأنفسهم جزءا لا يتجزأ من تيار الحياة المصرية ، فى الوقت الذى يمتون فيه للمجتمع النوبى المترابط ٠

وعادت بى الفكر الى الغلام قريب السيد نور الذى يجيد القراءة ، ولا يجد ما يقرؤه ، كما لايجد ما يعمله فى قريته النائية فى النوبة القديمة سوى الاحساس بالملل والضجر ، وكان نور قد ذكر لنا انه اقترح على ابن أخيه ان يمضى معه الى القاهرة ، ليجد فيها العمل ، ولكن الغلام رفض ذلك ٠ ولا ريب فى أن قرية وادى السبوع الجديدة فى كوم امبو تمثل له الأمل فى الحياة الجديدة ، وانه ليس الا واحدا من كثيرين ٠

وادركت ان النوبيات سيخلقن من مساكنهن الصغيرة الجـديدة ،

مساكن نوبية حقا . فانا أشترك مع السيدة الوزيرة فى الايمان بقدرة الانسان على التكيف مع مجتمعه الجديد . كما اننى أكثر ايمانا بقدرة العنصر النسائى على هذا التكيف بصورة خاصة .

وبعد ستة أشهر . قدر لى أن أشهد بداية هذا التكيف مع المحيط الجديد . عندما زرت قرية الجرفة الجديدة . حيث رأيت الناس منصرفين الى تبييض بيوتهم الجديدة وزخرفتها بالصور على الطريقة النوبية . وأبصرت النسوة وهن ينهمكن ماضيات فى طريقهن الى صهاريج المياه لملء جرارهن منها . أما الأطفال فكانوا جميعا فى المدرسة التى زرت بعض صفوفها . ورأيت فى القرية بعض الماشية من معيز وأغنام . وبعض الحيوانات . وكان على الناس هنا أن يبتاعوا فى الوقت الحاضر بعض العلف لحيواناتهم . وهو ما كانوا يضيقون به . وكان موظف الاستعلامات الذى رافقنى من أسوان فى زيارتى هذه نوبيا . وكانت أمه وأخوه المتزوج يعيشان فى النوبة الجديدة . وقد حدثنى قائلا : . عندما توزع الأرض عليهم سيكونون سعداء راضين . ورأيت النسوة والبنات يعملن فى بعض مراكز الصناعات اليدوية والتطريز . وينتجن أشياء فى منتهى الجمال والروعة .

ولست أشك فى أن الهجرة مثلت للشيوخ والطاعنين فى السن مأساة . وان بعضهم رجا أن يسمح له بالبقاء فى المكان الذى ولد فيه ليموت حيث عاش حياته كلها . وحيث تقوم أجداث من يحبهم . الى جوار النهر الذى ألف السباحة فيه . لكن الهجرة كانت حتمية . اذ لا يمكن السماح للناس بالبقاء ليغرقوا فى أماكنهم القديمة . أما بالنسبة الى الجيل الجديد . فقد مثلت نوبة كوم امبو الحياة الجديدة والأمل . نعم . الأمل فى حياة فضلى تتسم بالافكار الجديدة فى التعليم والصحة وطريقة الحياة ولم يكن ينتظر هؤلاء الصبية . لو ظلوا فى نوبتهم القديمة . سوى أن يسلكوا كما سلك آباؤهم وأجدادهم من قبل . وأن يرتحلوا الى أسوان والاسكندرية والقاهرة ليعملوا ندلا فى الفنادق . أو بوابين عمارات . بينما لم يكن ينتظر الفتيات الشابات فيها سوى أن يعشن نفس الحياة . القاسية التى عاشتها أمهاتهن وجداتهن . يرعين الماشية . ويفلحن الأرض للحصول على نتاج واحد فى السنة قبل أن تغرق مياه الفيضان السنوى الأرض . وينتظرن طيلة العام مجىء أزواجهن فى الأجازة ليقضوا معهن أسابيع قليلة . بحيث تنعدم الحياة العائلية كما تنعدم حياة المجتمعات

الريفية الصحيحة ، والأمل مركز الآن على بقاء الفتيان فى الحياة النوبية الجديدة ، يعملون فى الأرض المستصلحة ، أو فى الصناعات الجـديدة التى ستبدأ قريبا كصناعة السـكر والصناعات الزراعية الاخرى كتعليب الخضار والفاكهة .

ورأيت اشجارا كثيرة من اليوكالبتوس والصفصاف قد زرعت فى المحرقة الجديدة ودكة ، وعندما تورف هـذه الأشجار ظلالهـا ، وتكتسى الارض المجاورة بالخضرة ، مطلقة محصولاتها ، سيزول الحنين التقليـدى الى النوبة القديمة ، وسيولد الأطفال فى الارض الجديدة ، وينشأ جيـل جديد هناك فى القرى المحيطة بالطريق العامة ، يرى افراده السيارات والشـاحنـات وهى تمضى امامهـم كل يوم ، ويبصرون القطر تمر فى كل ساعة ، انه جيل لايعرف مطلقا ما تعنيه القطيعة عن تيار الحيـاة العصرية ، ولا ما يعنيه القرب من النهر ، فيتقبل القناة التى حفرت على مقربة من قريته بديلا عن النهر ، ويركز ذكريات طفولته عليها .

وكانت هناك على اى حال ، قرى نوبية على هذا الطريق ، شيدت منذ عام ١٩٣٢ بعد تعلية خزان اسوان القديم ، عندما نقل الناس من أماكنهم القديمة للمرة الثانية ، ونشأ جيل من النوبيين لا يعرف شيئا عن النوبة القديمة .

ووصلنا فى نهاية رحلتنا النوبية الى نقطة قريبة من السد العالى ، عند الشلال ، فى السـاعة الثامنة من الصباح ، ولكننا لم ننزل من السـفينة قبيل الظهيرة ، اذ لا يسمح للقادمين من وادى حلفا بمغادرتها قبل تطعيمهم ضـد الحمى الصـفراء ، من الموظفين الصحيين الذين صعدوا الى ظهرها ، ولم يكن ثمة ما يؤكل او يشرب على ظهر الباخرة سوى الشاى ذى المذاق السيىء ، فى حين كانت الحرارة لاتطاق ، ووجدت نفسى ثانية ، لا أجد ما أعمله سوى الاستلقاء منتظرة الفرج .

وعندما تم تطعيم آخر قادم من وادى حلفا سمح للناس بالنزول ، وشهدت جحيما من التناكب والتدافع والصراخ ، واصطدام الصناديق ، وتساقط الرزم ، كما أبصرت لفيفا لايعد ولا يحصى من الحمالين يحاولون الوصول الى ظهر السفينة ، وكانت حرارة آلات البـاخرة لا تطاق ، بالاضافة الى جحيم الشاطىء واكتظاظ الناس ، وتمكنا من انقاذ نفسينا من هذا الحشد الرهيب ، والوقوف بعيدا ننتظر الفرج .

وهبطنا الى الساحل الذى تنعكس عليه حرارة الشمس من صخور

الجرانيت المجاورة ، واحتملنا العناء ونحن نسير الى اقرب سيارة أجرة ، وطلب السائق خمسة جنيهات لينقلنا الى أسوان التى لاتبعد سوى عشرين دقيقة ، وقررنا فى النهاية ان ندفع له جنيهين ، ولعل هذه المشكلة من المشاكل التى يجب أن تعنى بهــا دائرة السياحة ، اذ أن كثيرين من السائحين يشكون منها ، ولفحتنا الحرارة اللاهبة فى وجوهنـــا عندما تحركت السيارة فسارعنا الى اغلاق نوافذها ٠

ووصلنا اخيرا الى جنة فندق كاتاراكت الجديد ، المكيف بالهواء ، حيث الغرفة النظيفة الباردة ، والجعة المثلجة ٠

وتناولنا غداءنا فى صالة الطعام المكيفة ، انها وجبة ممتازة ، وجبة ياكلها الانسان بلذة ، مشويات متنوعة مع السلطة التى تضم الخيــــار والطماطم ، والنعناع والجرجير ، واكلت قليلا من الباذنجان ، وقد لاتكون الوجبة غنية بموادها ، ولكننى كنت سعيدة بها ، بل انها كانت أثمن عندى من كل شىء ، وقد لايصدقنى أحد ان قلت اننى بكيت عندما أكلتها بعد ذلك الحرمان الطويل ، ولكن هذه الحقيقة ٠

ورايت نفسى اقدر الطعام حق قدره لأول مرة فى حياتى الطويلة التى جاوزت الستين ، وتذكرت قول الشاعر الاسكوتلندى المعروف الذى كان والدى مولعا بترداده :

« يجد بعض الناس اللحم ولكنهم لا يستطيعون ان ياكلوه

« ولا يجد بعض الناس ما يريدون أكله ٠

« لكننا نجد اللحم ، ونجد القدرة على اكله ...

« وهنا نتوجه بالشكر لمن اتاح لنا ذلك » ٠

وفى المساء عدنا فتناولنا وجبة رائعة للغاية ، حساء بارد ، سمك ، فراخ ، سلطة خضراء متنوعة وجيلاتى ، بالاضافة الى الجعــــة المثلجة ، وأخيرا كانت هناك الغرفة الباردة والفراش النــــاعم الوثير ، والملايات البيضاء النظيفة ٠٠ انها جنة ٠

وأخيرا ، شكرا لله ، فقد انتهى الكابوس ٠

وكنت قد حزمت أمرى قبل الشروع فى رحلتى النوبية ، وقبل ان اغادر لندن . وبعد ان وصــلت إلى القــاهرة ، وحتى عندما كنت فى

ابى سمبل والمضيق، وعلى ظهر الباخرة فى الطريق الى وادى السبوع على ان اشهد المرحلة الأولى من تهجير النوبة ، الى قرية دابود الجديدة فى التاسع عشر من اكتوبر ، لكننى تبينت استحالة ذلك عندما وصلنا الى وادى السبوع ، وعندما عجزنا عن الحصول على قارب شراعى ينقلنا الى دكة فالباخرة التى اقلتنا من وادى السبوع ، لاتمر بدابود ، وكان علينا ان نحصل على قارب ، والقارب غير موجود ، واقترح علينا البعض ان نستأجر قاربا من اسوان ، ولكن فى نفس المكان الذى طلب فيه سائق سيارة الأجرة خمسة جنيهات ، وخيل الى ان صاحب القارب سيطلب اضعاف هذا المبلغ ، ولذا فقد عدلت عن الفكرة كلية وكان ثمة اعتبار آخر ، لم افكر فيه الى ان جاء ذلك الغريب فاستضافنا فى وادى السبوع فنحن لانعرف أحدا فى دابود ، وكان علينا ان نعتمد فى استضافتنا على غرباء لا يحق لنا ان نفرض انفسنا على كرم ضيافتهم فى مثل تلك الحالة من الرحيل والاضطراب ، يضاف الى هذا ، انه كانت هناك مشكلة أخرى ، وهى طريقة الرحيل عن دابود حتى لو تمكنا من الوصول اليها ، وكان من رأى رفيقتى اننا قد نجد «فلوكة» او نرتحل مع الراحلين النوبيين ، لكننى كنت قد فقدت الأمل فى «الفلوكة» ، ولم اكن لأستطيب الرحيل فى ذلك الجحيم المحرق على سفينة سودانية تضم نحوا من ثلثمائة شخص مع ماشيتهم وابقارهم وفراخهم وصناديقهم وسلالهم وامتعتهم وبطيخهم ، بالاضافة الى أن من عليها من رجال الشرطة ، ومن الموظفين المشرفين على عمليات الترحيل ، سيتضايقون من وجود زائرتين اجنبيتين وغير مدعوتين بين ثلثمائة نوبى الذين يجرى ترحيلهم وفقا للخطة المرسومة .

وكنت كلما فكرت فى الموضوع ، ازددت ثقة من أن الفكرة غير عملية ، وكنت اشعر بشىء من العطف على الحاف رفيقتى التى ضايقتنى باصرارها ، ولكنى بعد تجربة وادى السبوع ، اصبح كل ما يمكن ان افكر فيه ، العودة الى أسوان ، والى الحياة الانسانية ، وكنت على ثقة من أننا اذا وصلنا الى أسوان ، فلن يكون ثمة رحلات شاقة جديدة ، وكان علينا ان نقطع رحلة العودة الى القاهرة عند أسيوط ، لكن هذا لن يخلق لنا اية متاعب .

ولكن تبين لنا بعد وصولنا الى اسيوط أن علينا ان نمضى الى الوادى الجديد فى الصحراء الغربية ، وكانت هذه الرحلة شيئا غير متعمد ولا مقصود .

وقد قدر لى أن اذهب الى هناك بمفردى .



٥ - أسيوط - بوابة مصر العليا

تستغرق الرحلة من أسوان الى اسيوط بالقطار نحوا من تســع ساعات ، ويسير الخط الحديدى مع نهر النيل عبر ادفو التى تضم معبد الاله حور فى مكان بعيد عن الخطر وفى حالة طيبة ، وعبر اسنا بقناطرها ومعبدها الرومانى ، فالاقصر (١) حيث ينحنى النهر بعــدها انحناءته الكبيرة ليعود فيتجه فى انسيابه عبر مصر العليا ، ليعود فيقابل قنــاطر اسيوط ، بوابة الوجه القبلى • ويعود اسم اسيوط الى لغــة المصريين القدامى ويعنى الحارس او الرقيب ، وكان الهها المحلى ابن آوى المسمى «ديبواديت» الذى يجب أن يميز عن الاله انوبيس ذى رأس ابن آوى(٢) والذى يعنى اسمه فاتح الطريق او فاتح الطرق •

وتقوم فى بلدة قنا القائمة عند منعطف النيــل الى الشمال من الاقصر صناعة الجرار منذ قرون عدة ، وهى التى تشرب بها معظم قرى مصر ، والتربة هنا صلصالية ، وتعنى قنا الأرض السوداء ، نقيضــا للصحراء الصفراء ، وتقوم النسوة بجبل الصلصال بالماء والتبن ، فى حين يقوم الرجال بتشــكيل الجرار و «القلل» • ولا تختلف هذه الجرار فى

---

(١) لم أكتب عن الاقصر فى هذا الكتاب لاننى تحدثت عنها فى كتاب رحلات سابق وضعته فى عام ١٩٦٣ بعنوان « رمح العرب » •

(٢) كتب الدكتور هيرمان كيس فى كتابه « مصر القديمة » عن ابن الآوى « ديبواديت » الذى اسماه « بالكلب الشرس » التابع من اسيوط وعن أنوبيس «حانوتى اوزيريس» القادم من سينوبوليس لينضم الى زميله الاله ذى المخلب والناب • ص ٢٣٦ •
(المؤلفة)

شكلها عن تلك التى عثر عليها فى قبور الفراعنة التى تعود الى اكثر من ثلاثة آلاف سنة ويقول اميل لودفيج فى كتابه العظيم ان هناك كثيرين يرجعون كلمة الكيمياء الفرنجية فى أصلها الى قنا ، وانه اذا كان النيل هو اله البلاد ، فان هذه الجرار هى كهنتـــه ، لأنها تنقـــل روحه الى الناس (١) .

وتقوم أسيوط القديمة تحت ابنيتها الحديثة ، وان كانت هناك قبور صخرية تعود الى الأسرة الفرعونية الثانية عشرة فى ســلاسل الجبال الجيرية القائمة وراء المدينة ، والمدينة الحديثة جميلة ، وهى تعتز بصناعة السجاد فيها ، وصناعة الخزف وبجامعتها الحـــديثة الرائعة ، وتنطلق ترعة الابراهيمية العظيمة التى تمتد مسافة مائتى ميـــل ، من الطرف الغربى لقناطر اسيوط ، ثم تتجه شـــمالا لتروى أراضى مصر الوسطى وواحة الفيوم التى لاتبعد كثيرا عن القاهرة ، وهناك شـــارع عريض يسير محاذيا للقناة وممتدا من النهر الى المدينة ، وقد زرعت الاشجار البلسقة على جانبيه ناشرة ظلالها الوارفة ، كما أن هناك حديقة عامة كبيرة على جانب منها .

وقد طفت اسيوط فى رفقة سيدة شابة نضرة ، هى زوجة طبيب فى المدينة ، وقد نقلتنى فى سيارة زوجها التى اصرت على قيادتهـــا بنفسها ، لتدلل بذلك على تحرر المرأة العربية حتى فى مدينة قديمـــة كاسيوط .

وحدثتنى هذه السيدة قائلة : لو اننى قدت سيارتى فى القاهرة او فى الاسكندرية ،فان احدا لن يلتفت الى ،أما هنا فالكل ينظرون متفرسين الى ، ولا سيما الرجال منهم .

وحقا فقد أذهلتنى الطريقة التى كانوا ينظرون فيها الى هذه السيدة «السائقة» ، وتعليقاتهم عليها ، وارادت هى بالطبع ارضاء زوجها ، الذى لم يكن بالطبع راضيا عن قيادتها للســيارة فى أسيوط فاستصحبنـــا معنا موظفين من دائرة الاستعلامات جلسا فى المقعـــد الخلفى ، وكانت السيارة الرسمية ترافقنـــا وان كنت مع رفيقتى قد اعترضنـــا على ذلك محتجين بعدم ضرورتها ، لكن الرسمية هى الغالبة دائما ، ولم اكن فى الواقع أكثر من مجرد ضيفة رسميـــة ، وقد اوضح لى المختصون أننـــا سننتقل بالسيارة الرسمية الى قرية عبد النـــاصر ، فى بنى مر ، حيث

(١) كتاب « النيل » ص ٤٧٣ .

الطريق ليست صالحة للغاية ، وحيث يتعذر على « سيدة » أن تقود سيارتها فيها ٠

وقالت السيدة الشابة وهي تمضي بي في سيارتها ٠ ٠ لعلك ترين الآن نظرتهم الرجعية هنا الى المراة وهي تختلف بالطبع عن نظرة اهل القاهرة والاسكندرية ٠

وقمنا قبل المضي الى بني مر بزيارة ميتم ليليان تراشر المشهور في المدينة ولم أكن لأتذكر الآن ، المرة الاولى التي سمعت فيها بهذه السيدة الامريكية البارزة ، وبدا لي انني اعرف شيئا عنها ، فرحت ابحث عما اعرفه في تجاويف ذاكرتي ٠

ولم اتذكر الا عندما ابت الى لندن بعد بضعة اشهر ، وعندما وقع نظري على كتاب زوجي المرحوم من «القاهرة الى مدينة الراس» (١) ، ورحت اقرا الفصل الذي كتبه عن مصر العليا ، مقارنا محتوياته بما دونته من ملاحظات ، الى ان وصلت الى وصفه للزيارة التي قام بها لميتم الآنسة ليليان اذ قال : «وكنت كلما ذكرت لانسان نبأ رغبتي في زيارة اسيوط ، واجهني بقوله : «عليك أن تزور الآنسة ليليان» ، وكانت الآنسة على قيد الحياة عندما وضع كتابه في عام ١٩٥٣ ، ولا بد انه لقيها وكانت لاتزال على قيد الحياة ايضا في عام ١٩٦٠ عندما صدر في امريكا كتاب عنها (٢) وعن اعمالها ٠ اما عندما وصلت اسيوط في عام ١٩٦٣ فكان قد انقضى عامان على وفاتها ٠

وقد تكون قصتها عادية في مظهرها ، فهي سيدة بروتستانتية امريكية ، تلقت الأمر وهي في مستهل عقدها الثالث في عام ١٩١١ ، بالذهاب الى أفريقيا في مهمة تبشيرية ، وكانت تعمل آن ذاك في ميتم يعود لمنظمة مسيحية في ولاية كارولينا الشمالية ، وقد خطبها قسيس شاب ليبني بها ، ومضت قبل عشرة أيام من الموعد المقرر لزواجها لسماع حديث يلقيه مبشر كان قد عاد لتوه من الهند ، وترك هذا الحديث في نفسها انطباعا عميقا ، حتى تصورت أن هناك رسالة تدعوها الى المضي للتبشير في أفريقيا ، وان عليها أن تتخلى عن كل فكرة في الزواج ، ولم تكن تنتمي الى كنيسة او منظمة تبشيرية لتتولى ارسالها ، ولكن ايمانها

(١) كتاب ريجنالد رينولدز . نيويورك عام ١٩٥٥ ٠ اعيد طبعه في لندن في العام نفسه تحت عنوان « احذروا الافريقيين » ٠

(٢) كتاب « سيدة على حمار » تاليف بث بريم هوبل ــ نيويورك ــ ١٩٦٠ ٠

الديني العميق الذى سيطر عليها ، دعاها الى الاقتناع بان ارادة الله ستعمل على ارسالها فى الوقت المناسب ، وقد قابلت بالفعل بعد وقت قصير قسيسا كان يرد مع زوجته من ارسالية تبشيرية فى مدينة اسيوط ، وقبل الزوجان فى النهاية وبعد شكوك اولية قوية ، قولها بما رأته من رسالة تدعوها الى العمل فى الارساليات التبشيرية فى الخارج، ووجها اليها الدعوة لمرافقتهما عند عودتهما الى اسيوط ، وارادت رفض هذه الدعوة فى البداية والتمسك برؤياها بضرورة الذهاب الى أفريقيا، ولكنها ما لبثت ان تبينت ان مصر جزء من القارة الافريقية ، وايقنت ان مشيئة الله تريد ارسالها الى هناك ، ولم يكن قد انقضى عليها فى اسيوط اكثر من ثلاثة اشهر ، عندما دعيت لزيارة شابة مسيحية مشرفة على الموت بعد ان وضعت مولودتها الاولى ، وكانت وصية الفتاة وهى على فراش الموت للمبشرة ، ان تاخذ الطفلة اليتيمة معها ، ونفذت ايليان ارادة المحتضرة ، وراحت تؤسس بصورة لا معتمدة ميتما كان يضم فى عام ١٩٥٢ نحوا من ٧٥٠ من الاطفال المسيحيين .

وهكذا خرجت قصتها عن المالوف العادى منذ اللحظة التى حملت فيها تلك الطفلة معها الى البيت الذى تحل فيه مع غيرها من المبشرين والمبشرات ، بالرغم من اعتراضهم . ووجدت نفسها تواجه الاختيار بين امرين ، اما التخلى عن الطفلة ، أو التخلى عن البعثة التبشيرية ، فآثرت الثانية وشرعت فى جمع الايتام دون ان تكون لديها اية ضمانات مالية لمستقبلها او لمستقبل الايتام . ولكن فلسفتها الدينية كانت ترتكز الى ايمان عميق لايتزعزع بان الله لايبخل بشيء ، وان الايمان يستطيع ان يؤمن كل شيء . ويقول ريجنالد فى كتابه انه وجد قصتها مؤثرة حقا لانها « القصة البسيطة لانسانة بسيطة حققت الكثير عن طريق الايمان » . ولم تقم ميتمها بالمال لانها لم تكن تملكه بل اقامته بالايمان ، وتحققت المعجزة ، ونما الميتم وازدهر . ومن الصحيح انها لم تكن تملك اكثر من قوت يوم واحد ، تجمع نفقاته من بعض الهبات التى لا تتعدى القروش من فقراء بسطاء يتمنون لها النجاح ، وكانت تؤمن بقول السيد المسيح «اعطنا خبزنا كفافنا اليوم» . ولكن ما كادت الانباء تنتشر عما كانت تسعى الى تحقيقه لليتامى الذين لا ماوى لهم ، حتى شرعت الهبات الكبيرة تتدفق عليها .

وواجهت الكثير من الازمات والمصاعب . وفى يومياتها الكثير من الحديث عن هذه الازمات . فهى تكتب ذات يوم ... نفد كل ما لدينا

من مال • واقترضــت عشرين دولارا من فهيمه فلم نكن نملك مليمــا واحدا » • وعادت بعد اسبوعين تكتب قائلة ••• « نضب المــال لدينا ثانية • وتحدثت الى السيدة ناصف ويصا هاتفيا لتقول انها ستبعث الى بخمسين اردبا من الحنطة ، وهى كمية تكفينا خمسة أسابيع ••• حمل الى البريد من أمريكا ثمانية دولارات ••• » • وبعد سنوات ، قام محسن اسكوتلندى ، من ذوى الالقاب بزيارة ميتمها ، فمنحها هبة سنوية قدرها ألف جنيه ، وهى تعادل آن ذاك خمسة آلاف دولار • انها قصة نجاح من نوع فريد •

وسجل بعض الاطفال من ميتمهــا قصص النجــاح الرائعة ، بعد تخرجهم منه ، واقتحامهم سبل الحياة • وقد تحدثت الى ريجينالد بشىء من الاعتزاز ، الذى تحس به الام عادة عن بعض هــذه القصص • وقد ذهلت عندما سألها ريجينالد ، اذا كان بعض هؤلاء الاطفال قد عادوا الى القرى التى ولدوا فيها ، وحاولوا مساعدتها فى أعمال الانشاء والبناء ، مشركين أهلها معهم فى نعم العلم التى تحققت لهم • وردت عليه بالنفى قائلة : انها لاتعرف عن واحد منهم فعل مثل ذلك • وعلق ريجنــالد على ذلك بقوله ••• « ويبدو انها فى بساطتها ، لم تكن تتطلع الى مثل هذا الهدف البعيد ، فقد كان همها أن تنقذ الاطفال من الشقاء والموت ، وكانت سعيدة لان بعضهم آثر البقاء معها بعد أن شب على الطوق ليساعدها فى رسالتها الانسانية مع الجيل اللاحق من الايتام • ولم يخطر ببالها قط ان القيمة العظيمة لعملها الرائع تتمثل فى الاثر الذى كان سيتركه أطفالها فى الريف الذى ينتمون اليه لو انهم عادوا اليه » • وقد تصور ان عودتهم هذه كانت تعنى شيئا من الاعتراف بالجميل والوفاء للدين ، ولكنها ردت عليه بأن أطفالها لم يكونوا يرون مثل هذا الراى •

وأكد راهب يسوعى بحث معه ريجينالد هذه القضية ، هذا الراى وقال ••• « قد ينشأ الحد الاقصى من الرحمة ، وما ينبع عنها من حياة تكرس للخدمة ، من التباين الكبير فى الفرص ••• »

وبدا هذا القول لريجينالد لغزا عجيبا ومحيرا •••

كم كنت أتمنى لو لقيت هذه المرأة الشـــهيرة بعيد تبينها ، اثر التقاطها لليتيمة الاولى ، ان رسالتها فى أسيوط تتمثل فى انشاء ميتم مسيحى للاطفال • ولكننى أعتقد ان من قابلتهم فى ميتمها ، كانوا رائعين فى اخلاصهم الصادق لرسالتها ، وفى ولائهم لفلسفتها فى الايمان •

وقد تحول الميتم الذى اقامته أول مرة من بيت صغير استأجرته فى شوارع اسيوط القديمة منفقة فى اعداده وتجهيزه بالضروريات الاساسية كل ما ادخرته من مال متواضع فى أثناء عملها السابق ، الى مؤسسة رائعة الآن تضم نحوا من أحد عشر بناء كبيرا ٠

وكان الظلام قد جن عندما وصلنا الى المكان ، ومع ذلك رأيت الاولاد والبنات من مختلف الاعمار ، يملئون ملاعبه الفسيحة الكبيرة ٠ ورايت فى بناء خافت الضوء ، اذ ان الكهربا لم تكن قوية ، بعض الفتيات اللائى كبرن ونشأن فى الميتم يعنين بصغار الاطفال والرضع ٠ ولا يرفض الميتم أى طفل مسيحى يتيم فى هذه المدينة الكبيرة التى تضم الكثيرين من الاقباط ، تماما كما كان الأمر فى أيام الآنسة ليليان ٠

واعجبت بفتاتين مصريتين جميلتى الصورة تتحدثان الانجليزية بطلاقة طافتا بى ارجاء الميتم ، وبشاب من خريجيه اصبح القسيس فيه ٠ ولعل من حسنات المعهد ان بعض أطفاله ، يؤثرون ، بعد ان يشبوا ، البقاء فيه ليؤدوا نفس الرسالة التى كانت سببا فى خلاصهم ٠ انهم على الاقل يؤدون الدين الذى يطوق اعناقهم ٠

ورايت فى المصلى الصغير ، مقعد الآنسة ليليان الكبير لا يزال قائما الى جانب منبر القس ٠ وهناك لوحة تذكارية لتخليد عملها ، وبعض صورها ، منتشرة هنا أو هناك ، مذ كانت فتاة يافعة فى الثالثة والعشرين من عمرها ترتدى نفس الزى الذى كان يرتديه النساء فى ايامها ، الى ان اصبحت سيدة عجوزا فى الستين او يزيد ٠

وقلت عندما رايت مقعدها ٠٠٠ لابد انكم تألمتم لفقدها ٠

ورد الجميع بأسى ٠٠٠ أجل ٠ كانت خسارتنا كبيرة بموتها ، فقد كان الجميع يحبونها ٠

وادركت ان الميتم ما زال يعيش على الكفاف ، وان ما فيه من مال ، لايكفى للانفاق عليه أكثر من بضعة اسابيع ٠ حقا انه لا يزال يقوم على الايمان ٠

وتتحدث بيث هويل التى ارخت حياة الآنسة ليليان فى نهاية كتابها ، عن قصة رائعة وقعت فى عام ١٩٥٩ ٠٠٠ فتقول ٠٠٠ ، وتلقت الآنسة ليليان سيارة جديدة من مجموعة من الشبان الامريكيين الذين يؤمنون برسالة التبشير ٠ وعندما وصلت السيارة ، امرت السلطات

الجمركية على استيفاء الضريبة الجمركية عليهـــا بنسبة ١٠٠ فى المائة كالمعتاد ، وهو مبلغ لم يكن فى وسع «الام» ليليان ان تدفعه ٠ وعند مابلغ هذا الامر مسامع الحكومة المصرية، اعفتها على الفور من الرسوم الجمركية، واطلقت سراح السيارة ٠ وتلقت الانسة ليليان بعد فترة قصيرة ، رسالة من الرئيس عبد الناصر ، تقـول انه سر بمـا عملته الحكومة من اعفـاء سيارتها من الرسوم الجمركية ، وانه يود ان يعرب لها عن عظيم تقديره لما تؤديه من عمل انسانى لمساعدة اليتامى ، منهيا رسالته بالاعراب عن عظيم تمنياته لها بالنجاح فى جهودها الانسانية » ٠

ومضيت بعد الانتهاء من زيارة الميتم، الى قرية الرئيس عبد الناصر، بعـد ان عبرنا النـــهر لنصل الى قرية صغيرة ضيقة الطرقات ، عالية الاسوار ، بحيث يتعذر على السيارة الكبيرة المرور فيها ٠ ورايت بعض الحوانيت المشرعة الابواب ، وقد اضاءتها المصابيح الجازية ، كما رايت الاطفال يلهون فى الازقة ، وحزم قصب الســكر مسندة الى الجدران ، والبهائم محملة بالانتاج الزراعى ٠

وقالت رفيقتى زوجـة الطبيب ٠٠٠ « اننــــا نخشى موسم ارتفاع القصب ، ففيه تكثر جرائم الثار وينتشر المجرمون » ٠

وذكرت على الفور اننى سمعت مثل هذا القول فى القرى الباكستانية الواقعة على الحدود الشمالية الغربية ٠

ولم يكن رفاقنا قد سمحوا للسيدة بقيـادة السيارة حتى قبل ان نعبر النهر ، اذ امر السائق الرسمى على تولى القيـــادة ٠ وقد اذعنت راضـية لطلبه ولكنها لم تخف قلقها من قيـــادته لســيارتها التى تحس بمسئوليتها عنها تجاه زوجها ٠ وكان المبرر الذى اعتمد عليه السائق فى اصراره ان الظلام حالك ، وان الطرق سيئة الاضـــاءة ، وملاى بالحفر ، ولكننى اقر انها كانت ابرع منه فى القيادة ٠

ووصلنا الى مقربة من جدران عالية ، اذ اقترب السائق بالسيارة منها ليسمح بمرور بعض الحيوانات ٠ ورايت وراء الجدار فناء واسعا تتوسطه شجرة قديمة والى جانبها منزل قديم كبير ٠ وظهرت على المكان ملامح المزرعة اذ كانت اكيــاس القمح فى زاوية وربطات السكر وبالات التبن فى الجانب الآخر ٠ وجلسنا فى دهليز بضع دقائق ، ونحن نعتذر عن قبول الشاى او القهوة لاسباب عدة منها حاجتنا الى العودة سريعا الى اسيوط ، وان لدينا موعدا فى دار المحافظة ٠

وبينما كنت اجلس هنـــاك وانا افكر انه بالرغم من ان جمـــال عبد الناصر لم يولد في هذا المكان او ينشا فيه خلافا للفكرة السائدة ، فان كل ما يمثله هذا المكان يجرى فى عروقه · انها دماء ريف مصر ، مصر التى استغل الاقطاعيون فلاحيها الاميين ، الذين انطلق من وسطهم ليحظى بنعمة التعليم ، وان لم ينسهم لحظة واحدة مفـكرا فى همومهم ومتاعبهم التى زاد احساسه بها مع مضى السنين ، والتى عرفها وهو يقوم بزيارة بيت أسرته ، ليرى فيه حياة الريف المصرى بشقائه · وقد نشا وايفع فى المدن الكبيرة ، واصبح ضابطا فى الجيش ، لكن جذوره ظلت فى الريف، وكان ما ورثه منه ذلك المنطق الذى يعرفه أبناء الريف · وأيقنت ان بنى مر لم تكن اقل تاثيرا من الكلية الحربية فى تكوينه اللاحق كقائد للبلاد عندما بلغ الرابعة والثلاثين اى بعد عشرين عاما من شروعه فى الاهتمام بالسياسات الثورية ·

وهكذا جاءت زيارتى لبنى مر لتـــكمل الصـــورة التى كنت قد حملتها ، ولتزيد من تفهمى لعبد الناصر الانسان ·

وعدت الى دار المحافظة ، حيث قوبلت بالحفاوة والترحاب ، وحيث جرى الاتصـــال الهاتفى مع واحة الخـارجة فى الوادى الجديد · ودار الحديث عن سيارة ستمضى اليها فى الصباح ، ثم تقرر اخيرا ان اذهب فى سيارة « الباص » · وقالوا ان الرحلة ستستغرق أربع ساعات او خمســـا · واحسست بشىء من الخوف ، فانا اعرف شيئا عن سيارات الباص فى الارياف ، اذ كنت قد ركبت احداها فى عام ١٩٥٠ · وستكون رحلتى هذه المرة فى الصحراء طيلة الطريق ·

وقلت بشىء من الاسى ··· ان المسافة طويلة فى سيارة الباص ·

وتطلع الجميع الى بعضهم والى السجادة الاسيوطية الفـــاخرة التى تفرش ارض المكتب ، ثم رفع نائب المحافظ راسه وقال ··· «من المحتمل الا تستغرق كل هذا الوقت ، وقد لاتزيد على الاربع ساعات » وهنـــا انفرجت اساريرهم جميعا باستثنائى انا ·

ولكننى قبل أن ينقضى الليل كنت متلهفة على قدوم الصباح وركوب الباص · فالجو فى اسيوط التى تحيط بها الجبال ، شديد الحرارة ، ولم تكن هناك مروحة فى الغرفة الصغيرة التى يرتقى المرء للوصول اليها ثمانين درجة من سلم حجرى · وكان الفندق الذى نزلت فيه قريبا من

محطة القطار ، وكان هدير قطارات الديزل لا ينقطع طيلة الليل . يضاف الى ذلك انه كان قريبا من المسجد ، وكانت مكبرات الصوت تنقل صوت المؤذن فى كل دعوة الى الصلاة . وكان ثمة سوق أمام الفندق ، لا تنقطع فيه الحركة معظم ساعات الليل . يضـــاف الى هذا ان أبواق السيارات تدوى بلا انقطاع ، كما ان البعوض كان على أشده .

واستيقظنا فى السادسة صباحا ، وابلغتنى رفيقتى انهـــا تشعر باعياء شديد ، نتيجة متاعب صحية تحس بها ، وانها تعتزم العودة الى القاهرة فى أول قطار .



٦- في واحة الخارجة

كان الحر قد غدا شديدا عندما اقلعت بنا سيارة « الباص » في الســامنة صباحا ٠ وجاء عدد من موظفي مصلحة الاستعلامات لوداعي ، وقدموا الى زجاجة ماء ٠ ودهش الموظفون وقلقوا ، عندما راوا انى ماضية وحدى في هذه الجولة ٠ فطمأنتهم بان كل شيء على مايرام ، واننى الفت الرحيل وحيدة ، وان رفيقتى مريضة ، وهى فى حاجة الى العودة بسرعة الى القاهرة للتداوى فيها ٠ ورد هؤلاء بان ثمة عددا من خيرة الاطباء فى اسيوط ، وان فى وسع الآنسة ان تراهم لتعالج فيها ، كما ان فى وسعى ان انتظر فى اسيوط حتى يتم علاجها ، وارى فى غضون ذلك اشياء كثيرة سيأخذوننى اليها ، لاعود فاذهب معها الى الوادى الجديد ٠

لكن رفيقتى كانت مصممة على العودة الى القاهرة ، كما كنت مصممة على ركوب «الباص» ، وعندما أوشكت السيارة على الاقلاع ، صافحتهم جميعا وبسرعة ، متخذة صورة الثقة الكاملة ، وحملت زجاجة الماء بين يدى ، ومضيت الى المقعد الامامى فى السيارة الذى احتفظوا به خاليا لى ، وان كنت قد احسست فى قرارة نفسى بثقتى تنهار وبعزيمتى تضمحل ٠ واحسست بمتاعب فى بطنى ، وخيل الى انها بوادر الاســـهال ٠ الذى كنت قد مررت بتجربته فى أثناء رحلتى فى روسيا ٠ لكن الوادى الجديد ، كان يمثل شيئا مهما فى نظرى ، اذ انه يصور مشروعا ضخما لاستصلاح الصحراء ٠ يضاف الى هذا انهم كانوا يتوقعون وصولى الى الخارجة ٠

وكانت الســيارة مكتظة بالنــاس فوق حدود طاقتها ٠ وكان معظم المسافرين من الرجال ، ويرتدى بعضهم الجلابيب ، فى حين يرتدى البعض

الآخر الملابس الاوروبية . ولـكن السيارة لم تضم غريبا آخر سواى . وزاد عدد الركاب قبل أن نخرج نهائيا من أسيوط على عدد المقاعد ، وبات بعضهم واقفا . وكان معى فى المقـاعد الامامية ثلاثة من رجال الشرطة بملابسهم الرسمية ، وكانوا يتناوبون الجلوس على المقعدين الموجودين . وبالرغم من ان مقعدى كان كبيرا ويتســـع لاثنين ، فان أحدا لم يأت للجلوس الى جانبى .

وانقضى وقت طويل بعد عبـورنا النـهر ، ونحن نرى نفس المنظر المصرى المألوف فى الريف ، منظر أشـــجار النخيل والبقع الخضراء من الذرة والسكر ، والجواميس التى لا تبصر الا أمامها دائرة حول السواقى، ولرجال فى جلابيبهم البيضاء يقمون على الارض ، والنسوة بملابسهن ذات الالوان الحمراء والصفراء يعملن فى الحقول ، والحمير المحملة بالاثقال ، والابل التى تعلو ظهـــورها احمال تكاد تخفيها عن العيان . انهـا مصر الخضراء الخصبة ، مصر وادى النيل . ولـكن سرعان ما أدارت الطريق ظهرها للنيل ، وبدأنا سيرنا الطويل غربا باتجـاه الصحراء الليبية . وبالرغم من أنها طريق صحراوية معبدة للسيارات الآن ، فانها تمثـــل نفس الطريق القديمة التى لا يقطعونها الا فى أربعين يوما ، والتى كان تجار الرقيق يسلكونها للوصول الى دردوف فى السودان المعروفة فى تلك الايام ببلاد العبيد . ولم أعد أرى أمامى الا السهل الاصفر اللون المنبسط، تكاد الحرارة تشع منه ، اذ لا حياة فيه ، ولا منظر لانسان أو حيوان ، سوى الشمس والرمل .

وهناك وصف رائع لهذه الطريق فى تقرير جيولوجى أعده الدكتور جون بول فى عام ١٨٩٩ ، عن أعمـــال المسح فى واحة الخارجة لوزارة الاشغال العامة . وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة فى عام ١٩٠٠ بعنوان « واحة الخارجة طوبوجرافيا وجيولوجيا » . وكتب الدكتور بول يقول «تعتبر الطريق الممتدة من أسيوط ، أحسن الطرق المؤدية الى الخارجة» . وهو يصف الطريق متعرجة صعدا فى هضبة جيرية ، الى أن تصل الى منبطح صحراوى جيرى ، يقطعه «درب الحرامية» فى ناحية ، ولا ينطوى على ما يثير الاهتمام . الى أن يصل المسافر الى مقربة من الواحة ، حيث تظهر بعض التلال العالية ، وتبدأ الارض فى الهبوط البطىء باتجاه الغرب الى مشارف منخفض الواحة العظيمة » . ويسجل الكاتب ان «قافلة الابل المحملة بالمتاع ، قطعت الهضبة فى نحو من ثمان وثلاثين ساعة بعد طرح الوقت الذى انصرم فى الوقوف والراحة والتنزيل والتحميل ، وان المسافة

من أسيوط الى قمة المنحدر استغرقت اربع ساعات اضافية أخرى ، وان الرحلة كلها من أسيوط الى قرية الخارجة استغرقت اثنتين وستين ساعة ونصف الساعة . وكان الكبتن ليونز قد قطع المسافة في عام ١٨٩٤ في احدى وخمسين ساعة وثلاثة ارباع الساعة ، بينما قطعها جيو gailliaud في اثنتين وخمسين ساعة وثمانية اعشار الساعة . ويعود السبب في ان قافلتنا تطلبت وقتا أكبر ، الى ان الابل كانت مثقلة بالاحمال . وتقدر المسافة كلها بنحو من ٢٠١ من الكيلومترات » .

واذا كانت هذه الطريق تقطع في اثنتين وستين ســـاعة ونصف الساعة . فهل هناك ما يضايق في قطعها في اربع ساعات .

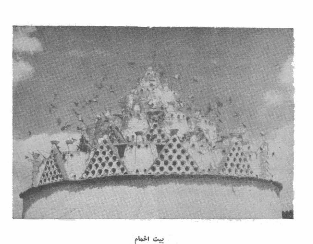
ورأى الدكتور بول ان طبقــات الارض (الجيولوجيا) في الطريق كلها ، واحدة تماما كطوبوجرافيتها . وكان لا بد من السير طويلا قبل الوصول الى الماء في منطقة الواحة ، ولكن كان في الامكان أحيانا العثور على الماء بحفر مسافات قصيرة في الرمال على مقربة من أشجار النخيل .

ولم تمض ساعة ونصف الساعة حتى بدات أرى «قلل» الماء تتنقل من يد الى أخرى . وقدم رجل الى « قلة » فشكرته مشيرة الى الزجاجة التي احملهـــا . ورأيت رجلا يفتح نافذة تجلس الى جانبهـــا امرأة في ريعان الصبى أصابها الغثيان ، وعندما عادت الى طبيعتها ، قدم اليهـــا احدهم « ليمونة » لتمصها . وجلس الى جانبها شاب وضع رأسه بين ركبتيه ، بينمـــا طوقت ذراع رجـــل شيخ يجلس الى جانبه الآخر كتفيه . وأدار احدهم في المقاعد الخلفية جهاز «ترانزستور» ، تصدر عنه أنغام أغنية من أغاني الحب الطويلة التي لا تكاد تنتهي . وظلت ســـيارة الباص تهدر وتزمجر ، وتترنح وتتمـــايل ، ســـائرة في طريقها وسط هذا المنظر المتشابه الذي لا نهاية له . ولكن النهاية لا بد منها ، فلكل شيء نهاية ، حتى الصحراء نفسها . وتوقفنا بعد مسيرة ساعتين عند مركز للشرطة يبعد قليلا عن الطريق .

وخرج نحو من ثلث المسافرين من السيارة ، وكنت واحدة منهم ، فقد كانت الحرارة فيها لا تطاق . وبالرغم من ان الحرارة في خارجها كانت لاتطاق ايضا ، فانني شعرت بحاجة ساقي الى الحركة ، وبحـــاجتي الى شيء آخر . وقادني شاب من رجال الشرطة الى المكان ، قائلا ، ان كل من يمر بهم هناك يحتاج الى هذه الراحة . وكان المكان نظيفا ، ومرتبا .

وادبرت علينا بعد قليل صفيحة من الماء · وبالرغم من حرارته ، فقد شربنا طاقتنا لأن شفاهنا كانت قد جفت ·

ونزل رجال الشرطة الذين كانوا معنا ، هناك ، واحتل مكانهم فى السيارة ، بعض الشبان الذين قطعوا المسافة الاولى وقوفا · وجاء احدهم فجلس فى المكان الخالى الى جانبى · وعادت السيارة تقطع بنا مفاوز الصحراء ، لكننا شرعنا نرى جبالا من الرمل ، وكثبانا ، بينما اخذت الطريق تهبط فى منحنيات باتجاه سهل واسع · اننا الآن فى قلب الصحراء الغربية الى الشمال الغربى من اسوان والجنوب الغربى من الاقصر اننا فى المنخفض العظيم الذى يؤلف واديا موازيا لوادى النيل ، حيث يؤمل ان يتم فى عام ١٩٦٥ استصلاح نحو من ٢١ الف فدان من الارض الصحراوية فيه ، لتزرع ولتقام عليها نحو من ستين قرية جديدة · والمياه الجوفية متوافرة فى هذه المنطقة ، ففيها خزان جوفى كبير يمكن ضخ الماء منه بعد التنقيب عنه تماما كالتنقيب عن الزيت · وبآلات تشبه الآلات التى تستخدم فى العثور على الزيت · وقد يستغرق حفر البئر نحوا من ستة اشهر ، ولكن هناك دائما الثقة بان الماء سينبثق ويتفجر · وفى المنطقة معادن مختزنة ، ففيها مخزونات كبيرة من الحديد الخام والفوسفات تنتظر الاستغلال · وسيحمل السد العالى اليها القوة الكهربية اللازمة لمشروعات التصنيع الجديدة · ولا يكفى العثور على الماء فى المنطقة ، فالارض الصحراوية فى حاجة الى جهود شاقة لازالة الملوحة منها وتسميدها واعدادها للزراعة لتزرع اولا بالبرسيم لتامين الازوت فيها · ولن يتم توزيع هذه الارض بموجب مشروع الاصلاح الزراعى ، قبل ان تصبح جاهزة للزراعة ، على ان يخص الاسرة مايتراوح بين خمسة افدنة وعشرة، وعندما يتم اعداد الف وخمسمائة فدان ، تبنى القرية الجديدة على الفور لايواء الناس الذين سيفلحون الارض · وسيعطى منزل لكل اسرة ، كما تزود بالماشية وببعض المساعدات الاخرى عن طريق الجمعيات التعاونية المقامة لهذا الهدف · وتملك كل جمعية تعاونية مائة فدان · وتزرع وتدار بالطريقة الجماعية اذ تربى الماشية فى مزارعها ، وتنقسم الارباح على جميع المشتركين فيها · وتم تنظيم توزيع الارض فى الوادى الجديد على اساس ان تنال العائلات المقيمة فيه اولا وتقدر بخمسة آلاف اسرة ، الحصص الموزعة ، ثم يليها فى الاولوية اولئك الذين اموا الوادى للعمل فيه · فكل من يبدى رغبة فى الاقامة الدائمة يعطى مساحة من الارض تعادل ما يعطى لسواه ، من سكان الواحة ، مع نفس الامتيازات · وعندما يتم الوفاء بهذه



بيت الحمام



الوادى الجديد ــ القمح فى الصحراء

الالتزامات كلها ، يصبح من حق كل انســـان لا ارض له ، ويعول اسرة ويتمتع بشخصية طيبة ، ان يطلب ارضا وان يتسلمها ٠

وستجرى اقامة بحيرات صناعية فى المنطقة لتشجيع صناعة صـيد الاسماك فيها ٠ وقد تم انشـاء احدى هذه البحيرات فى واحة الخارجة ، ونقلت اليها الاسماك للتفريخ من النيل ٠

وتقوم الهيئة العامة لتعمير الصـحارى باعادة الخصب الى الصحراء الغربية بعد ان فقدتها منذ الوف السنين وذلك عن طريق خلق منطقـــة زراعية تمتد من اسوان فى الجنـــوب ، الى منخفض القطـــارة العظيم فى الشمال ، وتبلغ مساحتها ثمانية ملايين فدان ٠ وكانت هذه المنطقة فى عهد الفراعنة تنبت الكرمة ، ولا سيما فى واحتى الخارجة والداخله ٠ ويذكر الدكتور كيس هذا الموضوع فى كتابه « مصر القديمة » ويذكر ان رمسيس الثالث منح نحوا من ٥١٤ من كروم العنب وبساتينه الى المعابد ثم يقول : « وراح الملك يزهو امام الاله امـــون قائلا ٠٠٠ اقمت لك كروما لاتعد ولا تحصى فى الواحات الجنوبيـــــة (اى الداخلة والخارجة ، وكذلك فى الواحات الشمالية (البحرية) ، وكذلك فى مصر العليا » (يبدو ان هذه الكروم الاخيرة كانت فى ناحية ما من ارض الدلتا) ٠

وكانت كل هذه القضايا تثير اهتمامى ، وهى التى دفعتنى برغم ما احس به من مرض الاسهال الى المضى فى تلك السيارة عبر الصحراء ٠

وبدانا نرى فى نهاية الساعة الرابعة من تلك الرحلة المخيفة بعض اشجار النخيل ٠ وسرعان ما لاحت امامنا مجموعات من الابنية الحديثـة العالية ٠ اذن فقد وصلنا الى مناطق الحياة ٠ اننا عند البلدة الحديثة فى واحة الخارجة ، وقد شيدت على مقربة من المدينة القديمة لايواء مهنـدسى المشروع وخبرائه وموظفيه ٠ ورأيت وراء هذه الابنيـــة ، مجموعات من الابنية الصغيرة التى تضم المكاتب وبعض « البناجل » التى تقوم وسط حدائق تملؤها الازاهير ٠

ووقفت سيارة الباص فى مدخل المكان حيث تقوم احدى محطـات البترول ٠ ونزلت منها فاستقبلنى شاب خرج من سيارة صغيرة وهو يقول : « اهلا بك » ٠ ووقفنا ننتظر المتاع فى جو لاتطاق حرارته ٠

ومضت بنا السيارة الى احدى هذه « البناجل » التى تقع فى حديقة

ملأى بأزهار الياسمين والدفلة واشجار النخيل ، لنصل منهـــا الى بعض المكاتب .

ودخلت فى الساعة التالية ثلاثة مكاتب ، شربت فى كل منها زجاجة « الكوكا كولا » ، وتعرضت لنفس السؤال من شبان لايتقنون الانجليزية، عن المدة التى ساقضيها ، والاماكن التى ارغب فى زيارتها . وكان ردى واحدا ، وهو ان مدة اقامتى تعتمد على تقرير الاماكن التى يجب ان اراها ولذا فان عليهم ان يعدوا لى البرنامج . وكان الموظف الذى يحدثنى فى كل من هذه المكاتب ، لايلبث ان يخوض فى مناقشة مع رفاقه بالعربية ثم يمضى خارجا . وكان المكتب الثالث الذى زرته صغيرا ، اشعة الشمس تنصب فيه دون ان تكون ثمة مروحة . وكان صاحب المكتب متغيبا عنه ، وجلست انتظر لحظات خلتها ساعات من شدة الحر . فطلبت ان ينقلونى من تلك الغرفة الى ان يعود . وعدت بالفعل الى المكتب الثـــــانى الذى كنت فيه .

واستبد بى الغيظ هنـــا . وقلت اننى صرفت أربع ســــاعات فى سيارة « الباص » عبر الصحراء . واننى مجهدة ، ولا اســـتطيع احتمال الانتقـــال من مكتب الى آخر دون اية نتيجـــة . واضفت انهم اذا كانوا لايعرفون ما سيفعلونه معى . فلعل الأفضل ان يبعثوا بى فى طيـــارة الغد الى القاهرة . وساعود ثانية مع موظف من وزارة الثقافة والارشاد القومى ، ليعد برنامجا لزيارتى .

وكنت اوشك على البكاء ، فالحرارة التى لاتطاق تحمل الانسان على ان يفقد اعصابه .

واسفرت هذه الثورة عن وعدهم لى باعداد سيارة فى الخامسة مساء ستنقلنى الى مكان لم يحددوه . وان امضى لتوى الى المطعم الخاص بالموظفين لتناول الغداء .

وكان المطعم ، بناء طويلا واطىء السقف ، يقف فى طرف فناء ترابى وقد صفت فيه المقاعد والمناضد تحت شجر الســـنط « الاكاسيا » التى تضفى شيئا من الظل . وكان البناء يتـــألف من الداخل من قاعة كبيرة تنتشر فيها موائد طويلة يجلس اليها شبان لم يتجاوز اكبرهم ســـنا الثلاثين من عمره . ورافقنى الشاب الذى كان اول من استقبلنى الى احدى الموائد ، ثم مضى باتجاه المطبخ فى الطرف البعيد من الغرفة ، ليـــأمر بالطعام لى كما قدرت ، ولكنه ذهب ولم يعد ، وانتظرت مدة طويلة دون

ان اجد شيئا امامي . حتى سمعت احد الشبان الجالسين الى المائدة الطويلة يقول : « تفضلي ، وكلي معنا » ، واشار الى صحاف من الارز ، واللحم و « السلاطة » التى تضم البصل و « الطماطم » الحمراء . وملأت صحنا من الارز وبعض « السلاطة » . ولكننى عجزت عن الاكل . فقد كنت متعبة .

ولم يكن الرفاق يعرفون الا كلمات من الانجليزية . ولذا كان الحديث شاقا بالرغم من جوه الودى . وشعرت بألهم لاننى لم أطعم الا القليل . وسألنى احدهم اذا كنت ارغب فى كأس من الجعة . فرحبت بذلك ، وجاءوا لى بقدح منها مثلوج بالثلج . وشربت الجعة كما نشرب الويسكى عادة .

وعاد الشاب الأول اخيرا ومعه زميل له . ومضيا بى عبر الغناء الى طريق ترابية وصلنا منها الى الاستراحة . وكانت ملأى بالاثاث المزخرف الضخم . وعلمت انها بنيت للملك السابق ليقيم فيها عندما كان يمضى الى الصيد او لزيارة المناطق الاثرية فى الواحة . وللاستراحة مدخل ضخم من الحجر يقود الى « انتريه » يصعد منها الانسان بضع درجات ليطل على قاعة كبرى للمائدة وقد صنعت منضـــدتها ومقاعدها الثقيلة من الخشب الاسود . والى جانبها غرفتان للنوم . وكانت الغرفة التى مضيت اليهـا تضم سريرين احدهما مزدوج والآخر مفرد . وكانت معتمة . ونوافذها مغلقة . وكان الحر فيها خانقا .

وفى القاعة ابواب تصل الى المطبخ والحمام . ورايت ثلاجة كبيرة ، فتحها الشاب ليخرج منها بعض زجاجات الكولا . وجلس الشابان على اريكة القاعة بعض الوقت يشربان الكولا . وينظران فى بعض المجلات . ثم سمعت احدهما يقول .. « اتريدين اية معلومات » .

ورددت باننى اريد الحصول على جميع المعلومات الممكنة . فهذا هو الذى دفعنى الى المجىء الى هناك .

وعاد الشاب يقول ... وما الذى تريدين ان تعرفيه ؟

وراح العرق ينصبب منى ثانية .

وقلت .. أولا ما هى المحصولات التى تزرع فى الواحة ؟

وفكر بعض الوقت قبل ان يقول .. الذره .

وقلت ... ولكنهم ذكروا لى ان النخيل اهم ما يزرع فى الواحة .

ـ اجل . انها المحصول الرئيسى .

وراح الشابان يتحدثان بالعربية بعد ذلك . وانتظرت ان يمضيا عنى . وفعلا مضيا بعد ان انهيا شرابهما .

كنت راغبة فى ذهابهما ، ولكننى سرعان ما احسست بالوحدة . ورايت خادما يرتدى لباسا ابيض يجول فى المطبخ ، وسرعان ما وجدته وكنت ما ازال جالسة الى الاريكة افكر فيما سأفعله ، يدخل وقد حمل صينية عليها ادوات الشاى . كان الشاى حادا للغاية . واحتسيت بضع قطرات منه ، ثم دخلت غرفة النوم حيث استلقيت على السرير الصغير . متصورة ان فى استطاعتى ان انام ساعة او ساعتين انتظارا للساعة الخامسة ، وهى الساعة الموعودة ، لامضى فى السيارة .

لكن جمود الجو فى الغرفة بالاضافة الى القيظ ، منعا النوم عن جفنى وكان ثمة بعض البعوض الذى ظللت ادفعه عنى بمروحتى اليابانية . وغرقت فى افكارى السوداء ، وخيل الى ان خير ما افعله ، هو ان استقل الطائرة فى الغد ، وان اعود الى القاهرة ، لارتب فيها رحلتى المقبلة الى الوادى الجديد . وكنت اشك فى ان برنامجا سيعد لجولاتى فى الغد . وخيل الى انهم لو اعدوا مثل هذا البرنامج ، فان ضعف هذين الشابين اللذين رافقانى حتى الآن فى اللغة الانجليزية لن يمكننى من جمع اية معلومات . وكنت على ثقة بأن مثل هذا المشروع الضخم ، لابد ان يضم عددا كبيرا من الناس الذين يجيدون الانجليزية ، ولكنهم خصصوا لى هذين الشابين من قسم العلاقات العامة . وقد ادركت لتوى ، انهما بالاضافة الى انجليزيتهما المتعبة ، لا يعرفان الكثير عن الناحية الزراعية . وسألت نفسى عن المكان الذى سأمضى اليه فى الخامسة . ستكون الشمس قد اشرفت على المغيب ، وبدأ الغسق يقترب .

ولم تأت السيارة فى موعدها المقرر .

وعاد الشاب الأول بعد وقت طويل يرافقه آخر ، يكبره سنا ، لم اكن قد رأيته من قبل . وبدا لى القادم الجديد تواقا منذ البداية لاعرف انه يجيد الانجليزية .

وحيانى الرجل مرحبا بى بحرارة قائلا ... « هالو ... ياسيدتى . كيف انت ؟ »

ـ اننى منزعجة . فلا احد يكترث بى هنا .

ـ لا تقلقي يا سيدتي . سنعد لك برنامجا للغد . أما الآن فلنجلس خارجا حيث يوجد بعض الهواء .

ومضينا الى الشرفة . وجلسنا الى بعض المقاعد . واستلقى القادم الجديد على مقعده ، ثم راح يبتسم موجها الى وبسرعة سيلا وابلا من الاسئلة :

ـ هل انت صحفية ؟

ـ لا . انا كاتبة . اؤلف كتبا .

ـ اى طراز من الكتب .

وبينت له الكتب التي اصنعها .

ـ وهل تحملين ايا من كتبك ؟

ـ لا . ان المؤلفين لا يحملون كتبهم في رحلاتهم .

ـ ولم ذلك ؟

ـ لانها ثقيلة .

وبدا العرق يتصبب مني . ويبدو ان منطقي قد اعجبه فشرع يتحدث بالعربية الى رفيقه . ثم استعاد بسمته وتطلع الى بعينيه السوداوين وقال ..

ـ وما رأيك في برتراند راسل ؟

وهكذا استمر الحديث . وسألني عن رأيي في جان بول سارتر وفرويد . وماركس وديكارت وكريستين كيلر . وقال : احقا كل ما يقال عنها ؟

وعندما افرغ جعبته من هذه الاسماء قال : وما رأيك في الحياة بعد الموت ؟

ـ في رأيي ان ليس ثمة حياة بعد الموت .

وبدا عليه التجهم . والتفكير والقلق وقال ... ان الموت مشكلة .

وجففت العرق عن جبيني وتمنيت لو اتيح لي كأس من الوسكي وقلت ... وقد بان علي الضجر ... ليس في الموت مشكلة . انه يحل كل شيء .

واردت الهروب من أسئلته وقلت فجأة ... اهناك ما يشرب من المثلجات ؟

ولم يكن هناك شيء يشرب في الاستراحة . ولكن في المطعم بعض الجعة . واقترحا على ان نمضي الى هناك . وتصورت الجعة بكعوب الثلج ، لكنها افضل من انتظار هذه الاسئلة التي لا تنتهي .

وغادرنا الاستراحة الى المطعم . ورايت الرجال يجلسون تحت الاشجار . وكان ضوء النهار قد اخذ في الاختفاء ليحل الغسق محله . ودلفنا الى الداخل وجلسنا الى احدى الموائد . وحملوا الينا الجعة والثلج والطعام . انه نفس ماكان في وجبة الغداء . وكانت الجعة ساخنة بالرغم من الثلج فلم أشرب الا القليل ، كما لم اطعم الا النزر اليسير . ولم يعد في وسعي مواصلة الحديث . واحسست بصداع ، ثم تذرعت بالتعب ، وطلبت ان امضي مبكرة الى الاستراحة .

واتفقنا قبل ان نفترق ، على ان تصلني السيارة في الثامنة والنصف صباحا . ورحت اتأكد من الموعد . فأكدوه لي .

وسحبت المرتبة بعد ذهابهما من السرير الى الشرفة ، واستلقيت عليها . وبالرغم من ان البرودة كانت اكثر هناك . فان الحشرات كانت كثيرة ايضا ، ولذا عدت الى الغرفة . واحسست بالمرض فتقيات ، واشتد بي الاسهال . وظللت على هذا الحال طيله الليل ، وقد اجهدني السهر والحرارة .

وحمل الى الخادم الشاي في السابعة وكانت الشمس قد طلعت ، ولكنني لم استطع تذوقه . ومضيت بعد الثامنة الى الشرفة انتظر السيارة التي لم تصل ، وخيل الى عندما بلغت الساعة التاسعة ، ان على ان امضي لادبر امر رحيلي عن المكان في طيارة بعد الظهر ، مخافة ان اجد نفسي مضطرة الى العودة في سيارة « الباص » الى اسيوط ، او قضاء اسبوع آخر في الخارجة .

وتركت الاستراحة ومضيت في الطريق الترابي الذي لاظل فيه الى بناء المكاتب ، ابحث عن ذلك الرجل الذي وعد بارسال السيارة بالأمس ، والذي بدا لي انه صاحب سلطة . ولم استطع العثور على مكتبه ، واخيرا دخلت كوخا رايت فيه بعض الرجال يجلسون الى منضدة . وهويت على مقعد بجانبهم ، وقد احسست بالمرض والحاجة الى العودة بالطائرة الى

القاهرة بعد ظهر ذلك . ورجوتهم ان يحاول أى منهم حجز مكان لى على الطائرة ، اذ كنت مريضة وفى حاجة الى الطبيب .

وراح شاب طلق المحيا يطمئننى قائلا .. . لا ياسيدتى . انت لست مريضة . وانما هو الحر الشديد . ونحن لا نريد ان تصرفى على هذا النحو فى بلادنا .

وقلت للشاب اننى لا امثل . اننى مريضة حقا . وكنت مريضة طيلة الليـــل . ولذا يجب ان اعود الى القـــاهرة فى ذلك اليوم . ورجوته مساعدتى .

وطال الحديث بالعربية بين الرجال . وجرت اتصالات هاتفية . فى حين كنت أجلس وقد وضعت رأسى بين يدى . مصممة عـلى ألا اغادر الغرفة الى ان يتقرر الامر بالنسبة الى . وفجأة . رأيت الرجل الذى وعد بارسال السيارة بالامس يدلف الى الغرفة ، وكأنه قد استدعى هاتفيا . ودخل الرجل بمنتهى النشاط والحيوية يسألنى عن صحتى . ويؤكد انه بعث بالسيارة فى موعدها . ولكننى لم اكن هناك . ولم اكن على استـــعداد للدخول فى حوار معه . بالاضافة الى ان موضوع السيارة لم يعد يهمنى. وقلت له اننى مريضة . وانه لابد من رحيلى فى طائرة ذلك اليوم .ورجوته متوسلة ان يعد العدة لذلك .

ولم يسبق لى ان رجوت انســانا كما رجوت ذلك الرجل فى ذلك اليوم . وكل ما آمله . هو ألا تتكرر هذه التجربة . وبدا لى ان رجائى اثر عليه . فراح فى موجة طاغية من الحماسة . ينشط الى استخدام جهاز الهاتف .

وبدا لى ان الحديث الهاتفى قد تحول الى صراخ . واصيبت اذناى بما يشبه الصمم . وجسمى بما يشبه الشــلل . وفجأة توقف الحديث ، وقفز الرجل باتجاه الباب المفتوح . ليتبعه الآخرون جميعا .

وكنت على وشك اللحاق بهم . فقد قررت ألا أظل وحيدة . وبضــيع فرصتى فى الرحيل على الطائرة . عندما وجدت الشاب الذى اسـتقبلنى اول مرة يدخـــل الى الغرفة . وانحيت عليه باللوم لأنه لم يف بوعده بارسال السيارة فى الثامنة والنصف . فاعتذر . بانه انشغل بأمور هامة ولكنه فرغ منها الآن وبات فى وسعنا ان نمضى .

وقلت له ان كل ما انشــــده هو ان امضى فى طائرة ذلك اليوم ،

وبدا لى انه كان يعرف ذلك اذ ابلغنى ان كل شىء قد اعد . وستطير الطائرة فى الثانية بعد الظهر ، وما زال امامنا متسع من الوقت . وسألنى عن المكان الذى أود المضى اليه فى السيارة ؟ اذن فليس ثمة برنامج حتى تلك اللحظة .

وقلت يائسة ... سمعت ان هناك معبدا ؟ اليس كذلك ؟ ولكن لنمضى اولا الى دائرة البريد لأبعث ببرقية الى القاهرة .

ومضت بنا السيارة عبر الشارع العريض الذى تحيط به اشجار الكافور « اليوكالبتوس » الى دائرة بريد العربه حيث طيرت برقية الى السيد على محمد على ، اعلمه بعودنى وارجوه ان ينتظرنى . ثم رحنا نقود السيارة ببطء عبر القرية القديمة وطرقاتها الترابية . وقال رفيقى ... « انها ليست نموذجيه ، ولكن فيها مخازن تعاونية . وكل انسان يعمل فيها . انها بداية التقدم ، وستتوافر الارض لكل من يطلبها .

وحدثنى مهندس زراعى قابلته بعد ذلك فى المطار بشىء من الحماسة يقول ... « لم يكن الناس هنا يعرفون العملة قبل مجيئنا . بل كانت تجارتهم تقوم على مقايضة السلع . اجل انها المقايضة . اما اليوم فهم يعرفون كل شىء ، العملة ، واجهزة الراديو ، وسيعرفون التليفزيون عما قريب » .

وقد آلمه اننى اعتزمت الرحيل قبل ان ارى شيئا وقال ... لو كنا نعرف بمجيئك لأعددنا عدتنا لكى ترى كل شىء . وكنا سنأخذك الى بريس والواحة الداخلة . وسترين بساتين البرتقال والزيتون وغابات النخيل . ولا ريب فى ان من الروعة بمكان كبير ان ترى كل هذه الامور فى قلب الصحراء » .

وقلت له بشىء من الألم انهم كانوا يعرفون بمجيئى وان محافظ اسيوط تحدث اليهم هاتفيا . واننى قوبلت عند وصولى من موظف من العلاقات العامة ولكنهم لم يعدوا اى برنامج لى .

وراح الرجل يوضح لى اللغز قائلا ... « اننا اشبه بفريقين هنا ، فريق الاستعلامات وفريق الانتاج . ولو جئت الينا . اى الى قسم الانتاج فلدينا ايضا علاقاتنا العامة ، ولكان فى امكاننا ان نطلعك على كل شىء . واذا عدت ثانية فابعثى الينا برسالة . واؤكد لك انك سترين كل شىء .

وهكذا قدر لى ان ارى قرية الخارجة القديمة . والبلدة الجديدة ،



الوادى الجديد ـ الماء يتدفق فى الصحراء

والنقطة التي يتدفق منها الماء من الارض من بئر لايزيد عمقها على ثلاثين مترا ·

وخيل الى ان الرفيق سألني في مرحلة من الرحلة عما اذا كنت ارغب في رؤية طبيب للاسنان · واعتقدت انها لابد ان تكون عيادة لطب الاسنان وعندما خرجت من السيارة ، رأيت مجموعه من المساكن النظيفه الصغيرة ورأيت شابا يرتدى معطفا ابيض ، فتأكدت من هذا تمام التأكد · وعندما اجتزنا بعض الرمال المحرقة للقدم ودخلنا احد البيوت ، كنت اتوقع ان ارى نساء واطفالا على المقاعد ينتظرون دورهم ورأيت بدلا من ذلك مئات من صغار الديك الرومى ، في محفة لينة · وهنا ايقنت انني اسأت السمع وان العبارة التي اطلقها الرفيق كانت dm donneau لا dentist ولا ريب في ان الانسان يخطىء السمع في تلك الحرارة المحرقة · وبدت الطيور الصغيرة في صحة تامة ، وظهر لى ان العناية بها علمية ، كما ايقنت ان الشاب ذا المعطف الابيض فخور بعمله ·

ووصلنا بعد ان قطعنا الطريق الطويل الى معبد الخارجة المشـــهور « هيبيس » ، وقد شيد في عهد الملك الفارسى دارا الأول في القرن السادس قبل الميلاد · وهيبيـس هو الاسم القديم للبلدة الرئيسية في الواحة ، ويعنى « مدينة المحراث » · وقد بنى المعبد من الحجارة الرمليه ، ومازال في حالة سليمة للغاية ، اذ ان اعمدته مازالت صحيحة لم تمس · وتحيط اشجار النخيل بالمعبد ، وبدت الانقاض في لونها الرملى اشـــبه ما تكون بالامتداد الطبيعى للصحراء المحيطة بها · وكانت الظهيرة قد حلت لسوء الطالع · والحرارة باتت محرقة ، ولذا فقد عجزت وانا في تلك الحالة من الاعياء عن مغادرة السيارة · ويقوم الى جانب هذا المعبد ، معبد صغير آخر للاله « ندورا » ، ولكن الزمن عفى على معظم اقســـامه ولم يبق منهــــا الا القليل · ويقول الدكتور بول · انه تقوم الى جانب المعبد الكبير مقبرة تضم نحوا من مائتى ضريح من قبور المسيحيين · وان معبد هيبيس يضم بين صوره المرسومة على الجدار · صور دارا الثاني (٤٢٥ ــ ٤٠٥ ق·م) ونكتانيبوس الاول (٣٧٨ ــ ٣٦٤ ق·م) · كما تمثل بعض الرســـوم المنحوتة الملك وهو يقدم نبيذ الواحة الى الالهة · ونستنتج من هذا ان الواحة كانت حافلة بالكرمة في تلك الايام ·

وتقوم في جوار المعبد ايضا خرائب يعتقد انها بقايا ابراج رومانية ، كما تقوم انقاض القلاع الرومانية على الطريق الممتدة شرقا الى جرجا · وهكذا تقوم بقايا المدن القديمة في كل مكان هنا · لكن بول يقول انه لم

يعثر على بقايا مدينة هيبيس القديمة ، ولا يمكن الحكم على اهميتها الا من ضخامة المعبد الذى كان قائما فيها ٠ ويشير حجم المقبرة المسيحية ايضا ، الى ضخامة المدينة النصرانية التى كانت تقوم هناك ٠ كما أن فى المواقع المجاورة آثار بعض الاديرة .

وعندما مضى الدكتور بول . بعريفه من السائحين الى واحة الخارجة فى عام ١٨٩٩ . لم يكن كثيرون من الاغراب قد زاروها قبله ٠ وهو يعدد ثمانى بعثات سبقته بينها بعثة فريدريك جيو . الرحالة الفرنسى الذى يقول بول ـ انه وصف واحة الخارجة فى كتابه ــ رحلة الى واحة طيبـــة (١٨٢١) . وانه كان اول من اكتشف معبد هيبيس العظيم ٠ ولم اجد فى الانجليزية الا القليل عن واحة الخارجة سواء من ناحيتى طبقات الارض والآثار التاريخية ٠ وانى لاوصى كل قارئ مهتم بالموضوع بقراءة كتاب الدكتور بول الطريف ٠

وكما يقوم الفندق العصرى الجميل الابيض اللون عبر الطريق من أهرام الجيزة . هناك عبر الطريق من معبد هيبيس . بنـــاء حديث مربع الشكل . لفندق من الفنادق الممتازة للسائحين الذين يفدون لزيارة الآثار الرائعة فى الواحة ٠ وكانت عملية بناء الفندق قائمة على قدم وساق عندما زرت الواحة ٠ ولاريب فى ان تكييف الهواء سيكون احد اللطائف التى سيتمتع بها الفندق ٠ وقد اكدوا لى هناك ان الحرارة المرعبة التى خبرتها فى شهر اكتوبر فى الواحة ، لا تلبث ان تتلطف فى الاشهر القادمة وان نوفمبر وديسمبر هما احسن شهرين لزيارتها ٠ أما فى يناير فتهب على الواحة رياح عنيفة ترافقها زوابع رملية ٠

وهكذا اصبحت الخارجة مركزا رئيسيا فى مشروع الوادى الجديد ، للتنمية والاسكان ٠ ولا ريب فى ان النبيذ الجيد . سينتج من جديد كما كان ينتج فى الماضى فى هاتين الواحتين ٠ ولكنهما لن تعودا كما كانتا فى الماضى منافى يبعد اليها الكثيرون كالمطران نسطور الذى نفى الى الخارجة بعد أن حرمه مجمع افيزوس الكنسى ٠ ولا ريب فى أن القبور المسيحية ، وبقايا الاديرة ، هى الدليل على المستعمرة النصرانية التى اقامها هناك ٠

ويقول الدكتور كيس ان اثناسيوس نفى ايضا الى الخارجة ، وان كان بعض الثقات فى التاريخ يؤكدون انه فر الى الصحراء ٠ حيث عاش مع رهبانه هناك عندما اختلف مع الامبراطور ٠ ويقول كيس ايضا ان الخارجة كانت فى عهد الاباطرة الرومان منطقة خاصة بالرهبان النســـاك ، وان « الآثار المسيحية فيها ممتازة بروعتها وجمالها » ٠

وانى لآسفة اشد الاسف لأننى لم ار هذه الآثار . وقد تتاح لى فرصة اخرى اكون فيها اكثر احتمالا للقيام بهذه الزيارة ٠

ورايت فى المطار اسرا واطفالا فى الطريق الى الاجازة . وسـالت رفيقى اذا كان يرغب فى الذهاب فى اجازة ايضا ، فرد بالايجاب ، مضيفا ان زوجته تقيم فى القاهرة ، ولكنها ستاتى الى الخارجة بعد ثلاثة شهور ، وبعد ان يتم بناء مساكن جديدة ٠

وقلت اسأله : ولكن هل ستكون راغبة فى العيش فى هذه المنطقة الصحراوية ؟

فرد ببساطة ٠٠٠ انها ستكون معى ٠ وسيكون بيتها هنا ٠

ـ او تحب انت العيش هنا ؟

ـ انه عملى ٠

وكان الشبان الذين قابلتهم فى المطعم ٠ قد رددوا نفس القول عندما سألتهم السؤال عينه ٠ انه عملهم ، وهم يهتمون به ويسـتهويهم لانهم يخلقون شيئا ٠ انهم يحولون الصحراء الى ارض منتجة ٠



٧ - بعض نواحي الإصلاح الزراعي

ليس الوادي الجديد الا ناحية واحدة من نواحي الاصلاح الزراعي في مصر الحديثة . فهناك اوجه اخرى لهذا الاصلاح . وكلها جديرة للاهتمام . وتستحق الدرس والعناية . فالاصلاح الزراعي يقوم في المرتبة الثانية بعد السد العالي في الامور التي تذهب المرء لمشاهدتها في مصر . بل يسير معه جنبا الى جنب . وبالرغم من أن بعض اجراءات الاصلاح الزراعي قد نفذت في عام ١٩٤١ . وأن بعض المراكز الريفية قد أنشئت . وبعض الأراضي قد وزعت . فان الحقيقة الواضحة . هي أن نحوا من مليونين ونصف المليون من الفلاحين كانوا يعيشون قبل ثورة عام ١٩٥٢ عيش الكفاف . ولا يملكون من الارض شيئا . في حين كانت هناك حفنة من الملاك الأثرياء لايزيد عدد افرادها على الألفين تملك أكثر من ثلث الارض الزراعية.

وتكون الخطوة الاولى في اى مشروع للاصلاح الزراعي تقوم به اية حكومة ثورية ، هي استملاك الارض من كبار الملاك الذين يملكون اراضي واسعة . واعادة توزيعها على من لايملكون ، أو على الذين يملكون القليل . وحدد قانون الاصلاح الزراعي الذى صدر في مصر . في عام ١٩٥٢ الحد الاعلى للملكية بمائتي فدان من الارض . وتم استملاك الاراضي او استبدالها طبقا للقرارات التي اصدرتها المحاكم الخاصة التى اقيمت لهذه الغاية ، كما اصدرت الحكومة سندات لدفع التعويضات . والفت لجانا خاصة لدراسة أوضاع الاراضي التي يقوم العمال من ذوى الأجور بفلاحتها ، وللقيام بالبحوث الاجتماعية والاقتصادية الخاصة باعادة توزيعها .

وتمثلت الخطوة الثانية في اسكان الاراضي المهجورة أو المهملة . وفي

استصلاح الاراضى الصحراوية بحيث يمكن توفير المزيد من الارض المزروعة ، بالرغم من عدم توزيعها قبل أن تصبح صالحة للانتاج . وهو ما يتطلب عدة سنوات . وتطلعت الخطة الطويلة الاجل لاستصلاح الاراضى فى الجمهورية العربية المتحدة الى عام ١٩٦٥ ، واستخدام مياه السد العالى . الذى سيضمن زراعة ورى مليون فدان من الارض او مليونين على حسب التقديرات الاخرى . أما البرنامج العصير المدى فيتلخص فى استخدام مخزونات المياه الراهنة فى خزان اسوان وفى اكتشاف موارد جديدة للمياه الجوفية كما فى واحة الخارجة وفى الافادة من اقنية الرى . واقامت الحكومة ثلاث هيئات : أولاها الهيئة المصرية العامة لتعمير الاراضى ، وثانيتها الهيئة المصرية العامة لاستصلاح الاراضى ، وثالثتها الهيئة المصرية العامة لتعمير الاراضى الصحراوية . ولا يسمح بتوزيع اية أراض الى أن تكون قد اعطت نتاجا طيبا تحت اشراف الهيئة التى تتولى التعمير أو الاستصلاح . والى ان تكون هذه الهيئة قد وفرت المساكن الضرورية والمرافق العامة كالمدارس والمستشفيات والوحدات الصحية وماشابهها للاسر التى ستوزع عليها الارض لاستغلالها . وتقوم هذه الهيئات احيانا ببناء الجسور وشق الاقنية وانشاء المجارى . فليست القضية والحالة هذه مجرد الاستيلاء على الاراضى من اصحابها الاغنياء واعادة توزيعها على الفقراء وانما تمثل فى مشروع معقد ، ينطوى على الناحيتين الاجتماعية والعلمية .

ولا يكفى أيضا توزيع الارض على الفلاحين ، فيجب تعليمهم على زراعتها ، بأحسن السبل الممكنة ، وارشادهم الى تحسين حياتهم . وهو ما يجرى الآن فى الوحدات المجمعة فى الريف وفى الجمعيات التعاونية وفى نظام الزراعة الجماعية فى بعض المحافظات التى يجب ألا تعتبر على غرار المزارع الجماعية فى الاتحاد السوفياتى ، وكلها تستهدف تحقيق افضل النتائج واحسنها .

ويعتبر اقامة مراكز تعبئة الخضراوات والفواكه فى المناطق الزراعية وحفظها ناحية من نواحى الاصلاح الزراعى ، تضاف الى اقامة بعض الصناعات المكملة كمصانع البسط فى منطقة مريوط القريبة من الاسكندرية ، معتمدة فى صوفها على الاغنام المحلية ، وانشاء المستنبتات لانتاج الاشجار المختلفة الانواع كالنخيل ، وتلك التى يستفاد من اخشابها والحمضيات والشجيرات الشوكية والخيزران والخوخ وأشجار الزيتون وغيرها .

وقد خصص نحو من خمسين فدانا فى واحة الخارجة لهذه

المستنبتات على ان تخصص فيها وفى الواحة الداخلة مساحات أخرى ٠ ويجرى انشاء مطاحن جديدة للدقيق والارز ، لسد احتياجات الزيادة فى انتاج القمح والارز ، كما يجرى بنـــاء زرائب للماشية ، واقنان الدجاج ومحطات التفريغ وصوامع التخزين ومعامل الالبان ٠ واقيم فى الخارجة ايضا مصنع لانتاج القش من فروع النخيل لاستعماله فى صناعة الاثاث. كما اقيم مصنع لتجفيف التمور وتعليبهـــا ٠ ويعتبر المصنع الاخير مهما للغاية لأن الواحة تنتج الفى طن من التمر فى السنة ، وفى وسع المعمل ان ينتج ثمانية اطنان يوميا من التمور المعلبة ، كما يؤمل رفع انتاجه الى اثنى عشر طنا فى المستقبل القريب ٠

وهنـــاك ناحية اخرى للاصلاح الزراعى وهى اسكان البدو الذين تاثروا بمشروعات استصلاح الاراضى الصحراوية ٠ وقد يكون من السهل على الانسان أن ينظر نظرة رومانطيقية الى البدو فى حيـــاتهم الحرة اذ يجوبون ارجاء الصحراء ، لـكن الحقيقة الواقعية هى انهـم يعيشون فى أوضاع من الشقاء والفقر ٠ وتم فى عام ١٩٦٤ مشروع للمؤسسة المصرية العـامة لتعمير الصحارى ــ يقضى باسكان البدو فى الصحراء الغربية ٠ وذكرت الجريدة الرسمية (الوقائع) فى عددها الصادر فى الخامس من يناير عام ١٩٦٤ ان « الهدف من المشروع اسكان نحو من أربعمـــائة اسرة من البدو عن طريق توفير عشرين الف فدان من الاراضى الزراعية لهم(١)، لرفع مستوى حياة المقيمين فى المنـــاطق الواقعة فى السواحل الشمالية الغربية من الجمهورية العربية المتـحدة ٠ وسيشمل المشروع رى منطقة مريوط حتى بلدة الحمام ، وتحسين تربية الماشية عن طريق تامين العلف اللازم فى مواسم الجدب ، وتحسين المراعى الحالية التى تشمل ســـتين الف فدان ٠٠٠ وسيتوسع تطوير هذه المنطقة بعد تنفيذ مشروع منخفض القطارة وتوليد القوة الكهربية فيه ، وهو المشروع الـــذى ينتظر ان يتم فى عام ١٩٧٠ ٠ وسيؤمن المشروع القوة الكهربية اللازمة لبعض المشروعات الاخرى فى المنطقة » ٠

وتقول نشرة حكومية صدرت عن موضـــوع استصلاح الاراضى ان هناك ضرورة الى «العناية عناية خاصة بالبدر أو استصلاح الاراضى التى

(١) لم اعثر فى عـــدد الوقائع هذا او فى اعداد عام ١٩٦٤ على نص القانون المذكور ٠ ولا ريب فى ان المؤلفة اخطأت فى تاريخ العدد ٠ وبعد البحث والتحرى وجدت ان هذا القرار صدر فى السنة التى سبقتها ٠

(المعرب)

يعيشون فيها » . ويعتقد ان هناك نحوا من ثمانين الفا من الناس معظمهم من البدو ، يعيشون فى المنطقة الساحلية الشمالية الغربية الممتدة بين الاسكندرية والسلوم ، على الحدود الليبية مسافة تربو على خمسمائة كيلومتر عبر الصحراء الغربية .

منطقة مريوط :

يشمل مشروع مريوط نحوا من خمسين الف فدان تقع الى الغرب من الطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية ولعمق يبلغ عشرين كيلو متر . والغرض من هذا المشروع الافادة من مياه الصرف الرئيسية التى تصب حاليا فى البحر ، لنشر الزراعة غربا على طول الساحل . وكانت هذه المنطقة فى الماضى من اراضى المستنقعات التى كانت تؤلف بحيرة المريوطية . وما زالت هناك بقايا هذه البحيرة التى تنفصل عن البحر الابيض المتوسط ببرزخ ضيق من الرمال ، وان كان القسم الاكبر منها قد صرفت مياهه ، وقد عدل عن المشروع الأول ، بتجفيف مياه البحيرة كلها ، بعد أن تبين أن هناك بعض الصيادين يعيشون على صيد الأسماك فيها . وكانت البحيرة كبيرة فى وقت من الأوقات ، وتستهوى أهل الاسكندرية وضواحيها كمكان خلوى يقضون فيه نزهاتهم . ولعل من الطريف أن نذكر هنا ان كاتبا هو انطونى دى كاسون وضع كتابا فى عام ١٩٣٥ عن المنطقة (١) ، اعرب فيه عن أمله بالا تؤدى أول طريق للسيارات عبدت بين الاسكندرية والصحراء الغربية فى عام ١٩١٧ ، الى اتلاف روعة المنطقة ، اذ « يخشى ان يؤدى تطويرها الحديث ، الى جعلها منطقة تخلو من الرومانطيقية ، وذلك لان البدو بدءوا يهجرون حياتهم العادية ، ولأن الازهار والبصيلات أخذت تجتث من جذورها ، والطيور الصغيرة التى تفرخ فى موسم الغلال فى الربيع ، تجمع ، ليبيعها أبناء البدو الواقفون على الطريق الى اصحاب السيارات من أهل الاسكندرية» .

ولم يكتب الكثير عن مريوط . ويقول دى كوسون ان القليل كتب عنها فى الانجليزية والفرنسية وان أى . ام . فوستر ، وصف روعتها

---

(١) كتاب « المريوطية » . وهو كتاب صغير عن تاريخ الآثار القديمة فى صحراء مصر الغربية ومن بحيرة المريوطية ــ طباعة لندن لعام ١٩٣٥ .

وجمالها فى كتابه « فاروس وفاريلون » (١) ، وفى الفصل الذى يحمل عنوان « المــكان المنعزل » • وقد خبرت بنفسى ما فى مدى هذه البحيرة ومستنقعاتها وقصبها من ضياع وغرابة ، فهى مأهولة بالبط البرى الذى يأهل المستنقعات القريبة من البصرة فى جنوب العراق ايضا •

ويروى دى كاسون ان « شـــواطىء بحيرة المريوطية كانت المكان الذى بنى عليه أثرياء الاسكندرية قبل الفى عام ، اى فى العهود الرومانية والاغريقية ، داراتهم ومساكنهم الريفية ، وان المنطقة كانت تضم اماكن اللهو التى يؤمها الناس للترفيه عن انفسهم • وكانت القوارب هى الوسيلة الوحيدة للمواصلات ، اذ تقلع من ميناء مربوط عند الطرف الجنوبى من المدينة ثم تبحر سائرة مع الجانب الغربى للبحيرة الى ماريا أوتابوسيريس ، أو الى أى مكان آخر من الاماكن التى تقع الى جانب المــاء ••• اما الآن فقد بات هذا الجزء من البحيرة ارضا طينية مســطحة وسرابا » ••• وفى يومنا هذا ، دخلت الجرارات وآلات جميع الصــدف الى المنطقة •• ولكن ما زال من العسير التفريق بين الماء والسراب على الارض كلها •

وبالرغم من خطة الاصلاح الزراعى قد ضيقت مــساحة البحيرة، فانها أعادت الى المنطقة الزراعة التى كانت منتشرة فيها • وكان اســـم «تيهينو» الذى يعنى «أرض الزيتون» يطلق على هذه المنطقـــة فى اقــدم العصور ، ولكنها لم تكن تضم غابات الزيتون فحسب وانما ضمت أيضا غابات لأشجار اخرى تقع على شاطىء الدلتا باتجاه الغــرب ، كما كانت المحصولات كلهـــا تزرع على الشواطىء الغربية للبحيرة • وكانت مربوط تعتبر فى عهد الرومان من أجود الأراضى انتاجا للقمح ، وكانت هناك ايضا كروم العنب ، التى ما زال بعضها موجودا وسيكون مدار حديثنا فى مكان آخر كما كان النبيذ المريوطى من أجود الخمور واحسنها ، وكانت المنطقة ايضا تنتج الجعة من الشعير المزروع محليا •

لكن الزراعة اضمحلت فى المنطقة ، وعندما زارها رحالة القرن الثامن عشر العظيم دبليو • جى • براون فى عام ١٧٩٢ ، وجد أن الخضرة فيهـــا

---

(١) اسما جزيرتين صغيرتين تقعان فى خليج الاسكندرية • وكان يقوم على الاولى منهما فنار كبير • وقد طبع هذا الكتاب فى لندن لأول مرة فى عام ١٩٢٣ ، ثم اعيدت طباعته فى عام ١٩٢٦ • وفى الفصل الخاص بمنطقة المريوطية ، يتحدث المؤلف بلغة شاعرية عن الازاهير التى تتفتح فى الربيع فى أرض المستنقعات ، وعن التربة التى تغطى الحضارة المريوطية بالتراب •

(المعرب)

كانت لاتكاد تذكر اذ يتألف الجزء الاكبر منها من مختلف أنواع الحشائش او القل ، واضطرت حملة الرحلة الى حمل كميات كبيرة ودائمة معها من الشعير والتبن(١) وكانت البحيرة جافة ايضا ، ويقول دى كوسون أن هذه النتيجة كانت طبيعية بسبب تكلس الأقنية التى تمدها بالماء من النيل ، وهى عملية بطيئة استطالت مئات السنين ، وبالاضافة الى عامل تبخر المياه وهو في منتهى الأهمية ايضا .

وجفت مياه بحيرة المريوطية بين القرنين الثانى عشر والتاسع عشر ثم تعرضت لفيضان البحر فى عام ١٨٠١ ، عندما دمر البريطانيون الحاجز الذى يفصلها عن أبى قير فى أثناء حصار الاسكندرية ، ليقطعوا عن الفرنسيين فى الاسكندرية مصادرهم من المياه العذبة ، وعادت البحيرة فجفت بعد ثلاثة أعوام ، لتعود فتغرقها مياه البحر ثانية فى عام ١٨٠٧ ، نتيجة عمل البريطانيين فى أثناء محاربتهم لمحمد على ، واعيد انشاء الحاجز فى عام ١٨٠٨ بعد ان جلا الانجليز عن الاسكندرية ، وعادت المياه فجفت منها ، وعادت البحيرة الى الوجود فى عام ١٨٩٢ نتيجة فيضان النيل هذه المرة وبعد ان تم اصلاح أنظمة الرى فى محافظة البحيرة ، ولكن مساحتها كانت قد ضاقت بسبب قطعها عن منفذها الرئيسى ، بسبب بناء سكة حديد مريوط فى عام ١٨٥٨ .

وتوقع دى كاسون فى عام ١٩٣٥ ، اليوم القريب الذى يتم فيه تصريف مياه البحيرة ، اذ كانت الخطط قد وضعت منذ الأيام التى سبقت الحرب العالمية الأولى وفى عهد اللورد كتشنر ، لذلك ، ثم جاءت الحرب فحالت دون تنفيذها ، وكان من المقرر عن طريق هذه الخطط ، استصلاح نحو من اربعين الف فدان من أراضى البحيرة ، واعدادها للزراعة ، لكن ايا من هذه الخطط لم يتحقق ، ثم جاءت الخطة الراهنة التى شرع فى تنفيذها فعلا والتى ستحيل نحوا من خمسين الف فدان من أرضها الى أراض زراعية .

ونفى دى كاسون غاضبا الرواية التى جاء بها ادوارد فولز ، أحد العالمين الألمانيين فى الآثار اللذين عملا فى مريوط بين عامى ١٩٠٥ و ١٩٠٧ والتى ذكر فيها أن الوف الناس قد غرقوا ، عندما حطم البريطانيون الحاجز فابتلعت مياه البحر أكثر من ١٥٠ قرية وبلدة ، ثم جاء محمد على يحاول انقاذ ما يمكن انقاذه من بقاياها . ويقول دى كاسون فى نفسه لهذه الرواية أن كتاب فولز « ثلاث سنوات فى الصحراء الليبية » (الطبعة

(١) كتاب « رحلات فى افريقيا ومصر وسوريا » - لندن ١٧٩٩ .



سواقى الماء فى واحة الفيوم



المؤلفة فى واحة الفيوم

الانجليزية لعام ١٩١٣) ، كتاب تافه ، وقال ان ارتفاع المساء في أراضي البحيرة كان بطيئا ، وان امتلاءها يستغرق شهرا ، ولا بد ان يكون وقت طويل قد انقضى بعد تحطيم الحاجز ، قبل أن تصل المياه الى القرى القائمة على حدود المستنقع السابق ، ويرى دى كاسون نقلا عن بعض المصادر الفرنسية الموثوقة أن عدد القرى التي دمرت كان اثنتي عشرة أو اثنتين وعشرين ، وان مساحة الأرض التي اغرقت بلغت (١٥٠) الف دونم ثم قال: «ولكن أيا من هذه المصادر لم يتحدث عن خسائر في الأرواح ثم مضى يقول ان اربع عشرة قرية هي التي اغرقت او تضررت ويعدد اسماءها،ومع ذلك فقد روى في الصفحة نفسها أن الجنرال السير جون هيلي – هتشينسون الذي قام بالعملية في عام ١٨٠١ ، تردد كثيرا قبل اصدار امره باغراق البحيرة ، معترضا « بان ثمة موانع كثيرة تحول دون العملية » • وقال ان الضرر لابد ان يكون بالغا ، ثم استشهد بما قاله روبرت ويلسون في كتابه «تاريخ الحملة البريطانية على مصر في عام ١٨٠٢» «من أن العرب لم يكونوا يعرفون المكان الذي يمكن فيه كبح جماح هذا البحر الفائض الصاخب» •

ولا تقلل هذه المتناقضات من قيمة الكتاب ولا اهميته ، ولا سيما بالنسبة الى تاريخ سكان المنطقة والمواقع الأثرية الكثيرة فيها ، ونشأت معارضته لتطوير المنطقة من حبه الرومانطيقي لما فيها من جمال غير مصقول اما الآن ونحن في حقبة الستينات ، وعندما لم يعد مشروع استصلاح الأراضي في مريوط ، حبرا على ورق ، بل عملا مستمرا يجري تنفيذه فان من الطريف ان نذكر ما نقله كاسون عن أستاذ مصري كتب في صحيفة «شيكاجو تريبيون» في عام ١٩٣٢ يقول : «يؤكد الخبراء ان بعض حقب تكفي لتحويل الصحراء الواسعة الى منطقة يانعة ، تقوم فيها عدة مدن آهلة تسكنها كما كانت في الأزمنة العريقة في التاريخ مئات الألوف من الناس » وعندما حل عام ١٩٦٢ ، كانت هذه الحقب قد انقضت ، وبدأت النبوءة تتحقق ، وقد شرعت في التحقق منذ عام ١٩٥٣ ، عندما تم انشاء الهيئة المصرية – الأمريكية لتحسين الخدمات الريفية ووضعت همها الأول في استصلاح بحيرة مريوط ، وقد بدأ العمل في منطقة آبيس في عام ١٩٥٤ •

مشروع آبيس :

لم يحل عام ١٩٦٢ حتى كان نحو من ثلاثين الف فدان من أراضي المستنقع قد جففت واستصلحت لتقيم فيها نحو الف اسرة ، وكانت معظم هذه الأسر تنتمي الى قرى محافظة البحيرة المزدحمة بالسكان ، والى ضواحي

الاسكندرية الخاصة بأهلها ، وتم توزيع سدس الأراضي المستصلحة على السكان الجدد الذين شرعوا يعملون فيأراضي المشروع ٠

وعندما زرت المنطقة في خريف عام ١٩٦٣ ، كانت هنـاك أربع قرى قد اقيمت فعلا ، كما كانت ست قرى جديدة في طريق البناء ، ولكل قرية مدرستها وجامعها ووحدتها الصحية او مستشفاها ، وتنتج الأرض الجديدة الذرة والقطن والأرز وتدار بصورة تعاونية ٠ ويشترى الأهلون المســاكن التي يقيمون فيهـا على ان يدفعوا اثمانها في غضون أربعين عاما ، ويختار المرشحون لسكناها من الفلاحين الذين لاأرض لهم ومن ذوى الأسر الكبيرة وتعطى جاموسة لكل اسرة ، يجرى التامين عليها ، بحيث تنال عوضـا عنها في حالة موتها ، وزودت القرى الجديدة بالكهربا والماء الجارى ، بدون مقابل ٠

ولم تكن الأرض في القرية التي زرناها مجاورة لكل بيت من البيوت اما في القرى الأخرى في مشروع آبيس ، فيقوم المسكن في وسط الأرض التي تخص أهلها ، أو على جانبها ، وزرنا مدرســة القرية ومستشفاهـا الصغير ، ولم نجد في الأخير عددا كبيرا من المرضى ، وتحدثنا الى الطبيب فقال ان معظم الأمراض المنتشرة من الأمراض الباطنية بما فيها البلهارسيا اصبحت احتمالات الشـفاء منه أربعين في المائة ، وهو تحســن كبير بالنســـبة الى ذلك الوقت الذى كان هذا المرض يعتبر فيه من الأمراض المستعصية ، ورأينا في فناء الدار المحيط بالمسكن ذى الطبقة الواحدة ، ثورا يجر آلة للدراسة ، وثورا آخر في زاوية ثانية يدير ساقية ،ويستخدم الناس روث الحيوانات الجاف وقودا لهم ، ولذا كانت هناك أكوام منه تجفف تحت أشعة الشمس ، وتعيش الحيوانات في مكان منفصل ، وقد زرعت في كل مكان أغراس شجر الكافور (اليوكالتبوس) كما كانت الأرض تدار على اساس تعاوني سليم ٠

وهناك قرية أخرى في المشروع تضم ٢٦٢ بيتا ، وقد وصفت لي بأنها مبنية من الطوب الأبيض على احدث طراز عصرى ، وأن أثنين وسبعين منها من ذوات الطابقين ، وهي مخصصة للعمال الفنيين والموظفين الاداريين ، وان كانت جميع المساكن تتساوى في عدد غرفها ، ويقوم البناء في الدور ذات الطبقة الواحدة حول فناء في وسطها ، ويقيم عمال المشروع سنة واحدة كمستأجرين في القرية ، ثم يصبح في وسعهم شراء المسكن والأرض عـلى نظام الأقساط ولمدة ٣٣ عاما ٠

ويعتبر مشروع آبيس ناحية أخرى من نواحي الاصلاح الزراعي ، اذ

الأساس فيه تجفيف الأرض وتخليصها من الملوحة واستصلاحها الى أرض زراعية ، لا العثور على الماء وري الأرض به ، وقد تم تحقيق ذلك كله بمنتهى الكفاية ، وهذا ما عرفناه تماما عندما فتحت امامنا صوامع الانتاج فرأيناها ملأى بأكياس الأرز والقطن ٠

وادى النطرون :

يقع منخفض وادى النطرون فى الصحراء الغربية على بعد اربعة كيلومترات الى الغرب من الاستراحة الضخمة الواقعة فى وسط الطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية ، وهناك سلسلة من البحيرات تقسم المنخفض الى قسمين ، ويشترك الماء والأرض المتماوجة والأشجار الكثيرة فى خلق واحة جميلة فى قلب الصحراء ٠

ويجرى العمل هنا طبقا لمشروع الاسكان لا الاستصلاح ويقوم به المجلس الدائم لتنمية الانتاج القومى(١) وكان يسكن المنخفض قبل الثورة نحو من سبعة آلاف معظمهم من البدو ، مع قلة من الفلاحين الذين هاجروا الى هناك للعمل فى مصنع الصودا الذى أقامته شركة الصودا والأملاح ، وهذه الشركة مصرية ، وقد خلفت فى العمل مؤسسة أجنبية كانت قد حصلت على امتياز باستغلال هذه المنطقة فى عام ١٨٩٧ ، وظلت الشركة تستغل البحيرات فى المنطقة فى انتاج ملح النطرون حتى عام ١٩٤٧ ، عندما انتهت مدة الامتياز الممنوح ، وطلبت الحكومة آنذاك من الشركة أن تواصل أعمالها الى أن يتم تجديد الامتياز ، ولكن الشركة كانت تخسر فى تلك الأيام بسبب ارتفاع تكاليف الانتاج من ناحية ، وتضاؤل المواد الأولية من البحيرة من الناحية الثانية ، ووضعت الحكومة يدها على المشروع ، ولكنها وجدت أن المصنع الذى اقامته الشركة قد تعطل ، فتوقف العمل ، وعوضت الحكومة على العمال الذين حلت بهم البطالة ولم يجدوا عملا آخر ، وحلت حكومة الثورة المشكلة فى تلك المنطقة التى تعرضت للخراب باقامة مصانع جديدة فيها لانتاج البسط والصابون واجهزة الراديو ، واقيم فيما بعد مصنع للزجاج ، وأصبح فى الامكان تشغيل جميع الأيدى العاملة فى المنطقة ،

---

(١) يبدو ان المؤلفة قد اخطأت هنا فى السلطة المسئولة عن مشروع وادى النطرون ، فهى المؤسسة المصرية العامة لتعمير الصحارى ٠ وهى السلطة التى تتولى العمل فى مشروعات استصلاح وتعمير الاراضى فى الوادى الجديد والساحلين الغربى (مطروح) والشرقى (سيناء) ووادى النطرون ومناطق مريوط وشرق قناة السويس والمنيا ٠

(المعرب)

وعندما شرع فى تنفيذ برنامج استصلاح الأراضى ظلت الصناعات قائمة فيها ، وتوسعت البلدة مع توسع الصناعة ، فى حين يجرى الآن بناء قرى جديدة للأسر التى ستقوم باعمار الأرض .

واقيمت محطة لتوليد الكهربا مع جهاز للتوزيع ، وتم حفر خمسين بئرا وتجهيزها بالمضخات الكهربية ، وهناك مزرعة لتربية الماشيه ، وهى تستورد الابقار الهولنديه وابقار هيرفورد ، ثم يجرى تهجينها مع الابقار المحلية ، كما تستورد اغنام المارينو وتهجنها مع الاغنام المحلية ، وفيها تربى انواع الدجاج ، بقصد الوصول الى أجود الانواع الصالحة للأوضاع الصحراوية ، ورايت هنا لأول مرة الأغنام الصحراوية الغليظة الالية ، اذ ان اليتها تمثل لها ما يمثله السنام للابل ، اى انها مخزن الشحم الذى تكتنزه فى اوقات المرعى الطيبة ، وتعيش عليه للحفاظ على حيويتها فى اوقات الجفاف ، وتكون الالية بمثابة ذنب غليظ قصير ، يتكون الشحم على ناحيتيه ، وهناك مزرعة تجريبية فيهـا الأغنام والماعز والدجاج والجواميس ، وتحس الأخيرة بالحزن اذ انها تعيش حبيسة فى فناء ، محاولة أن تالف العيش فى الصحراء بدون الماء الذى تحب أن تغطس فيه حتى رءوسها . وبالرغم من وجود البحيرات فانها لا عمـل لهـا ، فالجواميس موجودة فى المزرعة النموذجية لتالف العيش فى اوضاع غير عادية ، أما اذا لم تستطع وماتت ، فان هذا يعنى انها غير صالحة للعيش فى الصحراء .

ولم يكن قد انقضى على اقامة المزرعة واستصلاح الأرض واسكانهـا أكثر من عامين عندما قمنا بزيارتها فى خريف عام ١٩٦٣ ، ولـكن كان الكثير قد تحقق فعلا ، فقد استصلح نحو من ٦٤٠٠ فدان ، فبلغ مجموع المساحة المزروعة حديثا نحوا من سبعة آلاف أضيفت الى الأراضى الزراعية وزرعت اشجار كثيرة كما انشئت بساتين عدة ، وفلحت الأرض وسمدت ثم زرعت بالبرسيم الذى سيضمن خصبها فى غضون خمس سنوات .

ومن المقرر اقامة ست قرى فى المنطقة ، لكل منها مدرستها الخاصة بها ومسجدها ووحدتها الطبية ، وسيكون فى مكنة الفلاحين أسوة بغيرهم فى جميع مشروعات الاصلاح الزراعى شراء مساكنهم على أن يدفعوا أثمانها مقسطة على اربعين عاما ، مع اعفـاء السنوات الأولى فى أية اقساط ، وستعطى لكل أسرة بقرة خاصة بها .

وهناك زراعات تجريبية بقصد تبين الأشجار والنباتات التى تصلح لجو الصحراء الجاف الحار ، عن طريق التجربة والخطا ، وهو عين الأسلوب المتبع فى تربية الماشية والدواجن .

واستقبلنا مدير المشروع فى مكتبه قبل أن نغادر المنطقة ، فرأيناه رجلا ينطق بالحيوية والحماسة ، وكان يتطلع بشوق الى اليوم الذى تغمر فيه الكهربا المتولدة من السد العالى المنطقة بكاملها ·

الفيوم ــ الواحة :

تقوم الى الجنوب من وادى النطرون وعلى بعد من القاهرة يضاهى بعد وادى النطرون عن الاسكندرية واحة الفيوم التى تعتبر أجمل واحات الصحراء الغربية على الاطلاق ، وتتمثل الواحة فى منخفض عميق تبلغ مساحته نحوا من ستمائة ميل مربع ، تضمها محافظة فيها ١٤٦ قرية وخمس بلاد لابأس فى حجمها أهمها مدينة الفيوم وهى عاصمة المحافظة ، وتعتبر هذه المنطقة مع منطقة آبيس فى محافظة البحيرة من أهم المناطق التى تشرف عليها هيئة التنمية والتعمير بمحافظتى البحيرة والفيوم التابعة للهيئة المصرية العامة لتعمير الأراضى ، وقد أتمت وزارة الاصلاح الزراعى مؤخرا استصلاح نحو من اثنى عشر الف فدان من مجموع واحد وعشرين الفا من الأرض القاحلة التى انتزعت ملكيتها من ملاكها السابقين الذين لايمتون الى المحافظة وذلك بموجب قانون الاصلاح الزراعى ثم تولت توزيعها على الفلاحين الذين لايملكون ·

وكنت قد سمعت الكثير عن الفيوم عندما كنت فى القاهرة فى السنة الفائتة ، ولكننى لم أتمكن من زيارتها آنذاك ، ثم عادت هذه الرغبة فتحققت فى السنة التالية ، وأعرب السيد محمد على ، صديقى وأخى عن استعداده وسروره لترتيب أمر الزيارة ومرافقتى فيها ، وأضاف أن هذه الرغبة تشير الى ابلالى من رحلتى النوبة والوادى الجديد ، واننا سنتناول الغداء على ضفاف البحيرة ، حيث يقوم فندق ممتاز ·

وسرنا فى الطريق من القاهرة عبر أهرام الجيزة ، لنواجه الفندق الابيض الجديد الذى تحيط به حديقة تملؤها الأشجار ولنقتحم الصحراء ، هابطين بصورة متدرجة نحو منخفض الفيوم ، فى رحلة رتيبة امتدت ساعة ونصف الساعة ·

وبرزت أمامنا فى النهاية على طرق الطريق أشجار الكافور والصفصاف وقد غطتها الأتربة ، كما رأينا مساحات من الأرض التى تغطيها أشجار النخيل ، لنجد انفسنا فى النهاية فى منطقة الفيوم بكل ما فيها من خضرة تعتمد على الرى · وتؤمن الرى فى المنطقة ترعة تؤلف

فرعا من قناة الابراهيمية التى تتفرع من النيـــــل عند قناطر اسيوط ، والترعة عريضة تحيط بها الاشجار ، وتقوم عليهـــا عشرات السواقى ، ونخيم فوقها الظلال الوارفة والاحساس العميق بوفرة الماء ·

وتضم المنطقة مساحات واسعة مزروعة بالأرز وكروم العنب وبساتين التين وحقول القطن والبقول والورود ، ويصنع عطر الورد المصرى المشهور فى هذه المحافظة ، وعلى مسافة قصيرة من الطريق تقوم أبراج الحمام وسط الحقول ، بيضاء اللون ، كبيرة الاتساع ، وبالرغم من انتشارها فى ريف مصر كله ، فانها تؤلف مجموعات ضخمة فى الفيوم ، ومهما رأى الانسان فى الوجه البحرى او القبلى فانه يرى الكثير منه فى واحة الفيوم الناضرة ·

ورايت فى وسط مدينة الفيوم ، وفى ساحتهـــا العامة التى تضم ميدانا دائم الخضرة ، ساقية تقوم على الترعة الواسعة التى يقوم فوقها جسر كما رايت مكبرات الصوت تنقل الموسيقى المذاعة من اجهزة الاذاعة · وحول المكان مزيج من القديم والحديث فى فن البناء ، وبالرغم من أن بعض البيوت القديمة ترجع الى القرن الثامن عشر وتشبه فى طراز بنائها الطراز الفرنسى نان الأبنية الادارية والكلية الزراعية والمدارس كلهـا مبنية على الطراز الحديث من الأسمنت والزجاج ، وهناك بعض البيوت المبنية من الطين على الطريق الى داخل البلدة ، ورأيت الابل والحمير المثقلة بأحمالها ، والنساء اللائى يرتدين الملابس السوداء ، يحملن على رءوسهن بعض المتاع ويضعن فى آذانهن وانوفهن أقراطا ضخمة من الفضة تتارجح احيانا فوق شفاههن ورأيت بعضهن يجلسن فوق التراب يعرضن البلح الأحمر ، والخيار والثوم والبصل وقد وضعن معروضاتهن فى سلال من القش ·

وزرنا مركز الثقافة والاستعلامات حيث كانت الموسيقى تنطلق من جهاز للاذاعة ، وحيث قوبلنا بترحيب زائد تضمن أقداح الكوكاكولا التى ادبرت علينا ، ثم خرجنا لنشهد محطة الماء والكهربا ، وهى تمثل مشروعا ضخما يهدف الى تزويد محافظة الفيوم والمناطق المجاورة لها بحاجاتهـــا اليهما ·

ثم مضينا نسير الى جانب القنـــاة ، نمر بالاراضى المزروعة وابراج الحمام والابل المحملة ، وتظللنا أشجار الكافور لنرى ساقية رباعية الأجزاء فكل مافى الفيوم كما قلت وافر سواء أكان من ابراج الحمام أم الاقنية أم سواقى المياه ، وكانت وراء المكان بعض التلال المرتفعة وفيها مناظر الزراعة البدائية من رجال يدقون الحنطة ، وابقار تدرسها ، واحســـاس بالدعـة والهدوء والاسترخاء ، وكان الطقس قد تبدل مؤخرا ، وولت حرارة طقس

سبتمبر فى القاهرة ليحل محلها دفء الخريف الممتع . وكان الطقس فى الفيوم فى ذلك اليوم من أيام اكتوبر منعشا وباردا . وان تخلله دفء لذيذ وكنت قد قضيت وقتا قاسيا فى القاهرة بعد عودتى من الوادى الجديد . وان كنت قد أبللت بسرعة على يدى طبيب مصرى فى القاهرة بارع فى معالجة مثل هذه القضايا بعد زيارة واحدة قام بهـــا لى . واحسست ذلك اليوم فى الفيوم بأننى على مايرام . ولا ريب فى أن الاحساس بالشفــاء من المرض يبعث دائما على السعادة .

وتقع بحيرة قارون على مستوى ١٤٠ قدما تحت سطح البحر . ويسمى اسمها أحيانا بحيرة القرون نسبة الى صخرة تدعى القرون تبرز مندفعة الى وسطها من ساحلها الغربى . ويعتقد أن هذه البحيرة بقايا بحيرة كانت تعرف باسم بحيرة مويريس كانت تملأ المنخفض كله . فى حين لاتحتل بحيرة قارون الا جزءا من الشمال لاتزيد مساحته على ثمانين ميلا وهو شطر ضئيل اذا ما قورن بالبحيرة الاصلية . وان كان يمثل على أى حال بحيرة كبيرة . بل بحرا داخليا . تختلط شواطئه البعيدة مع السماء الناصعـــة التى صهرتها الحرارة ، عند اللانهاية .

وقد رويت نظريات وتكهنات كثيرة عن بحيرة مويريس ، وعن مكانها وما حل بها ، حتى أن قصتها أصبحت أشبه بالأساطير ، لكن الشىء المؤكد أنها وجدت فى أيام هيرودتس (١) ، اذ كتب عنها حوالى سنة ٤٥٤ قبـل الميلاد . وعاد سترابو(٢) فكتب عنها فى عام ٢٤ قبل الميلاد . ثم جــاء ديودوروس صقيلوس (٣) فانسـار الى بحيرة حفرها الملك مويريس على بعد

---

(١) هيرودتس ـ ٤٨٤ ـ ٤٢٥ ـ ق.م ـ ويطلق عليه أحيانا اسم مؤسس التاريخ ارتحل فى معظم انحاء العالم المعروف فى عصره . وكان ممن زاروا بلاد النوبة . وسواحل البحر الاسود وفارس ولبنان وفلسطين ومصر وايطاليا وصقلية . ويعتبر كتابه من المصادر التاريخية الموثوقة .

(٢) سترابو (٦٣ ق.م ـ ٢٥ ق.م) ـ جغرافى ومؤرخ يونانى . طاف ببــلاد اليونان وايطاليا ومصر وسردينيه والحبشة ـ ظلت مذكراته التاريخية كمفقودة . لكن كتابه الجغرافى من أعظم الكتب القديمة ويقع فى سبعة مجلدات .

(٣) ديودوروس صقليوس ـ مؤرخ اغريقى عاش فى جزيرة صقلية فى أيام يوليوس قيصر وأوغسطس . زار مصر وروما وعاش فيهما سنوات . وضع كتابا عنـــوانه « تاريخ المكتبات » يضم أربعين مجلدا فى ثلاثة أقسام يتناول الاول تاريخ الشعوب غير الهلينية وينتهى الثانى بموت الاسكندر . والثالث بحروب قيصر فى بلاد الغال (فرنسا) . (المعرب)

ستمائة فرسخ من ممفيس العاصمة القديمة ، ويشير بلينى (١) بين عامى ٥٠ و ٧٠ بعد الميلاد فى كتابه «تاريخ الطبيعة» الى بحيرة اصطناعية اقيمت بين ارسينو وممفيس ، اسميت باسم بحيرة مويريس نسبة الى الملك الذى اقامها . ولذا فلا يتطرق الشك أبدا الى وجودها التاريخى ، اذ قامت الأدلة القديمة على وجودها ، وان كانت قد ظهرت عدة نظريات عصرية حول مكان وجودها ، ويصف العقيد الكولونيل السير كولين سكوت مونكريف فى مقدمته لكتاب الرائد (الميجور) ار · اس · براون عن « الفيوم وبحيرة مويريس » (٢) ، هذه البحيرة بالبحيرة الخرافية ثم يقـــول : « ولا يفترى هيرودوتس كذبا عنـدما يتحدث عن الأشياء التى رآها ، وقد رأى بحـيرة مويريس فعلا ، اذن فلابد أنها كانت موجودة ، ولكن اين وجدت ياترى ؟ هذا هو السؤال الذى ظل يوجه من جيل الى آخر ، وعندما وضع كتـابه فى عام ١٨٩٢ لم يشأ ان يلزم نفسه بالقول بما اذا كانت نظريات الرائد براون صحيحة أم لا ، وان كانت قد غدت الآن مقبولة ، واصبح كتابه الحجة المثالية فى الموضوع ، وقادته محاولته اكتشاف آثار الفيوم الى اكتسابه معرفة وثيقة بها ، وراح يظهر لنا بمساعدة بعض الخرائط الطوبوجرافية ، كيف كانت بحيرة مويريس تملأ المنخفض ، وقد بنيت حولها المعابد والقرى والأهـرام حول شواطئها ، واصلة بحدودها الى حـــدود بحيرة قارون الحالية ، ويعرض لنا بشكل جذاب مقروء ، تاريخ مقاطعة الفيوم منذ أقدم العصور ، وانى لأحيل القارىء المهتم بهذا الموضوع الى هذا الكتاب العلمى والحجة فى موضوعه ·

وهناك رصيف طويل يمتد اليوم داخلا فى بحيرة قارون ، خليفة بحيرة مويريس القديمة ، وقد شيد ليرسو الى جانبه يخت الملك السابق الذى كان يألف الذهاب الى هناك ، وهناك بعض الشجيرات الصغيرة التى اسقطت الرياح اوراقها تمتد من ارض البحيرة باتجاه الشاطىء ، وهنـاك مناطق فسيحة من ارض المستنقعات فى الناحية ، كما توجد مناطق رملية بيضاء ، وساحل من الطين الجاف ، بالاضافة الى رائحة غريبة لعلها صادرة عن امتصاص البحيرة لمياه التصريف من المنطقة ، اجل كانت هناك هـذه الرائحة ولكن كانت ايضا هناك ريح قوية تهب على الماء حاملة رائحة البحر

(١) بلينى الأكبر (٢٣ ـ ٧٩ ق·م) ـ كاتب رومانى فى التاريخ الطبيعى · عمل ضابطا فى افريقيا والمانيا · عرف بانه اعظم علماء عصره · من اشهر كتبه كتاب « التاريخ الطبيعى » ·

(٢) صدر فى عام ١٨٩٢ ·

(المعرب)

المالحة ، وليس ثمة من شك في ان البحيرة تتحول الى ملح عن طريق كثرة التبخر ، وقد ماتت أسماك المياه الحلوة فيها في السنوات الأخيرة ، وحلت محلها أسماك المياه المالحة التي نشرتها دائرة الاسماك فيها ، ويقال ان البحيرة تؤمن الحياة ومصدر الرزق لنحو من الفي صياد .

وكانت الزنابق الزرقاء والبيضاء مزدهرة في حديقة الأوبرج في ذلك اليوم من ايام اكتوبر ، ونشرت فوق الرمال فيها المقاعد والموائد الملونة مضفية على المكان شيئا من المرح الذي يتميز به حوض البحر الأبيض ، بحيث كان من المتعذر على المرء أن يتصور ان الفيوم واحة تحيط بهما الصحراء من كل جانب .

ودلفنا الى داخل الأوبرج ، وكان معتما وباردا ، أشبه مايكون بالقصور البافارية . ورأيت في قاعة الطعام التي تواجه البحيرة ، غرفة جميلة تصل نوافذها الى الارض ، وفيها لوحة تذكارية كتب عليها بالعربية والانجليزية ان المستر ونستون تشرشل اقام فيها في فبراير عام ١٩٤٥ مأدبة للملك عبد العزيز آل سعود ...

وكان الطعام ممتازا ، ورحنا نجلس ونحن ننتظر اعداده في الحديقة نحتسي كأسا من الجعة المثلجة واللذيذة ونتحدث عن الحياة والحب والزواج ، ثم نصل الى النتيجة الرصينة وهي أن الطبيعة الانسانية كاملة التعقيد ، وهي نتيجة غالبا ما تكون خاتمة مثل هذه المناقشات .

وفي المنطقة آثار فرعونية ورومانية ولعل أهمها اهرام امنحات الثالث في هواري الواقعة على بعد تسعة أميال الى الجنوب الشرقي من مدينة الفيوم والذي يعود الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد . ويلحق بالاهرام معبد فيه بعض القبور يدعى معبد التيه ، لسبب كثرة مافيه من غرف وتعاريج . ولم يبق منه حتى اليوم الا بعض البقايا المهشمة وبعض أعمدة الجرانيت التي تحمل اسم ابنة الفرعون منقوشا عليها . وتم العثور على قبرها عام ١٩٥٦ على بعد ميل من المكان . وهناك بعض التماثيل العالية لامنحات الثالث في بياهمو على بعد خمسة اميال الى الشمال الشرقي ، وهي من الضخامة بحيث خالها هيرودتس عندما زارها من الأهرام . وتقوم معابد مادي التي بناها امنحات وولده على بعد عشرين ميلا الى الجنوب الغربي .

ولاريب في أن البحيرة قد تقلصت عما كانت عليه في العهد الروماني

الاغريقي ولكنها مازالت ضخمة . وتؤكد هذه الحقيقة الآثار الرومانية والاغريقية التي تشير الى أنها كانت مشيدة على شواطئها . وهناك تلال الى الشمال تشير الى مواقع ارسينو القديمة مدينة التمساح ، حيث كان الاله المحلي سوبيك متجسدا في صورة التمساح المقدس الذى يعيش في قلب البحيرة .

وكان يطلق على المقاطعة كلها عندما كانت مدينة التمساح عاصمتها ، اسم ارسينو نسبة الى ارسينو شقيقة فيلادلفوس بطليموس الثاني وزوجته ، اذ كانت أول من طور الواحة وجعلها أغنى قرية في البلاد وأكثرها اكتظاظا بالسكان .

وكان هذا في القرن الثالث قبل الميلاد . ولم يحل القرن الأول الميلادي حتى كانت الواحة قد غدت باسمها القبطي بيون الذى اشتق منه اسمها الحالي الفيوم .

وهناك طريقان من الدرجة الثانية تمتدان من الفيوم عبر الصحراء الشرقية لتمرا بديرى القديس انطون والقديس بولس في هضبة الجلالة الجنوبية ولتصلا الى خليج السويس حيث تتصلان بالطريق الرئيسية والسكة الحديدية الى الشمال من السويس .

وليست للفيوم في مجال الاصلاح الزراعي أهمية كأهمية واحة الخارجة ، ولكنها تمس أكبر واحات مصر ، بل لعلها أكثرها جمالا وأهمية . ولو كانت أقل جمالا من حقيقتها لرأيت المزيد منها ، اذ انني اكتفيت بأن أنعم بالسعادة في تلك الساعة وأنا أجلس الى جانب البحيرة البيضاء اللون أحتسي الجعة وأناقش رفيقي موضوع الحياة والحب .

كفر الشيخ :

شبعت من زيارة المناطق الصحراوية . وتقوم كفر الشيخ في وسط الدلتا الخضراء ، حيث نشهد مشروعا جديدا للاصلاح الزراعي يعتبر شكلا آخر من أشكال الزراعة الجماعية التي لم تلق استجابة أولية لدى الفلاحين تماما كما لم يلق لديهم موضوع « تعشير » الابقار بطريقة غير طبيعية . وقد لا يكون هذا الموقف مستغربا . اذ أن الفلاحين معروفون

بميولهم المحافظة فى كل البلاد ، كما أنهم يمجون دائما وفى كل بلاد العالم ارشادهم الى مايفعلونه (١) .

ويقوم مبدأ هذا النظام الجديد للزراعة على الدورة الموحدة ، وقد أدخل فى القرى التى تتميز الممتلكات فيها بالتقطيع الى مايشبه التذرير . ويكاد مثل هذا التقطيع يجعل من المتعذر وجود أى نظام اقتصادى موحد للرى والحراثة ومكافحة الاوبئة والآفات الزراعية . فقد تكون هناك قطعة مساحتها فدانان مزروعة بالارز ، الى جانب مساحة مماثلة مزروعة بالقطن ، والمعروف أن أوضاع زراعة هذا المحصول غير أوضاع زراعة ذاك . وتقسم فى تعاونيات الاصلاح الزراعى أراضى القرية التى تبلغ أحيانا ألفى فدان أو ثلاثة آلاف الى حقول يضم الواحد منها مئات من الافدنة ، بحيث يزرع كل منها بمحصول واحد كالذرة او الارز أو القطن ، طبقا للمحصولات التى تنمو فى المنطقة . ويعطى لكل مالك أى لكل فلاح ثلاث قطع كل منها فى أحد هذه الحقول الكبيرة ، مما يعنى وجود قطعة واحدة فى أى وقت تحت نظام الزراعة ، وترتب الأمور بحيث تكون احداها مزروعة بالقطن الذى يأتى له بالمال ، والثانية بالحنطة أو الذرة ، لاستهلاكه الشخصى والثالثة بالبرسيم لاطعام جاموسته وحيواناته . ولكن هذا النظام غير متبع هنا . فلا يملك الفلاح ثلاث قطع متفرقة يزرعها وانما تكون أرضه كلها ، وفى الحقول كلها تحت اشراف التعاونية الزراعية ، فتفلح وينثر فيها البذار وتزرع وتروى بطريقــة أكثر توفيرا وفاعلية . وبالاختصـــار ، تجمع الممتلكات الصغيرة فى وحدات كبيرة للخلاص من الزراعة المجزأة ، التى تعنى تبديد الماء الثمين ، والكثير من العمل الذى لا ضرورة له ولا فائدة منه فى سلسلة من أنظمة الرى المفرقة .

وتزرع الحقول التى تبلغ مساحتها عشرين فدانا بصورة جماعية أو تعاونية فى منطقة كفر الشيخ بهذه الطريقة على نظام الدورات الزراعية التى تشمل القطن والذرة والارز ومن ثم البرسيم . وتؤمن التعاونية الزراعية فى القرية البذار والسماد والمساعدات العامة . ويقوم الناس أنفسهم بانتخاب موظفى الوحدات التعاونية .

وهناك نحو من ٣٢٠٠ قـــرية فى الجمهورية العربية المتحدة كلها

(١) نحن نعرف أن الفلاحين [illegible] هذا [illegible]
[illegible] على المراحل الاولى من التخطيط .

(المعرب)

تطبق هذا النظام فى الزراعة ، وكان من المؤمل ان يزيد هذا الرقم بنحو من ثمانمائة قرية جديدة فى عام ١٩٦٤ بحيث لا يلبث أن يعم جميع القرى فى الجمهورية العربية المتحدة • وتمت التجربة الأولى فى هذا الحقل فى عام ١٩٥٥ فى قرية نواج القريبة من طنطا فى الوجه البحرى ، حيث كانت هناك نحو من ٣٥٠٠ قطعة ارض لكل منها نظامها الخاص فى الرى والتصريف • وارتضى الفلاحون بعد لأى تجربة النظام الجديد فى مائة فدان . وتقول الدكتورة دورين وارينر (١) . «ان التجربة نجحت نجاحا واضحا حتى ان الفلاحين أرادوا فى السنة التالية أن يشمل النظام الجديد جميع أراضيهم » • وتضيف قائلة ان تطبيق الاساليب الجديدة أدى « الى ظهور نظام جديد للاصلاح الزراعى » • وقالت السيدة دورين ان هذا النظام لو طبق فى مصر كلها • لكان فى الامكان تحقيق زيادة عامة فى الانتاج لا تقل عن عشرين فى المائة • وهناك فوائد اقتصادية واجتماعية من هذا المشروع منها الزيادة العاجلة فى المحصولات وبالتالى فى الداخل ، والحافز على تطبيق مشروعات الرفاه الاجتماعى فى الريف •

ويهدف الاصلاح الزراعى الى تزويد كل قرية بمدرستها ومسجدها ووحدتها الصحية أو مستشفاها • ووحدة للشئون الاجتماعية فيها •

كانت الطريق طويلة الى كفر الشـيخ ، اذ أنهـا نفس الطريق الى الاسكندرية ، وتمر بأرض زراعية مخضرة لا تنتهى ، وقد انتشرت على طرفيها أشجار الكافور والصفصاف • بينما تسودها المناظر نفسها المألوفة الرتيبة من الابل المثقلة بالاحمـال ، والثيران تدير السواقى ، وأبراج الحمام ، والقرى ذات البيوت المشيدة من الطين •

وتوقفنا فى منتصف الطريق عند قويسنا فى محافظة المنوفية ، حيث شربنا الكوكاكولا التى لابد من شربها ، وقضينا بعض الوقت نمتع أنفسنا بمشـاهدة معرض محلى لصناعة البسط المحلية المصنوعة من الصوف المحلى ، كدليل على الصناعات التى يولدها الانتاج الزراعى والحيوانى • وكانت هذه البسط جميلة الألوان والنقوش ورخيصة الثمن • ويتم انتاجها بالطريق التعاونى ويتولى الاولاد الصغار صنعها دون ان يطلعوا الى الكثير من الربح منها •

وواصلنا سيرنا بعد ذلك الى بلدة كفر الشيخ التى تعتبر عاصمة

(١) كتاب « الاصلاح الزراعى وتنمية المجتمع فى الجمهورية العربية المتحدة » لعام ١٩٦١ •

المحافظة وهي تضم جزأين ، احدهما قديم يقـــوم على مرتفع يبعد بعض الشيء عبر الحقول الفسيحة وثانيهما حديث يبدو فيه طابع العمل ، وقد انتشرت فيه الأبنية البلدية الشعبية ، والمساكن الحديثة ، مؤلفة جزيرة مأهولة في بحر زراعي أخضر .

ووصلنا الى مركز الاصـــلاح الزراعي ، حيث انتقلنا من مكتب الى آخر ، لنصل في النهاية الى مكتب المدير العام للاصلاح في كفر الشيخ . وشربنا أقداح الكوكا ، ودار حديث طويل باللغة العربية بين السيد علي محمد علي وبين المدير ، أحسست من طوله بشيء من الضجر لجهلي باللغة العربية .

وانتهى الحديث فجاة ، كما تنتهي اسطوانة الحاكي بعد ان تدور دورتها الكاملة ، وقفز المدير من مكانه كما قفز رفيقي ، ووجدت نفسي اشاطرهما القفز ، ومعي جميع من في المكتب . وصافحنـــا أيدي كثيرة ، ورحنا نقطع الدهاليز ونهبط الســــلم لنخـرج الى الطريق الترابية في الخارج ، ونصل الى السـيارةالتي كانت قد غدت قطعةمن الجحيم ، برغم احتمائها وراء جدار تنتشر فوقه الزهور الحمراء التي تغطيها الأتربة .

وسالت رفيقي عما دار من حديث طويل بينه وبين المدير ، فرد بأن المدير اوضح له نظام الزراعة الجمـــاعية المطبق في تلك المنطقة . وراح الرفيق يوضح لي ما سمعه ، ليقاطعه بين الفينة والفينة ، شاب من موظفي الاصلاح الزراعي ، كان قد رافقنا في رحلتنا من القاهرة .

وعبرنا بسيارتنا في طريق ريفية تحدها الترعة من ناحية وحقول الذرة الخضراء من الناحية الأخرى . وخرجنا من الطريق الرئيسية لننتقل الى طريق وعرة ، قادتنا الى احدى القرى . ورأيت الى جانب من الترعة بعض البيوت المشيدة من الطين ، ومسجد القرية في حين رأيت الى الجانب الذي وقفنا فيه ، بعض الأبنية الحديثة . وكان الماء شحيحا في الترعة ، وقد انتشر البط فيها . وحدثنا موظف الاصلاح الشاب ، وهو لا يخفي اعتزازه ، ان الناس كانوا يشربون من الترعة قبل ظهور الاصلاح الزراعي، أما الآن فهم يشربون الماء النظيف النقي . ولاريب في أن الشرب من مياه الترع ، كان سببا في عدد من الامراض الباطنية ، وفي مقدمتها البلهارسيا ، الذي كان مصدر العذاب لكثير من القرى المصرية .

واستقبلنا وجوه القرية ، وكان بينهم موظفو الاصلاح الزراعي ، وأمين سر الجمعية التعاونية الذي يدير نادي القرية . وكان صوت المذياع

ينقل بعض الانغام الموسيقية العالية عندما وصلنا ، ولكنهم مالبثوا أن أسكتوه فور دخولنا • وأديرت علينا زجاجات الكوكا . في حين اكتظ جميع رجال القرية وأطفالها بجلابيبهم البيضاء وعمائمهم ، في مدخل النادى يطلون علينا بعيونهم البراقة • وخيل الى أن الناس فقراء • وسألت مرافقنا الشاب عن معدل كسب الفرد في ظل نظام الزراعة الجماعية . فتحدث الى سكرتير التعاونية ثم رد بأنه ليست هناك أرقام ثابتة . ولكن المعدل يصل الى حدود مائة وخمسين جنيها مصريا في العام •

وطفنا بأرجاء النادى • ورأينا غرفة فيها جهاز تلفزيون وتنتشر فيها المناضد والمقاعد • ودخلنا غرفة ثانية رأيت فيها مكتبة زجاجية كبيرة ملأى بالكتب المجلدة وببعض نشرات الاصـــلاح الزراعي وبنســـخة من الموسوعة الزراعية • والنادى مفتوح للجميع من أبناء القرية . وعرفت أن الكبير من الرجال والأولاد يؤمونه في الأمسيات •

ويقع بناء المدرسة الجديدة على مقربة من النـــادى ، وأمامه وعبر طريق ترابي يقوم منزل الطبيبة . وهي شابة في الثلاثين من عمرها على أكثر تقدير • وهناك مستشفى صغير تعالج فيه جميع الحالات العادية . أما الحالات الخطيرة ، فتنقل الى مستشفى البندة •

وتقوم الآلات الزراعية الحديثة في فنـــاء كبير تحيط به صـــوامع الغلال • وكانت أبواب احداها مشرعة وتضم أكياسا من القطن ، في حين أطلت من أبواب صومعة أخرى أكياس الأرز •

وقال لنا بعض رجال القرية انهـم باعوا محصـــولهم من القطن الى التعاونية الزراعية ، وانهم جاءوا الآن لتسلم أثمانها •

وأكد لى موظف لا يعيش في القرية ان الكهربا موجودة في جميع بيوتها • ورأيت الكهربا فعـــلا في النادى والمدرسة وبيت الطبيبة وفي بيت مربع الشـــكل مبنى من الأجر على الطريقة الغربية عبر الترعة • ورأيت في هذا البيت غرفة النوم ، والسرير الذى تغطيه الستائر لمنع البعوض ، وغرفة الجلوس التى اصطفت فيهـا المقـــاعد حول الجدران • ومائدة مغطاة بستار من القماش ، وصورة الرئيس عبد الناصر في اطارها على الجدار ، وبعض صور افـــراد الاسرة . ورأيت الكهربا أيضـــا في طرقات القرية الترابية . ولكنى لم ارهـــا في البيوت المبنية من الطين • وتوقفت أمام بعض البيوت أتطلع الى الارز المنشور على أكياس على الارض ليجف • واقتربت من بيت تقف أمامه سيدة عجوز تبتسم لى • وفهمت

من ابتساماتها واشاراتها ، انها تدعونى الى دخول البيت • كان من تلك البيوت الطينية المألوفة ، وقد شيدت الغرف حول الفناء بشكل بدائى • ولحق بى الموظف الذى كان قد آكد لى وجود الكهربا فى جميع البيوت • والتفت اليه قائلة ••• لا ارى اثرا للكهربا هنا •

فرد قائلا ••• أجل انها لم تصل الى هنا بعد • ولكنها موجودة فى الشوارع وفى بعض البيوت • وستصل قريبا الى كل بيت •

واحس الشاب الذى رافقنا من القـــاهرة ببعض القلق وقال ••• أعتقد انك ستحملين انطباعا خاطئا من هذا البيت •

فقلت له ، انه البيت العادى المألوف • والناس الذين يعيشون فيه هم الشعب ، الذى وجد الاصلاح الزراعى لتحسين أحواله (١) •

وقال الشاب مؤكدا ••• ولكننا نبنى بيوتا جديدة كثيرة •

فقلت ••• أجل انى أعرف ذلك ، وقد عرفتها فى العديد من القرى• ومثل هذه القرية فى حاجة اليها اذ تضم نحوا من الفى انسان يعيشون فى نحو مائتى بيت • ورأيت أيضا حشــــودا من الاطفال يكتظون حول السيارة ، ويسيرون وراءنا فى كتل كبيرة • وبينهم طفلة فى نحو العاشرة من عمرها ، تحمل طفلا رضيعا صغيرا لعله أخوها •

وتركنا البيت ، وصافحت المرأة العجوز التى حاولت تقبيل يدى دليلا على الاحترام الذى تأثرت منه بالغ التأثر • وتأثرت كذلك بمنظر الرجال فى مهابتهم وهم يقفون فى جلابيبهم البيضاء الى جانب الترعة ، يرفعون أيديهم بالتحية لنا ونحن نغادر القرية قائلين ••• مع السلامة • وتأكدت من جديد ان فلاحى مصر قوم طيبون ، كرماء ، يعملون بجد وكد ، لا يشكون من جهد ، • بتميزون بالدماثة واللطف •

ولست اشك فى ان مشروعات الاصلاح الزراعى والسد العالى سترفع من مستواهم • وقد لا أغالى ان قلت ان هذه المشروعات قد بدأت تؤتى اكلها وان كانت الطريق مازالت شاقة وطويلة .

---

(١) لا اريد التعليق على صحة هذه الرواية . ولكننى اود ان اقول . ان مشروع الاصلاح الزراعى ، او اى مشروع ما كان ليحقق المعجزات فى وقت قصير . ولا سيما ان التخلف الذى كان يعيش فيه الريف قبل الثورة نتيجة تحالف الاقطاع والرأسمالية المستبدة والاستعمار لا يمكن الخلاص منه بسرعة البرق • وهذا ما عادت المؤلفة فاعترفت به بعد قليل •

(المعرب)

انشـــاص

تمر الطريق الموصلة من القـــاهرة الى بورسعيد ، بانشاص التى لا تبعد كثيرا فى اعماق الدلتا • ولم اكن اعرف قبل أن تتوقف بنا السيارة عند قصر الملك السابق الذى تحول الى مقر للاصلاح الزراعى ان انشاص هو اسم القرية التى كنت قد زرتها فى العام الماضى ، والتى كتبت عنها عندما تحدثت عن اصلاح الاراضى فى كتابى السابق « رمح للعرب » دون ان اعرف اسمها •

ولكننى سعدت على أى حال بزيارتها من جديد ، اذ تم فى غضون العشرين شهرا التى انقضت منذ زيارتى الأخيرة ، استصلاح منطقة جديدة وكبيرة من الصـــحراء ، وان هذه الارض كانت تنتج فى الاشـــهر الستة الأخيرة ، الفول الســودانى • وتروى الارض التى يزرع فيها هذا المحصول والتى تضم بساتين البرتقال الواسعة بنظام الرش ، وتغطى اشـــجار الصفصاف العالية السامقة أشجار « المانجا » والبرتقال والليمون لتقيها حرارة الشمس •

وكان من الممتع حقا أن أرى تلك المساحة الواسعة من الارض والتى كانت قبل ستة اشهر ارضا صـــحراوية ، مغطاة بالخضرة ، وقد جاءت الشاحنات واحدة اثر أخرى تنقل انتاجها •

وتعتبر انشاص من مناطق الاصـــلاح الزراعى الواسعة والمهمة ، ولا سيما أنها تضم مشروعا ضخما لاعادة الاسكان • فهناك بيوت جديدة تبنى فى كل مكان وهى متفرقة فى الحقول الشاسعة المنبسطة • وبالرغم من أن هذه البيوت المربعة ليست جميلة الشكل ، الا أنها تقوم الى جانب الارض التى يعمل فيها سكانها ، بحيث يخرج منها هؤلاء الناس ليعملوا فى ارضهم ؛ كما انها انقذت الناس من البيوت الطينية التى كانوا يعيشون فيها من قبل مع حيواناتهم وجعلتهم يقطعون اشـــواطا بعيدة فى طريق الحضارة الريفية فى القرن العشرين • أما الحيوانات فباتت تأوى الآن فى زرائب جماعية •

اعادة اسكان الاسر :

وقبل الانتهـــاء من هذه الملاحظات على النـــواحى المختلفة للاصلاح الزراعى ، أرى لزاما على أن اقول شيئا عن صورة أخرى من صوره المهمة ،

وهي العناية التى تبذلها الحكومة عن طريق المؤسسة المصرية العامة لتعمير الاراضى بالسكان الجدد فى هذه القرى الجديدة ٠

ولعل أولى هذه النواحي من العناية ، نقل السكان مع ماشيتهم ومتاعهم الى المناطق الجديدة ٠ وتقدم لكل اسرة فور وصولها كمية كافية من الطعام ومصباحا جازيا ، وبعض الجاز ٠ وتتلقى الاسرة كل عشرة أيام صفيحة من الجاز ، وكميات مجانية من القطن والتبن والعلف ٠

وتاخذ هذه الاسرة فى الاسبوع الأول منحة خمسة جنيهات مصرية وقرضا بخمسة جنيهات أخرى على أن يدفع من أرباح المحصول الأول بعد بيعه ٠

وتدفع المؤسسة فى بعض المناطق قروضا أخرى تصل الى حدود ٦٥ جنيها أو ٧٥ لشراء الماشية ٠ وتكون القروض حرة من الفوائد ، وتسدد فى غضون خمسة عشر عاما ٠

وعينت سيدة من خبيرات الشئون الاجتماعية فى كل قرية لتقدم المشورة عن المشاكل العائلية ، كما تألفت لجان نسوية فى القرى مهمتها تأليف لجان فرعية تعنى بأعمال الاسعاف والتمريض والتنشئة وتشجيع الهواية ٠

وتقيم المؤسسة فى القرى أيضا وحدات بيطرية لمعالجة مواشى الفلاحين ٠

وهناك عناية خاصة بالترفيه عن الاطفال وفرق الشباب والرياضة ، وتزود هذه الفرق بالمعدات اللازمة والأموال ٠

وتقول الدكتورة وارينر فى كتابها ٠ ان هناك اهتماما كبيرا بالاصلاح الزراعى فى مصر لأنه اصلاح تطورى يتحقق دون أن يفقد شيئا من حوافزه ومبادرته الاصلية ٠

وتتضح هذه المبادرة فى كل مكان ، جاعلة من الاصلاح الزراعى فى جميع صوره أكثر مايقع الآن فى الجمهورية العربية المتحدة اثارة ٠ وليس مشروع استصلاح منخفض القطارة ومشروع سيناء والمناطق الواقعة الى الشرق من قناة السويس بأقل اثارة من هذه الصور التى ذكرتها ٠ وقد تم حتى الآن استصلاح نحو من خمسة آلاف فدان فى سيناء وذلك فى السنتين الأولين من الشروع فى تنفيذ المشروع ٠

٨ - الاسكندرية

لا يكاد المرء يعرف شيئا عن الاسكندرية ، حتى يصبح من العسير عليه الكتابة عنها . فلم أشعر بمثل هذه الصعوبة بعد زيارتي الأولى لها في مارس عام ١٩٦٢ ، اذ كنت لا أعرف عنها الا القليل . وانها بنيت لأول مرة في القرن الرابع قبل الميلاد بأمر من الاسكندر المقدوني . وانها الآن المدينة الثانية في الجمهورية العربية المتحدة وميناؤها الرئيسي . وكانت ثمة زوبعة رملية عاصفة عندما وصلت اليها . وكانت من الكثافة بحيث اضطررت الى الهبوط من السيارة عند الساحل . لأرى شواطىء الاسكندرية المشهورة . وبعد أن زرت قصر رأس التين في الطرف الغربي من شبه جزيرة فاروس . رأيت أن من الخير أن أعود الى القاهرة . وتحدثت في كتابي السابق (١) عن المكان . ونقلت اثر اللمحات الخاطفة التي حصلت عليها عن المدينة وشوارعها الضيقة والفسيحة . ان الاسكندرية مكان جذاب ومثير للاهتمام لكل من يزورها زيارة صحيحة .

ووصلت اليها في سبتمبر من العام التالي . في يوم مشرق . لأقضي فيها يومين اكتشفت فيهما الكثير عن « لؤلؤة البحر المتوسط » كما يسميها أحباؤها عادة . وبدا لي أن زائر الاسكندرية اما أن يتعشقها ويشير اليها دائما في أحاديثه أو يكفي بمجرد احتمالها . ولكنني كنت من الذين أحبوها لأنها مدينة جميلة حقا . ولكن لو خيرت أن أعيش فيها او في القاهرة لاخترت الأخيرة . لأن العاصمة أكثر « مصرية » من الاسكندرية ولأني أوثر دائما أن أعيش في العواصم . وطابع الاسكندرية فرنسي ،

(١) كتاب « رمح مع العرب » .

ويعرض وجهها وجه مدينة فرنسية أنيقة من مدن البحر الابيض المتوسط، عصرية في طابعها ، أمية في حقيقتها (١) .

وروى فاتحهـا العربي عمرو بن العاص في اواسط القرن السابع للميلاد في الرسالة التي بعث بها الى الخليفة عمر بن الخطاب ، انه استولى بعد حصار دام أربعة عشر شهرا على مدينة تضم أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمـــام واثنى عشر ألف تاجر في الزيت واثنى عشر ألف بستاني واربعين الفا من اليهود يدفعون الجزية وأربعمائة من المسارح وأماكن اللهو . ولاريب في أن الرواية التي فيلت عن أن مكتبتها الشهيرة أمنت الوقود ستة أشهر للحمامات ، رواية خرافية (٢) .

ويتحدث اي . ام . فورستر (٣) عن عمرو بن العاص فيقول انه لم يكن « القـــائد العظيم فحسب ، وانما كان الاداري العظيم والرفيق الانيس والشاعر المبدع ، وانه كان من أكثر الشخصيات الاسلامية كفاية ومقدرة وقـوة شخصية » . ولم يكن الصـــلح الذي عقده مع البطريق المقوقس ، قاسيا ، لأنه لم يعرف القسوة لا بطبيعته ولا في سياساته . فقد سمح للسكان الراغبين في الرحيل عن المدينة بان يرحلوا ، كما سمح لمن يود البقاء فيها أن يظل على دينه اذا شاء شريطة أن يدفع الجزية » . ويقول فورستر ان البطريق بدوره كان ، شخصا شريرا ، وكان شيطان مصر والاسكندرية » .

ويتحدث فورستر عن الفتح العربي فيقول : « ولم يكن العـــرب برابرة كما يصورونهم . ولاريب في أن مدينة القـــاهرة العظيمة التي اقاموها ، هي خير رد على هذا الاتهـام . لكن حضـــارتهم كانت شرقية

---

(١) قد تشبه الاسكندرية ، المدن الفرنسية في بعض نواحيها ، ولكنها عربية في طابعها العام . وفي طراز ابنيتها . وهي لا تكاد تختلف الا بحجمها عن أية مدينة عربية اخرى . ولهذا فانا أرى أن المؤلفة قد أخطأت في اضفاء هذا الطابع الفرنسي الخالص عليها .

(٢) يبدو أن المؤلفة قد استخفت هي وراء الرواية المغرضة الشائعة بأن العـــرب أحرقوا مكتبة الاسكندرية . مع ما في هذه الرواية من خطأ تاريخي كبير . فمكتبة الاسكندرية الشهيرة والتي قيل انها كانت تضم اكثر من سبعمائة الف مجلد احرقت في حصار يوليوس قيصر لها في النصف الاخير من القرن الاول قبل الميلاد كما يؤكد المؤرخ الكبير جيبون لحياة الامبراطورية الرومانية وسقوطها . ثم عادت واحرقت من جديد في عام ٣٩٠ ميلادية في أيام ثيودوسيس .

(٣) كتاب « في الاسكندرية » ـ طبع عام ١٩٢٢ .

(المعرب)

وبرية ، ولم تكن على صلة بالحضارة المتوسطية التى طورت الاسكندرية » (١) • ولحق التدهور بالاسكندرية فى عهدهم ، وظلت فى حالة كسوف وانحسار طيلة القرون التالية الى أن استعادت حيويتها فى القرن التاسع عشر بعد قيام محمد على •

لكن العرب أضفوا على الاسكندرية الكثير • فبالاضافة الى مساجدهم الجميلة الرائعة أقاموا فيها قلعة قايتباى ، التى شيدها السلطان المملوكى قايتباى فى عام ١٤٨٠ وقبيل غزو العثمانيين لمصر • وقد شيدت القلعة على ما كان يسمى آنذاك بجزيرة فاروس • وعلى مقربة من برزخ رأس التين ، وفى نفس المكان الذى كانت تقوم عليه منارة الاسكندرية احدى عجائب العالم السبع • ومازال جزء من هذه القلعة قائما حتى الآن • وتم ترميم أجزاء كثيرة منها ، وهناك مشروع لاقامة « كازينو » على البحر ، وراء أبراجها • واذا ما تطلع المرء منها عبر سطح البحر الازرق رأى منظرا ساحرا لناطحات سحاب القرن العشرين وهى تطل على منعطفات « الكورنيش » • وبالرغم من أن منظر الاسكندرية اليوم يختلف عن ذاك الذى صوره فورستر فى عام ١٩٢٢ ؛ فانها مازالت كما صورها مدينة « توحى بالكثير وان لم تكن فائقة الجمال » •

واذا أراد المرء الاطلاع على تاريخ منارة فاروس ، فعليه أن يرجع الى كتاب فورستر الرائع ، اذ روى قصتها التى أسماها « بالمعقدة » فى هذا الكتاب ومن المحتمل أن تكون منارة فاروس قد بنيت فى عهد بطليموس الثانى فى سنة مائتين قبل الميلاد اذ نقش على جدران قصرها العبارة التالية : « بناها بطليموس تكريما للالهة والمخلصين ولمنفعة الملاحين فى البحر » • وكانت النار دائمة الاشتعال فى رأسها • ويقال انها تهدمت جزئيا فى عام ٧٠٠ ميلادية عندما سقط المصباح الضخم من ظهرها

---

(١) نظرية خاطئة للغاية ، فقد أطلت الحضارة العربية بعد قيام دولة العرب الكبرى بأقل من قرن ومنذ أواخر عهد الأمويين على الحضارات العالمية القديمة وبينها الحضارات المتوسطية من اغريقية وفرعونية ورومانية طبعا ، ثم انتقت منها ما أرادت التقاطه عن طريق الترجمة والنقل ، لتهضمه ، ولتدمجه فى حضارتها منطلقة بعد ذلك فى شكل حضارة اسلامية زاهرة ، عمت العالم المعروف طيلة العصور الوسطى المظلمة فى أوروبا ، ثم راحت تطلق اشعاعاتها على الظلام الاوروبى عبر البحر المتوسط عن طريق الاندلس وصقلية والمغرب ومصر • لتكون عاملا أساسيا فى النهضة الاوروبية الحديثة التى بدأت فى أواخر القرن الخامس عشر •

(المعرب)

فاشعل النار ، ثم عادت فتهدمت من جراء هزة وقعت فى القرن الثانى عشر • وجاء تدميرها الأخير عن طريق هزة أخرى فى القرن الرابع عشر •

وقد بنى محمد على الفنار الحالى الذى يرتفع مائة وثمانين قدما بينما كان الفنار السابق يرتفع الى علو اربعمائة قدم أو يزيد • وهو يقف الآن فى طرف الأكمة البحرية لرأس التين وهى اكمة ذات فرعين تواجه القلعة التى كان الفنار الأصلى يقوم فى موقعها •

وظلت الاسكندرية تسير فى طريق التقدم منذ أيام محمد على وهى تواجه الآن انتعاشا صناعيا ضخما • وتؤلف الابنية الحديثة صخورا بيضاء تطل على الكورنيش ، وهناك خطة خمسية لتخفيف أزمة المساكن • وفى المدينة مصانع للسيارات والدراجات وتعبئة الأسماك ومغازل للقطن وصناعة ضخمة للنسيج • وفى الميناء محطة بحرية جميلة وعصرية وفعالة ، فهى تمكن المسافرين من الهبوط من البواخر رأسا الى دوائر الجمرك . وهى مزودة بمكتب للبريد ومصرف لتحويل النقد وغير ذلك من التسهيلات • وكثيرا ما تصل جماعات من الفلاحين من جميع القرى لمشاهدة معالم المدينة وتبدأ عملها بزيارة الميناء الجديد •

ويرى السائح العادى فى المدينة أميالا طويلة من الشاطىء الرملى الغاص بالكازينوهات والبلاجات ، والجو الشتوى الرائع ، والقصرين الملكيين السابقين ، قصر رأس التين فى طرفها الشرقى ــ وقصر المنتزه الصيفى فى الطرف الآخر من المدينة والقائم على تل يطل على ميناء المنتزة • وهناك آثار كثيرة أيضا ، منها عمود بومبى ، الذى يقف على أعلى قمة فى المدينة والذى يتميز بالفخامة اذ يرتفع الى علو ٨٤ قدما بينما يبلغ قطره سبعة أقدام • وقد صنع العمود من صخر أسوان الأحمر المصقول ، وقد بناه الحاكم الرومانى فى مصر بوستوماس ، فى القرن الثالث ، تخليدا لفتح الامبراطور ديوقلتيان لمدينة الاسكندرية • ويصفه فوستر فى كتابه « بأنه تمثال ضخم ولكنه غير جميل » ، ولا ريب فى انه كان محقا فى ذلك ، اذ لا يمكن أن يقال عن التمثال سوى انه ضخم ومرتفع • وذكر موظف الاستعلامات الشاب الذى رافقنى اليه ، انه اسمى بعمود بومبى « لان رأس بومبى قد وضع على راسه بعد أن قتله قيصر » • أما الدليل السياحى الذى قرأته فيروى أن هذه التسمية جاءت من وضع رماد جثة بومبى بعد احراقها فى قارورة ودفنها على مقربة من المكان ، وهى رواية أقرب الى الصحة ، طالما أن الروايات التاريخية لا تذكر قطع رأس بومبى بعد

اغتياله · ويقول فوستر ان التسمية خاطئة من الناحية التاريخية ولكنه لا يذكر لنا كيف جاءت هذه التسمية ·

ويقوم السيرابيوم أو معبد الاله الاغريقى ـ المصرى سيرابيس الذى عبده بطليموس على مقربة من العمود · ويمثل سيرابيس مزيجا من الاله المصرى القديم ، العجل أبيس ومن أوزيريس ملك العـالم السفلى واله الموتى الذى تتجسد فيه أرواح جميع المصريين القدامى بعد موتهم · وتحول المعبد فى نهاية القرن الرابع الى كنيسة ، بعد أن كانت أقدام النصرانية قد توطدت فى المدينة منذ القرن الثانى ·

وهناك بعض الآثار أيضا فى الطريق الى منطقة كوم الدكة الغربية من المحطة · وقد بدأت بعثة بولندية للآثار حفرياتها هناك فى عام ١٩٦١ ، وعثرت على بعض الآثار الرومانية ـ الاغريقية القديمة ، ومدت محافظة الاسكندرية للبعثة فى عام ١٩٦٤ أجل عملها لمدة سنتين لتكمل حفرياتها التى تتضمن اعادة بنـاء الأبنية · وعندما يتم العمل ، سيصبح المكان متحفا رومانيا ـ اغريقيا فى الهواء الطلق ، كتلك المتاحف المنتشرة فى رومه وأثينا ·

« اليكس » :

وتقع حدائق النزهة الجميلة الى الشرق وعلى مسافة قريبة من هذا المكان · وهى تضم دارة جميلة · ويطلق عليها اسم حدائق أنطونيادس ، وهى مكان جميل تملؤه الاشجار والازاهير ، والورود والتماثيل ، وفيه حوض رائع تظلله ازهار اللوتس وشجيرات القصب · وكانت هذه الدارة مقرا لأسرة أنطونيادس الثرية اليونانية قبل عدة سنوات ·

وفى المدينة نادى سبورتنج وكان فى الماضى خاصا بالطبقات الثرية والاقطـاعية ، أما الآن فلم يعد كذلك ، كجزء من الخطة الاشتراكية · والنادى فى منتهى الأناقة والجمال ، ويضم ملاعب رائعة ، وشهدت عندما زرت المكان لفيفا من الفتيـات فى ريعـان الصبا يستحممن فى حوض السباحة على أنغام الموسيقى ، وتحت اشراف سيدة مدربة · وكن يتقلبن فى الماء كالاسماك ، يتقدمن ويتراجعن ، مؤلفات حلقات ونجوما فى الماء ، بأعضائهن العائمة · وقيل لى انهن يجرين تدريبا خاصا لعرض مائى · ورصفت الموائد والمقاعد على شرفة واسعة تطل على بركة الماء ، فى حين جلس

الناس اليها يحتسون المرطبات ويرقبون هذا العرض الجميل الرائع فى الانضباط والدافق بالحيوية ·

حقا انى لأحب الاسكندرية او كما يسمونها تحببا اليكس · وقد توقفت منذ عهد بعيد أن تكون تلك المدينة الاغريقيـة الجميلة التى أمر الاسكندر مهندسه دينوكراتيس ببنائها له على الصراط الضيق بين البحر والبحيرة · ولم تعد هناك «بوابة الشمس» التى تقطع المدينة عرضا من حدائقها العامة الى الميناء ، أو « بوابة القمر » · ولم تعد فيهـا الاعمدة الرخامية المشهورة أو الاسكندر مضطجعـا ضجعته الاخـيرة فى تابوته البلورى المرصع بالذهب ، تحت تراب القرون وآثارها · ولم يبق من تلك البوابتين اى أثر ، حتى مجرد الوصف · ويقول فورستر فى كتـابه : « لا ريب فى ان هاتين البوابتين كانتا قطعتين رائعتين من روائع الفن · وقد لا تكونان أكثر من مجرد بوابتين بسيطتين عاديتين ، ولكنهما ولاريب قد ضمتا قبورا للالهة التى كانت تتولى حمايتهما » ·

ورأى المستر فورستر الذى وضع كتابه فى عـام ١٩٢٢ ان مدينة الاسكندرية الحديثة لا تستحق «تعليقا حماسيا» وراح يندب مايجرى من طمس لآثار الماضى وصـلاته بالحاضر ، كتغيير اسم « طريق رشيد » ، وتهديم السوق «المسقوف» الرائع ، وتحطيم جيش الاحتلال البريطانى لآثار البطالسة لشق الطرق الجديدة · ولاريب فى ان عدد تلك الصلات بالماضى التى كان أفراد جيله يقدسونها ، قد قلت الآن بعد نحو من أربعين عاما· أجل لقد انطمس الكثير منها · لكن هناك الآن ما هو اهم بكثير من صلات الماضى · انه الامل فى المستقبل ، وها هى اسكندرية اليوم تحمل الوفرة والرخاء المتزايدين لا للقلة المميزة من سماسرة البورصة ووسطائها الذين أعجب المستر فورستراشد الاعجاب بآثارهم التى جمعوها وتحفهم ، وانما للجماهير الغفيرة من الشعب الذى كان محروما فى الماضى ·

وقد يكون صحيحا ان مستنقعات بحيره المريوطية قد جففت وحرمت ازاهيرها ، لكن هذا تم لتامين الارض الجديدة للذين لا يملكون ولزيادة انتاج المواد الغذائية · ولا ريب فى ان هذا التغيير يعتبر رمزا لما يقع فى مصر الآن من تبدل وتقدم · ولم يكن عدد سكان الاسكندرية فى عام ١٩٣٧ يتجاوز السبعمائة الف · أما فى عام ١٩٦٠ فقد تجاوز المليون والنصف، وهى جماهير غفيرة يجب أن تجد الغذاء والمأوى ووسائل التعليم والعناية الصحية والرعاية الاجتماعية · وعلى هذا فان من الافضل للمريوطية أن تنبت القمح لا الازاهير ، وأن يعطى الاسكان البشرى الاولوية على المواقع

الأثرية . لكن كل ما يقع الآن لا ينتقص من جمال الاسكندرية كمدينة عصرية رائعة ، ذات شوارع واسعة تملؤها الحدائق ؛ وحوانيت ضخمة ومطاعم منتشرة ومساجد وكنائس ، وميادين واسعة ، وحدائق عامة تملؤها الاشجار والازاهير ، وكلها على ساحل البحر الدافىء الجميل . الذى تنتشر على شطئانه كبائن المستحمين والمصطافين يؤمونها لقضاء أجازاتهم الصيفية بعيدا عن حر القاهرة اللاهب .

وعلى مقربة من الاسكندرية تقوم ضاحية الملك ـ مريوط ، بداراتها الجميلة القائمة بين الاشجار ، وبفندقها المبنى على الطراز الانجليزى ، المسمى بفندق البيت الصحراوى . ولا تعتبر المنطقة مصيفا حقا ، ولكنها تعتبر «ضاحية» من ضواحى الاسكندرية . وقد قمت بزيارتها بعد رحلة صحراوية الى مشروع ناصر ، حيث يجرى استصلاح ثمانين الف فدان ويخطط لبناء القرى الكثيرة املا فى اسكان بدو المنطقة فيها . وتؤلف هذه الضاحية،واحة جميلة تظللها الاشجار وتملؤها الازاهير،والشجيرات الممتدة القرمزية والخمرية ، مظللة الدارات الجميلة . وسمعت الشاب الموظف فى الاستعلامات ، الذى قادنى الى هناك يقول : حقا اننى أحب هذا المكان ، واود ان تكتبى عنه » . ولعل من اروع خصائصها ان الطريق اليها تسير عبر صراط ضيق يقف بين جانبى البحيرة ، وقد انتشر القصب الطويل على جانبيه ، تعشش فوقه الطيور المائية . انها نفس الصورة التى رسمها فوستر بعرض شاعرى قبل اربعين عاما .

ابو قير :

اشتهرت هذه القرية الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط وعلى بعد خمسة عشر ميلا الى الشمال الشرقى من الاسكندرية بانها المكان الذى خاض فيه نلسون معركة النيل ضد نابوليون وهزمه فيها فى عام ١٧٩٨ ، ثم عاد السير رالف ايبركرومبى فانزل فيها جنوده بعد ثلاث سنوات فى وجه مقاومة فرنسية عنيدة ، محققا بذلك مغامرة ناجحة فى منتهى البسالة وان كلفته حياته .

ويمتد خليج ابى قير الى مصب فرع رشيد من النيل ، على شاطىء رملى صلد . وقد اشتق هذا الاسم نسبة الى القديس القبطى الراهب سيروس .

ويذهب الناس الى أبى قير فى الصيف لانهـا أقل اكتظاظا من الاسكندرية . أو للاشتراك فى معسكرها الضخم الذى تؤمه فرق الشباب، أو لتناول الاسماك فى أحد المطاعم المشهورة باعدادها على شاطئ البحر . ومن الممتع حقا أن يجلس المرء فى شرفة ذلك المطعم المسقوفة والمطلة على البحر . وأن يحتسى كأسا من المشهيات المسمى « بالزبيب » وهو نوع من «البيرنو» المصرى . يرقب الشمس وهى تعبر فوق سطح البحر . منتظرا أن ينتهى الطـاهى من اعداد السمك الطازج . وفى وسع المرء أن يسلى نفسه فى انتظار الطعام ببعض الفول السودانى والزيتون والعجل . بينما يرقب بين آونة وأخرى غلاما يدور على الرواد ليبيعهم بعض أنواع الاسماك والأصداف . ويمكن للمرء أن يحتسى هناك أقداح نبيذ « جاناكليس » الرائع . وهو المستخرج من منطقة لا تبعد كثيرا عن مريوط . وسنتناولها بالبحث عما قريب .

وتمر الطريق من الاسكندرية الى أبى قير وسط منطقة غنية بالحدائق والبساتين التى تظل منها الاشجار . تتفرع منها الطرق المؤدية الى البحر، وبينها طريق منطقة المعمورة . حيث يقضى الرئيس عبد النـاصر بعض اسابيع الصيف .

ويعتبر معسكر أبى قير الصيفى مدينة قائمة بذاتها . اذ يضم احياء مختلفة . منها معسكر للشباب مؤلف من الخيام . ومنها حى يضم «الشاليهات» للعـائلات وبعض الكبائن التى تكلف مستأجريها خمسين قرشا فى اليوم . وبعضها بخمسة وعشرين .

ودخلت احدى الكبائن الرخيصة . انها مجرد كوخ كبير . له بالوعة تمتد تحتها بالوعة لتصريف المياه . وكان هذا الكوخ يضم خمسة أسرة . جمع اثنان منها الى بعضهما فى طرف الغرفة ليكونا سريرا عريضا . كما جمع آخران فى الطرف الثانى لنفس الغاية . وكان يقيم فى هذه الشاليه رجل عجوز وزوجته . وشقيقته وزوجها . وكلهم يطفحون بالحماسة . حقا انها رخيصة للغاية . وهناك قاعة جماعية فى المكان مفتوحة الجوانب، وتطل على البحر . حيث يتناولون الطعـام . وتمضى النسوة الى ابى قير لابتياع حاجاتهن . وان كن لا ينفككن عن الاعراب عن الامل فى اقنـاع السلطات بفتح جمعية تعاونية فى أرض المعسكر . وقال الرجل الشيخ ان ابا قير مكان صحى ممتاز . فالهواء فيها جاف وعليل كالهواء فى منطقة الهرم أو على جبل المقطم فى القاهرة .

وليس ثمة من شك في ان المعسكر كان مقاما في مركز ممتاز . على ارض مرتفعة . تقف وراءها تلال رملية بينما يمتد أمامها البحر . التى تصل بينها وبينه طريق تمتد حتى البلدة وقد احاطت بها أشجار الكافور التى ترخى ظلالها . والازاهير اليانعة . ويبلغ مساحة المعسكر نحوا من مائة فدان . وهو مفتوح دائما من مارس حتى سبتمبر من كل عام . وفى الخيام أسرة سفرية . ويدفع المقيم فيها ثلاثة قروش فى اليوم . وكان هناك نحو من سبعمائة شخص فى المعسكر عندما قمنا بزيارته . وتؤمه جماعات من الفلاحين يأتون من قراهم دون نسائهم . اذ ان الحياة السورية لم تصل بعد الى محيط الاسر الريفية . وذكر لى أحد موظفى المعسكر . ان فى وسع الرجال اذا رغبوا أن يحضروا بعض المحاضرات الزراعية .

وهناك عربات تجرها الخيول يستطيع المرء أن يستأجرها على الطريق الساحلى . تماما كما فى الاقصر . وهناك مراكب شراعية مكتظة بالركاب دائما فى الميناء . وتجر قوارب الصيد الى مقربة من الشاطىء . وبالرغم من وفرة عدد الناس من رجال ونساء وأطفال فى كل مكان . فان الرمال الفسيحة تستوعبهم جميعا والهواء حار . ولكن ترطبه برودة البحر . ها هى الشمس تغرب . وقد حان وقت احتساء الزبيب .

كروم العنب :

ومضينا فى السيارة من الاسكندرية عبر طريق صحراوى لمدة ساعتين قبل أن نصل الى قرية أبى المطامير فى محافظة البحيرة . ورأينا طريقا فرعية تتفرع من الطريق العام وكأنها تمضى الى جوف الصحراء . وسرعان ما سرنا فيها لنشاهد الاشجار من جديد . اشجار النخيل والكافور . بينما تقوم على الجانبين بيوت تزدان سياجاتها بنباتات ممتدة ذات ازهار زرقاء . انها واحة صنعتها يد الانسان . انها ارض جناكليس بكروم العنب التى تنتج النبيذ الذى يحمل اسم صاحبها .

وسبق لى أن ذقت النبيذ المصرى فى حفلة أقامتها سفارة الجمهورية العربية المتحدة فى لندن دون ان اعرف انه مصرى . واعربت عن تلذذى بمذاقه . فذكر لى السفير انه من صنع مصر ويسمى « قصر نسطور » . وهو يفوق فى نعومته وكثافته نبيذ عمر الخيام الابيض . واضاف ان هناك انواعا اخرى من نبيذ جناكليس . وان على فى المرة القادمة التى ازور فيها الجمهورية العربية المتحدة . ان امضى الى مزرعة جناكليس من الاسكندرية .

واني لمندهشة حقا ، لم لا يصدر هذا النبيذ الرائع الى انجلترا ، حيث يرى الانسان انواعا من الخمور اقل منها كثافة ، ودرجة ٠

وجاناكليس هواسم الرجل اليوناني الذى انشــا المزرعة فى عام ١٩٠٢ ، وكان قد شرع فى صناعة الســـجائر منذ عام ١٨٦٥ ٠ وتوفى الرجل فى عام ١٩٣٢ وكان فى السابعة والتســعين من عمره ٠ وكانت مساحة المزرعة فى بداية القرن ثلاثة افدنة توسعت الى خمسمائة قبـــل وفاته ، واصبحت الآن تضم ثلاثة عشر الف فدان منها اربعة آلاف مزروعة بالكرمة واربعة آلاف اخرى تزرع فيها المحصولات الاخرى ، وخمســـة آلاف يجرى استصلاحها ٠

وتسقى الكروم عن طريق غمرها بالمياه خمس مرات او ســـتا فى العام ٠ وهناك ساقية تعود الى الايام الخوالى ، أما الآن فيضخ الماء من ترعة النوبارية بالمضخات الكهربية ليسيل فى اقنـــية الرى ٠ وكان من الرائع ان اقف الى جانب المضخة ، وان امضى بنظرى مستعرضة الواحة الجميلة أمامى وقد انتشرت فيها الاشجار ، وعمت الخضرة أطراف الأقنية ، وامتدت صفوف الكرمة فى جميع الاتجاهات ، بينما انتشرت الاكواخ التى يقيم فيها عمال التراحيل عند اطراف الواحة ، لتمتد وراءها الصـــحراء الفسيحة الشاسعة ٠

وكانت الصحراء تعم كل تلك المنطقة عندما حلم نسطور جاناكليس لأول مرة فى مستهل القرن ببعث صناعة خمور المريوطية الشهيرة ٠ وقد رأينا كيف تحقق الحلم ، وانتجت الصحراء ، ولكن بعد عمليـــة بطيئة وطويلة انطوت على الكثـير من الجهـد والصبر والاحتمال ٠ لـكن الأفدنة الثلاثة تحولت فى غضون ثلاثين سنة الى مزرعة كبيرة تنتج العنب لصناعة الخمور ، وللبيع فى الاسواق ، متـــــحولة الى واحــة غنية خضراء ، استخلصت من الصحراء ٠

وقد عشقت النبيذ منذ سنوات طويلة ، وكنت افكر دائما بزيارة امكنة انتاجه فى فرنسا ، عند قطف العنب ، لأرى شيئا من العملية ابتداء بقطف الثمر وانتهاء بتعبئة نبيذه فى الزجاجات ، ولكنى لم أفعل شيئا من ذلك ٠ أما الآن فلن أعود الى التفكير فى ذلك ، لأننى رأيت كل شىء فى مزرعة جاناكليس ، فى رحلة شخصية قمت بها ، وتولى المـدير الطواف بى ابانها ، وهو يونانى مصرى يدعى راندوبولو ، يتمتع بشخصية فى منتهى الطرافة والتحضر ، ذو صوت يشبه صوت المغنى بول روبسون ، وقامة فارعة العود ٠

اجل طفت فى رفقة هذا الرجل ، مختلف ارجاء المزرعة على أقدامنا ، أرى العنب وهو يقطف من كرمته ثم يحمل فى شاحنات كبيرة ليعبأ فى سلال تباع فى الاسواق للاستهلاك العادى • ودخلنا الى الاكواخ التى تجرى فيها عملية تجميع القطوف ، ثم ارتقينا سلالم عالية تطل على أحواض ضخمة يقف فيها بعض الرجال بأحذيتهم المطاطية ، يدفعون بالعنب الى آلة تنزع من القطوف عصيها وأوراقها وان لم تنزع عنهـا قشـورها • وننتقل بعد ذلك الى احواض أخرى كان العصير فيها قد تخمر فى مرحلته الاولى ، ولكنه مازال محتفظا بحموضـته ، بعيدا عن تلك النعومة التى يصبح متميزا بها بعد اكتمال تخميره • وهناك آلات ضخمة أخرى تقوم بفرز القشور والنوى عن الخمر بعد تخمره ، ثم تجفف هذه المفرزات لتعطى طعاما للحيوانات او لتستخدم سمادا فى الارض •

ورايت فى الاكواخ التى تعبأ فيها القطوف فى سلالها لبيعها كثمار عادية ، لفيفا من الفتيات الجميلات فى ثيابهن الزاهية الفضفاضة ، وقد اشتملن بطرحات موشاة بصور الازاهير الصـغيرة ، وهن يقفن يسلمن القطوف الى الرجال الذين يعبئون السلال بسرعة مذهلة واتقان •

وعند ما شبعنا من التطلع المشفوع بالاحترام الى هذه الآلات الضخمة والاحواض الواسعة ، ومن السـير جيئة وذهابا فى هذه الطرقات التى تسطع فيها أشـعة الشـمس ، داخلين الاكواخ ، مضينا الى سـيارة راندوبولو ، الذى سار بنا على مشارف الكروم الى قصر نسطور ، وهو دارة ريفية مبنية على طراز ابنية القرن التاسع عشر ، وسط حدائق تعلو فيها أشجار الكافور والصفصاف • ملقية ظلالها الوارفة ، وتنتشر شجيرات تحمل ازاهير حمراء اللون يسمونها « الزهور النارية » • ورايت فى هذه الحديقة أزهار الياسـمين الابيض والاصفر والارجوانى وقد تسـلقت شجيراته كل ناحية ، على السياج والأعمدة والأصص • وتعيش فى هذه الدارة ابنة نسطور جاناكليس مع ولدها نسطور بيراكوس ولـكنهما كانا متغيبين عنها عندما زرتها •

وجلسنا الى شرفة لطيفة الجو نستنشق أريج الزهور التى يعبق بها الجو ، نحتسى الزبيب المثلج الذى لم اكن اعرف عند ما شربته لأول مرة فى ابى قير انه من انتاج جاناكليس • واكتشفت أيضا ان المزرعة تنتج نوعا من « الفيرموت » • ولعلى نسيت الآن ما دار بيننا من حديث فى ذلك المكان الرائع ، وكل ما اذكره اننى احسسـت بشىء كثير من الراحة

والاسترخاء ، تماما كشعوري يوم رحلة الفيوم ، وهي مشاعر يحس بهـا الانسان ناعما عقليا وبدنيا عندما تجتمع له ظروف السـعادة في المكان والزمان والصحبة الطيبة .

وصعدنا قبل مغادرة الدارة الى السطح عن طريق المصعد ، وكان المنظر جميلا ، اذ يطل المرء في جميع الاتجاهات عبر اشجار النخيـل والكافور والصفصاف السامقة على كروم العنب وهي تحس واحة وسط صحراء تمتد رمالها الفسيحة الى ابعاد الافق .

وتناولنا غداءنا في مطعم ومقهى في المزرعة ، يقوم الى جانب فناء ترابي تحيط به البناجل البارزة وسـط الشجيرات المزهرة . ونسيت ما طعمناه في ذلك اليوم ، فقد كان شيئا عاديا ولكنني اذكر اننا شربنا نبيذا أبيض رائعا يسمى «قرى جاناكليس» لننتقـل بعده الى شراب عمر الخيام الرائع بنعومة مذاقه ، والمتفق مع كل طعام يؤكل معه ، والقـوي في تأثيره ، حتى ان المـرء ليحس بشيء من الخدر بعد شربه ، ينسى فيه ماضيـه ومستقبله ، مكتفيا بسـعادة الحاضر ونعمته .

ووصلنا في حديثنا الى الموضوع الخالد عن الحب والحياة . ويبدو اننا قلنا الكثير من السخف ، وان كان قد ظهر في تلك الآونة في منتهى العمق والذكاء . ولجأ السيد محمد علي الى الاحاجي والالغاز ، وكنت اتطلع اليه بود ، اذ ان النبيذ يخلق الود عند الانسـان ، ولا سيما قد بدا ان تأثيره افقدنا كل ذكاء ، وادراك حتى ان راندوبولو قال انه كان يفكر ذات يوم بدعوة أصدقائه الى حفلة شريطة أن يرتدوا ملابس السـهرة حفاة الاقدام ، وان يدون في بطاقة الدعوة : « ربطة سوداء وقدم عارية » .

وقلت للرجل : اذا كنت عاري القدم ، فان قدمك تكون عارية .

وطلب مني راندوبولـو ان اكتب له ذلك ، فانتزعت ورقة من دفتر مذكراتي وكتبت العبارة عليها باحرف كبيرة ، وتملهـا الرجل وراح يعيدها على مسامعه . ثم ابتسم وطوى الورقة ليضـعها في جيبه وهـو يقول : « سأقيم مثل هذه الحفلة ، ويجب أن تأتي السيدات اليها حافيات الاقدام أيضا » ...

ومضينا في السيارة الى منزل راندوبولو لنشرب القهوة ، وكونياك ، جاناكليس ، ولم نتناول الغداء عنده لان زوجته وافراد اسرته لم يكونوا فيه ، وكان البيت شبه مغلق ، وجلسنا هناك في شرفة تظللها دالية من الكرمة ، وتنتهي الشرفة الى أحواض من الياسمين والورود الحمراء تقوم

وراءها الاشجار العالية . وفجأة رأينا انفسنا نتحدث فى موضوعات جدية، وقضايا هامة ، لانلبث ان نمسها مسا رفيقا حتى نتراجع عنها اذ ان الوقت لم يكن فسيحا للخوض فيها بجميع تفاصيلها · وكانت الشمس قد شرعت فى الهبوط من كبد السماء ، وكان لابد لنا من رؤية مشروعات استصلاح الاراضى الصحراوية فى وادى النطرون ونحن فى طريق العودة الى القاهرة ·

ولم يكن ثمة مفر من الذهاب والتخلى عن هذا النقاش الذى لم يكتمل والذى سيطرت عليه روح الرغبة فى الرحيل ·

لعل لنا عودة اخرى اليه · ربطة سوداء واقدام عارية · ملابس سهرة واقدام حفاة · وكل ما وراء هذه الاقوال من معان فلسفية ·



٩ - منطقة القناة

يبدو من الغريب اذا ما أخذنا في عين اعتبارنا ما يمثله سعيد باشا من أشياء سيئة في وجهة النظر المصرية ، ان نراهم لا يغيرون اسم الميناء ، عندما انتزعوا تمثال ديليسيبس من مدخل القناة فيه في عام ١٩٥٦ . ومن الاغرب ايضا أنهم لم يغيروا هذا الاسم منــذ قامت الثورة في عام ١٩٥٢ . ويجب ألا نخلط بين سعيد باشا هذا وبين ســعيد الذي كان رئيسا للوزراء في عام ١٩٠٩ .

وقد خلف سعيد الخديوى عباس الاول حفيد محمد على ، بعد ان قتل جنود الحرس عباسا بعد خمس سنوات من الحكم الذى نفجر منه الشعب المصرى . لــكن سعيدا الذى خلفه في عام ١٨٥٤ لم يكن أقل سوءا منه ، وان اختلفا في اتجاهاتهما . فالمعروف أن عباس كان كارها للأجانب وان لم يكن محبا لشعب مصر ، اما سعيد فكان غربى الثقافة ميالا الى الأجانب ، عاملا ضد مصلحة شعب مصر أيضا ، واتسع نطاق التجارة الاجنبية في غضون حكمه الذى استمر تسع سنوات ، كما اتسعت الملكيات الخاصة للارض ، مانعة بذلك التطور الصناعى ، ومخلفة فلاحى مصر في حالة من الفقر المدقع . ولم يكن ســـعيد يفرض الضرائب على التجار الاجانب ، في حين حرم على الفلاحين المساكين دفع ضرائبهم عينا ، عن طريق محصولاتهم ، فغدوا في أوضاع بائسة . ولخص توم ليتل في كتابه الرائع « مصر » (١) الوضع بصورة ممتازة اذ قال : « كان المرابى يسير في ركاب جباة الضرائب ، فينقذ الفلاحين من ســياطهم بالقروض

(١) طبعة عام ١٩٥٨ .

التي يسلفها لهم ليدفعوا ضرائبهم منها ، ثم ياتي التاجر الاجنبي ، فيبتاع المحصولات بالسعر الذي يفرضه ، ليمكن الفلاحين من تســــديد فوائد القروض التي حصلوا عليها » ٠

وكان سعيد هذا ، صديق الاجانب ، هو الذي منح صديقه فرديناند ديليسيبس امتياز شق قناة السويس ، وهو عمل وصفه ليتل « بالعمل المفجع الذي جاء في وقت سيىء » ، بحيث لم ينتفع منه الا أصحاب الامتياز، الذين فرضوا على المصريين شروطا في منتهى الوحشية ، مع ان هؤلاء هم الذين كانوا سيقومون بالعمل عن طريق الالزام ، وغدا حفر القنــــاة في الواقع فضيحة دولية ، اصلحها الى حد ما اسماعيل الذي خلف سعيدا في عام ١٨٦٣ ٠ فقد ادخل هذا بعض المنافع المادية تحت ستار ما اســــماه بالتقدم والتعصير ، ولكن حفيد محمد علي هذا ، ظل يحكم كتركي ، ممــا عنى ان يظل الاجانب واثرياء الملاك هم المنتفعون لا الشعب المصري ٠ ومع ذلك فقد كان سيده السلطان العثماني هو الذي ارغمه أخيرا على التنازل عن العرش ، وراح يبحر من الاسكندرية على يخت كما أبحر حفيده فاروق في عام ١٩٥٢ ، حاملا معه شحنة من الجواهر ، دون أن يحمل أية ذكرى طيبة من شعب مصر ٠

لكن كل هذه القضايا أصبحت جزءا من التاريخ وهي تعود بنا الى عام ١٨٧٩ ٠ وعلينا ان نعود الآن الى عام ١٨٥٩ عندما شرع سعيد في حفر القناة واقامة ميناء بورسعيد ٠

بورسعيد:

تقوم هذه المدينة كما تقوم الاسكندرية على مساحة ضيقة من الارض محصورة بين البحر الابيض المتوسط ، وبحيرة المنزلة ، الغنية باسماكها وطيورها المائية الكثيرة ، بالرغم من تجفيف شطر منها على النحو الذي جففت فيه بحيرة مريوط في الاسكندرية ٠ لكن مساحة المنزلة تبلغ خمسة اضعاف مساحة مريوط ، اذ تبلغ أربعمائة وستين ميلا مربعا تقوم وسطها بعض الجزر ، كجزيرة تنيس التي تقوم على أنقــــاض تنيسوس القديمة والتي تضم بعض الآثار الرومانية ٠ والبحيرة ضحلة كبحيرة مريوط وبحيرة قارون في الفيوم ، الا عند ما يفيض النيل وتغزر مياهه ٠ وهي تمتد من فرع دمياط من نهر النيل ، الى ما كان يسمى منذ عــــام ١٨٥٩ بميناء بورسعيد وتقوم مدينةدمياط القديمة بينالبحيرة والنهر ، وعلىبعدثمانية

اميال من مصبه • وكانت دمياط القديمة أقرب الى البحر من المدينة الحالية . ولكن السلطان الظاهر بيبرس المملوكي ، هدمها في عام ١٢٦٠ ميلادية لاحباط اية هجمات صليبية أخرى من ناحية البحر . واغلق مصب النيل . واعاد بناء المدينة في موقعها الراهن • واستعاد المسلمون المدينة القديمة بعد هزيمة لويس التاسع الفرنسي في معركة المنصورة • وازدهرت المدينة الجديدة في القرن التاسع عشر .واصبحت ثالث مدن مصر .كما غدت مع شقيقتها رشيد على الجانب الآخــــر من الدلتا . (١) الميناءين الرئيسيين بعد الاســــكندرية • ولكن ظهــــور البواخر هبط بمكــانة هـــــاتين المدينتين التجارية . اذ انتقلت حركة الملاحة كلهـــا الى الاسكندرية • واشتهرت دمياط بصناعات الحرير والقطن والجلود . ولا سيما بالاقمشة القطنية المخططة التي يطلق عليها اسم ـ الدماطي ، • وضمت المدينة في اوج ازدهارها ٣٦٦ مسجدا أي بمعدل مسجد لكل يوم • ولكن الكثير من هذه المساجد قد اختفى اليوم • واقيم مصيف على بعد اميال من المدينة في رأس البر . ولم تكن دمياط تعنى حتى قيام الثورة أكثر من هذا بكثير •

لكن الثورة جاءت لدمياط في السنوات الاخيرة بمصـــــادر جديدة للحياة . اذ اقيم فيها عدد من المصانع التي قصد منها احياء صناعاتهـــا القديمة . كما تشمل الخطة جعلها أحد الموانئ الثانوية •

وبالرغم مما طرأ على المدينة من عصرية ، فانها مازالت مدينة قديمة جذابة . ببيوتها القديمة ومســـاجدها الجميلة • وتتميز البيوت القديمة بواجهات منحنية ومدببة وشرفات منحوتة ، ويواجــه بعضها الكورنيش الجميل على شاطئ النهر ،في حين يتلاصق بعضها الآخر ، جنبا الى جنب مع الابنية الحديثة في الشوارع الضيقة التي تقوم في وسط المدينة • وهناك دائرة بريد مركزية في وسط الكورنيش تمثل قطعة فنية جميلة من فن

(١) قمت بزيارة بلدة رشيد الصغيرة في وقت لاحق وأحببتها حبا جما • وتكتظ فيهـــا مراكب الصيد على مقربة من الحاجز المائي وقد ارتفعت صواريها لتظهر في نهاية شوارعها الضيقة • ويرتدي الرجال فيها سراويل تركية . وفيها عدد كبير من الطواحين التي ترفع اشرعتها البيضاء فوق البحر الازرق عند مصب النيل • وفي البلدة صناعة صغيرة لقوارب الصيد . وللتمور وطحن الأرز وغسل الأجر • وصناعة النسيج . كما تصدر الفسيخ والاسماك المجففة . وفيها صناعة للاقفاص من سعف النخيل . ويحدوع اشجاره . وتقوم أشجار الكافور العالية ومسجد قديم عند النهر الذي يؤمه الناس في نزهتهم • وهناك صحراء تحيط بالمكان ولكنها تتوقف عند المسجد الذي يعتبر من المعجزات المحلية •

(المؤلفة)

المعمار الحديث وفى المدينة العربات التى تجرها الخيول ، والنساء المحجبات اللائى يرتدين الملاءات السود • وحياة الحوارى والازقة الضيقة، والحوانيت المشرعة الابواب . وبالرغم من تعصير بعض النواحى فى المدينة فانها مازالت مدينة قديمة . وتزدهر فيها صناعة قطنية حديثة . وصناعة ناجحة للاثاث •

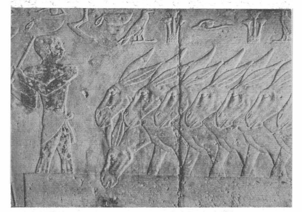
وتقوم بعض بساتين النخيل على الطريق المؤدية الى رأس البر وقد زرعت بعض أشجار البرتقال بين أشجار النخيل . كما تجرى عمليات استصلاح الاراضى فى المنطقة وكانت جميع الشاليهات والسكبائن والاعشاش والدارات والفنادق مغلقة عندما زرتها فى شهر مايو . فى حين كانت الطرق الرملية الواسعة بينها مقفرة • لكنها لا تلبث كما أكد لى البعض ان تكتظ بالناس فى الصيف وان تنتعش فيها الحياة ويسودها المرح . اذ تحتشد مقاهى الهواء الطلق بالناس . وتعزف الفرق الموسيقية . ويرقص المصطافون ويستحمون • ويقوم حانوت متحرك بخدمة البيوت فى حين تمتلىء الشواطىء . وتصبح رأس البر مستهوية لجميع الذين يحبون المرح والحياة الصاخبة • ولعل اروع منظر استهوانى هنا ، هو اللسان الطويل الذى يقوم النيل الى جانب منه ، والبحر الابيض المتوسط الى الجانب الآخر •

سئلت فى عام ١٩٦٢ عند ما كنت فى الجمهورية العربية المتحدة عما اذا كنت ارغب فى زيارة بورسعيد • فكان ردى المتسرع اننى لا احس بضرورة هذه الزيارة ولا سيما اننى رأيت المدينة • وأنا فى طريقى الى الهند فى عام ١٩٤٩ ، لكننى كنت أنا التى طلبت زيارتها هذه المرة . اذ تبينت بشكل أو بآخر . اننى لم أكن فى الواقع قد رأيت بورسعيد ، وكان كل ما رأيته منها آنذاك هو أننى هبطت الى الشاطىء وجلت فى الجانب القديم من البلدة ، ولم أكن قد سمعت عن بور فؤاد المدينة السكنية التى تقع الى الجانب الآخر من القناة مقابل بورسعيد ، ويربطها بها ما يسمى «بالمعدية» . وقد ذهبت اليها فى هذه المرة مع السيد على محمد على وعقيلته •

تعد بورسعيد اذا ما وصل اليها المسافر بحرا من انجلترا «بوابة الشرق» ، اما اذا ذهب اليها بالسيارة من القاهرة ، كما فعلت أنا هذه المرة ، فهى له بداية القناة ، وبداية مسرح الجريمة التى ارتكبت



المؤلفة تضع اكليلا من الزهور على ضريح
الشهيد المجهول فى بورسعيد



معبد فى سقارة

فى عام ١٩٥٦ ، ولعل هذه الحقيقة الأخيرة هى التى حفزتنى على الاهتمام بها هـذه المرة ، وبالرغم من اننى لم أسهم فى تلك الجريمـة ، فاننى كانجليزية شعرت بالواجب الخلقى فى أن أمضى اليها ، وهكذا مضيت أحمل نفسية ذلك الانسان الذى يزور اضرحة قتلى الحرب ، وكانت فيها حقا قبور تستحق أن يزورها الانسان .

وليس فى الطريق الطويل الممتد من القاهرة ما يستحق الوصف، سوى أنها تسير الى جانب ترعة مستقيمة طويلة تحيط بها أشجار الكافور من جانبيها وتنتهى الطريق من الدلتا لتعبر الصحراء الشرقية الى الاسماعيلية التى حملت اسم الخديوى المكروه اسماعيل ، وقطعنا رحلتنا فى هذه البلدة لنستريح قليلا من السفر على شرفة مقهى يقع قرب المحطة . وتسمع فيه صرخات قطر الديزل باستمرار ذاهبة آيبة .

لكن الاسماعيلية مدينة جميلة ملأى بالأشجار التى تقوم وسط حدائق غناء طافحة بالزهور تحيط بشوارع مشجرة رائعة ، وقد تم تخطيطها مع شق قناة السويس التى تمر عبر بحيرة التمساح المالحة ، التى تقوم المدينة على شاطئها ، وتقوم من الناحية الأخرى على ترعة المياه الحلوة التى تمتد على طول الطريق من بورسعيد الى السويس ، وتسير هذه القناة بين بورسعيد والقنطرة محاذية لقناة السويس ، ثم تخرج عند القنطرة عن سيرها المتوازى منحرفة غربا لتعود فتتصل ببحيرة التمساح عند الاسماعيلية ، وتمضى قناة السويس عبر بحيرات التمساح والبحيرات المرة لتكمل رحلتها بعد ذلك الى السويس .

ومن الطريف أن نروى هنا أن الملك المصرى نيقو شرع فى اقامة قناة فى عام ستمائة قبل الميلاد أو نحوها تهدف الى ربط النيل بالبحر الأحمر ، ويروى هيرودوتس انه ما لبث أن عدل عن المشروع بعد أن تلقى انذارا من العرافة ، ثم جاء داراوكورش فأكملها ، ليجىء بطليموس فيلادلفوس فيعيد شقها فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وكانت هذه القناة تصل الى البحيرات المرة ثم تواصل سيرها الى السويس مع سير القناة الحالى .

يبدأ القادم من القاهرة فى رؤية قناة السويس عندما يصل مشارف الاسماعيلية ، وتنتهى هنا رتابة المناظر وليشرع الانسان فى رؤية السفن الكبيرة من بريطانية وروسية ونرويجية قادمة من مختلف موانى العالم ، باستثناء موانىء فلسطين المحتلة التى لم تعترف الدول العربية قط بقيام اسرائيل فيها ، وتعد الجمهورية العربية المتحدة نفسها فى حالة حرب

مع الاسرائيليين ، ولذا فهى تمارس حقها فى مقاطعتهم ومنع سفنهم من عبور القناة ، تماما كما فعلت بريطانيا فى الحرب العالميـــة الثانية عند ما منعت مرور البواخر الالمانية والايطالية واليابانية فيها .

وكان كل ما أذكره عن بورسعيد ، بيوتها القديمة المصمة بشرفاتها الخشبية ، وقناطرها ذات الاعمدة الخشبية وراءها الحوانيت المعتمة المظلمة ، والأزقة الضيقة التى ينتشر الغسيل على نوافذ بيوتهـــا . أما الشيء الجديد الذى رأيته فيها فهو مركز البلـــدية الجديد ، الذى تحيطه الحدائق بأزهارها وأعشابها، والشوارع التى تظللها الأشجار والاحياء الشعبية الممتازة ، والمصارف والمكاتب . وكلها خالية من ناطحات السحاب وعلى شاطيء البحر ، وامام الاشجار الباسقة مكاتب شيمون أرتيز . وقد مضى اليهود والبريطانيون والفرنسيون عن المدينة فى عـــام ١٩٥٦ . لكن شيمون هذا يهودى مصرى ، وقد ظلت مكاتبـــه قائمة فى بورسـعيد الى جانب مكاتب سلطة القناة .

ولكن فى المدينة أشياء جديدة لم تكن فيها فى عام ١٩٥٦ ، وبينها المتحف الحربى الذى يسميه الغربيون بالمتحف المظلم ، ولكنه مظلم حقا بالنسبة الى شعب بورسعيد اذ أنه يضم أجداث أكثر من الف شهيد من شهداء الغارات البريطانية على المدينة ، ويقوم المتحف فى بناء من طبقة واحدة فى وسط الميدان الفسيح الذى يقوم فيه النصب التذكارى لشهداء بورسعيد ، وهو مسلة ضخمة تقوم عند قاعدته التى يصل اليهـا المرء صاعدا بضع سلالم ، شعلة دائمة الاشتعال ، وعلى جانبى المسلة صور تذكارية للصواريخ التى استخدمها البريطانيون والفرنسيون فى غاراتهم على المدينة ، وتذكرت اذ رأيت هذا المكان ، ميدان السلام فى قلب مدينة هيروشيما اليابانية التى تعرضت للقنابل الذرية ، وتاثرت فى كلتـــا الحالتين من تصور مأساة العاديين من الرجال والنساء والاطفال ، الذين يقعون فرائس لاوامر الساسة والعسكريين .

ووضعت طاقة من الزهور عند قاعدة النصب التذكارى ، وقـــد ارفقتها ببطاقة كتبت عليها العبارة التاليـــة : « من انجليزية .. تحس بالالم وتبكيت الضمير » .

وفى المتحف صور لما احدثته القنابل من دمار . ورأيت على بعض الجدران فوق الانقاض العبارة التالية التى تكشف عن الم دفين ... « اخرجوا ايها الكلاب الانجليز القذرون » . وتذكرت هورشيما ايضا .

والمتحف اللذى فيها ، وما يضمه من آثار مرعبة ، وما اصابنى من شعور بالخجل والعار كفربية ، عند ما طفت ارجاءه اجبر نفسى على التطلع .

ورايت فى صندوق زجاجى قبعة الملازم انطونى مورهاوس وعصاه واسورة ساعته ، وقصاصات من بعض الصحف الانجليزية عن مصرع هذا الضابط البريطانى على ايدى الفدائيين المصريين . ويزعـــم بعض الانجليز انه مات فى اثناء تعذيبه ، والتعذيب امر لا يمكن تبريره . مهما كانت الاحقاد والمرارات تماما كقصف المدنيين بالقنابل . (1) ومضيت من المتحف الى المقبرة . حيث يدفن ضحايا العدوان الثلاثى وحيث يقوم اكثر من ثمانمائة قبر تضم الرجال والنساء والاطفال .

وتقوم المقبرة على شاطىء البحر ، عند انتهاء المنطقة التى تعرضت لقنابل الغارات . وهى تضم منطقة واسعة ، بل جزءا كبيرا من المدينة الذى كان يؤلف قسمها القديم ، والذى يسميه بعض الصحفيين الانجليز تنطعا « بالقسم البلدى » . وادعى المعتدون انهم لم يكـــونوا يبددون القنابل الثمينة فى الاغارة على ابناء « البلد » بل على المطارات وحظائر الطائرات والمنشئات . ولكن الناس كانوا الضحايا . ووقفت عند اجداث الضحايا ، ثم مضيت فى السيارة اعبر الصف الطويل من الأبنية الجديدة التى تقوم فوق المنطقة التى هدمتها الغارات ، والتى اصبح اهلهـــا بلا مأوى ، لتعود حكومة الثورة ، فتبنى لهم المساكن الجديدة ، يقيمون فيها بلا مقابل .

وقيل لى ان المتحف سينقل من مكانه عند النصب التذكارى الى مكان قريب من الميناء حيث وقع العدوان بالفعل .

ولا يوحى كل شىء فى بور سعيد بالمرارة على اى حال . فهناك الى جانب البحر « الشاليهات » الصيفية المشيدة على الطراز الأمريكى والبيوت التى يقضى فيها الناس اجازاتهم ، وهى حديثة فى بنائها وتحمل واجهات زاهية الالوان كالاحمر والازرق والاصفر . وقد شيد بعضها على ركائز لتؤمن الأماكن الظليلة الباردة تحت البيوت فى الطقس القائظ اللاهب .

وكان المطر قد هطل مدرارا فى بور سعيد ، فى اليوم الذى سبق وصولى اليها . ورايت تجمعات المطر فى بعض اخاديد الطرقات غير المعبدة

---

(1) قصة التعذيب هذه قصة مختلقة ابتدعتها الصحف الانجليزية فى تلك اليوم . والواقع ان الفدائيين اختطفوه كرهينة . (المعرب)

خارج المدينة ، حيث تقوم المقبرة ، وحيث توجد الشاليهات الصيفية والابنية الاسكانية الحديثة . وحمل الجو الرطب رائحة المطر ، وكان البحر شديد الزرقة تعلوه موجات واضحة البياض . وعادت بى الذاكرة الى عام ١٩٤٩ عندما مررت بالمكان الى الهنــد ، وكم وددت لو كانت ابنتى الآن معى ، وبعد اربعة عشر عاما ، لترى بورسعيد التى وصفوها لنا ونحن على ظهر الباخرة آن ذاك بانها « بالوعة أوربا » ، والتى وصفها الدوس هكسـلى فى روايته « بيلاطس الماضى » بأنها احدى المواخير ، وانهـــا كمدينة تعتمد فى تجارتها على « صناعة الصور الخليعة وبيعها » (١) وانا لا ادرى ان كانت هذه الصورة التى رسمها هكسلى صادقة عند ماكتب روايته فى عام ١٩٣٦ ، الا انها كاذبة اليوم . فمع تأميم القناة ،ووصول الحوض العائم الذى يتسع لخمسة وعشرين الف طن فى عام ١٩٦١ ، واقامة حوض بناء السفن ، جاء الرخاء الجديد الى بور سعيد ، وحمل معه الاهمية والكرامة والاباء .

ومضينا لنتناول الغداء فى فندق يقع على مقربة من الميناء . وهو منزل قديم اشبه ما يكون بالقصور الجميلة،يقف ــ وقد لحق به البلى ــ وسط اشجار عالية من النخيل والكافور فى حديقة شبه مهجورة . وقد قدر على هذا البناء القديم ــ فى خطى مصر السريعة نحو التقدم والعصرية ــ أن يزول ليقوم مكانه بناء مربع حديث من الاســـمنت والزجــاج ، يتميز بالعصرية والفاعلية.وكان الغداء ممتازا ، والطعام جيدا وان لم يكن رائعا، فاللحم رقيق طرى ، والسلاطة طازجة ومنظر البحر الازرق عبر النوافذ المفتوحة فى البناء القديم جميل ورائع . وكان منظر البحر مغريا كل الاغراء ، حتى اننا ماكدنا نفرغ من غدائنا حتى سارعنا الى زورق بخارى أخذناه من رصيف سلطة الميناء ، ليطوف بنا ارجاءه ، متطلعين الى البواخر التى تمت الى جميع الجنسيات ، ولا ريب فى ان منظر بور سعيد جميل من البحر ، بواجهاتها الصفر واشجار نخيلها ، واشجارها الخضراء وقباب ابنية الميناء الزرقاء .

وعبرنا الى بور فؤاد التى تمثل ضاحية جميلة للميناء الأم ، والحافلة

---

(١) قد لا يكون رد المؤلفة كافيا على هذه الصورة الزائفة التى رسمها هكسلى وغيره لمدينة بورسعيد . فالمعروف ان كتاب القصة من الغربيين ينساقون كثيرا وراء خيالاتهم واوهامهم وعبارات طائشة يسمعونها من هنا وهناك ويرسمون صورا لا تكون صادقة اما بورسعيد المدينة الخالدة . فلا ينتقص من قدرها هذا الوصف الكاذب ابدا . فهى تمثل لنا وللعالم كله قصص البطولة والمجد . ورمز الكرامة والاباء .

ـ المعرب ـ

بالحدائق التى تملؤها الازاهير والاعشاب واشـــجار النخيل واشـجار الياسمين وأصص الزنبق . وهناك مجموعة من الابنية القديمة الصفراء التى ينتشر الغسيل على نوافذها ، كما ان هناك مقاهى مفتوحة . وتكتظ المعدية ، ساعات الازدحام عند الانصراف من العمل ، بالعمال العائدين من بور سعيد .

وعدنا الى القاهرة عن طريق المنصورة ، الطريق نفسها التى حاول الصليبيون بقيادة لويس التاسع الفرنسى ان يطرقوها فى عام ١٢٤٩ . فمنوا بكارثة، كانت نتيجتها ان اطلق المصريون على المدينة اسم«المنصورة» وهى بلدة صغيرة جذابة تقع على فرع دمياط من النيل، وذكرنى كورنيشها بكورنيش الاقصر . والمدينة عاصمة محافظة الدقهلية ، وهى تأتى فى أهميتها ، كما ذكر لى بعض المتعصبين من أبناء المدينة ، بعد الاسكندرية وبور سعيد . وفيها مغازل القطن ومطاحن الارز وصناعة النسيج وقلعة لقمان التى سجن فيها الملك لويس التاسع ابان اسره . وكانت الخطيئة التى ارتكبها الفرنسيون فى شتاء عام ١٢٤٩ ، هى محاولة الوصول الى القاهرة ، عن طريق الدلتا التى تتشابك فيها الانهار والترع والممرات المائية . وقد استغرق منهم قطع خمسين ميلا فى هذه الارض نحوا من شهر ، ثم اضطروا الى المرابطة نحوا من شهرين الى جانب قناة يواجهون المصريين فى الجانب الآخر ، قبل ان يفلحوا فى عبورهـــا فى الثامن من فبراير عام ١٢٥٠ ميلادية عند ما دارت رحى معركة المنصورة ، وذهب ضحيتها الالوف من جنودهم ، وسقط ملكهم اسيرا فى ايدى المصريين .

وقد احببت المنصورة حبا جما ، ففيها جو شـــاعرى . وفيهـا ابنية قديمة تطل على النهر اشبه بالقصور الفخمة ، وعلى شاطىء النهـر مقاه تجتذب المار للجلوس اليها . وفى البلدة عدد كبير من العـــربات التى تجرها الخيول ، والتى تنشد من يستاجرونها ، تماما كالعربات فى الاقصر . فى حين تمتلىء الازقة والشوارع الضيقة بمن يبيعون قصب السكر والذرة المشوية .

واذا ما عبر المسافر الى الجانب الآخر ، وتطلع الى المنصـــورة ، استهوته .. بواجهات ابنيتها القديمة الفخمة . وهناك فى الجانب الآخر ــ عبر الجسر ــ يجد مجموعة من الابنية الجديدة ،ولكنه يسمع أيضا حوافر جياد العربات وهى تقرع ارض الشوارع ، ويستمع الى اجراسها ، ويشم رائحة الذرة المشوية ، ولا ريب فى ان تحويل المنصورة عن منظرهـا الراهن كبلدة قديمة جديدة يتطلب اكثر من مجموعة صغيرة من الابنية ومن المقاهى التى تنتشر فيها اضواء النيون ، ومن بعض الصناعات .

السويس :

يقطع المسافر من القاهرة الى السويس الطريق في ساعتين بالسيارة. عبر صحراء . تنتشر في بعض ارجائهـــا مجموعات عدة من الابنيـــة الحديثة . والمصانع العصرية الطراز . وذلك بعد خـــروجه من القاهرة . ليعود فيسير في طريق لا تحيط بها من جانبيها الا الصحراء المترامية الاطراف برمالها الساخرة . لا يرى فيها حتى بعيرا ضالا . او بدويا يزرع ارضها ·

وهنـــاك استراحة في منتصف الطـريق وقد زرعت حولها بعض الاشجار الفتية اليانعة . وانطلقت حولها الكلاب الشاردة . تملأ الجـو بنباحها الصادر عن الاحساس بالجوع . وليست الاستراحة في الواقع الا كوخا . ولا تصلح شطائرها طعاما للناس · ولكن في وسع المسافر ان يلقى فيها شرابا باردا . وان يستريح فيهـــا بعض الوقت من ذلك الاحساس المضني بالرتابة الذى يسيطر عليه وهو يستقل السيارة في وسط الصحراء ·

وتبدو من الاستراحة الصحراوية الجبال الطويلة التي تحيـــط بالسويس من جناحها ، أما الى الجانب الآخر من الطريق ، فهناك تلال صحراوية خفيضة ، وارض منبسطة ملأى بالاشواك الجافة التي ترعاها الابل · ويعود الانسان الى السير وقد أحس بأن الجزء السيىء من الطريق قد انتهى · وتقترب الجبال ، فلا تظل ظلالا وانما تغدو واضـــحة كل الوضوح . والى جانب من التل الصحراوي ، قرية يجري بناؤها · ويشعر المسافر بأنه اقترب من مكان ما . وان ذلك اللاتناهي الذي تبعثه الصحراء في نفسه قد انتهى ·

ونصل الى السويس ، وتبدأ البيوت في الظهور . في منطقة مهملة نعبر بها سكة حديد القاهرة ـ السويس . ونواصل السير . فيطل علينا البحر وقلب المدينة ، حيث تنتشر اشجار النخيل واحـــواض الازاهير والاعشاب ، ونرى بناء المحافظة الجميل . كما نشهد فندقا ضـــخما له شرفاته . والجبل يطل علينا عاليا عن كثب ، وفجأة نتبين مع شيء من الدهشة ان السويس بلدة جميلة ؛ ويقول اى . ام · فورستر · في كتابه « فاروس وفاريلون » ان خليج السويس لم يلق قط التقدير الكافي من السائحين ، لأن السائح يصل اليه وهو في عجلة من أمره اما في طريق دخول مصر أو الخروج منها ، وقد تركز اهتمامه كله على انجلترا

او الهند التى يقصدها ، ولم يعد فى وسعه التمتع بذلك الرواق البديع من الجبال الملونة والماء اللألاء • ويكون منصرفا الى افكاره كلها ، حتى انه لا يدرك ان هذه المنطقة وحدها ، تمثل مدخل المناطق الاستوائية من ناحية الشرق الأدنى •

وتمثل بور توفيق للسويس ماتمثله بور فؤاد لبور سعيد ، فهى المنطقة السكنية ، وهى مشتى ومصيف جميل يضم فندقا جديدا ممتازا ، كما يضم طبقا لما تقوله نشرات دائرة السياحة ، تحسينات واسعة فى شواطىء البحر ، • وهناك دارات تتوسط الاشجار ، وقد انعزلت وراء جدران تغطيها شجيرات الازاهير من خمرية وقرمزية ، ويحس الانسان برائحة الكافور فى الهواء ، من تلك الاشجار الباسقات التى تحيط بالطرقات من جوانبها •

وفى المدينة متحف للآثار حديث التصميم ، وقد رسمت الصور على جدرانه المطلة على الشارع ، ولكن موظف الاستعلامات الشاب كان يود ان يعرض علينا اشياء اهم من المتحف كمعمل تكرير الزيت ، ومصنع الاسمدة الكيماوية الذى يستخدم فيه الغاز المنطلق من معمل التكرير فى صناعة السماد بدلامن ان يذهب بددا. ولكننا قبل المضى لرؤية هذه الاماكن الممتعة ، راينا القاعدة الخالية التى كان يقوم عليها تمثال الملازم توماس واجهورن • وقد استعيض عن هذا التمثال بشعار مصر وعلمها ، وبالاضافة الى أن تماثيل الانجليز تتناقض مع وجود مصر الحرة المستقلة اليوم . ولا سيما بعد عدوان ١٩٥٦ ، فان تمثال توماس واجهورن لم يكن اكثر رمزا للاستعمار من محمد على الذى كان يحترمه كل الاحترام ، والذى دافع عنه بحماسة منقطعة النظير امام انجلترا ضد استبداد الاتراك وابتزازهم • وكان واجهورن اول مكتشف للطريق البرى الى الهند . وكتب عددا من الكتيبات عن الموضوع • وقد تكونت لديه هذه الفكرة وهو فى السابعة والعشرين من عمره فى عام ١٨٢٧ ، ثم اقام الدليل على صحتها فى عام ١٨٢٩ ، ونظم النقل عن طريقها عبر السويس فى عام ١٨٤٠ • وتوفى الرجل فى عام ١٨٥٠ بعد ان عمل الكثير فى حياته القصيرة التى بدأت فى الاسطول البريطانى وهو فى الثانية عشرة • وكان لايزال فى التاسعة عشرة عند ما اصبح مرشدا فى خدمة حكومة البنجال . وفى الرابعة والعشرين عند ما قاد عمارة بحرية فى حرب بورما • وقد سمح له قبل وفاة محمد على بتنظيم الطريق البرى الى الهند عن طريق ادخال القاطرة والباخرة فى مواصلات الهند ، وقدر ان خمسة عشر الف شخص كانوا يقطعون الطريق كل سنة عبر مصر الى الهند •

ولكن الشيء المهم بالنسبة الى واجهورن والذى كان يستحق عليه ان يبقى على تمثاله لو عرف شعب مصر هذه الحقيقة هو انه كان مدافعا قويا عن قضية استقلال مصر من الحكم التركى واستغلاله (١) • ويحمل احد منشوراته عنوان « مصر كما هى فى عام ١٨٣٧ » وقد طبع فى لندن فى السنة نفسها وان كان واجهورن قد حدد تاريخها بعام ١٨٣٦ • وقد وجه هذا المنشور الى البرلمان البريطانى ملفتا نظره الى اوضاع مصر والى•• المطالب الابتزازية التى يوجهها الاتراك الى تلك البلاد الرائعة ، فيشلون جهودها ويمنعونها من تحقيق حريتها السياسية والمعنوية• وذكر واجهورن ان محمد على تمكن بعد حربه الاخيرة والناجحة ضد الباب العالى فى عام ١٨٣٢ ، من تحرير مصر من قبضة الاتراك ، الا ان انجلترا كانت هى التى حرمتها من التمتع بهذه الحرية وفرضت عليها ان تواصل دفع الجزية الى تركيا « خلافا لكل منطق » • وكان من الرهيب ايضا « كما قال » ان « يعتصر دم مصر لخدمة اهداف غريبة على اهلها ومصالحهم » • وراح يتساءل بعد ذلك : هل ستظل مصر هى البلاد الوحيدة فى العالم التى لا تسمح لها انجلترا باستخلاص استقلالها ، واعلن انه يستمد موقفه هـــذا من الوقت الذى جلت فيه قوات انجلترا وفرنســـا عن مصر ، وبدأت نهضة مصر الجديدة ايام محمد على •

وراح بعد ذلك يعدد ما حققه محمد على لمصر من استعادة خصب ارضها ، وفتح المدارس فيها ونشر التعليم حتى فى الارياف ، وطـــرد المرتزقة والفاسدين الاغراب منها • ودافع عما وجه الى محمد على من تهمة تجنيد ابناء الفلاحين . فقال ان محمد على يجمع الجنود من النوبة وغيرها. ولم يعد يجند الفلاحين المصريين •

وذكر ان مصر مازالت تلقى العنت من تركيا التى تحاول عـرقلة سيرها فى طريق الحضارة ، وهو السير الذى كان سيمضى فى طريقه لولا « طغيان تركيا الذى سيستمر طالما انها تلقى التاييد من انجلترا وفرنسا وروسيا » • ويواصل واجهورن الحديث على هذا النحو فى عدة صفحات

(١) انا لا اريد أن اناقش هنا : هل كان واجهورن مخلصا لمصر او للحرية فى اتجاهاته هذه ، ولكننا تعودنا من بعض اعمدة الاستعمار البريطانى فى الوطن العربى فى السنوات الطويلة الماضية ان يستتروا وراء الدفاع عن حقوق العرب ، لتنفيذ اهداف بريطانيا الاستعمارية فى الوطن العربى • ومن هنا يمثل الاشتباه فى كل اتجاه من هذا النوع ، ولا سيما أن الطريق التى عمل واجهورن لانشائها انما كانت لخدمة الاهداف الامبريالية البريطانية •

(المعرب)

اخرى وقال : « وهكذا نجد ان مصر محاصرة بهذه السياسة التى لا تشفق والتى نتبعها انجلترا ... فالى متى ستجد انجلترا ان من الضرورى لها – رغبة منها فى دعم تركيا – ان تطيل امد فرض آراء تلك الحكومة على بلاد هى فى حد ذاتها تؤلف امبراطورية مستقلة ؟ وهل هناك من يستطيع أن يزعم ان مصلحة مصر الفعلية تقضى بالابقاء عليها – عن طريق ارغام انجلترا لها – حليفة لتلك الدولة التى تمثل الجهل والوحشية والدمار ؟ » .

وكان مايريده واجهورن حقا ، هو ان تتحرر مصر من النير التركى ، وان تصبح دائرة فى الفلك البريطانى اذ أنه يقول : « وانا اعتقد ان التحالف الوثيق مع مصر ، لا يقرب بين انجلترا والهند بنسبة ثلثى البعد الذى بينهما الآن فحسب ، بل وسيمكننا ، بصورة قوية ، من دفع الخطر الروسى عن الهند ، اذا حاولت روسيا الاعتداء عليها ، اذ ان مصر تمثل نصف الطريق تماما بيننا وبين تلك اللؤلؤة الثمينة فى التاج البريطانى .... ومن الواضح ، انه اذا لم يسمح لمحمد على وخلفائه من بعده ، ان يجعلوا من مصر دولة مستقلة ، فمن الواجب ان تغدو مستعمرة انجليزية لا فرنسية ، وهو ما يحاول الفرنسيون فرضه عليها .

ومن هنا كان من حق المصريين فى عام ١٩٥٦ ان يزيلوا تمثال واجهورن عن قاعدته ، لان الامبريالية المقنعة بستار الطيبة هى امبريالية ايضا .

ولكن فى الطرف الآخر من شارع البحر ، ما زال هناك تمثال بريطانى واضح . انه النصب التذكارى للضباط وضباط الصف من البريطانيين الذى قتلوا فى معارك فلسطين ومصر فى حرب عام ١٩١٤ – ١٩١٨ . والنصب رائع حقا ، فهناك لوحة عالية ، يصعد اليها الانسان عن طريق بعض الادراج ، وتقف تماثيل حجرية حيوانية للفهود والنمرة فى زوايا المربع الذى يقوم فيه النصب ، وقد وقفت باتجاه البحر وكانها

---

(١) تبدو اتجاهات واجهورن الاستعمارية واضحة ودون قناع فى كل ما قاله هنا . فهو يريد ان تستبدل مصر استعمار تركيا بالاستعمار البريطانى ، لتكون مصر قاعدة بريطانية فى حماية الطريق الى الهند ، وهى السياسة التى سارت عليها بريطانيا طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين فى استعمارها لمصر وغيرها من أرجاء الوطن العربى

(المعرب)

تستعد للوثوب اليه ٠ وهناك جملة منقوشة تشير الى الغاية التى اقيم النصب من أجلها وتحتها جملة ، نرجو احترام هـذا النصب ٠ وقد احترمه المصريون فعلا ، بالرغم من مرارات عام ١٩٥٦ ، وبالرغم من الحقيقة الواقعة وهى ان العرب حالفوا الانجليز فى تلك الحرب ضد الاتراك اعتقادا منهم بأن نصر الحلفاء سيحقق لهم الوعود التى قطعتها بريطانيا باستقلالهم ، والتى كان لورنس يرددها لهم نيابة عن حكومته ، مع انه كان يعرف ، كما اعترف فى كتابه ، اعمدة الحكمة السبعة ، ٠ بانه كان يخدعهم ويغشهم ٠ فعندما انجلت الحرب ، وجدت مصر نفسها فى ظل الحماية البريطانية ، كما فرض الانتدابان البريطاني والفرنسي على فلسطين وسوريا ٠

هذا ما عنته حرب عام ١٩١٤ للعرب ، ولا ريب فى ان عظمة مصر فى تسامحها تبدو فى الابقاء على النصب البريطاني الضخم فى بور توفيق ، بالرغم من ان بريطانيا اعطت فلسطين فى اعقاب الحرب العالمية الثانية الى الصهيونيين ليقيموا فيها اسرائيل ، وبالرغم من العدوان الثلاثى على مصر نفسها فى عام ١٩٥٦ ٠

وتبين لنا ان معمل تكرير الزيت فى السويس مدينة قائمة بذاتها ، اذ تضم مجموعات من الأبنية ، ومسجدا ومدرسة ، وحوانيت تعاونية ، ووحدة طبية ، ونادیا ، وتبدو هـذه الأبنية من تلك التى يستخدمها الموظفون الاداريون والتى تعد من الطراز ، المرفه ، الى المساكن العادية التى تحتلها فئات الدخول الخفيفة ، وهناك عدد من «البناجل» تتوسط حدائق رائعة تملؤها الزهور ، لكبار الموظفين ، أما النـادى ، وهو فى منتهى الروعة والجمال ، فمفتوح الأبواب لكل انسان مهما كان عمله أو درجته ، ولعلى نسيت قيمة الاشتراك السنوى فيه ، ولكن ما اذكره انه منخفض للغاية ، ولا يعدو الخمسة جنيهات فى السنة ، وفى النادى حديقة رائعة تمتد حتى البحر ، وتضم جميع وسـائل الترفيه من الدرجة الأولى ، كملاعب التنس وأحواض السباحة ، وحمامات الأطفال ، والمكتبة والبار والمطعم ، والصالونات الأنيقة ذات الواجهات الزجاجية المطلة على الخليج ٠

وفى النادى أيضا دار للسينما ، وموائد للبلياردو ، وخطط شاملة للترفيه ، وهدفها الابقاء على سلامة العمال وسعادتهم عقليا وبدنيا ٠ وأجور المنازل والدارات اسمية تقريبا ٠

ولا تختلف صورة معمل الأسمدة الكيماوية عن الصورة فى معمل التكرير ، ففيه أيضا مشروع للترفيه الاجتماعى ، أوجزه لى مدير المعمل العام ، وهو رجل فى منتهى الحضارة والثقافة ، بكثير من الاعتزاز ٠

وعندما وصلنا الى المعمل ، كان منشغلا بفريق من الخبراء اليابانيين ولذا فقد مضينا الى النادى حيث تناولنا غداء ممتازا ، وعندما وصل اليابانيون تبينا فيهم فريق « السياح » الذين رأيناهم عند الاستراحة الصحراوية منشغلين بتصوير بعضهم البعض فى قلب الصحراء ، وقد قدر لنا أن نلقاهم مرة ثالثة فيما بعد ٠

وكنت حائرة فى تصور تحويل الغاز الصاعد من معامل التكرير الى أسمدة كيماوية ، وسألنى المدير العام : هل أعرف شيئا عن الكيميا ؟ وعندما رددت عليه بالسلب ، فكر بعض الوقت ثم قال انه يجرى تفتيت الغاز الى عناصره الأولية وبينها الآزوت « النتروجين » الذى يتفاعل مع حجر الكلس والكبريت والأمونيا ، وينتج نوعين من الأسمدة الكيماوية ، ورأينا فى ساحات المعمل ــ عندما جلنا أطرافه فى السيارة لمشاهدة أجزائه ــ أكواما من الكبريت وحجر الكلس ، و « براكات ملاى بالآلات التى تدور باستمرار ، والتى تنبعث منها روائح مختلفة ، وشرح لى المدير العام كل شىء ، ولكننى كنت عاجزة عن فهم أى شىء يتعلق بالآلات ولم أفهم شيئا الا عندما وصلت احدى هذه البراكات ورأيت السماد يعبأ فى أكياس من الجوت سيستعاض عنها عما قريب بأكياس المطاط ، ولم يكن هناك الا رجال ثلاثة يعملون فى التعبئة ، وقد جلس أحدهم على مقعد يفتح الأكياس من كومة بجانبه ، ثم يسلم كل كيس منها الى رجل آخر ، يضع الكيس تحت فوهة ضخمة ينصب منها السماد فى شكل حبيبات ، وعندما يمتلىء الكيس يسلمه الى رجل ثالث يضعه تحت آلة تقوم باغلاقه وتثبيته ، ثم يمر فى مزلقان كهربى ليقع فى الساحة السفلى حيث يحمل فى الشاحنات وكانت هذه العمليات الثلاث ، تجرى بسرعة منقطعة النظير ، ويعمل الرجال فى هذا العمل الرتيب الذى لا يحتاج الى مهارة ثمانى ساعات فى اليوم ولمدة ستة أيام فى الاسبوع ، ويتقاضى الواحد منهم عشرة شلنات على الأقل فى اليوم ٠ ولاريب فى أن هذا الرقم بالنسبة الى المعايير الشرقية للعمل غير الفنى ، معقول تماما ، فالرجال الذين يعبئون الفول السودانى فى مزارع انشاص فى الأكياس يتقاضون خمسة وعشرين قرشا فى اليوم ٠

اما الفتيات اللائى يسلمن قطوف العنب الى الرجال ليعبئوها فى

سلالها فى مزارع جاناكليس فتتقاضى الواحدة منهن خمسة عشر قرشا فى اليوم ٠

والمصنع مؤمم ، ويعمل للقطاع العام ، ويوزع عشرة فى المائة من ارباحه كعلاوات على العاملين فيه ، ويرصد خمسة فى المائة من الأرباح لبناء المزيد من المساكن وخمسة أخرى لأعمال الترفيه الاجتماعى ، وكان المدير العام متحمسا كل الحماسة لهذه الاشتراكية فى دور التطبيق ٠

وكنت دائما أتردد فى زيارة هذه المؤسسات الصناعية ، ولكن كلما ازدادت عمليات الانتاج غموضا تشرح لى بصورة مبسطة ، ازددت اهتماما بالعنصر الانسانى فى هذه المشروعات الصناعية الضخمة ، فقد تبينت حقائق رائعة ، وعلمت أن دارا للسينما تبنى الآن فى موقع من المصنع وتسع لألف انسان ، وان شوارع بكاملها تزرع بالأشجار والأزاهير ، ويقوم على العمل فيها أحد الخبراء فى علم البستنة ، وتبينت ان الحياة فى مصنع الأسمدة وفى معمل التكرير تؤلف وحدة اجتماعية كاملة ، كما هو الوضع فى بلدة صغيرة حسنة الادارة أو قرية كبيرة ، حيث يعيش الرجال والنساء ، ويعملون ويتمتعون بأسباب الرفاهية كالرياضة والألعاب والثقافة والترفيه ، ولكل منهم حياته العائلية الخاصة وان كانوا يشتركون فى حياة دينية جماعية ، حقا ان الحياة هنا تمثل وحدة اجتماعية كاملة ٠

ويجرى كل هذا فى الصحراء المحيطة بخليج السويس التى يصر فورستر على انها فى منتهى الجمال ، وان كانت لا تلقى التقدير الكامل من السائحين ، ولكن سيجرى تطويرها الى منطقة سياحية ، فتحمل الزوارق البخارية المسافرين من السفن الى الساحل ، مقابل عشرة قروش أو خمسة عشر قرشا ، يؤمون السويس التى ستغدو بفنادقها الحديثة وشواطئها الحسنة ، مكانا للنزهة ، يضع قدميه فى مياه الخليج الزرقاء ، ويرتفع برأسه ليطل على شبه جزيرة سيناء بواحاتها وجبالها الصخرية ، وذكرياتها المتصلة بالتوراة ، وعلى دير القديسة كاترين العظيم فى الجنوب الذى بات فى الامكان الوصول اليه بسرعة الآن ٠٠ عن طريق طائرات الهليوكبتر ٠

وعدنا فقابلنا اليابانيين للمرة الثالثة ونحن على الطريق الصحراوى باتجاه القاهرة بعد الغروب ، وكان الشفق قد غطى آفاق الصحراء

الشاسعة الاطراف بالسنة من اللهب ، اذ رأيناهم يقفون الى جانب سيارة أجرة على طرف الطريق ، وتوقف سائقنا ثم خرج من السيارة باتجاههم ، وبدا أن السيارة التى حملتهم من القاهرة قد تعطلت ، وانه لم يكن فى الامكان اصلاحها ، ولم تكن سيارتنا تتسع لهم جميعا ، وجاءت سيارة شاحنة لحسن الحظ ، فانجدتهم ، وكان آخر ما رأيناه منهم ، انهم كانوا يتسلقون ظهرها ، فى طريقهم الى القاهرة ، ولا ريب فى أن مثل هذه السيارات الشاحنة الضخمة ، تمثل فى بحار الرمال الشاسعة الاطراف دور زوارق النجاة .

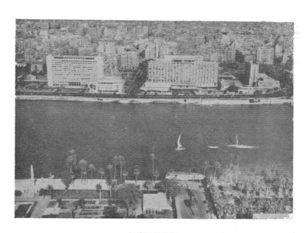
١٠ - صور من القاهرة

وصلت الى القاهرة هذه المرة فى الاسبوع الثالث من سبتمبر . وكانت الحرارة فيها لا تزال قاسية . اذ تهب الرياح الساخنة من الصحراء فتحرق اوراق الشجيرات المتسلقة على الشرفات · وكانت الحرارة تبدأ من الساعة السابعة صباحا حتى الساعة السابعة مساء . عندما تبرد الطقس· وكان حر الهاجرة · لا تمكن الانسان من أن يفعل شيئا سوى الاستلقاء على السرير · وإن كان السائح يلاحظ اذا مر فى شوارع المدينة · أن كثيرين يقضون ساعات قيلولتهم فى مداخل حوانيتهم المغلقة · أو تحت أى ظل يضفيه جدار مجاور · وهم يفتحون أبواب النوافذ عند الظهيرة ولا يغلقونها الا بعيد الرابعة · وسمعت الناس يقولون ان حرارة ذلك العام . كانت غير عادية . فى شهر سبتمبر · وكنت قد ألفت سماع هذا القول فى كل مكان زرته فى ارجاء العالم . اذ يميل الناس دائما الى وصف اية حرارة او برودة او امطار . بانها غير عادية · ولكن من يدرى . فقد يكون قولهم هذا صحيحا ·

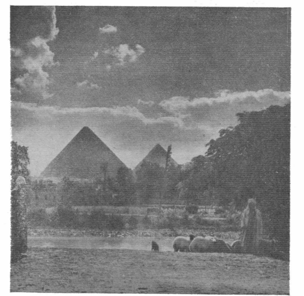
واذا ما وصل الانسان الى جانب النيل . وهو فى فيضانه فى تلك الايام . اصبح الجو لطيفا الى حد ما . ومنعشا . فلا يحس بالاختناق · وهناك مطعم فى الهواء الطلق الى جانب النهر . فى اتجاه حلوان . يسمونه « كازينو الحمام » حيث لايقدم الا الحمام المشوى . وان كان لايشبه كازينوهات مونت كارلو لامن قريب ولا من بعيد . فهو مطعم او شبه مطعم. اولا وآخرا . وقد صفت الموائد تحت الأشجار على أرض معشوشبة تطل على النهر · وقضيت امسية فى ذلك المكان · وكان النهر فى ذروة فيضانه ،

اذ لاينفصل مياهه عن المكان الذى نجلس فيه اكثر من قدم واحد ، وكان النسيم يحمل رطوبة الماء الينا . واكلت الحمام المشـــوى ، وكان مذاقه طيبا للغاية ، كما كانت الجعة مثلجة ، والندل النوبيون ، فى منتهى اللطف والود . ورايت رجلا من هؤلاء الذى يسمونهم « بالجلا ــ جلا » ، يطوف بالموائد وقد ارتدى الزى الهندى ، ومعه كلب صغير ، ثم اخذ يعرض بعض الألعاب السحرية ، ويدفع كلبه الى بعض الاعمال البهلوانية معلنا استعداده لقراءة الكف . ولست اعرف هنديا محترفا من اولئك السحرة الهنود فى بومباى ، يعمل ما عمله هذا الرجل ، ولكنها وسيلته لكسب العيش والارتزاق ببضعة دريهمات .

ومررنا فى طريق عودتنا من الكازينو بجماهير سكان القـــاهرة ، يجلسون الى مقاعد حجرية على النيل ، او على الاعشـــــاب المنتشرة على الرصيف ، من الرجال والأولاد والنساء ، يشربون الجعة ، ويستنشقون هواء النيل المنعش بعد جحيم النهار . وكما نرى بين الفينة والفينة بواخر الســـياح الكبيرة ، التى تنقلهم الى أسوان وأبى سمبل ، مشدودة الى الشاطىء ، ناصعة البياض ، واضحة الفخامة . وبدانا نسير على مقربة من كوبرى الجيزة (عباس) ، الذى تسير الطريق منه باتجـــاه الاهرام . ويصل هذا الكوبرى بين الجيزة وبين جزيرة الروضــــة ، لتتصـــــل من الناحية الاخرى ، بمصر القديمة التى لايجب الخلط بينها وبين القلعة التى يقوم مسجدها الكبير هناك فى سفوح المقطم . ويرى الانسان عندما يصل الى الجسر الآخر الذى يربط « الروضة » بالجانب الثانى ، منظر المسجد الجديد الوضاء بمئذنته البيضاء التى تغمرها الاضواء . ومن بعيد يبدو برج القاهرة الذى يرتفع ستمائة قدم ، وســــط الجزيرة ، وقد غمرته الاضواء ، سامقا وسط سماء رصعتها النـجوم . وهذا الجسر قصير ، وتحيط به اشجار النخيل « والبانيان » ، والحدائق . وهناك جسر آخر ، هو جسر التحرير ، من اطول الجسور واجملها ، ويصل الى الفنادق الكبرى التى تواجه النيل وبينها هيلتون وشبرد الجديد وسميراميس القديم الذى سيعاد بناؤه على احدث الطرق العصرية ، والتى يقـــوم وراءها ميدان التحرير بنافوراته ومقاعده ، واحواض الازاهير فيه ، واعشابه ، والاكشاك المنتشرة التى يبيع فيها الرجال بجلابيبهم البيضاء ، الفول الســـودانى والذرة والكوكاكولا ، و «الكستناء المشوية» (أبو فروة) والاحزمة الجلدية والصور والبطاقات والهدايا ، وتماثيل نفرتيتى من جميع الاحجام والصحف من انجليزية وفرنسية وعربية وايطالية . ويتباين منظر واجهة المتحف المصرى القديم (الانتيكخانة) فى طرف الميدان مع عصرية واجهة فندق



النيل فى القاهرة



اهرام الجيزة

ميلتون القائم الى جواره · ويقوم فى هذه المنطقة ايضا قصر الجامعة العربية ، بحدائقه الخضراء الملأى بالورود البيضاء ·

ويحتشد الميدان ايام الجمع بالناس يقضون عطلتهم على الحشائش · اسر بكاملها ، تحمل سلالها ، فى حين تنطلق مياه النافورات فى اقصى قوتها · ولا ريب فى أن ميدان التحرير هو رئة الحياة للقاهرة ، اذ أنه المكان الذى تؤمه جماهير الشعب للنزهة · والميدان كبير وجميل ورائع · واذا ما استهدفه الانسان فى سيره من ميدان الاوبرا الواقع فى وسط المدينة ، حيث كنت انزل فى فندق الكونتننتال القديم ، عابرا شارع قصر النيل ، اطل عليه تمثالا اثنين من الباشوات ·

من باشا الى باشا

اول هذين التمثالين لمصطفى كامل ، والثانى لسليمان الذى ما لبث ان رفع من مكانه ليقوم محله تمثال طلعت حرب ، مؤسس بنك مصر · ولم اعرف شيئا عن اولهما ، اذ ان الكتابة على التمثال كانت بالعربية · وكان يمثل لى الباشا الذى ينطلق تمثاله من وسط حوض ملىء بالاعشاب ولذا فقد اسميته قبل ان اعرفه « باشا الاعشاب » · وكنت اذا اردت العودة من تمثال سليمان الى ميدان الاوبرا ، اعرف طريقى بيده اليمنى الممتدة فوق رأس فرعونى ، وقد اقعت تحت قدميه صورة سيدة ، وتملكتنى الرغبة الغريبة ان اظل جاهلة لهذا الرجل ، ولذا لم اسأل عنه ، وان ظل مرشدى وصديقى فى كل يوم وانا امر به صباحا هابطة الى شارع سليمان حيث يقف تمثاله على منصته · ولم يعد هذا الشارع يحمل رسميا اسم سليمان باشا ، وان كان الناس مازالوا يعرفونه بهذا الاسم · وتقوم مصلحة الاستعلامات فى هذا الشارع ، كما يقوم فيه مقهى جروبى المشهور والكبير والقديم ، عند ملتقى الشوارع التى يحتل الباشا نقطة الالتقاء فيها · والتى يصل بعضها الى ميدان التحرير ، الذى يغص دائما بالحركة وامواج الناس ·

واخيرا عرفت من هو « باشا الاعشاب » · انه كما يقولون رائد الوطنية العربية · فقد كان مصطفى كامل الوطنى المصرى الشاب المتحمس، الذى جعل من العمل الوطنى مدار حياته ، كما يجعل الآخرون من الحقوق أو الطب مهنتهم · وقد اشتعل لهيب حياته القصيرة ــ اذ توفى فى عام ١٩٠٨ ــ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره ، ابان الاحتلال البريطانى ، وعندما اعلن السير ايفلينج بارينج الذى بات يسمى اللورد كرومر ، ان

البريطانيين ليسوا موجودين في مصر ليزمنوا لها الحكم الذاتي ، بل الحكم الصالح ، الى ان يستطيعوا تأمينه هم بانفسهم . وهـــذه قضية يقررها البريطانيون وحدهم • وراح مصطفى كامل يعلن بحرارة أن الحكم الذاتي اكثر اهمية من الحكم الصالح . وان جميع مشاكل مصر ستحل فور انتهاء الاحتلال البريطاني • وراح يؤسس الحزب الوطني الذى انشأه اول مرة كجمعية سرية . اذ انه لم يكن يؤمن في بداية الأمر بالاحزاب السياسية . معتقدا انها تؤدى الى تفسيخ الشعب . في الوقت الذى يحتـاج فيه الى الوحدة . وهو عين ما اعلنه حزب الأمة ايضا • وعندما تألف هذا الحزب . راح مصطفى كامل يخرج بحزبه الى العلانية . واتخـــذ موقف التطرف المعارض لما عـــده . تدرجا . من جانب حزب الامة • وتصـــور . وهو محق في تصوره طبعا ، ان حزب الأمة لم يكن يختلف كثيرا عن السياســة البريطانية تجاه استقلال مصر . فهو حزب يؤمن بالاصـــلاح والتدرج . ويبدى استعداده للتعاون مع بريطانيا • أما مصطفى كامل ، فلم ير طريق الاستقلال عن طريق التعاون واعلن ان على العالم باسره ان يعرف ان هناك في مصر حزبا يطلب الجلاء الفورى •

واصدر صحيفة باللغتين الانجليزية والفرنسية ، راح يعبر فيهـــا عن آرائه . ويجمع عن طريقها الاموال لتأسيس عدد من المدارس الوطنية المستقلة •

ويقول جمال محمد احمد في كتابه عن « الجذور الفكرية للوطنيــة المصرية » : ان مصطفى كامل ، سيطر منذ بلغ التاسعة عشرة من عمره في عام ١٨٩٣ على عقول المصريين ومشاعرهم ، بالصورة نفسها التى سيطر بها سعد زغلول بعد نحو من جيل • والتف حوله نفر من الرجال المتحدين في أفكارهم ومشاعرهم • وكانوا صريحين في اتجاهاتهم الثورية عنيدين في كفاحهم ضد الاحتلال • ولم يكن التطرف حافزا عارضا عند مصطفى كامل • بل كان برنامجا مدروسا يستند الى الايمان ويسير في طريقــه بالتصميم والحماسة • وكان يقول : ان الاعتدال في البلاد المحتلة انمـا ينشأ •• اما عن الخوف واما عن النفاق •

وظل الحزب الوطنى قائما حتى عام ١٩٥٣ ، عندما اعلنت حـكومة الثورة حل جميع الاحزاب • وكتبت سيدة مصرية تســـمى عفاف لطفى السيد عن هـذا الحزب في عدد نوفمبر عـام ١٩٦٣ من مجلة « الميدل ايست فورام » تقول ان مهمته كانت « العمل على دفع المجتمـــع المصرى وحثه وتزويده بالخبرة اللازمة للنهوض بأية بلاد » وانه حاول ان ينشر في

النفوس الكرامة والثقة والامل فى مصر ، وهنا تكمن عظمته ، وقد عمل جهده ليقيم الدليل على ان مصر كانت دولة ، واقنع المصريين بهذه الحقيقة ·

ونال رتبة البكوية من صديقه الخديوى عباس حلمى ، حفيد اسماعيل ، والباشوية من السلطان العثمانى · ولعل من المؤسف انه قبل هاتين الرتبتين ، اذ ان قبوله لهما ، عرضه للنقد ، واضعف من ثقة الناس به ، وكانتا سببا فى اتهامات ما زالت توجه اليه حتى اليوم · وانى لاذكر ان المصرى الاول الذى حدثنى عن مصطفى كامل ، رد على بشىء من نفاد الصبر عندما سألته عن رأيه فيه ··· وهل يعده زعيما صالحا ، قائلا : « ليس هناك باشا واحد ، يعدزعيما صالحا » · ولكنه كان على أى حال وطنيا مصريا ، وكان كل ما قام به من اعمال لخير بلاده · مدفوعا برغبته العارمة فى ان تحقق استقلالها وان تتحرر من الاحتلال الاجنبى · وحقق ــ قبل أن يتوفى ــ السيطرة على عقول المصريين على اختلاف مشاربهم ولم يكن الذين بكوه عندما توفى انصاره من المتطرفين وحدهم فحسب ، بل وكانوا ايضا من المعتدلين الذين لم يسيروا معه الشوط كله · وبعض ناقديه الذين حسبوه بالرغم من وطنيته محافظا ورجعيا فى ارائه الاجتماعية · فقد اراد ان تكون مصر للمصريين ، لكنها مصر التى تحتفظ بعناصر مجتمعها التقليدى · ولا ريب فى ان الحكم على رجعية هذه النظرة ومحافظتها أمر قابل للنقاش (١) ·

وعندما وصلت الى القاهرة اول مرة ، كان موسم ، المانجا ، العصير فى ذروته · فالمانجا فى كل مكان فى اسواقها ، والى جانبها التين ، ولكن شتان بين الفاكهتين· والمانجا فاكهة لذيذة ، ولا يتوقف عن أكلها الانجليز ويعتقد العرب انها نافعة صحيا وجنسيا ، ولا ادرى مدى هذا القول من الصحة ·

---

(١) يقتبس السيد جمال محمد احمد فى كتابه قولا للسيد الرئيس جمال عبد الناصر ، ذكر فيه ان المصالح الحقيقية لشعب مصر ضاعت بين مطامع اليمين المتطرف وانحرافات اليسار المتطرف . وأبرز من هذين تعقيدات جوهرية وسرعة · وقال المؤلف ان « الليبراليين المصريين اخذوا يريدون الابتعاد عن التطرف . وان المجتمع الاشتراكي التعاوني الديمقراطي سيكون نابعا من الواقع المصرى وان الهدف هو تبنى اسس الليبرالية الاوروبية على ألا تتعارض مع عقائد الاسلام » ·

هذا ما قالته المؤلفة . ولكن اقوال جمال محمد احمد صدرت قبل الاتجاه الاشتراكي الواضح الذى حدده الميثاق . والذى لا يصح أن نسميه بالليبرالية . لأن الليبرالية لا تؤمن بالثورة ونحن نؤمن بها . طريقنا الوحيد الى التطبيق الاشتراكي ·

ـ المعرب ـ

وكنت في كل يوم اشق طريقي من ميدان الاوبرا الى ميـــدان التحرير ، والنهر ، مارة بالتمثالين ، وكنت امر في هذه الطريق احيانا مرتين في اليوم ، ولا سيما عندما كنت احس بالرغبة في مشاهدة مغيب الشمس عبر نهر النيل حيث تصبح اشجار النخيل سوداء وسط سماء حمراء صبغتها شفق المغيب بلونه ، واضفت لونها هذا على الصحراء الممتدة وراء النخيل البعيد . وكنت ارقب هذا المنظر اما من كورنيش النيل او شرفة سميراميس أو سطحية شـــبرد انى نرى منبـــا الانسان أهرام الجيزة .

لكن وقت الصباح الباكر هو افضل الساعات للسير في شوارع القاهرة ، اذ ان الاكشاك كلها مفتوحة على مصراعيها ، وفيهـــا العلائد والمسابح والدبابيس والمشابك ، والناس يكنســـون امام حوانيتهم ، او يقفون مستمدين الى ابوابها وجدرانها يحتسون اقداح الشاى . في حين يجلس رجل يرتدي الجلباب في مخزنه المشرع الابواب لاصلاح البسط ورتقها ، بعمل بدقة متناهية ، بحيث يبدو اصلاحه جزءا من العمل الفني نفسه . وهناك عدد من الباعة الجوالين في هذه الشوارع يبيعون امشاط «البلاستيك» ، والمناديل ، والنعـــال ،وفرشى» الغبار والليف ، وهـــم يتراوحون بين الجالسين في زوايا الشوارع او القابعين أمام صناديقهم على الارصفة ، أو المتنقلين من هنا الى هنـــالك بين الجماهير ، يعرضون بضائعهم بالعربية والفرنسية بشكل ينطوى على الالحاف ، وعندما يفيض النهر في موسم الفيضان ، فتغرق الشوارع بالمـــاء ، تظهر الاحجار في وسط هذه الشوارع يستخدمها الناس في عبورهم .

ودونت في يومياتي أقول : « ترى هل تختفي جميع هـــذه المناظر عن عيني عندما أعود الى لندن . الرجال والاولاد يسيرون متشابكى الايدى، والجلابيب والبدلات الفرنجية تبدو جنبـــا الى جنب ، والنساء والفتيات بأحذيتهن العالية الكعوب أو نعالهن الخفيفة ، والسائحات الأجنبيات من انجليزيات وألمانيات يرتدين ملابسهن الفاضحة التى تكاد تلتصق بأبدانهن فيثرن التقزز ... وقد حمل رجالهن آلات التصوير الى جوانبهم .

وقد لا يكون من السهل على أى انسان ان يكتب كتابة موضوعية عن اى مكان . فكل ما يراه المرء لا بد ان يتأثر بمـــا يحسه من وحدة وملل ورضا وسعادة . ففي وسع شخص واحد أن ينير مكانا بأكمله ، سواء أكان مدينة أم بلادا . أجل ! شخص واحد أو حادث واحد . فهو يتذكر ... هنا وقفنا .. وهنا سمعت هذا او ذاك . وهناك التقينا ،

وهنا تواعدنا ، وهنا تعاهدنا على اللقاء . انه الخلاف فى الذكريات التى تتميز باهميتها وعمقها .. ذكريات لا تنسى . وصورة القاهرة ، او اية مدينة من المدن ، لا يسجلها العقل ، وانما يسجلها القلب الانسانى الذى لا يقهر .

انها مناظر صغيرة تتالف منها صورة القاهرة الفسيفسائية المتناسقة الى جانب بعضها البعض ، رجل يبيع الورود والبنفسج تحت الرواق الذى امام جروبى . ورجل آخر يقف وسط دوامة السيارات الذاهبة والآيبة عند تقاطع ميدان التحرير ، يعرض وروده . وسيارة شاحنة ملاى بالمسجونين ينقلون من دار القضاء الى سجن القلعة ، وقد بدا الوجوم على بعضهم ، وبدا الآخرون فى حالة طبيعية وكلهم غير مصفدين بالاغلال ، خلافا لبعض الأولاد الذين رأيت الشرطة تسوقهم الى السجن فى اسوان . وفتاة صغيرة ، تجلس على الرصيف فى ميدان مصطفى كامل تبيع الدمى الصغيرة ، وكان مكانها بالأمس غلام صغير . واطفال صغار فى كل مكان. ورجال فى كوفياتهم البيضاء التى يشدها العقال الاسود ، مذكرة اياى بالاردن . وكلب ضال فى احد الشوارع المزدحمة يبدو عليه الشقاء . وقيل لى ان سيارة تمضى كل يوم من سيارات الرفق بالحيوان فى القاهرة تجمع مثل هذه الكلاب الضالة ، ولا ادرى كيف افلت هذا الكلب من رقابتها وامرأة تسير فى الشارع تجر كلبها فى سلسلة وهى تدلله فى هذه البلاد التى تعتبر الكلب ، كما تعتبره البلاد الشرقية كلها ، حيوانا منبوذا .

وهناك حدائق جميلة ملاى بالاشجار فى ميدان الاوبرا ، كحديقة الازبكية التى يحتل مقهى فى الهواء الطلق وسطها مع بركة ماء فيها شلال. ويقوم البستانيون كل صباح برى ارضها واعشابها المنتشرة تحت ظلال اشجارها ، فتتجمع المياه بشكل لا يجف قبل انقضاء ساعات ، وكانت هذه المنطقة كلها مغمورة بالماء فى القرن الثالث عشر ، لكن النيل راح ينحسر باتجاه الغرب ، مخلفا وراءه سلسلة من البرك . وقام الامير ازبك فى القرن الرابع عشر بحفر بحيرة من هذه البرك ، وبنى عددا من الدور الجميلة حولها . وظل امراء المماليك فى القرون التالية يبنون قصورهم حولها . واصبحت المنطقة معروفة بأماكن اللهو ، ثم احتلها الحى الأوربى فى المدينة، وقد اقام نابوليون مقره فى هذه المنطقة فى عام ١٧٩٨ فى قصر الالفى بك الذى اقيم فندق شبرد القديم مكانه ، دون ان يكون وراءه شىء الا الارض المزروعة حتى اواخر القرن التاسع عشر . ولكن ايام الازبكية الذهبية كانت قد انقضت فى مطلع القرن نفسه اذ جفف محمد على بحيرتها فى عام ١٨٢٧ .

وتقوم دار الاوبرا في هذه المنطقة . وقد تم بناؤها في القرن التاسع عشر . تكريما للامبراطورة الفرنسية يوجيني عندما جاءت لتشهد احتفال فتح قناة السويس في ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩ . وعهد الخديوى الى الموسيقار فيردى باعداد « أوبريت » في هذه المناسبة . وقد أعد فردى أوبرا « عايدة » ولكن الحرب الفرنسية ـ الالمانية في ذلك العام أعاقت اخراجها. فقدمت لأول مرة على مسرح الاوبرا في عيد الميلاد بعد سنتين .

وفي وسط الميدان تمثال لابراهيم باشا ابن محمد على . وقد ادار ظهره الى دار الاوبرا . وهو قائد عسكرى ممتاز وان عرف بغلظته وقد توفي في نوفمبر عام ١٨٤٨ قبيل وفاة والده ببضعة اشهر . والميدان جميل لنظافته باشجاره واحواض زهوره . ومسطحات اعشابه . لكن دار الاوبرا لم تعد الظاهرة البارزة فيه . اذ أصبحت من الأقزام اذا ماقورنت ببناء دائرة البرق والهاتف العملاقة . والجديد يغزو كل مكان في القاهرة في هذه الايام . ويتفوق على ما سواه . ويتخطى القديم ويزيله من الوجود . وسواء كنا نحب ذلك أو لا نحبه . فهذه سنة التطور . أما بالنسبة الى أولئك الذين يتعشقون قاهرة القرون الوسطى ، فما زال فيها الكثير من الجمال الذى يستهويهم ويستثير اهتمامهم .

وتسيطر دائرة البرق على المنظر الآن ، ولكن في وسع الانسان أن يرى من نوافذ فندق الكونتنتال الذى توفي فيه اللورد كارنارفون الذى قام بتمويل حفريات توت عنخ آمون التى قادها هاورد كارتر في الخامس من ابريل عام ١٩٢٣ وبعد بضعة أشهر من اكتشاف المقبرة . المنارة الرفيعة التى تشبه البصلة في شكلها والصاعدة من منطقة خان الخليلى الملأى بالمساجد والاسواق . والطريق طويلة الى ذلك المكان وتمر بشوارع قديمة تحيط بها البيوت التى اسود لونها وشحب مع مرور القرون . ويصل الانسان اول ما يصل الى شارع الموسكى الذى تحمل اسمه الزجاج الملون الذى يباع رخيصا في هذه الاسواق . والمصنوع من زجاجات الكوكاكولا القديمة بعد اذابتها وتظل المنطقة قاتمة الى ان يصل الانسان الى خان الخليلى . لكنها صورة من صور القاهرة . وهى متباينة تماما مع اناقة كورنيش النيل بفنادقه الشاهقة في العصرية . . وبفلائكه « الراسية الى جانب الشاطىء بأشرعتها العالية تغرى السائحين بركوبها .

والطريق طويلة ايضا من الميدان الحديث الواقع وراء دار الاوبرا . عبر ذلك الشارع الطويل الذى يمر بأحياء القاهرة القديمة الى أن يصل الى القلعة . وكان اسم هذا الشارع في الماضى شارع محمد على . فاصبح

يسمى الآن بشارع القلعة . والطريق اقصر الى قصر عابدين ، قصر الملك السابق والذى سنتحدث عنه فيما بعد . وتقوم محافظة القاهرة القديمة على مقربة من قصر عابدين ، كما تقوم مختلف الوزارات فى المساحة الواقعة بينه وبين النهر .

والقاهرة مدينة جميلة فى مجموعها ، سواء فى اقسامها القديمة او الحديثة . ويقول الذين عرفوها فى عهد الاحتلال البريطانى انها لم تعد كما كانت من قبل اذ اصبحت مفتقرة الى الحوانيت الانيقة والنوادى والمطاعم . وقد يكون هذا صحيحا ، ولكن القاهرة لم تعد مدينة بريطانية او فرنسية ، بل مدينة مصرية وعربية ، تحتل مكان الصدارة فى الوطن العربى ، وتحتل منذ عام ١٩٥٢ طليعة قافلة التقدم الحديث .

والسير فى القاهرة شىء رائع ، وقد مشيت فى معظم اقسامها ، فالمشى فى المدينة هو الوسيلة الوحيدة لمعرفتها بصورة فعلية . وتقول دوروثيا راسل فى كتابها الرائع « قاهرة القرون الوسطى » .. ان على زائر القاهرة ان يتفهمها ، وان يتعرف على هذه المدينة العظيمة ، وان يجد الوقت للطواف فى ارجائها ، اذ ان الجائل فيها هو وحده الذى يكتشف مفاتنها الخفية . وعليه ان يتمخطر فى شوارعها ، والا يغذ السير ، وان يلتفت براسه الفينة بعد الفينة متطلعا الى ما خلفه ، وان يستطلع حواريها وازقتها . وان يعود الى المكان الذى ينزل فيه عندما يحس بالتعب ليستانف سيره فى اليوم التالى .

اجل ، فقد فعلت كل هذا ، اجل سرت فى الشوارع الرئيسية وفى الازقة والحوارى ، فى كل اتجاه . وسرت على الكورنيش اميالا عدة باتجاه الشمال والجنوب . وقطعت الجزيرة طولا وعرضا ، وكذلك الزمالك باحيائها السكنية القديمة وبيوتها الجميلة التى تطل على النيل مواجهة مبنى التلفزيون الضخم الحديث . ومشيت عبر الاحياء القديمة الى محطة القطار ، لأرى جمالها والميدان الفسيح امامها الذى يتوسطه تمثال رمسيس الثانى . وكنت قبل سنوات قد رايت دبا يقوم ببعض الحركات فى هذا الميدان ، وهو منظر ما كان اغنانى عنه . ومشيت من ميدان الاوبرا الى حديقة الحيوان فى الجيزة عبر النهر الى الجانب الآخر ، بعد ان مررت بالتمثالين ، لأصل الى النهر واسير مع الكورنيش ، مارة بمبنى السفارة البريطانية التى كانت حدائقها تصل فى الماضى الى النهر ، قبل أن يشق الكورنيش عبرها ، ولأجتاز جاردن سيتى ، فكوبرى المنيل ،

فجزيرة الروضة ، مرورا بالقصر ، فالجسر ، فمستشفى القصر العينى فالمسجد الجديد وجسر الجامعة ٠

وفى وسع المرء أن يعود بنظره من الجسر الى الوراء ، فيقطع المدينة الى جبال المقطم ، وقد احتلت القلعة ومسجد محمد علي وجامع السلطان حسن سفوحها ٠

وانا لا احب حدائق الحيوان ، لاننى لا أحب فكرة فرض القيود على الحياة الحيوانية ، ولم اذهب الى حديقة الحيوان فى المرة الأولى التى زرت فيها القاهرة ، لكننى ذهبت هذه المرة ، لاننى رغبت فى السير مسافة طويلة بين الماء والاشجار العالية ، وتؤلف حدائق الحيوان فى الجيزة ، حدائق القصر الملكى القديمة فيها ، وكان الخديوى اسماعيل ، هو الذى شق الشارع الجميل الذى يمتد خمسة اميال ، والذى تحيط به الأشجار من جانبيه ممتدا وراء حدائق الحيوان لتمر منه الامبراطورة أوجينى عند ذهابها الى الأهرام فى تلك السنة التاريخية من عام ١٨٦٩ ٠ وبنى قصرا لها فى الجزيرة لاقامتها ، وتحولت حدائقه وأراضيه الواسعة فى النهاية الى نادى الجزيرة الرياضى الذى يضم ملاعب التنس والبولو وأحواض السباحة ، وميدانا لسباق الخيل ٠ وانقضى ذلك اليوم الذى كان فيه هذا النادى وقفا على الاوروبيين وحدهم ٠ اما القصر نفسه الواقع فى الشمال فقد تحول الى فندق عمر الخيام ٠

وتقع حديقة الحيوان ، مقابل جزيرة الروضة ، التى يقال ان ابنة الفرعون ذكرت وابتسامتها الشريرة تطل على وجهها ، انها وجدت عندها طفلا فى مياه النهر الدافقة ٠٠٠

ولم تبد حدائق الحيوان فى الجيزة احسن او اسوأ من غيرها ٠ ففيها القطط الكبيرة ، أسوأ الحيوانات اماكن ، تدور وتدور فى اقفاص تحدها القضبان المرتفعة فوق جدران من الاسمنت ، أما الحيوانات الاخرى ، فتنعم فى اماكن فسيحة للغاية ، فالبحيرات متوافرة للحديقة وسيد فشطة والكانجارو ، والماعز بانواعه يعيش حياته البرية فى ارض فسيحة تملؤها الصخور الاصطناعية ، لكن السجن سيظل سجنا ، ولايمكن للغذاء الجيد والعناية والحماية ان تعوض هذه الحيوانات البرية ، كما لا تعوض الانسان المتحضر عن حريته ٠

القلعة :

فى وسع القارىء اذا اراد ان يعرف عن قلعة صلاح الدين ان يعود الى كتاب دوروثيا راسل . والفصـــل الرائع الذى كتبته فيه عن قلعة صلاح الدين ، ومن السهل عليه ان يجول فى صفحاتها العلمية والرشيقة الاسلوب ، ارجاء القلعة ، والمساجد التى تقوم تحتها ، والمنطقة بكاملها . وفى الكتاب عدد من الهوامش ايضا ، وهى تعبير ان قلعة القاهرة من اروع التحصينات التى بنيت فى العصور الوسطى .... وانها من عمل رجل عظيم .... فى حقبة تاريخية عظمى ، وقد شهدت اسوارها عهد صلاح الدين وخلفائه ، وامجاد السلاطين المماليك ، كما شهدت عددا من الجرائم المدونة وغير المدونة . وذلك لان هؤلاء الســــلاطين ، اقاموا فيها قصورهم الفخمة أكثر من سبعمائة سنة . وظل تاريخها قائما حتى اواسط القرن الماضى .... ولا ريب فى ان منظرها المطل على القاهرة يعتبر من اروع المناظر فى العالم واشهرها .... »

حقا انه منظر رائع لا ينساه الانسان ، فمن هنا يطل الانسان على القاهرة بقبابها ومنائرها ، والصحراء التى تقـوم وراءهـا ، وهو يرى أمامه اهرام الجيزة ، ومن ورائها ، وعلى بعد كبير فى بطن الصــحراء أهـرام سقارة الصغيرة والمدرجة . فالمنظر فـخم ورائع ، والصورة ينعكس فيها ألق الحر ممروجا بالرمال والتراب . وفى وسطها سحـاب النيل متعرجا ومتثنيا ، ولو طلع الانسان من القلعـة الى جبل المقطم وراءها ، وصعد الى هضبتها ، يبـدو المنظر الذى كان يراه من القلعـة نائيا . اذ انه يرى الصحراء كلها باتسـاعها اشـبه ما تكون ببحر من الرمال ينساب من الافق مندفقا ليغسل اطراف المدينة . فالصحراء الغربية امامه باهرامها . والصــحراء الشرقية وراءه . وقد أطلت خلفهـا جبـال سيناء ، وقد يكون من العسير تحديد مثل هذه الصــورة الضخمة فى عبارات قصـــيرة . ولكنها صـــورة تترك آثارها العميقة فى النفس أمدا طويلا .

وقد بنى صـــلاح الدين للقـاهرة قلعتها . واحاط المدينة بسـور ضخم . تبدو بعض اجزائه فى منطقة القلعة نفســها ، وتقول الســيدة راسل ، انه ترك فى القاهرة أثرا أعمق من كل ماتركه غيره من السلاطين . لكن بناء القلعة لم يتم الا فى عهد قريبه السلطان ، وتقول سنانى ان —

بول . فى عرضه لتاريخ القاهرة (١) . ان القلعة مثلت فكرة جديدة أوحت بها كراهية صلاح الدين للقصور . وبالرغم من انه لم يعمر حتى يعيش فى القلعة التى بناها والتى توفى قبل ان يكملها . فان من الواضح انه كان يعتزم الاقامة فيها كما اقام خلفاؤه فعلا . ويقول لين ـ بول : « وكانت القلعة المقر الرئيسى والمعقل لكل سلطان ناجح . ولذا فقد تعرضت للتغيير والتوسيع فى عهود السلاطين المماليك المتعاقبين . وأخيرا فى عهد محمد على . ولم تعد أى من مساجدها أو آثار قصورها تعود الى عهد صلاح الدين .. وما زالت اسوار صلاح الدين محفوظة فى شطر كبير من المكان وان كان التمييز بينها وبين الاضافات والتعديلات اللاحقة يتطلب معرفة وثيقة بعلم الآثار . كما ان بعض الممرات الداخلية والاستحكامات تعود الى عهد صلاح الدين .

وفى هذه القلعة نفسها قام محمد على فى عام ١٨١١ بذبح المماليك . وكان هؤلاء قد ارتفعوا من مرتبة العبيد ليؤلفوا طبقة عسكرية قوية حكمت مصر اكثر من ثلاثمائة عام . وعندما تسلم محمد على مقاليد الحكم . وجدوا انفسهم مرغمين على الاذعان لارادته . وقام بتشتيتهم . وابعد الكثيرين منهم الى السودان . جامعا السلطة كلها فى يده . ويقول نوم لين (٢) . انه « اذا كان قد تحول فى أثناء العملية الى ديكتاتور فقط . فان هذا التحول بدا فى وجهة النظر المصرية آن ذاك . تبدلا مستحبا من حكم عدد من السادة الى سيد واحد . واكمل خطته لسحقهم . بدعوة من تبقى منهم الى وليمة فى القلعة حيث نصب لهم كمينا فى طريق صخرى يوصل اليها . وذبحهم عن بكرة ابيهم . وتقول السيدة راسل ان محمد على جلس فى غرفة فى القلعة . ينصت الى صوت اطلاق النار وهو ينقل اليه نهاية سلطة المماليك فى مصر . وراح وقد شحب وجهه وارتعدت يداه . يطلب كأسا من الماء . بينما كان رجاله فى اسفل القلعة يطلقون النار على المماليك العزل وقد حوصروا فى الممر الصخرى الضيق » .

وتغمر الانوار القلعة فى الليل فى موسم السياحة . ويروى برنامج الصوت والضوء قصتها منذ ايام صلاح الدين حتى عهد محمد على باللغات الانجليزية والفرنسية والعربية فى ليال مختلفة . وهناك برنامج آخر للصوت والضوء فى الأهرام عند ابى الهول . وقد شهدته فرأيت الانارة رائعة . لكننى لم أجد لذة فى القصة الرومانطيقية التى تروى عن الفراعنة .

---

(١) كتاب « قصة القاهرة » طبعة سنة ١٩٠٢ .

(٢) كتاب « فى مصر » .

وورحت فى السيارة بعد ظهر أحد الايام الى حلوان مع طبيب مصرى، ومع دبلوماتى مصرى سابق ، كنت اعرفه فى لندن قبل الحرب الاخيرة ، وهو يشغل الآن منصب العمدة فى قريته • ومضت بنا السيارة عبر ضاحية المعادى الجميلة التى تظللها الاشجار ، والتى يسمونها بمدينة الزهور ، حيث يملك الطبيب دارة تمتلىء حديقتها بأشجار الليمون • وتروى عن هذا الطبيب قصص رائعة ، وتقول احداها ، ان امراة مريضة فى المستشفى الذى كان يعمل فيه ، سرقت مرة « ملاية سرير بيضاء » ، فشاهدها ــ بعض الموظفين ، وجاءوا بها الى الطبيب يسالونه عما سيفعلونه بامرها ، وهل يأتون لها بالشرطة ، فرد عليهم ان لا داعى لعمل شىء من هذا النوع ، وانما عليهم ان يعطوها ملاءة اخرى ، حتى يكون لها زوج منهما لانها تحتاج الى الزوج ، ولعل من الخير انها تعلمت فى المستشفى ان تقدر اهمية النظافة ، بحيث باتت تريد ملايات لفراشها ••

وهناك قصة طريفة اخرى ، والقصتان صحيحتان ، وتتحدث عن قيام الطبيب بتغطية اموال سرقت من مؤسسة كان يعمل فيها ، من جيبه الخاص ، على ان يذهب السارق وهو رجل متزوج ورب عائلة الى السجن، وقد كلفته هذه العملية جميع مدخراته ، اذ انه لم يكن فى يوم ما ولن يكون من الاثرياء • وقد اتفق مع الشخص السارق على ان يعيد له المال فى اقساط شهرية تطول عدة سنوات • وقد دفع الرجل بضعة اشهر ثم توقف عن الدفع ، فحاول الطبيب ايقاظ ضميره ولكنه فشل ، ثم قرر العدول عن مطالبته • ولكن شيئا غريبا حدث فى ذلك العام ، وهو ان جميع المرضى الذين كانوا مدينين للطبيب ، راحوا يسددون له ديونهم ، حتى ان تلك السنة التى سامح فيها السارق ، كانت من اكثر السنوات نجاحا فى حياته •

ويقول الرجل الذى روى لى هذه القصة ، انه سأل الطبيب فيما بعد اذا كان السارق قد عاد فسدد دينه ، فرد الطبيب قائلا : لا ، ولكن الله سدد دينه •

وقد مضيت الى حلوان لانها مكان قريب من القاهرة ، والطريق اليها تسير محاذية للنيل ، ولان العمدة صديقى والطبيب كانا عازمين على اخذى فى رحلة فى السيارة ، ولاننى كنت قد ذكرت لهما اننى لم ار هذا المنتجع المشهور فى زيارتى الاخيرة رؤية صحيحة • لكننى رأيته هذه المرة تمام الرؤية ، وتبينت فيه بلدة صغيرة جميلة ، فيها اكثر من الحدائق اليابانية

المقلدة التي كنت قد رأيتها في المرة السابقة ، واكثر كمنتجع من الحمامات الصغيرة والعين التي رأيتها في تلك المرة . فهي في الواقع مركز استشفاء صحي حديث ، ومزود باحدث الوسائل ، وفيها خنادق جميلة ، واراض فسيحة .

وكانت حلوان منتجعا صحيا في اواخر القرن التاسع عشر . ويقول الرائد آر اش . براون في كتابه عن الفيوم عند مقارنته لها بالواحة ان « حلوان الحديثة ، بقعة مجدبة لا اشجار فيها على طرف الصحراء الشرقية ، وعلى بعد بضعة اميال من القاهرة ، وقد استهوت الخديوى السابق توفيق ، فجعل منها منتجعا صحيا لأهل القاهرة ، الذين يرون في هواء الصحراء الجاف والنقي علاجا بعد الحياة التي يقضونها في العاصمة . وفي حلوان ينابيع كبريتية ، ولكن مدينة التمساح ، تتطلع الى مياه حلوة بدلا من الصحراء الجافة التي تعمى الاعين برمالها .

لكن حلوان لم تعد كما كانت عندما وضع براون كتابه في عام ١٩٠٢ . فهي الآن ولحسن حظ اهل القاهرة ، ملأى بالاشجار والحدائق. ولا ريب في أن مشروعات التصنيع فيها ، ولا سيما مصانع الحديد والصلب الضخمة القائمة في ضواحيها ، تحد من امتداد الصحراء وتنتصر عليها .

وتمتد جبال المقطم الى مشارف حلوان ، ولذا رحنا في سيارتنا الى المرصد القديم في المنطقة لنرى غروب الشمس في الصحراء . وكان المنظر رائعا كغروب الشمس في الصحارى دائما ، لكن ما زاده جمالا هنا ، وجود النيل ، والقاهرة وكأنهما سراب بعيد .

وتطلع العمدة منتشيا وقال : « لدينا قول قديم .. انه يقول .. انه عندما تكون هناك الصحراء والنيل واشجار النخيل ، تبدو مصر . وهناك قول آخر ، انك اذا لم تعش على النيل فلن تعيش في مصر .

ولكن العمدة لا يعيش على النيل ، وانما يعيش في بيت كبير قديم في قرية في الدلتا . والبيت قائم وسط حديقة ملأى بالازاهير والورود.

وقال لي الرجل عندما زرته في بيته : « اننا نسمى الزهرة التي لا رائحة فيها زهرة أوروبية » .

مدينة الأموات

يتبين الانسان ضخامة القلعة التي بناها صلاح الدين والحصون التي اقامها فيها ، عند ما يطوف في السيارة حولها متجها شمالا الى ما يسمى

باضرحة الخلفاء . فهناك بقايا ابراج وخنادق واسوار ، لا يسمع بها المرء عندما يطوفون به فى القلعة اول مرة ليرى منها منظر القاهرة .

وتسير الطريق تحت الاسوار الضخمة عبر تلال من الرمال . انها فى الواقع ركام الحفريات فى القرون الوسطى ، التى اخرجوها من الارض عندما بنوا القلعة ، ثم قذفوا بها خارج المدينة ليجعلوا منها حاجزا ضد الفيضان السنوى . وتقول السيدة راسل ، ان هذا الركام يتالف فى الغالب من البقايا الصلصالية ، وان الانسان اذا حفر فيها متعمقا ، طلعت له مخلفات القرون بين الحادى عشر والرابع عشر . وكانت هذه التلال فى السابق اكبر مما هى عليه الآن ، اذ تعرضت فى السنوات الاخيرة اكثير من عمليات التطهير والتنظيف . وقد استخلص جزء من اسوار صلاح الدين من تحت هذه الانقاض . ويستمر هذا الركام من الناحية الاخرى كخيط من التلال الصحراوية . والمنظر مقفر ومهجور ، وخال من كل حياة ، ولكن سرعان ما تعود القباب والمنائر الى الظهور ثانية كاشجار النخيل فى الصحراء ، اذ يصل السائح الى مقابر المماليك فى المقبرة الشرقية التى تمثل شبه واحة بمساجدها وقبابها الكثيرة فى قلب الصحراء . وهى تمتد مسافة اميال عدة من القاهرة القديمة الى الطرف الثانى من السلسلة الجبلية على الشاطىء الشرقى للنيل فى صحراء العباسية .

وبالرغم من ان المنطقة تسمى بمقابر الخلفاء ، الا انه ليس فيها فى الواقع اية اضرحة لهؤلاء الخلفاء ، وانما تمثل فيها قبور السلاطين المماليك . وتقول السيدة راسل : « وهذه الاضرحة الضخمة ، نتاج عصر عظيم من الثراء والقوة ، ما لبث ان اختفى وزال . وفيها تتمثل ذروة عصر فنى كان فى منتهى الروعة والابداع .

وقد شيدت مدينة الأموات هذه بشكل تواجه فيها الاضرحة بعضها البعض عبر شوارع تقوم بينها ، ويلعب فيها الاطفال ، وتجلس النساء عند ابواب اضرحتها ، اذ ان عددا من هذه الاضرحة ، قد تحول الى مساكن يستأجرها الفقراء من بلدية القاهرة مقابل اربعة جنيهات فى السنة . وهناك حنفيات للماء فى شوارع مدينة الأموات ، تحصل منها النسوة على الماء ، كما ان هناك بعض الاشجار قد نمت فيها . وهناك ساحة رملية مكشوفة تقوم امام احد المساجد ، حيث يلعب الاطفال كرة القدم . وتحولت بعض هذه الابنية الى حوانيت ومقاه صغيرة . ويعمل رجل فى احدها فى اصلاح الآثار القديمة طيلة النهار ، اذ لم تصل الكهربا اليه

وانما يعيش اهلها على الشموع والمصابيح الغازية ، فى حين تجلس النسوة على ابوابها يلعبن مع اطفالهن ، أو يزاولن بعض الاعمال البيتية . ويجلس الرجال فى المقاهى المعتمة ، حيث يستمعون الى الانغام الموسيقية من اجهزة الترانزستور .

ولا شيء جديد فى الحياة فى مدينة الأموات . فقد كان هناك دائما من يعنون بأمر هذه القبور والاضرحة والمساجد ، ومن يتولون خدمة المدارس والمؤسسات الدينية التى تؤلف جزءا من هذا المكان المعقد . لكن الشيء الجديد فيها ان بعض الاحياء هناك ، لا علاقة لهم بالاضرحة ، وانما يعيشون هناك لأن الحياة فيها لاتكلفهم الا القليل . ولا ريب فى ان برودة الاضرحة فى حرارة الصيف الشديدة ، من العوامل التى تغرى على الحياة فيها .

ويصل الانســان من مدخل مثلث الاقواس ، وضخم البنــاء ، الى المقبرة نفسها ، حيث لا توجد قبور المماليك ، وانما قبور العاديين من الناس من ابناء القرن العشرين . وتوجد هنا اضرحة الوف الجنــود من شهداء حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ وحرب السويس فى عام ١٩٥٦ ، وبينهم المسلمون والمسيحيون . ويطلق على المكان اسم مقبرة الشهداء .

ولم استطع انا ورفاقى من الاوربيين قراءة ما كتب بالعــربية على مدخل المقبرة ، باستثناء كلمة فلسطين ، فعلمنا ان لها علاقة بفلسطين. ولكن صديقا فلسطينيا يعيش فى القاهرة ، ترجم لى العبارات . فذكر انها تقول بعد البسملة ، ان بقايا شهداء حرب فلسطين قد نقلت الى هذا المكان الطاهر فى احتفال قومى مهيب ، شــهده الناس جميعا ، وممثلو جامعة الدول العربية ، وفى مقدمتهم رئيس الوزراء وقائد ثورة القوات المسلحة وذلك فى السادس عشر من شعبان عام ١٣٧٢ هجرية المصادف العاشر من مايو عام ١٩٥٣ .

وهناك كتابات أخرى على البابين الأول والثالث وهى من القــرآن الكريم ، اذ تقول : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل احياء عند ربهم يرزقون » .

وعلى الباب الأوسط ، عبارات عربية كبيرة الأحرف ، عرفت انها تعنى : « شهداء حملة فلسطين » .

انهم شهداء حرب فلسطين .. وقد ينتظرون رفاقا آخرين .

وبالرغم من أن المقبرة اســــلامية فانهــا تضــم مائتين من المسيحيين

المدفونين ايضا · وقد دفن شهداء حملة فلسطين في خمسة اضرحة جماعية كبيرة · أما شهداء حرب عام ١٩٥٦ ، فقد اختلطت قبور المسلمين والمسيحيين منهم · وقيل لي ان اثني عشر ضابطا مسيحيا كانوا بين الشهداء المائة والستين من الضباط · ولم استطع الحصول على ارقام دقيقة عن مجموع عدد الشهداء ، ولكن قيل لي انهم يترددون بين الفين وثلاثة آلاف استشهدوا في الحربين ودفنوا هناك ·

ورأيت عائلة تقف الى جانب ضريح ، تظلله شجرة ، وتستمع الى شيخ يتلو بعض آيات القرآن الكريم · وخيل الى انها ليست عائلة مسلمة ·

ويقوم الى الطرف الآخر من هذه المقبرة الحديثة ، مسجد جميل من أيام المماليك ، يصل اليه الانسان عن طريق سلم يفضي الى فناء في داخله قبة ، يقبع تحتها ضريح · ويدعو سادن الضريح الزائرين الى الدخول ·

ولست أشك في أن مدينة الأموات جميلة ، جمالا حزينا غريبا ، ولا سيما عند المغيب ، عندما يسيطر ألق الشفق بأشعته الذهبية على قباب الأضرحة التي تتخللها الشوارع ، بحيث لا يبدو المكان وكأنه مدينة للأموات ، بل صورة من صور القاهرة الحية ·

قصران : قصر عابدين وقصر المنيل :

لما كنت قد زرت قصري الاسكندرية ، فقد بدا لي أن من المناسب ان ازور القصرين الرئيسيين في القاهرة ، بعد أن أهملت زيارتهما في رحلتي الاخيرة ، مبتدئة بقصر عابدين الذي تحول جزء منه الى متحف · ولعل من سوء حظي أنني لا أفهم كثيرا عن القصور ، وطالما نسيت مافيها من روعة ، متذكرة المناظر الجميلة من نوافذها ، وبعض الامور التي لا علاقة لها بها ، كتذكري بعض الصبية والفتيات الصغيرات يلعبون الالعاب الاكروباتية في حدائق قصر عابدين ويظهرون بعض النبوغ فيها ، وتذكرت أيضا بعض ملابس الغسيل منتشرة على شرفات الابنية التي تواجه القصر ، متصورة أن الأسر المقيمة فيها ما كانت لتستطيع أن تفعل هذا بحرية في عهد الملك السابق ·

وكان المسئول الذي طاف بي وبالسيد علي محمد على ارجاء القصر ، شخصا عرفته في عام ١٩٦٢ ، عندما طاف بي قصر رأس التين في الاسكندرية · وقد حدثني بالكثير الذي نسيته عن ذلك القصر ، وكل

ما أذكره من أقواله ، أنه سألني عما اذا كنت أعرف الناقدين الفنيين هربرت ريد وايريك نيوتون ، وانه مولع بالفن التجريدي ، وانه فنان أيضا . حقا انها قصص انسانية لا ترابط بينها ... وكل ما أذكره من روايات انسانية أيضا ... سرير للضيوف عليه رسوم كيوبيد الذهبية التي قيل لي انها تساوي خمسة آلاف جنيه ، وان ملك بلجيكا كان أول ضيف نام في هذا السرير . وماذا يهمني من هذه القصة ؟ لكن السرير مدهش حقا .

وتذكرت أيضا قاعة رائعة بيزنطية الطراز تزينها الفسيفساء وتتوسطها « النجفات » الكبيرة . انها أشبه بقاعات ألف ليلة وليلة . ولابد انها كانت تبدو كمكان سحري ، عندما تضاء جميع أنوارها ، ملقية ظلالها على الرجال والسيدات وقد اجتمعوا في القاعة في أحسن زي .

وفي القصر أشياء جميلة كثيرة . الاثاث ، والادوات ، والنجف والرسوم . انه بعيد عن « رخص » قصر راس التين . ويظهر أحد الرسوم للملك السابق وهو صبي ، وقد ابدع الرسام في تصويره . ولكن هل كان فاروق على تلك البراءة التي تبدو في الصورة ؟

ويقوم قصر عابدين في قلب العاصمة ، والى جانب منه المتحف الحربي ، والى الجانب الآخر دار محافظة القاهرة . أما قصر المنيل فيقوم الى جانب الجسر الصغير المؤدي الى جزيرة الروضة ، ويطل على المستشفى القديم القابع وسط ساحاته الواسعة . وقصر المنيل ، مكان مظلم ، قاتم أشبه ما يكون بالقلاع العربية القديمة ، وقد بناه الامير محمد علي ، عم الملك السابق في عام ١٩٠١ .

ووراء هذه الاسوار التي أشبه ما تكون باسوار القلاع ، هناك حدائق واسعة ، يجري فيها بناء « الشاليهات » لنزول السائحين . وداخل القصر شرقي في طبيعته . وان كان يتشبه طراز القصور الأوربية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر . فالمرمر « والقاشاني » في كل مكان ، والنحت والحفر والفسيفساء والزجاج الملون . ويتألف السلم الرئيسي في الداخل من الخشب المعتم المزدان بالزخارف المحفورة ، وقد اتصلت بجدران من الآجر المزخرف عليها صورة ضخمة لمحمد علي . وهناك نقوش وكتابات عربية على السقف والجدران ، ونجفات كبيرة معلقة ، ومصابيح شرقية جانبية يخفيها الزجاج الملون المدهون ، وأعمدة المرمر ، والصناديق الزجاجية والسقوف المدهونة ، وكلها بمقادير ضخمة ، وضخمة للغاية .

هذا هو المسكن . وفي الحديقة القصر الرسمي الاقل زخرفة وشرقية ، والأكثر ضياء ونورا . وهناك متحف للصيد يضم الحيوانات والطيور المحنطة من الوعول والظباء والغزلان والنسور وصقور الصيد . وهناك مسجد يعود في طراز بنائه الى القرن الرابع عشر . وفي منارته ساعة مجلجلة . وظللت أفكر وانا في داخل القصر ... ما أشبهه بالمسجد . وبدا لي المسجد فيما بعد أشبه بغرفة في القصر . ولكنه أقل منه زخارف وظلمة .

ووجدت نفسي أشترك مع امرأة هولندية تتحدث الانجليزية بلهجة أمريكية وبصوت رفيع حاد . في دليل واحد . كانت تعيش في اندونيسيا . وهي تعيش الآن في ليبيا . وقد جاءت مع زوجها الى القاهرة في بعض الاعمال . ثم اغتنمت فرصة انشغاله . فراحت تطوف معالم القاهرة . وعندما فارقني السيد علي محمد قليلا مستطلعا أمر سيارتنا راحت تهمس في أذني بعض العبارات التي يشتم منها رائحة العداء لمصر . ذاكرة أن كثيرين من الناس يشاركونها الرأي . واستغربت أمر هذه السيدة التي تحل في فندق هيلتون والتي تزعم أنها اصطنعت بالكثيرين ...

القناطر الخيرية :

من حقنا أن نستعمل صيغة الجمع هنا ، اذ ان هناك قناطر لا قنطرة واحدة . وسدودا لا سدا واحدا . اذ بالاضافة الى القناطر القديمة . فقد بنيت قنطرتان جديدتان في عام ١٩٣٩ . وفي وسع الانسان أن يمضي اليها في سيارة خاصة أو في . باص مزدحم . . اذ أنها المكان الذي ينطلق اليه المتنزهون من أبناء الأسر المصرية في أيام الجمع . بسبب ما فيها من حدائق غناء . وغابات زملة . تعتبر مثالية في صلاحيتها للنزهات . ولا تظهر القناطر على خرائط القاهرة . لأنها ليست في الواقع فيها . وانما هي خارجها وفي رأس الدلتا . ويعتمد الري في الوجه البحري كله على هذه القناطر التي تسيطر على انسياب النيل الى شبكة الترع والسواقي والقنوات .

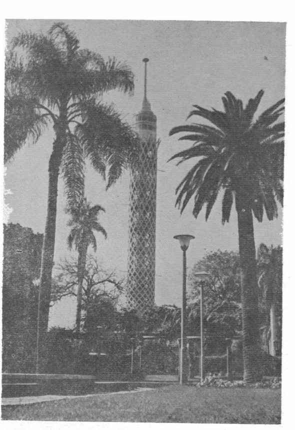
ويمر الانسان في طريقه اليها متجها الى الشمال . بالكورنيش الى أن يعبر النيل ويخرج من القاهرة . ليصل رأس الدلتا حيث يتفرع النهر العظيم الى فرعين أحدهما يتجه الى دمياط . والآخر الى رشيد ، وعلى كل فرع منهما قناطره . وقد يكون لقاء نهرين كما يحدث في القرنة في

جنوب العراق ، حيث يلتقى دجلة بالفرات ليكونا شط العرب ، الذى يصب فىالخليج العربى ، منظرا رائعا ، ولكنه ليس فريدا فى نوعه ٠ أما النيل ففريد حقا ، اذ انه فى منابعه يتكون من لقاء نهرين هما النيل الابيض والنيـــل الازرق ، اللذان يلتقيان عند الخرطوم ٠ ثم يعودان فيلتقيان مع نهر عطبرة فى عطبرة ، ويســير النيل بعد ذلك نهرا واحــدا طيلة الطريق كلها فى شمال السودان والنوبة ومصر العليا الى ان يصل عند راس الدلتا ، فيتفرق الى نهرين يمضيان فى طريقهما ليصبا فى البحر الابيض المتوسط ٠

ومن الممتع حقا أن يمضى المرء من القاهرة فى الســيارة عن طريق الكورنيش اما جنوبا الى حلوان أو شمالا الى القناطر ، اذ بالاضافة الى ما فى الكورنيش من جمال فى حد ذاته بأشجاره واحواض الزهور فيه ، وجماهير الناس المتنزهة فى جنباته ٠ فان النهـــر نفسه ينبض بالحياة والحركة متمثلة فى اشرعة هذه « الفلائك » « والمراكب الشراعية » التى تزداد حركتها كلما اتجه الانسان شمالا ٠ وتبتعد الطريق بعد خروجها من القاهرة عن النهر ، وتسير محاذية لقناة فى أرض خضراء مزروعة ، تضم الحدائق الفسيحة والبســاتين وحقول الذرة الشاسعة الأطراف ، معلنة ابتداء الدلتا .

وتمر الطريق هنا كما فى أسيوط نفسها عبر القناطر ، ولكن هذه تضم ابراجا على المداخل أشبه ما تكون بالأبراج القوطية ٠

وتقوم فى الجانب الآخر ، ووسط منطقة ملأى بالأشجار والممرات المائية بلدة صغيرة هى بلدة القنــاطر التى يعيش فيهـــا نحو من واحد وعشرين الفا يمثلون خمسة وسبعين فى المائة من سكان المنطقة كلها ٠ أما البقية فتعيش فى قرية صغيرة تدعى كفر الشرفا ٠ ويقوم مجمع واحد فى القناطر بخدمة البلدة والقرية معا ، وقد زرته فى السنة الفائتة ٠ وتعتبر هذه المجمعات أو المراكز جزءا مهما من الاصلاح الزراعى ، اذ تخدم المجتمعات الريفية فى كل ناحيـــة من نواحى حياتهـا ، التعليمية والطبية والاجتماعية والزراعيـــــة ٠ وفى كل وحدة من هذه الوحدات مدرستها الخاصة بها ، ووحدتها الطبية ، وجمعيتها التعاونية ، وقـــد تحدثت عنها بشىء من التفصيل فى كتابى السابق « رمح للعرب » ٠ وقد جئت هذه المرة الى القناطر ، لأراها لا كصورة من صور الاصلاح الزراعى ، بل كصورة من القاهرة ، طالما انها المكان الذى يقضى فيه أهل العاصمه عطلاتهم الاسبوعية ، اذ لا تبعد المدينة أكثر من سبعة عشر ميلا ٠



برج القاهرة

والمنظر رائع هناك · ويحس المرء احيانا بأنه في جزيرة أو شبه جزيرة ، اذ يرى الماء عبر الاشجار محيطة به من كل ناحية ، ويرى فوقه أشرعة « الفلائك » البيضاء · لكن المنطقة ليست كلها مياها وغابات ، ففيها الكثير من الزراعة ، في حقول شاسعة الأطراف للذرة والبقـول والقطن والبرسيم ، بالاضافة الى بساتين الحمضيات والموز ، وأشـجار النخيل الباسقة ·

ورحت مع رفيقي السيد علي محمد علي ، نطوف في السيارة أرجاء المنطقة ، وهي تسـير بنا الهوينى ، واحسست بالسـعادة ، تماما كما احسست بها من قبل في الفيوم ، اذ ان النهار كان مشرقا ، ووضـاء ، ودافئا دفئا عذبا ، ولأن حولنا الماء من كل مكان ، وتحيط بنا الغابات والحدائق والحقول والبساتين التي تبيع منتجاتها ، والخضرة في كل مكان ·

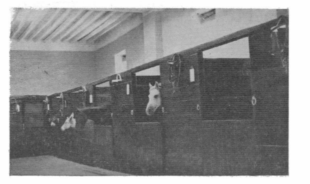
ودلفنا من السيارة ، واخذنا نجوب انحاء الحدائق التي زرعت لأول مرة في عهد محمد علي · وهي تضم نحوا من ثلاثمائة فدان في المروج وأحواض الزهر ، والغابات والشجيرات · وهناك أقنية تحيط بها ، ومن حولها الأزاهير ، بينما تنحني المروج منحدرة ببطء نحو الشاطيء ، الذي تظل عليه الاشجار السامقة ·

وفي هذه الحدائق العامة ، عدد كبير من أصناف الاشجار المزهرة ، وتحتها تتمتع الأسر المصرية ، وفرق الكشافة واطفال المدارس ، بعطلاتهم ، بعيدا عن القاهرة الصاخبة ·

وجلست مع رفيقي على احد هذه المنحدرات ، وفي ظـلال شجرة باسقة ، نطل على قناة ماء · وعدنا نستأنف الحديث الذي كنا قد بدأناه على ضفاف بحيرة قارون لنصل الى عين النتائج غير المرضية · فالحياة معقدة · ولكن ما العمل · وهنـاك مقهى ومطعم على بعد منا ، قريب من الماء ، وقد نكون الجعة فيه باردة ·

ومررنا في طريقنا الى المقهى بمنزل ، كان النور ينبعث من خصاص نوافذه · ودرنا حوله ، لنكتشف انه متحف صـغير · ودفعنا الفضول لا أي حافز ثقـافي آخر الى الدخول · كان متحفا للخرائط والرسـوم والمخططات للقناطر ، وقناطر اسيوط ، والسد العالي طبعا · وقد تكون هناك مخططات لأشياء اخرى ايضا ، ولكن ما لم يكن الانسان مهندسا او ذا ميول هندسـية ، فلا تستطيع ذاكرته ان تعي كل هـذه الرسـوم

ابو الهول



الحيوانات المريضة فى المستشفى

والمخطئات وما تضمه الصناديق الزجاجية • وقضينا وقتا في المتحف ، ثم خرجنا منه بعد أن شكرنا لحارسه كريم معاملته ، وانطلقنا في الهواء الطلق الذي يفوح منه أريج الياسمين •

ووصلنا الى المقهى • وكانت الموائد والمقــــاعد منتشرة فيه تحت الاشجار وفوق الرمال • وكان المذياع ينطلق بأغـــاني الحب الشرقية المعهودة من مغن مصري معروف ، كما ذكر رفيقي ، بينما ظلت الكلاب الضالة تحوم حولنا ، ونحن نحتسي الجعة المثلجة •

حقا كان الوقت الذي قضيته في القناطر ممتعا •

مستشفى الحيوانات :

تحدث الى بعضهم بعد زيارتي الســـابقة للقاهرة ، عن مستشفى بروك للحيوانات في أحد أحياء القاهرة الفقيرة ، وساءني أني لم أكن قد زرته اذ لم أسمع عنه • ولذا فقد حزمت أمري في زيارتي الثانية للقاهرة ، ان أمضي أول ما أمضي الى هذا المستشفى ، لا لأنني شغوفة كل الشغف بالحيوانات ، اذ أنني لا أدعي مثـــل هذا الحب باستثناء القطط التي أحبها ، بل لأنني أجد أن استغلال الانسان لعالم الحيوان رهيب ، ولأن آلام هذه المخلوقات التي لا خيار لها ، نتيجة هذا الاســـــتغلال ، محزنة حقا •

وقد قامت سيدة بريطانية اسمها دوروثي بروك بانشـــاء هذا المستشفى في عام ١٩٣٤ ، وظلت قائمة على أمــــره ، الى ان توفيت في القـاهرة في عام ١٩٥٥ • وكانت السيدة زوجة لضـــابط بريطاني من ضباط سلاح الفرسان هو اللواء جوفري بروك ، وعندما عين زوجها قائدا لسلاح الفرسان في مصر عام ١٩٣٠ ، مضت معه الى القاهرة ، وقد حزمت أمرها على الشروع في حملة لانقاذ الجياد التي شاخت والتي اشتركت في حرب عام ١٩١٤ ــ ١٩١٨ • ولا تمت قصة هذا المشروع الى موضوع هذا الكتاب ، ولكنها مدرجة في كتيب صغير وضع لمساعدة مستشفى الحيوانات الذي اقامته ، عنـــدما تم العمل مع جيـــاد الحرب في عام ١٩٣٤ (١) • وقد كرست السيدة مستشفاها لذكرى « الجياد الباسلة

(١) كتاب « من أجل الجياد ••• يوميات السيدة جوفري بروك » اعداد جليندا سبونر • الناشر مستشفى بروك في القاهرة ـ طباعة كولومبيا هاوس ـ لندن •

التى اشتركت فى الحرب وفرسانها الشجعان » . ولاريب فى أن من حق هذا المستشفى أن يفخر بعمله الناجح بالرغم من المتاعب التى واجهها .

وعندما توفيت السيدة بروك ، خلفتها فى ادارة المستشفى صديقتها كاثلين تيلور ـ سميث ، الخبيرة فى الترفيه عن الحيوانات ، بناء على اتفاق سابق بينهما ، وتألفت لجنة بريطانية صغيرة لهـذه الغاية برياسة الجنرال بروك . وقد لقيت السيدة تيلور ســــميث فى لندن ، اذ تؤدى دور امينة الصندوق الفخـــرية والمنظمة وتمارس الاهتمام الشخصى والفعلى بالعمل ، لأنها تمضى الى القاهرة فى كل ربيع ، لتشـــجع لجنة القاهرة وموظفيها ، وتساعدهم ، وتقدم مشورتها اليهم .

ويقوم المستشفى فى حى « مصر القديمة » ، على مقربة من الساقية التى بناها السلطان الناصر المملوكى فى القرن الرابع عشر ، لنقل المياه من النيل الى القلعة . وهو قريب من سفوح جبال المقطم الرملية ، وتصل اليه روائح « السلخانة » القريبة . ويقوم المستشفى الى جانبى شـارع واسع تحيط به بعض الأبنية القديمة القريبة من مشروع للابنية الشعبية الجديدة . وهناك مشروع لاعادة بناء هذا الحى القـــديم كجزء من خطة عامة لتجديد القاهرة ، ولكنه يعين وجوب العثور على مكان جديد لمستشفى الحيوانات بعد كل هذه السنوات الطويلة . وقد لا يصدر هـــذا الكتاب قبل ان يكون المسئولون قد عثروا على مكان جديد لهذا المستشفى . أما المكان القـــديم الذى زرته مرتين ، فكان فى أبنية قـــديمة تضـم عدة اسطبلات ممتازة ، فيها نحو من سبعين من الجياد والحمير المرضى ، كل واحد منها فى زريبة نظيفة ، بينما هناك نحو من اثنى عشر حيوانا فى فناء فسيح ، وقد اتى بها الى هناك ، اذ لا امل فى شفائها من امراضهـــا لتعيش فى راحة بضعة أيام قبل أن يجرى التخلص منها دون ألم . وهناك ناحية أخرى من الفناء تضم الافراس مع مهورها المولودة حديثا . ورأيت فى المكان مهرا لم يكن فى وسع أمه أن ترضعه ، فكانوا يسقونه الحليب بأيديهم ، وقد الفهم ، لانه أدرك أن الناس هناك وجدوا ليخدموه . ورحت أفكر ترى مانوع الحياة التى كان سيحياها مع أمه ، لو ظل فى القرية بعيدا عن القاهرة .

ولم احصل على ارقام دقيقة ، ولكننى علمت ان غالبية الحيوانات التى رأيتها هناك ، كانت من ضحايا حوادث الطرق ، وقد اصيب بعضهـا بجراح ثخينة من جراء الاصطدام بالسيارات والشاحنات . وتقول السيدة بروك فى يومياتهـا التى كتبتها فى عام ١٩٥٤ ، ان نصـــائح الاطباء



الحيوانات المريضة فى المستشفى

البيطريين التى يوجهونها فى كل مكان عن ضرورة التخفيف من حمولة الحيوانات ، قد ادت الى التقليل من الجراح التى تصاب بها الحيوانات فى ظهورها ، ولكن عدد الاصابات من حوادث السيارات أخذ فى الازدياد من جراء تضاعف الحركة الآلية على الطرق . وتضمن تقرير السيدة تيلور — سميث فى ربيع عام ١٩٦٠ اقوالا مماثلة .

وهناك بعض الاحصاءات الطريفة على أى حال . ففى عام ١٩٦٢ ، عولج ١١٣٣ حيوانا فى المستشفى ، أى بزيادة ٦١ عن السنة التى سبقتها . والمعالجة فى المستشفى مجانية ، ومعدل ما يقضيه الحيوان فيه ١٩ يوما ، وان كان بعضها يقضى شهورا طويلة قبل أن يصح تماما . وعولج ٣٠٠ حيوان فى نفس السنة من الجراح والحوادث العارضة مقابل ٢٦١ فى عام ١٩٦١ و ٢٥٣ من حالات العرج مقابل ٢٣٤ فى السنة التى سبقتها .

وبالاضافة الى المعالجة فى المستشفى ، يقوم موظفوه بعلاج الحيوانات فى كل مكان فى الأسواق والقرى ، فى الحالات الخفيفة التى لا تتطلب نقل الحيوان الى المستشفى ويعالج نحو من خمسة آلاف حيوان داخل المستشفى أو خارجه فى العام الواحد .

وتمضى سيارة الاسعاف التابعة للمستشفى فى كل يوم الى ضواحى القاهرة واسواقها وارياقها تجمع الحيوانات المريضة ، وبعضها لا ينفع معه الدواء ، ليلقى حتفه فى المستشفى دون الم . ورايت بعض هذه الحيوانات التى تنقلها السيارة وكانت جلدا وعظما ، ولا تكاد أرجلها تحملها . وعندما تكون آلامها لا تطاق ، ولا أمل يرجى فى شفائها ، يقوم المستشفى بقتلها فورا دون الم ، مع التعويض على أصحابها الذين يعتمدون عليها فى معاشهم . اما اذا كان شفاؤها مستحيلا ، ولكنها لا تشكو من آلام مبرحة ، فان ادارة المستشفى تبقيها على قيد الحياة أياما براحة تامة وفى ظل عناية كاملة ، قبل أن يتولى الطبيب الانسانى الدكتور مراد رئيس البيطريين فى المستشفى . ومن أكثر من عرفت لطفا واخلاصا لواجبه وعمله المحزن ، الخلاص منها . وهذا الطبيب المصرى مخلص لعمله كل الاخلاص ، فهو يعمل سبعة ايام فى اسبوع ، ولا يأخذ اجازة مرة واحدة . وهو يقول دائما ... « ان عملى هو حياتى ، ولذا فانا لا احتاج الى اية عطل » .

ولاريب فى أن التجربة التى مررت بها فى هذا المستشفى من

التجارب المؤثرة ، وانا أنتقل من مكان الى آخر ، ارى هنا حيوانا مسكينا يقف متألما وقد أدار وجهه الى الحائط ، رصرفته آلامه عن الاهتمام بكل ما يدور حوله ، كما ارى هناك حيوانا يبدو عليه النشاط ، وقد لمعت عيناه حيوية ، وانتصبت أذناه ، ومد رأسه الى الخارج متطلعا ذات اليمين وذات اليسار · وامام هذا وذاك ، بطاقة تحمل تاريخ دخول الحيوان الى المستشفى وسبب دخوله · ورأيت حالات من البثور فى ظهـــور بعض الحيوانات ومعظمها من الحمير من جراء الاثقال فى الحمل ، وهى ظاهرة مؤسفة ومؤلمة · وقد ذكر لى الدكتور مراد ، والسيدة تيلور ـ سميث ، ان ادارة المستشفى تحاول افهام أصحاب الحيوانات ان تحميلها أكثر من اللزوم ، بالاضافة الى مافيه من قسوة ، سياسة سيئة ، لأنها تعرضهم لخطر اضاعة حيواناتهم ، وان تقدما كبيرا قد تحقق فى هذا السبيل ، اذ ان أصحاب الحيوانات أخذوا يعنون بها ، لأن خسارتها ، امر يضر بهم ، ويؤذيهم فى معاشهم · ويقول الدكتور مراد ان الفلاح المصرى ، رفيق بالحيوان بطبعه ، ولكن فقره يدفعه أحيانا الى محاولة استخلاص كل طاقة له على العمل ، ليعول نفسه وعائلته وحيواناته ، وهنا تدخل مشكلة تحميل الحيوانات فوق طاقاتها ، وتعرضـــــها للاعيـاء والمرض والموت ، مما يزيد الفلاح فقرا ·

لكن حالة الفقر هذه آخذة فى التحسن اليوم ، وقد اصبحت أقل مما كانت عليه قبل سنوات · فالدولة تعمل الكثير من أجل الفلاحين ، كما رأينا فى فصول سابقة ، لكنها لم تنتصر بعد على الفقر انتصارا كاملا ، ولذا فان آلام الحيوانات لم تنته بعد ، وان قلت أمراضها الناشئة عن الافراط فى تحميلها الى حد كبير · وتظهر الاحصاءات اليوم ان اصابة الحيوانات فى حـــوادث الطرق ، قد أضحت أكثر ضررا بالحيوانات من سوء معاملة أصحابها لها ، ولعل من سوء الحظ ، ان هذه الحوادث آخذة فى الازدياد سنة بعد أخرى ، من جراء ازدحام الطرق بالسيارات وعـــدم صلاحها لسير الحيوانات ·

ومستشفى بروك نظيف جدا ، والشــــارع أمامه مكنوس دائما · وهناك حوض لسقاية الماء خارج المستشفى على الطريق ، ولعله الحوض الوحيد فى مصر القديمة ، ولذا فان الحيوانات تؤمه للشرب منه بمعدل مائتى حيوان فى اليوم الواحد من ايام الصيف ومائة فى أيام الشـــتاء · ولا تجد الجيـــاد والبغال والحمير احواضا للشرب فى شـــوارع القاهرة الأخرى وأسواقها ، مما يجبرها على البقاء احيانا ساعات طويلة دون ان

تشرب • وقد حصلت ادارة المستشفى فى عام ١٩٦٣ على اذن باقامة ثلاثة احواض أخرى فى بعض الحوارى حيث تؤمها الحيوانات من أرجاء المدينة •

وهناك بعض الابل تمر بالمستشفى فتشرب من حوض الماء وهى فى طريقها الى « السلخانة » لتذبح لكن المستشفى لا يقوم بعلاج الابل •

ويسمى الناس الشارع الذى يقوم فيه المستشفى بشارع « الست الانجليزية » نسبة الى السيدة بروك • ولاريب فى أن هذا الاسم سيظل، حتى ولو نقل المستشفى الى مكانه الجديد •

١١ - سقارة - الهرم المدرج .

المسافة قصيرة بين القاهرة واهرام سقارة ، اذ انه لا يبعد عن العاصمة اكثر من بعد حلوان عنها ، وان كانت سقارة وحلوان على ضفتين متقابلتين من النيل . ولكن بينما تعتبر حلوان الواقعة على الضفة الشرقية من النيل بلدة حديثة منتعشة . لا تعدو سقارة الواقعة على ضفته الشرقية ان تكون مدينة للأموات . وهي ليست في الواقع الا جبانة مدينة ممفيس عاصمة مصر القديمة حتى ايام الاسكندر . فهي المكان الذى يذهب اليه المرء ليرى الهرم المدرج ، الذى يشاهده السائح من مكان بعيد عبر الصحراء ، حتى اذا وقف على ارض مرتفعة قرب ابى الهول . ويبدو الهرم آن ذاك قريبا وبعيدا في آن واحد ، صغيرا وفريدا في بطن الصحراء ، وكان السائحين لا يقتربون منه ، مع أن هذا مخالف للحقيقة ، وان كان السائحون لا يؤمونه بالكثرة المددبة التى يؤمون بها اهرام منطقة الجيزة .

وكان الطقس قد تبدل في اليوم الذى مضيت فيه مع محمد على الى سقارة ، فبعد تلك الحرارة الشديدة التى لم تكن في موسمها، تحول الطقس الى البرودة اللطيفة التى تجمع الدفء اللذيذ، وهو أهم ما يتميز به الطقس في مصر في الخريف . وكنت تواقة الى زيارة سقارة بعد أن تأخرت عن زيارتها في العام المنصرم ، وبعد أن رايتها بوضوح من الجانب الآخر من النهر عندما زرت حلوان . واحسست بالسعادة وانا أمضى في السيارة الفارهة مع على محمد على خارجين من القاهرة على طريق الجيزة، الذى تحيط به الاشجار العالية، وازهارها الحمراء ، والدارات القابعة وراء أسوار تغطيها شجيرات الدفلة ذات الأزاهير الخمرية

اللون وشجيرات الياسمين المتسلقة ، والعرائش التى تغطيها غصون الكرمة الصفراء . وهكذا لم تكن الطريق الى الاهرام كما كانت فى هذه المرة ، عابقة باريج الزهور ، ونسيم النهار العليل .

وتجاوزنا الأهرام لنجد الارض مخضرة حول جانبى الطريق بالزراعة الكثيفة وملأى بالبيوت المبنية من الطين . وما كدنا نعبر ما يشبه غابات النخيل . حتى رأينا امامنا الهرم المدرج . يقف فوق مرتفع من الارض . ويرى المرء فى سفوح سقارة الرملية منظرا رائعا عبر السهل المكتظ باشجار النخيل وغيرها من النباتات الخضراء ، حتى جبال المعطم .

ويرجع تاريخ هرم سقارة الى عهد أبعد من تاريخ أهرام الجيزة . التى بنيت فى عهد ملوك الاسرة السادسة . فقد بناه الملك زوسر ، الملك الثانى فى الاسرة الثالثة ، وقد خططه امنحوتب الذى الهه البطالسة فجعلوا منه اله الطب وقد اقيمت الأضرحة تخليدا لذكراه ، وما زال ضريح جزيرة الفيلة قائما حتىالآن ، ويفد اليها المرضى يرجون الشفاء. كما تفد اليها النسوة العاقرات يأملن فى الحمل والولادة . ولا يعرف الكثير عن امنحوتب، لكن الاهمية تبدو فى اعتبار البطالسة له منالآلهة. والمعروف انه كان وزيرا للملك ، وينسب اليه علماء التاريخ المصرى القديم كل ما وقع من تقدم فى الفنون والبناء فى ذلك العهد . ويسجل مانيثو الكاهن المصرى الذى عاش فى عهدى بطليموس الاول وبطليموس الثانى فى كتابه التاريخى عن مصر الذى وضعه باللغة الاغريقية أن أول بيت من الحجر قد بنى فى عهد الملك توسور ثوروس (زوسر) . والهرم المدرج مبنى من الحجر وان بدا من بعيد وكانه من الآجر . ويعتقد أنه اول بناء من حجمه فى العالم اقيم من الحجر . ويرتفعالهرم مائتى قدم ، وهو نصف ارتفاع الهرم الاكبر فى الجيزة ، هرم خوفو ، وقد بنى فى سلسلة من ستة سلالم . وكان فى البداية محاطا بمجموعة من المعابد المبنية من الحجر الكلسى الابيض ، لاقامة الشعائر الجنائزية فيها ، كما احيط المكان كله بسور يرتفع ثلاثة وعشرين قدما .

وهناك بقايا رواق يضم أربعة واربعين عمودا على كل واحد منها تمثال الملك زوسر ، وان لم يبق منها حتى الآن الا تمثال واحد ، محفوظ فى دار الآثار المصرية فى القاهرة . وبالرغم من التحطيم الذى لحق بهذه الاعمدة المقامة من حجر الكلسى ، فانها ما زالت فى وضع مدهش من الصيانة ، جميلة فى ألوانها ، وقد ظهرت الخطوط واضحة فيها . ومن

المعتقد انها شيدت فى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد تقريبا ٠ وهناك اعمدة مخططة ايضا تقف فى مدخل آثار معبد صغير ٠

وكان الحفر يجرى عندما زرت سقارة فى قبر يبلغ عمقه ثلاثين مترا وقد جرت حفريات كثيرة منذ عام ١٨٦١ ، وذلك عندما اكتشف ، اى ان ماريبت ، تماثيل عجول آبيس ٠ وعثر جى ٠اى ٠ كويبيل فى عام١٩٠٥ على بقايا دير القديس ارامِيا القبطى ، كما قام فليندرز بيترى الذى كان يعمل فى الفيوم بين عامى ١٨٨٨ و ١٨٩٠ ، باعظم اعماله هناك ٠ واجرى سيسيل فيرث بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٣١ ، لحساب مصلحة الآثار المصرية عدة اكتشافات مهمة للغاية ، وبينها غرفة زرقاء الجدران اكتشفها تحت الهرم ٠ وتضم ثلاثة شواهد ملكية ٠ وتم فى عام ١٩٣٨ اكتشاف آثار اقدم عهدا ، منها قبر سليم للاسرة الثانية ، وبينها بقايا وليمة ملكية تضم الاطباق للحوم والاسماك والحمام والحساء وحلويات الفاكهة والخبز ، وآثار اقدام الرجال الذين حملوا المومياء الى القبر قبل اربعة آلاف عام ، وقد ظهرت واضحة على الارض الرملية(١) ٠

ومن الطريف ان نذكر هنا انه عندما فتح عمرو بن العاص مصر وبنى مدينة الفسطاط ، التى تواجه ممفيس القديمة عبر النهر ، استخدم العاصمة القديمة كحجر لبناء المدينة الجديدة ٠ وقد استخدمت الحجارة التى بقيت فى ممفيس بعد بناء الفسطاط ، فى بناء مدينة القاهرة ، ولم يبق من تلك المدينة التى كانت قائمة بمعابدها وقصورها وابنيتها السكنية والأثرية اى اثر ، سوى مقبرتها القديمة فى المنطقة المعروفة الآن بسقارة وقد حمتها كثبان الرمال الصحراوية التى ظلت تهب ألوف السنين تنتظر معاول علماء الآثار فى القرنين التاسع عشر والعشرين ٠

لكن غارة وقعت على قبر الملك زوسر قبل أن تهب هذه الرمال ، وانتزعت جثته منه ٠ وقد عثر فى الآونة الاخيرة على بقايا مومياء فى خندق فى المنطقة ، ويعتقد انها مومياء احد الملوك وعثر فى عام ١٩٣٤ على بقايا قدم محنطة فى غرفة مقدودة من الصخر تحت الهرم ، ويعتقد انها تمت الى آخر العظماء من قدماء الفراعنة ٠

---

(١) مقال عن الآثار المصرية فى الموسوعة البريطانية فى عام ١٩٥٧ بقلم اش ٠ ار ٠ هولاند هول ، خازن الآثار المصرية والآشورية فى المتحف البريطانى ، ودبليو ٠ ب٠ ايمرى أستاذ الآثار المصرية فى جامعة لندن ٠



١٢ - السياحة

تعتبر السياحة صورة مهمة من صور مصر ، لا بسبب كثرة عدد السياح الذين يفدون اليها فحسب ، بل وبسبب وفرة عدد الفنادق التى ترتفع بمعالمها الحديثة الى السماء فيها ابتداء بالاسكندرية وانتهاء باسوان. وتعتبر هذه الصورة من الصور البارزة والمثيرة للاهتمام فى مصر عبد الناصر ، كما تعتبر موردا كبيرا من موارد الاقتصاد المصرى . وتتحدث المؤسسة المصرية العامة للسياحة والفنادق بكثير من الاعتزاز عن التطور السياحى العظيم الذى وقع فى صناعة الفنادق المصرية ، معتبرة اياها من الثورات ايضا .

فقبل فترة قصيرة لم يكن فى القاهرة كلها الا ثلاثة فنادق كبيرة اولها فندق شبرد القديم فى وسط المدينة وفندق الكونتننتال القديم على مقربة منه فى ميدان الاوبرا وفندق سميراميس القديم على شاطىء النهر . أما اليوم فيرتفع فندق شبرد الجديد بطوابقه العشرة ليواجه الغروب عند النيل على جانب من جسر التحرير بينما يقوم فندق هيلتون الى الجانب الآخر من الجسر ، وهو أكثر منه ضخامة وروعة . وهناك على الطرف الثانى من النيل ، وفى الجزيرة ، فندق جديد للغاية هو فندق البرج القريب من برج القاهرة وعلى مسافة منه وعلى مقربة من الجسر الثانى فندق عمر الخيام الذى احتل قصر آل لطف الله السابق . وكان الخديوى اسماعيل قد بنى هذا القصر لتنزل فيه الامبراطورة يوجينى ، والامبراطور فرانسوا جوزيف وغيرهم من ملوك ذلك العصر وامرائه وقد جاء تلبية لدعوته التى وجهها للاحتفال بفتح قناة السويس . وعندما احس الخديو بالضائقة نتيجة اتلافه وتبذيره ، باع هذا القصر الى احدى الشركات ، ثم جاء لبنانى ثرى

يدعى ميشيل لطف الله فابتاعه . وقد حولته الجمهورية العربية المتحدة الآن الى فنـــدق سياحي من الدرجة الاولى . فاقامت نحوا من مائتين من الشاليهات المصرية في حدائقه ليحتلها السائحون . وقد زخرفت كلها . كداخل القصر بالصور والرسوم الفرعونية المنقولة عن الصـــور الاصلية المحفوظة لدى المركز القومي للوثائق والبحوث . واســـتخدمت في هذه العملية مئات الصور المنقولة على البلاستيك لمعابد ابي سمبل وغيرها من المعابد النوبية . وبعوم هذه الشاليهات وسط أشجار المانجا العالية التي تضفي عليها ظلالها تحيط بها الازاهير من كل ناحية . ولكل واحدة من هذه الشاليهات شرفتها وغرفة نوم فيها وحمامها . وكلها مجهزة بتكييف الهواء وأجهزة التلفزة والهاتف . ولاتزيد التكاليف فيها عن اجرة الفندق . فهي ستة جنيهات مصرية في اليوم مع جميع وجبات الطعام . وان كانت بعض غرف الطبقة الاولى من الفندق نفســه بستة جنيهات للنوم والفطور فقط .

وتمتاز غرف الفندق بأنها على طراز قصور الف ليلة وليلة . ففيها التحف والاثاث المذهب والمقصب . اذ أن الفنــدق ما زال قصرا . وفيه بار من أحسن البارات تجهيزا واعدادا . وقد احتــل احدى غرف الفندق الرائعة . وقد أجد انا ان من الافراط في الترف ان أقيم في مثل هذا الفندق . ولكن في وسع الذين يحبون الفخامة والابهة أن ينزلوا فيه . اذ أن الخديوي اســماعيل . لم يأل جهــدا في جعله من أفخر القصـــور في بنائه اثيرنطي وأثاثه وزياشه .

ويبدو أن المسئولين عن فندق شبرد شعروا بأن الفندق برغم سمعته ليس كافيا . فضافوا اليه بناء خاصـا المغوه به . ومن المتوقع أن يهدم فندقسميراميس القديم . ليقوم محله بناء يرتفع ثلاثين طبقة . لكنه مازال في مكانه وأنا أكتب هذا الكتاب . وقد شهدت الغروب من شرفته القديمة الطراز مرات عدة . وقد يكون لا يزال في موضــعه عندما يصدر كتابي . وان كانت تصاميم البناء الجديد قد وضعت . ورسمت خرائطه . وأصبحت أيامه معدودة . والبناء قـــديم ومعقد . ولكن بعض الســـائحين الاجانب يحبونه لقدمه وتعقيده . وهما سببان يدعوان لهدمه . تماما كما كان بعض الناس يحبون فندق بارون القديم . الذي يقوم هيلتون الآن مكانه . وقد امنت مصلحة الفنادق . وليس لشركة هيلتون بالنسـبة الى الفندق الذى يحمل اسمها الا حق الادارة .

وكانت الجماهير قد احرقت شبرد القـديم في عام ١٩٥٢ . عندما ثارت الحرائق في القاهرة كلها. وقد بنى صمويل شبرد هذا الفندق فيعام

١٨٤١ واطلق عليه اسم الفندق البريطاني الجديد ، اذ كان أشهر فندق في الشرق الاوسط ، وكان كما أسماه تيرنس بيلبوت في حديث ألقاه في الاذاعة البريطانية « واحة الشاي والخبز المقمر (التوست) وسط صحراء من الطعام المصرى والازعاج » • وأشار اليه في حديث تليفزيوني بأنه كان « محور سلطان بريطانيا ونفوذها في مصر » • وبعوم مرأب للسيارات في مكانه ، كما تقوم أحيانا مدينة للألعاب هنـاك • ولا يظهر الآن على الخريطة الا كمكان لوقوف السـيارات ، بينمـا يكتظ السائحون ذاهبين آيبين في فندق الكونتننتال المجاور ، الذى باتت أيامه معدودة أيضا •

ولم تكن هنـاك حتى نهاية الحرب العـالمية الثانية حركة سـياحية بمعناها الصحيح . أجل كان هناك زائرون لأهـرام الجيزة وأبى الهول بالطبع ، ولكن لم يكن هناك شيء يقرب من الحركة السياحية الموجودة الآن. والتى تجعـل من السياحة في الجمهورية العربيـة المتحدة ، المورد الـكبير الثالث للنقد الاجنبى بعد القطن وقناة السويس . وأكثر مشروعات البلاد توسعا ونموا• وقد انتعشت هذه الحركة السياحية في عهد الدكتور محمد عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء للثقافة والارشاد القومى . والذى يتحدث عن مصر كأرض التسامح التى تحترم الديانات والمذاهب كلها . والبلاد التى لجأ اليها المسيح ومريم العذراء ويوسف ، والتى تعتبر فيهـا السياحة « جواز سفر الى السلام » •

لـكن ثورة السـياحة لا تقتصر على القـاهرة وحدها • وتقضى الخطة الخمسية بأن تكون هنـاك فنادق رائعة مكيفة الهواء في جميع الاماكن التى تهم السـائحين الاجانب ، من سـاحل البحر الابيض المتوسط الى سـاحل البحر الاحمر • وسيكون هنـاك فندق لهيلتون في الاسكندرية ، وتم بناء فندق واسـتراحة في العلمين الى الغرب من الاسكندرية . كما تم بناء عشرة شاليهات في الغردقة على البحر الاحمر ، مع العزم على بناء عدد آخر منها وفندق في نفس المكان ، ويجرى تطوير السويس الآن كمركز سياحى ، كما سبق لنا أن قلنـا ، وسيفتتح فنـدق رائع في بورسعيد في أكتوبر ١٩٦٥ ، بالاضافة الى فندق جديد في ادفو التى تضم معبد حور والواقعة بين الاقصر واسوان • وفي اسوان فندقها الاصغر القديم « كاتاراكت » ، وتمتد حدائقه الجميـلة المدرجة حتى النهر • والى جانبه فنـدق كاتاراكت الجديد الابيض بالاضـافة الى فندق فخم آخر هو الفونتانا وسيفتتح في عام ١٩٦٥ •

ولم أكن اعتزم هنـا أن ارسم صـورة للخطة الخمسية ، وانما كان هدفي أن أشير الى شيء من متضمناتها • وقد أقمت في بعض هذه الفنادق،

فرايتها لطيفة الجو ، نظيفة كل النظافة ، وقد أثثت تأثيثا ينطوى على الذوق ، بالاضافة الى ما تتميز به من مواقع جميلة وفخامة وفاعلية ٠
ويضاهى فندق هيلتون الذى يقوم المصريون والنوبيون بجميع الاعمال فيه ايا من فنادق هيلتون فى كل مكان فى العالم ٠ ويقضى مشروع المؤسسة العامة باقامة مدارس فندقية فى القاهرة والاقصر ، كما سيرسل نحو من مائتى طالب من طلابها للتدرب فى الفنادق الاوربية ٠ واللغة الانجليزية شائعة فى الاستعمال فى جميع فنادق مصر بالطبع ، لكن هناك فيها بعض الموظفين الذين يجيدون الفرنسية والالمانية أيضا ، ومعظمهم من النمل ٠

وتم انشاء فندقين عائمين فى باخرتين سياحيتين فخمتين ، تم بناؤهما فى مدينة ماينز الألمانية لتمخرا عباب النيل بين القاهرة واسوان ٠ وقد تسلمت الجمهورية العربية المتحدة أولاهما فى يناير عام ١٩٦٤ ٠ وكانت تكاليف الواحدة منهما ثلاثة ارباع مليون جنيه ٠ وتبلغ تكاليف رحلة تسعة أيام بين القاهرة واسوان ذهابا وايابا نحوا من مائة وعشرة جنيهات او مائة وعشرين ٠ وتشمل هذه نفقات الاداء ومواصلات الطواف ورؤية الاماكن ٠ وقد يكون هذا المبلغ كبيرا ، ولكنها رحلة مترفة ، وفى امكان السائح اذا أراد الاقتصاد ، أن يستخدم البواخر المصرية العادية ٠ وتكلف الرحلة على ظهر « ايزيس » بين الاقصر واسوان خمسة وخمسين او ستين جنيها مصريا ٠ ومن الجدير بالذكر ، أن رئيس النمل فى ايزيس من شركات هيلتون ، وقد عمل فى الخطوط الجوية الامريكية «بانامريكان»، أما قبطانها فقد عمل فى الاسطول المصرى، بينما كان معظم بحارتها يعملون فى فنادق مصر الاولى ٠

وهناك « الزوارق الطائرة » ، وتقوم بنقل السائحين بين اسوان وابى سمبل ذهابا وايابا فى نفس اليوم ٠

وتم فى عام ١٩٦٢ فتح خمسة فنادق جديدة فى القاهرة والاقصر واسوان ، ويتوقع طبقا للخطط الموضوعة فتح ثلاثين فندقا فى جميع ارجاء البلاد ٠

ومن الممكن للمرء أن يصدق دائرة السياحة عندما تقول ٠٠٠ « ان الحكومة فى سعيها الحثيث لتنشيط السياحة ، لا تعمل ذلك لان السياحة تؤلف مصدرا مهما من مصادر الدخل القومى فحسب ، ولا لانها مصدر مهم أيضا من مصادر النقد الاجنبى ، بل لانها فوق ذلك كله ، اداة فعالة لتعريف العالم بنهضتنا ، وبما حققناه من تقدم فى جميع الميادين ، ولانها فى الوقت نفسه تعزز الروابط الودية بين الشعوب » ٠ أجل من حق المرء

ان يصدق هذا القول ، لان الجمهورية العربية المتحدة ، تريد ان يفهمها العالم الغربى، وان يعيش فى سلام معها، ولان السياحة كما يقول الدكتور حاتم ، جواز سفر الى السلام ٠

وقد قلت للدكتور حاتم، اننى أعتقد أن بالامكان عمل المزيد لتعريف السائحين بما يدور فى مصر الجديدة ٠ ولو كنت مسئولة لوضعت الى جانب سرير كل سائح كتيبا صغيرا أكتب على غلافه٠٠٠ « انك رأيت شيئا من مصر القديمة ٠ فهل تسمح لنا بأن نحدثك شيئا عن مصر الحديثة ، الجمهورية العربية المتحدة » ٠ وساضمن هذا الكتيب شيئا عن المدارس فى مصر ، والاصلاح الزراعى ، واستصلاح الاراضى ، ونظام الحكم ، والاخير أمر فى منتهى الاهمية وذلك لاصلاح الفكرة التى يحملها الغربى عن مطامع مصر المزعومة فىالسيطرة على الوطن العربى٠ وقد رفعت المؤسسة المصرية العامة للسياحة والفنادق ،الشعار التالى « فى وسعك أن ترى فى مصر فى اسبوع اكثر مما تراه فى غيرها فى عشرة أسابيع » ٠ وهو شعار صحيح للغاية ، ولكن يجب أن تضاف اليه عبارة صحيحة اخرى ، واكثر اهمية وهى ٠٠٠ « ولكن هناك ما تراه أيضافى مصر بالاضافة الى التماثيل القديمة » ٠



١٣- عودة إلى غزة

تمثل زيارة غزة بالنسبة الى كل من يحمل القضية الفلسطينية عميقا في شغاف قلبه كما احملها ، مصدر حزن وسعادة في آن واحد ، السعادة لأن غزة هي فلسطين ، والحزن المصحوب بالغضب الشديد ، لأن هذا القطاع الذى يمتد خمسة وعشرين ميلا طولا ، وخمسة اميال عرضا هو كل ما تبقى من فلسطين الحرة، عندما قررت الأمم المتحدة في التاسع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٤٧ ، وباقرار من ثلاث وثلاثين دولة مقابل ثلاث عشرة دولة كلها من غير الدول الاوربية باستثناء اليونان ، تقسيم فلسطين ، واقامة الدولة اليهودية التى اسميت فيما بعد اسرائيل – في تلك البلاد العربية . ويعيش مليون لاجيء فروا من الاحتلال اليهودى ، كانوا يؤلفون غالبية سكان البلاد ، اما في معسكرات في البلاد العربية تغيثهم وكالة الاغاثة الدولية أو متفرقين في ارجاء الشرق الاوسط ، مبعدين الى حياة الهجرة ، وهؤلاء اسعد حالا من الآخرين ، لأنهم المتعلمين منهم والذين استطاعوا شق طريقهم في التجارة أو الحرف الاخرى . اما نصف المليون او يزيدون الذين يعيشون في المعسكرات فهم أبناء الريف وصغار الزارعين وأصحاب الأرض الزراعية وبساتين البرتقال والزيتون التى غدت الآن في ايدى الاسرائيليين ؛ والتى لم يحصلوا منها طيلة هذه السنوات الطويلة على قرش واحد مع انالأمم المتحدة نصت فيقراراتها على حقهم فيالعودة اذا ارادوا أو في التعويض اذا لم يرغبوا في العودة . وتعود الجمعية العامة في كل عام فتؤكد هذا القرار ، ولكنها لا تفرض اى ضغط لتنفيذه . وما زالت جولدا مايير وزيرة خارجية اسرائيل تعلن ... « ان سياستنا لم تتبدل . ولن نقبل لاجئا واحدا » .

وقد ذكرت ان قطاع غزة هو كل ما تبقى من فلسطين الحرة ، لأن الضفة الغربية لنهر الاردن والتى ظلت فى أيدى العرب، ضمت الى الاردن، اى اتحدت مع الضفة الشرقية المسماة بشرق الاردن بعد سنة واحدة من التقسيم ، وأصبحت تؤلف المملكة الهاشمية الاردنية التى كان عبد الله اول ملك لها . وهكذا توقفت فلسطين عن الوجود ، كاسم ، وكمكان على الخارطة ، وككيان جغرافى واجتماعى وسياسى(١). ولم يبق منها الا قطاع غزة الواقع على ساحل البحر الابيض المتوسط ، والذى كانت تديره مصر، ثم اصبح له دستوره الخاص منذ عام ١٩٦٢ .

وهكذا لم يبق من فلسطين الا هذه الخمسة والعشرون ميلا من الساحل ، بعد أن كانت تمتد من حدود لبنان شمالا الىحدود سيناء المصرية جنوبا ، وتضم مينائى حيفا ويافا اللذين أصبحا الآن فى اسرائيل .

وهناك أماكن فى الأردن يستطيع المرء منها أن يطل عبر الارض المحايدة والمنطقة المحتلة على البحر ، وهى الارض المحرمة كلها على أبناء فلسطين . باستثناء تلك المساحة التى لا يزيد طولها على خمسة وعشرين ميلا والمسماة بقطاع غزة .

والوضع هنا لا يعدو أن يكون كما لو كان فى بريطانيا ، اذ يقف الشعب الانجليزى عند « الداونز » نيطل عبر الريف الانجليزى وهو فى أيد غريبة جاءت من جميع ارجاء العالم ، على القناة الانجليزية ، التى لا يستطيع أفراد هذا الشعب الوصول اليها الا اذا كانوا من سكان المنطقة المحتلة ، لأن هذا البحر محرم عليهم ، باستثناء قطعة صغيرة منه تمتد بين بيكسهيل وبرايتون ولا تبعد الى الداخل أكثر من خمسة أميال .

اذا سافر المرء فى القطار من القاهرة الى غزة لا بد أن يتحول قطاره من محطة الزقازيق ، فى قلب الدلتا ، ليعود فيعبر القناة عند القنطرة ، ثم يسير محاذيا الساحلالشمالى من شبه جزيرة سيناء ، بين البحر الازرق اللألاء من ناحية والصحراء التى لا حدود لها ولا نهاية من الناحية الثانية. ويخلو القطار عند العريشمن الضباط المصريين الذين ينتقلون الىشاحنات تنتظرهم خارج المحطة . ويقف القطار وقفتين طويلتين احداهما عند القناة والثانية على الحدود حيث يستقل موظفو الجمارك والجوازات حافلات القطار . وكاد خلو جواز سفرى من تاشيرة عودة يثير مشكلة انطوت على الذعر

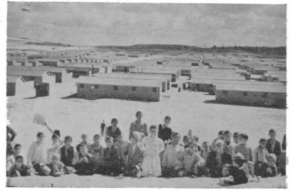
---

(١) لكن فلسطين ستظل برغم جميع محاولات الاستعمار طمس اسمها والاعفاء على آثارها . حتى تعود الى أهلها . جزءا من وطنهم العربى الكبير .

(المعرب)



مشروع عامر لاستصلاح الصحراء فى غزة



مخيم جباليه

والياس ، ولكن السيد علي محمد علي ، رفض قبول مثل هذه الشكليات ، واصر على رفض مناقشتها ، وادى اصراره الى تسلمي الجواز في النهاية مع الود الزائد . ويبدو أن الانجليز ليسوا هم وحدهم الذين يحتكرون عدم المرونة .

ورايت الرصيف في المحطة الواقعة على الحدود مكتظة برجال واولاد يبيعون الملابس المستعملة ، يحملونها على علاقات . ورايت أولادا في اسمال يصعدون الى القطار ويهبطون منه يبيعون السمك المدخن وبعض المواد الغذائية الاخرى ، وبينها بعض التمر المفرط في الحلاوة والملفوف في أوراق النخيل . وتحتشد الشوارع التي تمتد من المحطات الصغيرة، والتي تبدو فيها اشجار النخيل المغبرة ، برجال وأولاد في ملابس مهلهلة ، تبدو في عيونهم نظرات الحرمان والشقاء . هذه هي فلسطين . وهؤلاء هم ابناؤها المشردون واللاجئون .

ومن المثير احيانا للمرء ان يرى فجاة البحر الازرق الى جواره ، بعد ان يكون قد قطع الساعات الطوال ، عبر الصحراء الرتيبة . وبين خان يونس وغزة ، شطئان جميلة من الرمل الابيض تضم مناطق فيها اشجار النخيل العالية ، وخيام البدو منتشرة هنا وهناك ، وقد التصق بعض هذه الخيام المصنوعة من الوبر ، باسوار الدارات الجميلة على الشاطىء ، وقد ضمت اشجار الصفصاف والكافور ، وعلتها الشجيرات المتسلقة .

وقد ذكر لي احدهم في القاهرة ، انه كان يحب دائما السفر الى غزة، لانه يتعشق قطع سيناء ، اما انا فاخبه لأنني ادرك فجاة انني اصبحت على أرض فلسطين .

كانت غزة للقادم الى ارض فلسطين الحرة التي أصبحت اليوم اسرائيل ، من جهة الشمال ، من لبنان ، تعتبر « مدخل مصر » ، وقد أدرك البريطانيون هذه الحقيقة في عام ١٩١٧ عندما شنوا هجومهم على الاتراك دفاعا عن قناة السويس . اما اليوم وبعد عام ١٩٤٨ ، فقد أصبحت غزة للقادم من مصر ، بوابة « فلسطين الحرة » . ولعل من المفارقات العجيبة في ايام التوراة ، أن غزة كانت احدى مدن الفلسطينيين الرئيسية الخمس ، التي استخدمها أهلها معاقل لوقف هجوم القبائل العبرية . وقد رأينا الاسرائيليين في عام ١٩٥٦ يهاجمون غزة ، وقد احتفظوا برغبتهم القديمة في الاعتداء والهجوم حتى يضموا الى الدولة اليهودية ، آخر شبر من ارض كنعان القديمة .

وقد حدثت أشياء فظيعة في غزة أيام العدوان الثلاثي في نوفمبر

عام ١٩٥٦ . وقد حدثني منـير الريس . رئيس بلدية غزة ، عما وقع له شخصيا ، اذ قال ... « لم ارغب في المرة الماضـية التي قابلتك فيهـا ان احدثك عن نفسي ... لكنني هذه المرة ساحدثك » .

فقد اعتقـله الاسرائيليون فور دخول قواتهـم الى غزة ، اذ ظل في بيته ، بيت آبائه وأجداده ، البيت الذي ولد فيه ، بالرغم من القنابل التي انهالت على المدينة . وقدخرج من بيته يحمل أصغر اطفاله بين ذراعيه . وأصيب المنزل بثلاث قنابل مباشرة ، ولا سيما ان القصـف شـمل البحر أيضا .

واعتقل الرجل ونقل الى السجن ، في زنزانة منعـــزلة حرم فيها القراءة ، ومواد الكتابة والسجائر ، والصابون مدة ثلاثة وسبعين يوما . ولم يكن يستطيع أن يفعل شيئا سوى ان يجتر افكاره ، وينتظر انقضاء الأيام .

وجاءه في السجن ذات يوم قائد اسرائيلي وقال له انهـم سينقلونه الى تل أبيب حيث يتحدث عن طريق الاذاعة الى أهل غزة ، بوصفه رئيس بلديتهم السابق ، مؤكدا لهم ان المصريين لن يعودوا الى غزة ، وان عليهم أن يتعاونوا مع الاسرائيليين وان يعاملوهم كاخوة . ورفض السيد الريس اطاعة هذا الأمر ، قائلا : ان عينيه ستظلان لاتريان طالما ان بلاده محتلة ، وستظل اذناه لاتسمعان ، وشفتاه لا تتكلمان ، وان الموت أهون لديه من تلبية ما طلب اليه أن يفعله .

وقال القائد الاسرائيلي بفراغ صبر ، ان وقته لايسمح له بمناقشته ، ثم خلفه في سجنه الانفرادي . وراح السيد الريس يصرف الوقت بقرض الشعر ، حافظا ما ينظمه ، طالما انه لايملك ورقة او قلما ليدون ما يقوله . وذكر ان بين هذه الابيات بيتا يقول ان الاســد لا ينتقص من قيمتـه أن يسجن ، وقد احس بنفســه ذلك الاسد ، وبان مقاومتـه لن تضعف ولن تنهار .

وقابلت ابن عم له ، كان الاسرائيليون قد ســجنوه أيضـا في تلك الايام . وذكر لي ان حراســه الاسرائيليين كانوا يسلون انفسهم باعطائه اقداح الشـاي ثم ينخرونه في بطنـه ليجبروه على تقيؤ ما يشربه . وقد كرروا معه هـذا العمل عدة مرات . واضـاف أنهم لطموه على وجهه مرارا وتكرارا الى ان أصاب الخدر وجهه فلم يعد يحس بالألم .

وقال منير الريس أنه شكا وهو في الســجن من القذارة ، اذ انه لم

يستحم أسابيع طويلة ، فراحوا يبعثون اليه بشاب فلسطيني ليرشه بالدى ٠ دى ٠ تى ٠ وعندما عرف الغلام هويته، اذ كان يعرفه وهو رئيس لبلدية غزة ، سالت دموعه ، وقال انه لا يستطيع أن ينفذ أوامره ٠

وقال السيد الريس ٠٠ « ولكنني طلبت اليه أن ينفذ اوامره ، وقد نفذها ٠

وأطلق الجنرال بيرنز قائد قوات الطوارىء الدولية سراح منير الريس عندما دخل غزة في مارس عام ١٩٥٧ ٠ ويسجل الجنرال بيرنز ذلك في كتابه الرائع « بين العرب والاسرائيليين » فيقول ٠٠٠ « وفي الحادى عشر من مارس قابلت منير الريس الذي كان رئيسا لبلدية غزة قبل الاحتلال الاسرائيلي ، والذى اطلقنا نحن سراحه عندما تسلمنا السجن ٠ وكان قد وجه عدة طلبات منها اعادة فتح المصارف واطلاق سراح بعض المسجونين وما شابه ذلك ٠ وكان قد جاءني مع عدد من الاعضاء السابقين في مجلس بلدية غزة ، ليبحثوا معي فيما سيعملونه ، ولكن موقفهم من قوة الطوارىء الدولية ظل متحفظا ٠٠٠ وبدا لي بهذه المناسبة راضيا من تأكيدى له بأن قوة الطوارىء لم تأت لتدويل القطاع ، وانما جاءت لتنفيذ المهام التى فرضتها عليها قرارات الجمعية العامة ، وراح يظهر بعد ذلك روحا تعاونية ضمن حدود » ٠

وروى لي فلسطيني مسيحي من اهل غزة ، ان الجنود اليهود قالوا له في أثناء الاحتلال ، انهم اذا رأوا منه ما يزعجهم فسيعملون به ، ما عمله اجدادهم بالسيد المسيح ٠

وقيل لي ان اضطرابا وقع في غزة في أثناء الاحتلال اليهودى ، عندما خرجت النساء من معسكرات اللاجئين يتظاهرن في الشوارع احتجاجا على خطف اليهود لسيدة عربية حبلى والاعتداء على عفافها وقتلها ، وكانت النسوة المتظاهرات يهتفن ٠٠٠ بأعلى أصواتهن ٠٠٠ « يحيا عبد الناصر ٠٠٠ تحيا العروبة ٠٠٠ تحيا فلسطين » ٠

ووقعت عدة حوادث اضطرابات في غزة بالرغم من التهديدات التي كانت تنطلق من السيارات اليهودية المزودة بمكبرات الصوت ، وهي تجوب الشوارع ٠ وصدرت الأوامر الى التجار بفتح حوانيتهم ، والى الآباء بارسال اطفالهم الى المدارس ، ولكن الحوانيت لم تفتح ، ولم يذهب الاطفال الى المدرسة ٠ وثار اليهود باعتقال جميع الشبان وزجهم في معسكرات الاعتقال تماما كما فعلوا في عام ١٩٤٨ ٠

واعتقل الجنود اليهود فى الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٥٦ ، اربعين طالبا ونقلوهم الى خطوط الهدنة حيث ربطوا أعينهم ثم أطلقوا النار على ظهورهم ، ودفنوهم في حفرة واحدة • واكتشفت جثثهم فى الثالث والعشرين من مارس عام ١٩٥٧ ، بعد انسحاب القوات الاسرائيلية من القطاع • وتمت عملية نقل الجثث بالشاحنات الى مدافنها الكريمة بحضور رئيس بلدية غزة الذى عاد الى منصبه ، السيد منير الريس ، وممثل الحكومة وقوة الطوارىء الدولية ، ولجنة الهدنة المشتركة والصحافة• وقدم السيد الريس الى بعض الصور لهذه العملية المؤلمة فى السنة الماضية ، طالبا الى بشىء من المرارة أن انشرها فى كتابى «٠٠٠ رمح للعرب»• ولم احقق له رغبته لأننى رأيت فى هذه الصور شيئا رهيبا . لكن الحقيقة رهيبة ، وهى تلحف على الناس بضرورة التعريف بها • ولذا قررت بعد الذى سمعته فى غزة هذه المرة أن أنشر بعضها •

كان الفندق الواقع على الشاطىء مكتظا فى المساء بشبان قوة الطوارىء الدولية ، وهم يحتسون الجعة ، ويغنون الاغنيات حول البيانو • كانوا جميعا من الصغار الشقر الشعور ، اذ ان معظمهم من البلاد الاسكندينافية. أما الكبار منهم فكانوا يجلسون فى الصالة يحتسون الويسكى • ورأيت مجموعة من الكنديين الصلبى الاعواد • وكان معى السيد على محمد على ، والسيد حمدى حرز الله ، وهو موظف فى مكتب الشئون الاجتماعية واللاجئين فى غزة ، انه فلسطينى ومن بئر السبع • وتقدم منا ونحن مشغولون فى الحديث ، كندى ضخم الجثة ، بدت عليه علائم السكر • وراح بعد ان اعتذر الينا عن تطفله يسالنا عن هوية صاحب صورة كبيرة كان يحملها• انها صورة المشير عبد الحكيم عامر النائب الاول لرئيس الجمهورية العربية المتحدة ونائب القائد الاعلى لقواتها المسلحة• وقطع السيد حرزالله حديثه معى ، ليعرفه بصاحب الصورة • واعلن الكندى انه يحس بشىء من الحيرة تجاه وضعه وعمله• فهو يعرف أنه فى مصر ، ولكنه لا يعرف لماذا جاء اليها • ورد السيد حرز الله ، بأن غزة من فلسطين ، بل انها كل ما تبقى من فلسطين بعد خلق اسرائيل •

واحس الكندى بشىء من القلق ، واراد ان يعرف من هو رئيس دولة فلسطين وهل هو «ناصر» •

فرد السيد حرزالله ، بأن الرئيس عبد الناصر، هو رئيس الجمهورية

العربية المتحدة التي لم تعد تسمى مصر ، وأن بن جوريون هو رئيس الدولة اليهودية ؟ (١) ٠

فقال الكندي ٠٠٠ اذن فزعيم فلسطين في اسرائيل ، اهذه هي الحقيقة ؟

وتبادلت مع السيد على النظرات ، وأحسست فجأة ، انه لم يعد في وسعي أن أحمل المزيد فعلت ٠٠٠ ، الامر في منتهى البساطة ٠ فاسرائيل هي القسم الذي تحتله اليهود من فلسطين ٠ وغزة هي كل ما تبقى من فلسطين العربية ، باستثناء ذلك القسم الذي ضم الى الاردن ٠

وقال الكندي ٠٠ ولكن أليس ثمة ملك في الاردن ؟

ورددت بالايجاب ٠ فالاردن بلد منفصل ٠ وهناك عدة بلاد عربية تماما كما أن هناك عدة بلاد أوربية (٢) ٠

وشكرني الكندي على ما قلته له ، واعرب عن يقينه من أن عليه أن يتعلم الكثير ، وأعرب عن أمله في ألا يكون قد أساء الينا ، وأن كل ما أراده هو أن يصحح معلوماته ٠ وحدد له السيد حرز الله مكان مكتبه . وأبلغه انه على استعداد لاستقباله فيه في أي وقت يشاء ليتحدث اليه ٠ وشكره الكندي ثم عاد الى اصدقائه، ومررنا بالجمع، فتحدث الينا أحدهم، وقال انه مر بهذا الجزء من العالم ابان الحرب ٠ وأضاف أن الحديث في السياسة محظور عليهم، ولكنه يعرف شيئا عن الوضع، وعاد رفيقه الاول يعتذر معربا عن امله في ألا يكون قد اساء الينا وان كان يقر بأن توجيه الاسئلة هو خير وسيلة للتعلم ٠

كان السيد منير الريس ، قد أعرب في أثناء زيارتي السابقة لغزة ، عن أسفه لانني سأغادر القطاع دون ان ارى المدرسة الثانوية للبنات مضيفا ان غزة تمثل أكثر من مجرد معسكرات للاجئين . ولذا قررت في هذه المرة ، وفي اليوم التالي لوصولي أن أقوم بزيارة هذه المدرسة ٠

---

(١) بن جوريون هو رئيس الحكومة لا رئيس الدولة التي يسمونها اسرائيل ٠

(٢) لا وجه للمقارنة بين البلاد العربية والبلاد الأوربية ، وذلك لأن البلاد العربية تؤلف أجزاء في وطن واحد ، وان قامت فيها دول مختلفة ، نتيجة ظروف التجزئة التي فرضها الاستعمار على الوطن العربي . أما البلاد الأوربية فتمثل شعوبا مختلفة في جنسياتها ولغتها وتاريخها ومقومات وجودها ٠

(المعرب)

حقا انها كما وصفها السيد الرئيس ، مكان رائع ، يؤلف الشطر القديم المبنى من الحجارة جزءامنها ، اضيف اليه جنحان عصريان من الاسمنت والزجاج • وهناك اشجار كبيرة وقديمة فى الفنـــاء ، وحديقـــة ملأى بالورود التى قطفوا لى بعضها بعد ان اظهرت اعجابى بها . وتضم المدرسة الفا وخمسمائة طالبة ، وستا وخمسين معلمة ، نصفهن من الفلسطينيات والنصف الباقى من العربيات •

ورايت على جدار البناء القديم ، عبارات كتبت بالعربية والانجليزية تقول •• « شعارنا ••• العودة هدفنا ، والوحـــدة ســبيلنا ، والقومية العربية ملاذنا ، وعبد الناصر قائدنا وحامينا» •

وكنت قد رايت فى مدرسة اخرى فى مصر ، شعارا مماثلا يقول .. نحن عرب • وعبد الناصر زعيمنا ، ومصر بلادنا » •

وتقف جميع الفتيات فى مدرسة غزة الثانوية فى كل صباح يؤدين التحية للعلم الفلسطينى ويقسمن يمين الولاء لفلسطين •

وهن يتلقين تدريبات عسكرية ، كسائر الطلاب فى جميع المدارس • وان كان التدريب بالسلاح يقتصر على المدارس الثانوية •

وقال السيد حرز الله معلقا باسمى .. «من المؤسف ان لغة الرصاص هى التى تتحدث وحدها فى العالم اليوم • ففى وسع المرء ان يتحـــدث ويحدث ، دون ان يهتم به • ولكن عندما ينطلق الرصاص ، يصغى العالم باجمعه الى صوته » •

وكان رايه صحيحا كما تصورت ، اذ ان العالم قد اخذ على العنف والفه • وتعتبر غزة نقطة الوثوب لتحرير فلسطين ، ويخولها دستورها ان تقيم جيشا فلسطينيا فيها • ويتلقى الشبان فى المخيمات التدريب العسكرى ، وتتقن كل فتاة فى المدارس الثانوية استعمال البندقية • وما لم يكن الانسان سلاميا كل السلامية بطبعه ، فان هذه الفكرة تكون ملهمة لديه ، ولا سيما عندما يفكر بسجل الجرائم الاسرائيلية • ولكنهـا فكرة مرعبة ايضا ، اذ ان موشيه دايان وغيره من القادة العســـكريين الاسرائيليين يخلصون اشد الاخلاص لفكرة الثار ، فقد انشـــأه الجنرال البريطانى وينجيت ، مذ كان صبيا فى احدى مستعمرات الكيبوتس — على هذه الفكرة ، وكان من اكثر طلابه تعلقا بها •

وبعد ان انتهيت من هذه الخواطر القاتمة ، رحت ادرس ما تقوم به

الفتيات من أعمال يدوية ، شملت بعض أشكال التطريز الرائعة والرسوم. وتمضي الفتيات بعد تخرجهن من المدرسة الى جامعة القاهرة . والتعليم فيها مجاني ، وهي تتلقى معونة ضئيلة من وكالة الاغاثة الدولية ولكنها ليست من مدارسها . ويظهر السيد الريس اعتزازه بان نحوا من ألف طالب يذهبون في كل عام من قطاع غزة الى جامعات القاهرة .

وكان هناك مكانان رغبت في العودة الى زيارتهما هذه المرة أيضا في غزة ، اولهما الطريق الى بئر السبع التي كنت قد شاهدتها في العام الماضي والتي اوحت الى بالرواية التي حملت هذا الاسم والتي توخيت منها أن تكون شكلا من اشكال الرد على الرواية الصهيونية « الخروج » بكل ما فيها من أكاذيب واضاليل ، وان اتحدث فيها عن قصة « الخروج » الثاني الذي دفع نحوا من مليون من العرب الى مغادرة وطنهم وديارهم واراضيهم في عام ١٩٤٨ ، في الوف الحالات من القهر والارهاب والتهديد برصاص البنادق الرشاشة . وقد وضعت هذه الرواية التي صدرت في نوفمبر عام ١٩٦٣ ، والتي قاطعتها الصحافة البريطانية كلها ولم تشر اليها بشيء . باستثناء صحيفة «الجلاسكو تايمز» التي عرضتها وقرظتها — وأعلن كاتب المقال انه مصمم على التوصية بقراءتها . حتى ولو منعت سلطات القاهرة والاسكندرية هذه الصحيفة من الدخول الى مصر . وهكذا قرظها الكاتب لأنه اعتقد أنها تتحدث عن اللاجئين اليهود ...

واردت أيضا أن أعود الى زيارة بستان البرتقال القريب من خط الهدنة والطريق الى بئر السبع ، حيث كنت مع السيد حرز الله في نفس اليوم الذي شاهدت فيه رجال الشرطة يحملون جثة راع فلسطيني ، قتله الحراس الاسرائيليون . ووقفت معه في صمت غاضب ، ننظر الى وجهه الصامت ، والى الدم الذي صبغ جلبابه القطني الابيض .

وكان لهذا البستان ايضا علاقة بالقصة التي ادركت في ذلك اليوم أن لابد من كتابتها .

ومضينا أولا الى طريق بئر السبع . ومضت بنا السيارة عبر بلدة صغيرة ، صفراء البيوت مغبرتها ، وقد غطت الشجيرات المتسلقة المزهرة جدرانها العالية ، وقبعت وراء هذه الجدران ، دارات خربة تتوسطا أشجار النخيل والدفلة ، وهناك طرق ترابية واسعة وقديمة ينتشر فيها العشب الجاف ، وتسير عليها العربات التي تجرها الحمير والتي يستخدمهـــا الفلاحون في الذهاب لحمل مخصصاتهم الشهرية من مراكز التوزيع التابعة لوكالة الاغاثة الدولية ، وهناك أيضا شوارع حديثة ضيقة ومزدحمة .

تحيط بها الحوانيت الصغيرة التي يستطيع المرء ان يبتاع منها السلع التي لا جمارك عليها من جميع ارجاء العالم ، كالقمصان الامريكية التي لاتكوى ، والسلع الصوفية من انجلترا ، والازهار الاصطناعية من هونج كونج والروائح وادوات التجميل من فرنسا ، والنظارات السوداء من ايطاليا ، وجميع اشكال اقلام الحبر المشهورة في العالم ، وجوارب النيلون والملابس الداخلية ، واجهزة الترانزستور ، والساعات ، والمكاوي الكهربية ، واقمشة الملابس النسوية ، وقلائد الزينة · وبالرغم من ان جميع الحوانيت تعرض نفس السلع ، فان اسعارها تختلف · ويفد القادمون من القاهرة الى هذه الحوانيت لابتياع بعض الحاجات ، اذ يسمح للفرد بأن يأخذ معه بضائع معفاة من الرسوم الجمركية بقيمة عشرين جنيها ·

ولا يميل بعض الفلسطينيين الى هذا الأسلوب من جعل غزة ميناء حرا وهم يقولون ان هذه الطريقة تعني اثراء طبقة التجار ، ثراء فاحشا ، يحملهم على عدم التفكير بالذين يعيشون الكارثة الفلسطينية في المخيمات وهناك آخرون وبينهم السيد الريس ، يعتبرون أن الضرورة تقضي بان تكون مثل هذه التجارة ولا سيما قد كان هناك دائما تجار فلسطينيون ، ومن الواجب ان تتاح لهم الفرصة لتزدهر احوالهم · فالتجار جزء من المجتمع كالصيادين والزارعين وموظفي الحكومة . يضاف الى هذا أنهذه التجارة تعيد الحياة الى المدينة التي انقضى على موتها امد طويل ، اذ لاتعدو ان تكون معسكرا كبيرا للاجئين (١) ·

وانا ارى ان كلا الرأيين سليم · فانا من ناحيتي لااميل الى هدا الشارع الطويل المزدحم بالحوانيت على جانبيه ، والساطعة واجهاته في الليل بأضواء النيون ، والمكتظ بالضجة الصادرة عن تضخم الحركة فيه آناء الليل وأطراف النهار ، ولا سيما أن سيارات « السرفيس » لاتنفك ذاهبة آيبة فيه · لكن التجارة تخلق تجارات · والذين يفدون الى غزة بقصد الشراء يحتاجون الى الغذاء والمأوى ، بحيث تكتظ الفنادق والبنسيونات والمطاعم بهم ، كما تزدحم الحوانيت ، ويدور النقد باستمرار وحرية ·

(١) نحن لا نعترض على اعتبار الراسمالية الوطنية جزءا من الشعب العامل · شريطة ان تكون محرومة من كل طاقة على الاستغلال والاثراء على حساب المستهلكين · والخوف هو ان تتضخم الطبقة البورجوازية الجديدة تضخما كبيرا في ثرواتها وطاقاتها السياسية الاجتماعية لتصبح عقبة في طريق التحرير الفعلي لفلسطين . نظرا لتضارب هذا التحرير مع مصالحها المادية ·

(المعرب)

وتعني زيادة التجارة ، زيادة في التشغيل لسكان المخيمـــات كما تعني الانتعاش في الوضع الاقتصادي بصورة عامة .

ويؤلف قطـاع غزة كيـانا غـير طبيعي ، فهو شـق من الارض شطر من مقاطعة كبيرة ، لبحده ، البحر من الغرب ، والعدو المحتل من الشرق والشمال ، والصحراء من الجنوب ، ويضم هذا القطاع نحوا من سبعمائة من الناس حشروا في ثلاثمائة كيلو متر مربع ، فاصبح من اكثر الاماكن اكتظاظا بالسكان في العالم كله . وليس في مكنته بارضه الرملية ان ينتج كميات كافية من الغذاء ، ولكن عملية استصلاح الصحراء جارية على قدم وساق تقام فيها مزارع الحمضيات والدواجن . وتقـــدم له الجمهورية العربية المتحدة المساعدات المالية والفنية . ويضم القطاع الآن اكبر مصنع لتعبئة الحمضيات في الشرق الاوسط ، وخمسة مصـــانع للسجائر تلقى حاجاتها من التبغ المزروع محليا ، ومصنعا لزيت الزيتون، واربع مصانع للحلويات ومصانع للثلج والسلع القطنية والاحذية والصابون والحقائب الجلدية .

وهكذا تعمل هذه التجارة والمصانع في بعث الحياة الجديدة في قطاع غزة ، سواء أحب الانسان مظاهرها ام لم يحبها ، ووراء هذا الشارع الانيق الصاخب بالحركة ، تقوم غزة القديمة ، ببيوتها التي توشك على الانهيار والشاحبة اللون ، واكواخها ، وحوانيتها التي لا ابواب لهـا ، ومساجدها العتيقة ، والناس يجلسون فيها الى المقـاهي يحتسون الشاي وفناجين القهوة الصغيرة ، ويدخنون غلايينهم الطويلة . وهنـاك سوق للسمك يعج بالذباب ، وفيه النسوة الفلسطينيات بملابســـهن الجميلة الفضفاضة . لكن كل هذه المناظر مخبوءة وراء غزة الحديثة .

وهناك ايضا الصيادون وهم يعملون خارج نطاق المعامل والحوانيت ويعدون نحوا من الف صياد يعملون في اسطول كبير يعد نحوا من ٢٦٠ قاربا .

وعندما يخرج المرء من المدينة مستهدفا طريق بئر السـبع ، وان كانت هناك في الواقع طرق عدة تعبر المنطقة الحرام ، وحدود المنطقـــة المحتلة ، يدير ظهره الى البحر ، ويمضي في السيارة عبر الطريق الرئيسي الى الريف ، مارا ببناء حكومي اصفر اللون كان البريطانيون قد بنوه ، وملئوه بابراج المراقبة لرؤية الثوار العرب ، أي من الوطنيين الفلسطينيين الذين واصلوا النضال من اجل الاستقلال الذي وعدوا به بعد هزيمـــة الاتراك ، فلم يلقوا من بريطانيا الا انتدابها .

وتسير هذه الطريق الترابية بعد الخروج من المدينة ، محاذية لحدود المنطقة المحتلة ، ثم تعبر ارضا حراما يبابا ، تبدو وراءهـــــا الجرارات الاسرائيلية على ارض واضحة · ولا ريب في ان الفسحة التى تفصل هذا القطاع المكتظ بالناس على اراضى اهله الفسيحة فى المنطقة المحتلة والتى تؤلف اكثر من ثلثى البلاد فسحة ضيقة للغاية · (١)

ووصلنا الى طريق بئر السبع على مقربة من الحدود · انها طريق السيد حرز الله الى وطنه · وخرجنا عن الطريق الرئيســـية الى طريق اخرى لم نتوقف فيها الا عندما وجدنا بندقية من بنادق قوة الطوارئ الدولية تصوب الينا ، بعد ان خرج صاحبها من نقطة المراقبة ليوقفنا عن السير · وهتفنا بالرجل ، ان ما ننشده التقاط صورة ، فاشار بالموافقة ، ولكنه ظل يرقبنا ويسد علينا الطريق · ووقفنـــا بدورنا نرقب جرارا اسرائيليا يحرث الارض على بعد بضع ياردات من مركز المراقبة ·

وتطلعت الى وجه ابن بئر السبع المرافق لى ، وقد تجهم ، فادرت ناظرى عنه · فعلى بعد سبعة واربعين ميلا من هذه الطريق ، يقوم مسقط راسه · حيث يعيش الغرباء فى بيته ·

حقا انه شىء مذهل ، لامثيل له فى التاريخ · ولكن ما جدوى القول ؟ الكل يعرف بما يحس به الآخرون · انه الغضب والمرارة · وادرنا ظهورنا صامتين ثم عدنا الى سيارتنا ·

لكنه حادث صغير على اى حال ، من الحوادث التى يشغل بها هــذا الســويدى الشـاب وقته فى برج مراقبته ·

وكانت هناك مرارة ايضا فى بستان البرتقال · ورايت هذه المرة صاحب البستان ، وهـــــو رجل كهل ، يرتدى الملابس الفلســـطينية والطربوش · وغادرنا السيارة ومشينا فى ممر ترابى واشجار البرتقال تحيط بنا من كل جانب الى ان وصلنا عريشة تتســـلق دوالى العنب قضبانها · وقام صاحب المكان من مقعده ، وتقدم الينا يحيينا بالطريقـــة العربية المالوفة التى يحيى بها العربى الغرباء · واصدر الرجل امره الى

---

(١) لم يكن اليهود يملكون من فلسطين كلها عند ما انتهى الانتداب البريطاني بموجب الاحصاءات الرسمية للحكومة المنتدبة الا ٦٫٢٥ فى المائة من مجموع مساحة البلاد ·
(المعرب)

خادمه ليعد لنا القهوة ، وليضع امامنا كميات من البرتقال والتمر · وقال مضيفنا بالعربية ، ان له بيارات اخرى هناك وراء الحدود · وترجم لى السيد حرز الله ما قاله الرجل · واضاف ··· « انه يريد منى ايضا ان اسالك عن السبب الذى حدا بالبريطانيين الى تسليم فلسطين لليهود ؟.

انه عين السؤال الذى كان يوجهه الى وجوه المخيمات فى طول الشرق الاوسط وعرضه فى السنة الماضية ، بل انه السؤال الذى سمعته من الشاب الذى يعمل فى تلك « البيارة » ومن الرجل الكهل الذى يملك بيارات اخرى هناك وراء الحدود · انه عين السؤال الذى يجعلنى أخجل من الرد عليه فى حيرة ·

وقلت بذلة للسيد حرز الله ، ان يبلغه ان بعضنا فى بريطانيا ، قد عارض هذا الظلم ، وان معارضتى له ، هى التى دفعتنى الى المجىء الى هنا ·

وترجم السيد حرز الله ما قلته للرجل ، وبدا لى انه حدثه شيئا عنى ككاتبة وعما أعمله دفاعا عن الفلسطينيين . وأحسست بشعور من الارتياح يسود الرجل ، وأتوا لنا بالقهوة · وحثنى المضيف على ان اتناول بعض التمر · وماكدت اهم بقضم احدى الحبات ، حتى اوقفنى السيد حرز الله ، قائلا ··· انه لايؤكل على هذا النحو ··· واشار الى على طريقة تناول هذا البلح الطازج الذى يسيل منه العصير وكانه من المانجو .

وتطلعنا من المعرش الواقف على مرتفع ، عبر المساحات الفسيحة امامنا من غابات الزيتون ، الى التلول البعيدة فى المنطقة المحتلة · لكن هذه التلول قريبة ، فنحن نرى على طرقاتها الشاحنات وهى تسير · والرجال ، من المحتلين وهم يمارسون عملهم اللا مشروع على ارض ليست لهم ·

ومضيت معهم لمشاهدة مشروع عامر ، وهو اكبر مشروعاتاستصلاح الاراضى الصحراوية فى المنطقة · انها ارض فسيحة من الصحراء القريبة من البحر ، وقد زرعت فيها فى السنتين الماضيتين بيارات البرتقال التى نمت اشجارها ، فى حين تعد العدة لزراعة اشجار اخرى ، بعد استصلاح اراضى جديدة · وتتم العملية بازاحة الرمال عن طريق « البلد وزرز » الى ان تظهر التربة الطينية تحتها ، فتحرث وتسمد وتزرع · وكانت احدى

هذه الآلات الضخمة تعمل فى اليوم الذى وصلنا فيه الى المكان . فتحمل اكواما من الرمل . لتعد مساحات من الارض للفلاحة ٠ورأيت الشجيرات التى زرعت قبل عامين على الجانب الآخر من الطريق . وقد انطلقت فروعها واغصانها ٠ ويبعد الماء فى هذه المنطقة ثلاثين مترا او ستين عن ســـطح الارض ، وتتولى المضخات ضخه لاعمال الرى . وسألت عن اعمدة حجرية بيضاء غريبة ترتفع فى اماكن مختلفة من البيارات . وقيل لى انها « اقنية تخفيف الضغط » ٠ ولم افهم شيئا بالطبع . ثم فسر الموضوع لى على انها تؤلف جزءامن مشروع الرى ، اذ أن الماء يجرى بعد ضخه فى اقنية من الاسمنت تقطع البيارات طولا وعرضا ٠

وحيانا رجل يبدو عليه الفقر ، ويعمــل فى الارض . وأصر على ان نشرب قهوته . التى كلفته عناء كبيرا اذ تحتم عليه اولا ان يشعل النار ، وحمل الينا بعض المقاعد من كوخ قريب ، جلسنا اليها فى وهج الشمس نتطلع الى البحر الازرق ٠ ولكن طقس غزة ابرد من القاهرة حتى فى حر الهاجرة ٠ وشربنا القهوة أخيرا ، وكانت رائحة الدخان تفوح منها . ولكننا كنا سعداء ٠ وحيل الينا ان من السمو الانسانى ان يقوم هـــذا الرجل الواضح الفقر ، بتحمل هذا العناء لغرباء ، تفصلهم عنه عوالم من الثروة الغربية ٠ واردت ان اعرض عليه بعض المال ، ولكن رفيقى عارضا فى ذلك ، وقالا ان مثل هذا العرض سيسوءه وقدما اليه بعض السجائر عندما اوشكنا على الرحيل . فسر بها الرجل ، وودعنا وهو يقـــول ٠٠٠ مع السلامة ٠

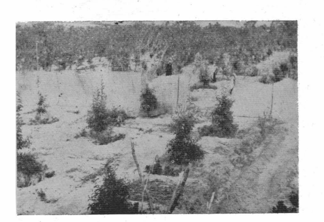
وسألت ان كان الرجل من اللاجئين ، فرد السيد حرز الله بالسلب. اذ أن اللاجئين لا يعملون فى المشروع الذى يدار على صورة تعاونية . لانهم يرفضون باصرار ، فكرة التوطين ٠ واضاف ان كل ما يريده اللاجئون هو العودة الى اراضيهم وقراهم ٠

وانتقلنا من مشروع عامر بالسيارة التى سارت بنــا على الطريق الساحلى الى ان وصلنا الى بلدة صغيرة تقوم على البحر . وتضم مســجدا ومدرسة ٠ انها مدينة ناصر ، وقد تم بناؤها لايواء ضــحايا الحرب لتؤمن لهم المأوى والشروع فى حياة جديدة ٠

وهناك ايضا مخيم الشاطىء الكبير الذى يقيم فيه نحو من ٣٢ الف لاجىء من ١٢٤ قرية فى فلسطين ٠ ومن المذهل حقا ان يتصور المرء اناسا هم لاجئون فى بلادهم ، اذ جاءوا من قرى واسعة وفسيحة ، ليكتظوا فى



بقايا اربعين طالبا فلسطينيا قتلهم الاسرائيليون
فى ٣٠ نوفمبر ١٩٥٦ على مقربة من خط الهدنة فى غزة



تم نقل البقايا فى ٢٣ مارس ١٩٥٧
بعد ان عثر عليها لدفنها

ذلك القطاع الضيق الواقع على البحر . وعندما صدر دستور فلسطين في عام ١٩٦٢ ، قدر عدد سكان القطاع بـ ٣٥٨٫٥٢٧ الفا منهم ٢٥٨٫١٦٥ من اللاجئين .

وتحول مخيم الشاطىء مع مضي السنين الى ما يشبه البلدة . بعد ان زرعت فيه الاشجار . وانتشرت دوالي العنب فوق الاكواخ . وهناك بعض الحوانيت وبينها حوانيت « البرزية » . وهناك بعض الشـوارع التي تحمل اسماء القرى التي جاء منها هؤلاء اللاجئون .

ويزيد مخيم جباليه في حجمه على مخيم الشاطىء . اذ يضم نحوا من خمسة آلاف كوخ . وما زال هذا المخيم يسير في طريق التوسع . مع اتساع رقعة الارض . وتوافر المال اللازم . لكن هذا المخيم مجدب قاحل . اذا ما قورن بالأول الذي تنتشر فيه الاشـجار ودوالي العنب . والذي يشبه قرية طبيعية ــ ولعل السبب في ذلك أن جباليه مخيم جديد اذ فتح في عام ١٩٥٥ . بعد ان ازيلت آخر خيمة من قطاع غزة . وبنيت جميع الأكواخ من الاسمنت . وهو اقرب الى المعسكر منه الى القرية . ومن هنـا يكون افتقاره الى الجمال . لكنه اكثر المخيمات تقدما في القطاع . اذا جاز لنا ان نستعمل هذا التعبير . اذ أضيفت الى الابنية الأولى في عام ١٩٥٨ ، وبعد توافر الاموال اللازمة لدى وكالة الاغاثة (٢٢٠) غرفة جديدة . للتخفيف من ضائقة الازدحام . بعد ان كبر الاطفال وتزوجوا . واقاموا اسرهم الخاصة بهم . ومن المفجع حقا ان جيلا كاملا من الاطفال قد شب في المعسكرات . بعد ان حملوا من فلسطين صغارا في عام ١٩٤٨ . او ولدوا في اماكن اللجوء . ولم يعرفوا لهم بيوتا الا تلك التي شبوا فيها . وان لم ينسـوا لحظة واحدة . اسماء القرى التي يحنون اليها . هنـالك في ارض الوطن . وسألت صبيا صغيرا في المدرسة عن البلدة التي جاء منها . فقال انهـا اللد . ومع أنه ولد في المخيم الا ان والديه جاءا من اللد . التي اخرج منها اهلها تحت وطأة البنادق الرشاشة في يوليو عام ١٩٤٨ . ليدفعوا دفعا الى جحيم اللجوء . شاقين طريقهم الى رام الله . ويروي جلوب في كتابه « جندي مع العرب » . . . ان عدد الاطفال الذين ماتوا في هذا الرحيل لم يعرف أبدا (١) .

---

(١) لم تشأ المؤلفة ان تشير هنا . الى ان جلوب هذا . هو المسئول شخصيا عن كارثة اللد والرملة عندما كان قائدا للجيش الاردني . اذ انه أبقى على المدينتين دون قوات تستطيع الدفاع عنهما . ليجلو الجيش الاردني عنهما . تاركا أهلهما تحت رحمة العوات الاسرائيلية الهاجمة . وقد حاول جلوب في كتابه هذا تبرير الفاجعة . ولكن حجج مبرراته كانت ضعيفة امام منطق الحقائق المؤلمة . (المعرب)

وكنت عندما وصلت الى غزة هذه المرة ، قد سمعت السيد على محمد على يسأل السيد حرز الله عن الاماكن التى يريد ان اراها فى هـــذه الزيارة ·

ورد السيد حرز الله بشىء من اللهفة ··· ان الشىء الكبير الآن هو الكيان الفلسطينى ·

وقال السيد على ··· ولكن الكيان شىء لايعرض ·

ويميل الفلسطينيون الى اعتبار السيد على محمد على ، وهو خبير بالقضية الفلسطينية · متشائما ، اذ انه يرفض الانسياق مع حماستهم ويصر على ان يظل واقعيا · وهو يؤيد بالطبع ظهور الكيان الفلســطينى الذى تحطم عندما قسمت فلسطين ، وتوقفت عن ان تكون كيانا اجتماعيا وسياسيا وجغرافيا (1) ، ولم يعد شعبها يقيم فى دولة واحدة · ولكنه يتساءل ، ترى ما الذى يريده الفلسطينيون اذا كانوا قد ملوا من الكلام ·

وكنت اسال هـــذا السؤال دائما · فالكيان فكرة رائعة ، ولكن ما السبيل الى تحقيقها ؟

وقيل لى : ان على أبناء فلسطين أن يشعروا بوجودهم ككيان وطنى وان ينظموا على ألا يشـــمل هذا التنظيم الموجودين فى قطاع غزة فحسب ، بل جميع الفلسطينيين فى كل مكان ·

وليست فكرة بعث الكيان الفلسطينى بالفكرة الجديدة ، ولكنهـا ظهرت بقوة فى الأمم المتحدة فى عام ١٩٦٣ فى الخطب التى القاها السيد احمد الشقيرى ، ممثل فلسطين فى الجامعة العربية · وقد عهد اليه بتنظيم الشعب الفلسطينى لاعداد العدة لوضع « طريق العودة » وكانت الخطوة الاولى التى خطاها ، بعد توليه هذا الامر ، سفره من القاهرة الى لبنان وسوريا والاردن وقطاع غزة لتشكيل الوفد الفلسطينى الى الأمم المتحدة الذى الفه من ثمانية عشر شخصا · وقال السيد حرز الله : ان أهل غزة ، استقبلوا الشقيرى استقبالا منقطع النظير ·

وقلت اسال السيد حرز الله ··· كل هذا حسن ، ولكن ما الذى سيفعلونه ؟ لو كانت القضية عبارات ينطق بها ، فان الاسرائيليين وهم

---

(1) لم يزل كيان فلسطين قائما بالرغم من جميع المحاولات الاستعمارية التى جرت لتصفيته، فالوطن موجود ، وان وقع فى قبضة الاحتلال ، وسيعود الى أصحابه طالما ان شعبه مصر على استعادته ·

(المعرب)

مزودون باحدث معـــدات الحرب العصرية الشريرة أقـــدر على الكلام من الفلسطينيين · او هل القصد جر الشرق الأوسط كله الى حرب مع ما فى ذلك من خطر نشوب حرب عالمية ؟ وقد تؤدى الحرب العربية العامة الى الخلاص من اسرائيل ، ولكن اندفاع امريكا الى جانب اليهود ، واحتمال اندفاع روسيا الى جانب العرب ، قد يؤدى الى الخلاص من كل شئ فى العالم · (١)

او هل المقصود ان يصعد شبان فلسطين الى الجبال ، ليشنوا حربا من حروب العصابات كما فعـــل الجزائريون مدة ســـبع سنوات ؟ لكن الوضع جد مختلف · فقد شن الجزائريون الحرب وهم على أرضهم ، ولم تكن هناك هجرة جزائرية جماعية · وكل ما يعنيه مثـــل هذا التفكير أن يموت عدد من الشبان الفلسطينيين ، وان تقوم اسرائيل بمزيد من الغارات الثارية المتوحشة على مناطق الحدود العربية · (٢)

وقلت للرفيق ··· اننى لا أريد التثبيط من العزائم ، فانا مؤيدة كل التأييد لقيام الكيان الفلسطينى ، كبلد ودولة ، ولكننى انشد شيئا عمليا ، اذ اننى مللت الكلام ·

ويبدو ان السيد الشقيرى وضع خطة محددة واضحة · وخيل الى انه لما كان النضال الفلسطينى موجها ضد احتلال اجنبى قوى ، فان فى وسع الفلسطينيين أن يقلدوا الهند فى نضالها ضد المحتل البريطانى ، وان يؤلفوا مؤتمرا قوميا ، يكون من أهدافهم الأساسية ، على أن تمثـــل

(١) ارى ان هذه المناقشة تخلو من كل منطق · فنحن نعرف ان امكانات اسرائيل العسكرية، اكبر من امكانات الشعب الفلسطينى المشتت فى الوقت الحاضر . ولكن هذا لايعنى ان نيئس · ولا سيما ونحن نعرف ان الشعب الفلسطينى سيؤدى دور الطليعة فى معركة تحرير وطنه التى تقع اعباؤها على الامة العربية كلها ، وفى مقدمتها دولها الثائرة الحرة التى تفوق امكاناتها العسكرية امكانات اسرائيل · ولسنا الآن فى وضع المقارنة . ولكن قوات الجمهورية العربية المتحدة وحدها تتفوق على قوات اسرائيل فى كل ناحية . يضاف الى هذا ان التخوف من تحول الصراع الى حرب عالمية ، يجب الا يتخذ مبررا لاسكات العرب عن حقهم الضائع · وعلى الدول الكبرى التى تناصر الباطل الاسرائيلى أن تقدر هذا الخطر قبل غيرها ·

(٢) ان كل ما يعنى به الكيان الفلسطينى ويجب أن يعنى به · عن طريق منظمة التحرير الفلسطينية · هو اعداد الشعب الفلسطينى . بالطريق الثورى . ولا طريق غيره · ليؤدى دوره كطليعة الفداء فى معركة تحرير وطنه . عندما تدق ساعة التحرير · ولذا فان الحديث عن هذه الوسيلة أو تلك . غير وارد . الا اذا كانت هذه الوسيلة . احدى سبل العمل الثورى الذى يجب أن يكون متسقا فى خططه مع الجبهة العربية الثورية التى تقودها الجمهورية العربية المتحدة · (المعرب)

فيه جميع الاتجاهات الفلسطينية والقطاعات وبينها قطاعا الطلاب والعمال · وسيتم انتخاب أعضاء المؤتمر ، عن طريق الشعب ، على ان تكون لجنة فى كل قرية ومخيم · ويصاغ ميثاق قومى لفلسطين كما يعد دستور · (١) ويميل بعض الفلسطينيين . فى قطاع غزة الى اقامة حكومة فلسطينية فى المنفى · لكن البعض الآخر يرى ان ضرر هذه الحكومة اكثر من نفعها ، وان كل ما يحتاج اليه الفلسطينيون هو التنظيم الشعبى الذى يجب ان يدين له الفلسطينيون فى كل مكان بالولاء ، وان يحقق المؤتمر الوطنى هذا التنظيم . (٢) واقترح بعضهم اقامة حكومة فلسطينية فى غزة او فى اى مكان آخر ، كالقدس العربية ، وان انشاء هذه الحكومة يترك اثرا معنويا ضخما ، وان لم يترك أى شيء آخر · وقد يميل المرء عاطفيا الى مثل هذه الخطوة ، لكن التفكير العميق ، يشير الى ان قيام تنظيم شعبى فعال ، يتمثل فى مؤتمر وطنى ، هو العمل الأكثر نفعا ·

ولابد من اقامة صندوق قومى ، تموله الحكومات العربية والشعب الفلسطينى نفسه ، والشعوب العربية كلها ، بل وجميع الاحرار فى العالم· وقد تبرع مهندس فلسطينى فى القاهرة بخمسين الف دولار ، للتنظيم العسكرى · وعلى الصندوق ان يقوم بتمويل القضية فى مجالاتها العسكرية والسياسية والاعلامية ·

واكد الشقيرى اكثر من مرة ان القول بان الجامعة العربية هى التى خلقت الكيان الفلسطينى ، قول غير صحيح اطلاقا ، وسيكون الفلسطينيون بعد تحرير وطنهم ، احرارا فى تقرير مصيرهم ، وهل يؤلفون دولة اتحادية مع دولة عربية اخرى أو يقيمون دولة مستقلة (٣) ·

---

(١) سار الكيان الفلسطينى فى طريق يشبه ذاك الذى توقعته المؤلفة · فقد عقد المؤتمر الفلسطينى الاول على شكل مجلس وطنى . وانبثقت منظمة التحرير الفلسطينية . وقد اقر المؤتمر الوطنى الثانى فى القاهرة فى أوائل يونيو من هذا العام قانون التنظيم الشعبى ·

(٢) اقر المؤتمر الوطنى الفلسطينى فى دورة انعقاده الثانية فى القاهرة · قانون التنظيم الشعبى · وفرض على اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير . المبادرة فورا الى تنفيذه . اذ ان هذا التنظيم يمثل الأداة الثورية التى ستدفع بالمنظمة الى الطريق الثورى الصحيح ·

(٣) من حق الشعب الفلسطينى بعد انتهاء معركة التحرير أن يقرر مصيره · ولكن هذه المعركة يجب أن تخاض قياديا وتوجيهيا بالقوى الثورية المؤمنة بالوحدة سبيلا للعودة، وبالعودة طريقا الى الوحدة · ولذا فليس ثمة مجال للقول باقامة دولة مستقلة لأن شعب فلسطين كان فى الماضى . ولا يزال حتى اليوم يؤمن بالوحدة العربية المتحررة والتقدمية ويعمل لتحقيقها · (المعرب)

واعلن الشقيرى فى الدورة الاخيرة للجمعية العامة للامم المتحدة ان استمرار تقاعس الأمم المتحـــدة عن العمل من اجل فلســـطين سيحمل الفلسطينيين على الاتجاه الى خارج المنظمة العالمية طلبا للعون من جميـــع الشعوب المحبة للحرية ، كما سيدفعهم الى حمل السلاح .

واضاف فى خطابه ، ان هذا واقع حتما ، اذا ظلت الجمعية العامة متقاعسة عن العمل ، وآنذاك يفوت الوقت على اى تدخل من جانب الامم المتحدة . ولكن الشقيرى عاد فاكد أنه لايتوقع شيئا من الأمم المتحدة ، وان تحرير فلسطين ، واجب ابنائها اولا وآخرا ، وقضية تخصهم . وقال ان الحركة ستظهر قريبا لتستعيد اراضى العرب فيما يسمى الآن باسرائيل، وستكون هذه الحركة مشابهة لثورة انجولا ضد البرتغال ، ولكل حركات التحرر السابقة فى آسيا وافريقيا .

حقا انها كلمات شجاعة . ولكن هل يمكن وضعها موضع التنفيذ دون ان يؤدى ذلك فى الواقع الى اشعال حرب عالمية . هذه قضية تقبل النقاش . ويعتقد ابناء فلسطين فى غزة أن فى الامكان تنفيذها ، الا انها تمثل الأمل الذى يعيشون عليه ، وهم يجدون انفسهم مكتظين فى ذلك القطاع الضيق ، يحيط بهم العدو من كل مكان ويطوقهم نصف تطويق .

ولم يكن فى وسعهم فى غزة ان يعرضوا على الكيان الفلسطينى كشىء مادى ملموس . ولكنهم عرضوا على روح الشعب ، المتفرق فى اراضى الهجرة والذى يعيد تنظيم صـــفوفه فى وحدة ، وهم يملكون العـــاطفة الملتهبة والتصميم . ولو اضيف اليهما الصبر والاناة والعمل الجاد المستمر ، فانهم سيصبحون قوة ضخمة .

وهناك قوارب صغيرة زاهية الألوان ترسو على شواطىء قطاع غزة الرملية . وعندما تهبط الشمس فى البحر ، تندفع قوارب الصيادين هذه الى البحر ، باشرعتها العالية ، تساعدها نسائم الليل . وكثيرا ما تصل باخرة شحن ، فتلقى مراسيها بعيدا فى البحر ، وتقف وحيدة هناك . بل شاذة وسط تلك الزوارق الملونة ، لتنطلق بصافراتها ، مصدرة انغــــاما باكية ، ولا يكاد جنح الظلام ينسدل ، حتى ينطلق خيط رفيع من الضوء فوق البحر ، وتسطع أضواء « النيون » فى ذلك الشارع الطويل الممتد الى البحر . وهناك معسكرات فوق الرمال ... وفى الليل تقف فيها سيارات الشحن . وتعلق الملابس لتجف على الحبال . وتظهر منارة مسجد صغير وراء هذا الشط الرملى ، مضفية على الكون عند المغيب ، منظرا اضافيـــا جميلا .

وقد تكون هناك شطئان اخرى اجمل من هذا الشاطىء الذى يمتد خمسة وعشرين ميلا فى قطاع غزة ، ولـــكنه ليس اغلى ولا اهم من هذه القطعة الساحلية التى هى آخر ما تبقى من فلسطين المقطعة الاوصال .

وسمعتهم يقولون ... وانا اوشك على مفـارقتهم ... «عـودى الينا .. أجل عودى كل سنة .. ياأعز صديقة» .

وخنقتنى العبرات ، وانا اعدهم بالعودة فى كل عام الى ان تحرر فلسطين . وستحرر ان شاء الله .

ورددوا جميعا وبصوت واحد .. ان شاء الله .

١٤- شعب يزحف

أنا لا ازعم اننى عرضت فى الصفحات السابقة جميع الصور فى مصر الحديثة ، او الجمهورية العربية المتحدة · او اننى حتى قدمت تقريرا وافيا عنها · وكل ما توخيته من عرضى هذا ان اشير الى مايقع فى هذه البلاد التى تتولى دور القيادة فى الوطن العربى ، أى ان العرب فى كل مكان يتطلعون الى عبد الناصر والقاهرة ، لتحقيق حلمهم فى الوحدة العربية · وقد يقال ان هناك عربا لايحبون عبد الناصر ، لكن هذا لايغير من واقع الأمر شيئا · وقد قابلت مثل هؤلاء ، فى جميع ارجاء الشرق الاوسط ، ولكننى قابلت الآخرين وهم الاغلبية الساحقة ، الذين يكادون يعبدون جمال عبد الناصر ، زعيم العرب العظيم ، ويذكرون اسمه بتقديس واجلال · فجمال هو الذى عقد مؤتمر القمة العربى للبحث فى مياه الاردن، وكانت القاهرة مكان انعقاد هذا المؤتمر ، ومقر الجامعة العربية فى القاهرة، وهذه حقائق مهمة ·

ورايت أناسا فى القاهرة لايحبون عبد الناصر وعهده ، فقد كانوا كشيوعيين عاملين معتقلين فى السجون · (١) وصفة « العامل » هى المفتاح

---

(١) من الجدير بالذكر هنا ، انه لم يبق فى السجون منذ فترة طويلة شيوعى واحد · وقد عادوا جميعا الى الحياة العملية المنتجة ، وقد أصدر الشيوعيون قبل أشهر قرارا بحل انفسهم كحزب ، واعلنوا العدول عن اى نشاط خاص ، والانتظام مع الولاء للاتحاد الاشتراكى العربى ، بعد ان اكدوا ان الجمهورية العربية المتحدة ، بتطبيقها العربى للاشتراكية تعمل لخير الانسان العربى وسعادته ، وبناء مجتمعه الاشتراكى ·
(المعرب)

اذ ان فى وسع المرء ان يدعى لنفسه فى الجمهورية العربية المتحدة صـــفة الشيوعية ، ولكنه لا يستطيع القيام بتنظيم اية خلايا شـيوعية او باى نشاط شيوعى • ولا ريب فى ان الكثيرين من الغربيين الذين يسـارعون الى اتخاذ هذه الحقيقة وسيلة لاتهام الجمهورية العربية المتحدة باللاديمقراطية لا يوجهون مثل هذه التهمة الى امريكا حيث لايعترف بالحزب الشـــيوعى وحيث يمثل الحد من النشاط الشيوعى مايكاد يشـــبه الكابوس • وهم لايعتبرون مثل هذا العمل من جانب امريكا تعارضا مع الديمقراطية بل يرونه وقاية لها •

وانا اعارض شخصيا فى وجود اى مسجونين سياسيين فى اية بلاد وقد يكون من حق الدولة الواضح ان تحمى نفسها من الهدامين ، ولكن هذه قضية اخرى تتطلب محاكمات علنية عادلة • وفى مارس عام ١٩٦٤ ، اعلن الدستور المؤقت الذى سيعمل به الى ان يتم مجلس الأمة وضـــع الدستور الدائم بعد ان انتخب انتخابا عاما حرا ، الغـــاء آخر اثر من اثار احـكام الطوارىء والقانون العرفى ، واطـــــلاق سراح من تبقى من المسجونين السياسيين •

وكان توم ليتل فى كتابه « مصر » الذى وضعه فى عام ١٩٥٨ قد وجد ان مشكلة عبد الناصر الكبرى ، تتمثل فى التحول الى الديمقراطية الاصيلة الصادقة ، ولكنه كان على ثقة من نجاحه فى هذا التحويل ، بعد ان يتم المسئولون تنمية احساسهم بالمسئولية القومية والوطنية فى الحكم ، وبعد ان يثقف الشعب تثقيفا صحيحا على فكرة الديمقراطية • وكتب ليتل يقول : « وكان من رايه دائما ، ان على مصر ان تطور الصورة الخاصة بها عن الديمقراطيـــة » ولم تمض اربع ســـنوات على ماكتبه ليتل ، حتى كان عبد الناصر يطلع بالميثاق الوطنى الذى اوضح هذه النقطة كل الايضاح • وقد فشلت المحاولة الأولى لضمان التمثيل الشعبى فى الحكم عن طريق الاتحاد القومى الذى كان قائما عندما وضع ليتل كتابه ، لان العنـــاصر الرجعية التى تعارض فكرة التطور فى الخط الاشتراكى تسللت الى الاتحاد القومى • وتالف المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية عن طريق الانتخاب الحر ، وراح عبد الناصر يقدم الى هذا المؤتمر فى عام ١٩٦٢ الميثاق الوطنى ، الذى اكد فيه ضرورة التـــلاحم بين الديمقراطية السياســـية والديمقراطية الاجتماعية •

واعلن الرئيس عبد الناصر فى الخطاب الذى القاه فى الرابع والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ والذى نقلته الاذاعات والتلفزة ، بصورة جازمة ان

الثورة لا تستطيع المضي في طريقها الا اذا تحمل الشعب جميع المسئوليات وقال ان الثورة تصبح بذلك «ثورة بالشعب وللشعب . ثورة من أجل الشعب ومن اجل مصالح الشعب وليست من اجل مصلحة فرد واحد ولا من اجل مصلحة افراد . ليست من اجل مصلحة طبقة مستغلة أو طبقة محتكرة . وليست من اجل مصلحة الاقطاع . وانما هي ثورة للشعب لتحقق له آماله. وتحقق له الديمقراطية السياسية والديمقراطية الاجتماعية وتحقق له العدالة الاجتماعية . واذن يجب ان يتولى الشعب الآن كل المسئولية بنفسه في هذه المرحلة من الثورة المستمرة . لتكون الثورة التي قامت للشعب . قائمة بوساطة الشعب . هذا هو الطريق الوحيد لنحافظ على انتصاراتنا ... هذا هو الطريق الوحيد لننجح في اعمالنا ... هذا هو الطريق الوحيد لننجح في انتصاراتنا وننتصر على جميع العناصر التي تتصدى لنا » .

ولعب نظام الحكم المحلي دورا كبيرا في تحمل الشعب نفسه مسئولية الحفاظ على مبادىء الثورة . وكان هناك نظام للحكم البلدي قبل عام ١٩٥٢ بل ويعود الى عام ١٨٩٠. ولكنه لم يكن يعدو في الواقع تمددا محليا للادارة المركزية في القاهرة . ولم يكن هناك أي بحث في اية مشاعر محلية للقضايا المحلية كالتي توجد الآن في ظل النظام الراهن . وتقول نشرة حكومية رسمية ان « الغرض الرئيسي من خلق هيئات الحكم المحلي . تعزيز المجتمع الاشتراكي التعاوني . وتشجيع الديمقراطية الصحيحة والقوة الذاتية » .

وتقسم البلاد بالنسبة الى الحكم المحلي الى اربع وعشرين محافظة (١) لكل منها محافظها . ولكل مدينة فيها أو بلدة . مجلسها المحلي الخاص بها. وهناك ممثل عن كل وزارة من الوزارات في مجلس المحافظة . وعشرة أعضاء ينتخبون بالاقتراع عن طريق الاتحاد الاشتراكي العربي . اذ يجب ان يكونوا اعضاء عاملين فيه . وتتألف المجالس البلدية في المدن بهذه الطريقة . مع عدد اقل من ممثلي الوزارات . وكذلك الحال في مجالس القرى التي تضم منتخبين من اعضاء الاتحاد الاشتراكي . ويعتقد ان وجود الاعضاء المنتخبين من الاتحاد الاشتراكي . جنبا الى جنب مع ممثلي الوزارات من الاخصائيين يضمن شكلا متوازنا من اشكال الحكم .

---

(١) عدد المحافظات خمس وعشرون لا أربع وعشرون . ويبدو أن محافظة الوادي الجديد هي التي فاتت على المؤلف .

(المعرب)

وقد تطلب مجالس الحكم المحلى المساعدة المالية من مجلس المحافظة اذا تطلب الأمر لتمويل بعض المشروعات المحلية ، وفى وسعها أيضا أن تفرض ما تشاء من ضرائب ورسوم اضافية ، وتشترك مجالس القرى والمدن مع مجلس المحافظة فى الشئون الثقافية دون أن يمس هذا بكرامة الحكم المحلى .

وسبق لنا ان راينا فى التخطيط الاشتراكى الذى وضعه عبد الناصر النص على وجود القطاعين العام والخاص ، مع تقديم بعض المساعدات من الدولة الى «الراسمالية الوطنية» شريطة أن يتحمل القطاع العام الذى يملكه الشعب كمجموع ، القسم الاكبر من الأعباء ، وهكذا تم تأميم جميع المصارف وشركات التأمين ، وتحولت اسهمها الى قروض على الدولة بفائدة سنوية قدرها اربعة فى المائة ، وتحولت جميع الأسهم الخاصة التى تزيد ملكية الفرد منها على عشرة آلاف جنيه مصرى الى ملكية الدولة ، مقابل هذه السندات ، بينما أعفيت الاسهم التى تملكها المنظمات العامة من هذا النص .

وبالاضافة الى هذه الاجراءات التى استهدفت تحول رءوس الاموال من الأثرياء ، فرضت قوانين جديدة للضرائب ، زادت من نسبة المفروض منها على مقادير الدخول العالية ، وفى وسع عهد عبد الناصر أن يزهو بان مصر لم تعد تضم طبقة غنية . وقد يكون هناك من يقول ان بعض الناس فى المدن ، مازالوا اغنياء ، اذ يعيشون فى شقق مترفة ، ويقتنون سيارات فارهة ، ويحيون مستوى عاليا من الحياة ، وهم طبعا من المصريين لا من الاجانب ومعظمهم يعملون فى المهن المختلفة ، بينما ما زال هناك فى الارياف معظم الفلاحين يعيشون حياة الفقر اذا ما قورنوا بمرفهى المدن ، ولكن المجتمع اللاطبقى لم يتحقق بعد ، ولا تدعى الاشتراكية العربية انها قد حققته ، وكل ما تقوله انها تمثل طرازا من الاشتراكية ينسجم مع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بالبلاد ، وبهدف الى الغاء وجود طبقة تملك معظم الثروة ويخلق وجودها ، اغلبية تعيش على مستوى الكفاف ، وقد تمكنت الاشتراكية العربية الى حد كبير من تحقيق هذا الهدف .

ويعتبر قانون الاصلاح الزراعى ، كما سبق لنا أن رأينا ناحية مهمة من نواحى التطبيق العربى للاشتراكية فى الجمهورية العربية المتحدة ولا ريب فى أن مشروع السد العالى ، يمثل جزءا من هذه الثورة الزراعية . وقد تولى قانون الاصلاح الزراعى انتزاع فائض الأرض من الذين يملكون

وتوزيعه على الذين لايملـــكون ، وسيعزز الســـد العـالى من امكانات اعـادة التـــوزيع ، بالمليـــون فـــدان من الارض التى ســتستصلح (١) وبتنظيـــم الرى فى الاراضى المزروعـة حاليـــا ، بعـد حمايتهـــا من الفيضان ومن نضـــوب الماء فى آن واحد . ولا تهـــدف الاشـــتراكية العربيـة الى النزول بالملاك الأثرياء سابقا أو الراسماليين دفعة واحدة فى مستوى حياتهم ، الى مستوى الفلاح او العامل العادى فى الصناعة ، ولكنها تهدف الى رفع مستوى الطبقات التى كانت محرومة سابقا الى مستويات معقولة ، تتفق مع التقدم فى القرن العشرين ، وتضمن لهم الغذاء الـكافى ليظلوا فى صحة جيدة ، والعناية الطبية ، والتسهيلات التعليمية لا عـلى المستوى الأولى فحسب ، بل وفى جميع مراحل التعليم العالى والجامعى ايضا ، وهى تهدف أيضا الى تامين المساكن الكريمة للجميع ، فى بيوت حسنة البناء لا فى أكواخ من الطين يقتسمونها مع حيواناتهم ، وهى تهدف والحالة هـذه الى تامين الحاجات الأساسية للحياة الحضارية كحد أدنى ، وتهيئة تكافؤ الفرص فى جميع مجالات النسق الاجتماعى التى حددهـــا الميثاق .

ولا ريب فى أن ما نص عليه الميثاق لايتحقق دفعـــة واحدة ، فقد ورثت الثورة أجيالا طويلة ومتعاقبة من الفاقة والجهد ومخلفات الاقطاع ، وما زالت جماهير الشعب تشكو من الفقر ، ولكنها تلقى العناية الآن ، وباتت فى وضع احسن مما كانت عليه فى الماضى ، فقد لاتملك كل شىء ولكنها تملك شيئا كمياه الشرب الصحية والعناية الطبية والمدارس والارض وهى تملك فوق ذلك كله ، الأمل فى الغد .

ولا ينطبق هذا على الفلاحين وحدهم ، بل وينطبق ايضا على العامل العادى فى المدن ، وعلى الموظف فى مكتبه ، والرجل فى ادارة المصنع الذى يعمل فيه ، انهم جميعا يلقون الرعاية ، وقد تحقق لهم قدر من الضـــمان الاجتماعى ، وباتوا يتطلعون الى الغد بأمل وثقـة ، وتدار الصناعة عـلى أساس اقتســام الارباح ، وهذه وحدها ثورة كبرى ، وكانت عملية توزيع أرباح الشركات الصناعية فى جميع ارجاء البلاد قائمة على قدم وساق فيها عندما كنت فى الجمهورية العربية المتحدة فى نوفمبر عام ١٩٦٣ . وقامت أربع شركات بتوزيع نحو من ستمائة ألف جنيه مصرى على ثلاثة وعشرين ألف عامل فيها ، وقد تلقى الواحد منهم نحوا من خمسين جنيهـــا . وقد لايكون هذا الرقم عاليا على المستويات الغربية ، ولكنه كبير بالنسبة الى

---

(١) مليونا فدان ، لا مليون واحد .

العامل المصرى العادى الذى لا يزيد كسبه الشهرى على الاثنى عشر جنيها كما انه يمثل علاوة يفرح بها الكثيرون من العمال الغربيين لو حصلوا عليها .

وتعتبر قضايا التأمين الصحى ، وتمثيل العمال فى مجالس الادارة ، والرواتب التقاعدية للعمال ، والتأمين ضد البطالة ، والتأهيل المهنى ، مبتكرات ثورية عند العامل المصرى .

واذا ما أضيفت الى التصنيف العام للعمال مع انفساح المجال أمامهم فى الترقية ، ودخول عدد كبير منهم مجالات العمل الفنى بدلا من بقاء غالبيتهم من العمال غير الفنيين كما كان الوضع فى عهد ما قبل الثورة ، تبين لنا ما تحقق من تقدم ، ويزداد الحاجة الى العمال الفنيين المؤهلين مع توسع الصناعة المستمر ، ولا ريب فى أن الصناعة ستواصل التوسع بعد اكمال السد العالى ، ومشروع المحطات الكثيرة المولدة للطاقة الكهربية فى العمل .

وأدت آلية العمل فى الزراعة بصورة متزايدة ، الى ظهور قدر من البطالة فى المناطق الريفية ، وقررت الحكومة لامتصاص هذه البطالة رصد مبلغ خمسة ملايين جنيه لخطة تصنيعية خمسية تهدف الى تمويل الصناعات الريفية وتشجيعها ، كصناعة البسط من الصوف المحلى فى الدلتا ، وبعض الصناعات الزراعية المتعبئة والتعليب ، وحفظ الأغذية كتلك التى أقيمت فى واحة الخارجة .

ويمكن للكاتب أن يضع كتابا خاصا عن كل ناحية من نواحى التقدم والاصلاح الاجتماعى فى مصر عبد الناصر ، ولكنها تشترك كلها فى شىء واحد ، وهى انها تصور شعبا يزحف بعد تاريخ طويل من التعرض للفتوحات والاحتلال والاستبداد والمرارة وخيبة الأمل ، انها تصور شعبا يقف على قدميه ، عزيزا كريما ، مستقلا وحرا ، انه يطبق اشتراكية القرن العشرين بصورة عملية ، اذ أن عبد الناصر يصر على أن سير الثورة الاجتماعية جنبا الى جنب مع الثورة السياسية ، وجعل من اصراره هذا مفهوما أساسيا فى فلسفته ، وهو يقول فى كتابه ، فلسفة الثورة ، ان كل شعب فى العالم لا بد ان يمر بهاتين الثورتين فى النهاية ، وان فصلت بينهما قرون عدة ، أما مصر فقد مرت بالتجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا ، وهى أن تعيش الثورتين معا وفى وقت واحد ، وقد تحدد اليوم الاول للثورة السياسية بخلع الملك السابق ، كما تحددت الخطوة الاولى فى طريق الثورة الاجتماعية بتحديد ملكية الارض الزراعية .

وبالرغم من ان مصر كانت فى حاجة ماسة الى الثورتين السياسية والاجتماعية فورا ، الا أن المجتمع الجديد كان فى حاجة الى ثقافة جديدة ومع تحقيق الهدف الاول ، شرعت الثورة فى سيرها في طريق الثورة الثقافية التى بدا الجميع يحسون بآثارها ، ويفرق عبد الناصر ، وهو محق فى ذلك كل الحق ، بين التعليم والثقافة ، وهو يعنى بالاخيرة المذهبية الفكرية ، وروح الشعب فى التعبير بحرية عن نفسه عن طريق الثقافة والفن فى مجتمع اشتراكى ديمقراطى ، وقد القى الرئيس عبد الناصر ، خطابا فى عيد العلم فى الثامن عشر (١) من ديسمبر عام ١٩٦١ قال فيه : «واذا كنا قد آلينا على انفسنا ، ان نقيم بين ربوع امتنا تجربة جديدة للاشتراكية تعتمد على المحبة ، وتعتمد على الاخاء ، ولاتعتمد على تسلط طبقة تحت اى اسم من الأسماء .

«واذا كانت هذه هى ديمقراطيتنا السليمة ، واذا كنا نعلن اننا لانرضى للراسمالية او للاقطاع او للرجعية ان تعود مرة اخرى ، لان هذا يمثل حكم طبقة قليلة ، ، فاننا اعلنا ايضا اننا لا نقبل ديكتاتورية البروليتاريا التى تعبر عنها الشيوعية ، لان هذا معناه ان تتحكم فئة قليلة ، وقد آلينا على انفسنا ان نقيم بين ربوع بلدنا تجربة جديدة تجمع ابناء الشعب جميعا فى تنظيم سياسى ، من أجل الشعب كله ، من أجل مصلحة الشعب ومن أجل مجتمع ترفرف عليه الرفاهية ، مجتمع متحرر من الاستغلال السياسى والاستغلال الاجتماعى والاستغلال الاقتصادى » .

وانهى الرئيس خطابه قائلا : «ان الطريق واضح امامنا .. والله يوفقكم » .

ويلعب التعليم دورا كبيرا فى التخطيط الاشتراكى ، وتقول نشرة حكومية رسمية ان «الشعب المتعلم لايمكن ان يخضع للسيطرة المستغلة وتعليم الجماهير خطر على كل شكل من أشكال الطغيان.. ولما كانت الثورة تدرك اهمية تعليم الشعب فقد ركزت جهودها الجدية على توسيع البرامج التعليمية ، ويتمكن المواطن عن طريق تعليمه على استخدام طاقاته الفكرية من تطوير نفسه اجتماعيا واقتصاديا ومن اداء دور بناء فى المستقبل السياسى لبلاده » .

وكان الجزء الاكبر من موازنات التعليم ينفق قبل الثورة على التعليمين

(١) ٢٨ ديسمبر لا ١٨ ديسمبر .

الثانوى والجامعى ، ويعنى هذا أن التعليم من الامور الكمالية ومحصور فى الطبقات المميزة ، اما غالبية جماهير الشعب فقد ظلت جاهلة بل وامية تماما اذ تفتقر الى اى مميز من مميزات التعليم الاساسى ، وكان هناك عدد من المدارس الابتدائية الخاصة للقادرين على دفع رسومها ، اما الفلاحون فلا يستطيعون القراءة ولا الكتابة ، ولم يكن احد يتوقع منهم أن يعرفوهما ، أما اليوم فقد أصبح التعليم الابتدائى الحد الادنى المطلق ، وبات الزاميا ، وتريد وزارة التربية والتعليم أن تجد كل طفل بين السادسة والثانية عشرة فى مدرسته . وهى تقدر أن ٨١ فى المائة من جميع الاطفال أصبحوا فى المدارس فى عام ١٦٩٣ مقابل ٤٠ فى المائة فى عهد ما قبل الثورة ، وكان لابد من بناء المدارس التى يجرى بناؤها بسرعة ، ولكن لابد من فتح كليات لتخريج المعلمين ، والمعروف أن فتح المدارس يتم بصورة اسرع من تدريب المعلمين والمعلمات ، وذكر الرئيس عبد الناصر ذات يوم أن من السهل بناء المصانع والمستشفيات والمدارس ولكن الصعوبة هى فى بناء الأفراد والشعب . ولكن التقدم واقع فى الجمهورية العربية المتحدة . ويقدر عدد الطلاب فى المدارس الابتدائية فى عام ١٩٦٢ بأكثر من مليونين ونصف المليون ، وهو ضعف الرقم الذى كان فى عام ١٩٥٢ . وتسلمت حكومة الثورة عددا كبيرا من المدارس الخاصة وجعلتها مجانية . وكانت الزيادة فى عدد الطالبات فى المدارس هائلة ، فقد كان تعليم البنات قبل الثورة محدودا بسبب الافتقار الى الوسائل والتسهيلات ، ولأن الأسر المحافظة لم تكن تتلقى اى تشجيع لتطوير افكارها وارســـال بناتها الى المــدارس ، وكانت الفتاة تكبر وهى فى البيت منتظرة مجىء « العريس » .

وذكرت الحكومة المصرية فى عام ١٩٥٧ أن نسبة الفتيات الى الشبان فى المعاهد التعليمية العالية أصبحت ٦٨ فى المائة . ومن المؤمل أن تتساوى هذه النسبة فى السنوات القليلة المقبلة . وحتى جامعة الأزهر وهى المركز الاسلامى العريق ذو التاريخ الذى يعود الى اكثر من الف عام ، أقامت كلية خاصة للبنات وقد دخلتها فى السنة الاولى من انشائها وهى عام ١٩٦٢ــ ١٩٦٣ نحو من مائة طالبة . وأقام الازهر أيضا معهدا ابتدائيا واعداديا وثانويا للبنات لتعليمهن اللغة العربية والعلوم الدينية .

واعلن الرئيس عبد الناصر فى الذكرى السنوية العاشرة للثورة فى الخطاب الذى القاه فى الاسكندرية ، فى السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٦٢ ، مجانية التعليم على اختلاف مستوياته ، اعتبارا من السنة الدراسية القادمة بما فيها الجامعات والمعاهد والمدارس كلهــا ، واكد أن الفرص

المتكافئة ستكون متوافرة للجميع . وقد طبق هذا الاجراء الثورى ابتداء بالسنة الدراسية التالية .

وهناك شطر كبير من التخطيط التعليمى فى الجمهورية العربية المتحدة ، يتناول المجالات المختلفة للتعليم الصناعى والتجارى والزراعى . وهناك ايضا مدارس خاصة لذوى العاهات ، كالعميان والصم والبكم والضعفاء فى قواهم العقلية .

وقدرت الخطة الخمسية بناء ٦٥٠ مدرسة ابتدائية جديدة أى بمعدل ١٣٠ مدرسة فى كل عام . والتعليم المختلط قائم فى جميع الجامعات وبعض المدارس العليا ، وتقبل الطالبات فى جميع حقول التعليم ككليات الهندسة والحقوق والطب والزراعة ، والتجارة والعلوم . ويتفوق عدد الطالبات فى كليات الآداب أحيانا على عدد الطلاب . وتجتذب دراسة الخدمات الاجتماعية ايضا اهتمام الفتيات فى أعداد كبيرة . وهناك تكافؤ جنسى كامل بين الذكور والاناث فى الجامعات والمعاهد العليا . وتوفد الفتيات فى بعثات الى الخارج للتخصص تماما كالشبان ، وهو تطور هام، اذا أخذنا فى عين اعتبارنا الحياة المنعزلة التى كانت المراة المصرية تعيشها حتى سنوات خلت .

وما زالت المراة فى الريف طبعا حيية ومنسحبة من الميدان ، وفى مؤخرة الصورة . فالريفيات لم يذهبن الى المدارس ، أما بناتهن فيمضين اليها الآن . وستذهب الكثيرات منهن الى المدارس الثانوية كما ستمضى بعضهن الى الجامعات تماما كأخواتهن . فتكافؤ الفرص هو الامر اليومى فى مصر الحديثة ، مصحوبا بالمساواة بين الجنسين . وتستخدم المراة فى دوائر الحكومة ، كما تؤدى اعمالا فى منتهى الدقة فى المصانع ، وتتقاضى نفس الاجور التى يتقاضاها الرجال ، وهو مالا يقع فى معظم البلاد الاوروبية .

وهناك سيدات مصريات يعملن فى مختلف فروع البحث العلمى . وكان عدد النساء فى المركز القومى للبحوث فى عام ١٩٦٣ ، خمسين ، يعملن فى مختلف المجالات التى تبدا بالنشاط الزراعى ، وتنتهى عند استخدام الطاقة الذرية فى الاغراض السلمية . وهناك طبيبات مصريات وصحفيات ينتمين الى نقابة الصحفيين ، كما ان هناك مهندسات مصريات وطيارات أيضا . واشتركت المراة فى عام ١٩٦٢ فى السلك السياسى للجمهورية العربية المتحدة . وهناك محاسبات ، وعاملات فى الحقل

النقابي والمؤتمرات العمالية ، كما ان هناك قصصيات ورياضيات ، فقد اشتركت المرأة المصرية في دورة رومة للالعاب الاولمبية ٠

ومنحت المرأة المصرية حق الاقتراع وأن تنتخب في عام ١٩٥٥ ٠ وهناك عدد من العضوات في مجلس الامة وفي لجان الاتحاد الاشتراكي٠ وبالاضافة الى هذا فهناك بالطبع السيدة الوزيرة الجذابة الدكتورة حكمت أبو زيد ، وزيرة الشئون الاجتماعية ٠

وتمنح السيدة المتزوجة عند الولادة أجازة تقاضى ابانها ثلاثة أرباع مرتبها ٠ ووضعت حكومة الجمهورية العربية المتحدة عدة قوانين جديدة لحماية المرأة اجتماعيا ، بالنسبة الى الطلاق وتعدد الزوجات ٠ وهناك فكرة خاطئة بان النبي محمد (صلعم) قد سمح للمسلم بأن يتزوج أربع نساء مرة واحدة ٠ والحقيقة ان النبي قد اشترط في هذا السماح أن يعدل الرجل بينهن ، وأن يضمن لهن جميعا السعادة والانسجام والالفة ، والا فواحدة ٠ ولما كان الرسول العربي يعرف بحكمته العظيمة ان مثل هذا الشرط متعذر التطبيق الا في حالات نادرة ٠ فان تعدد الزوجات والحالة هذه ليس مطلقا ٠ ولا يتزوج المسلمون المثقفون والعصريون أكثر من زوجة واحدة ٠

ومما يجدر ذكره ان الامام العلامة والمصلح الوطني العظيم الشيخ محمد عبده كتب منذ القرن التاسع عشر عما ينزله تعدد الزوجات من ظلم ، وان اصرار الشريعة على العدل بين الزوجات ، يعني في الواقع الزواج بواحده (١) ٠

وما زال انصار المرأة المصرية الحديثة ، يرجعون بأفكارهم الى قاسم أمين الذي كان معاصرا للامام الشيخ محمد عبده ، وألف كتابه « تحرير المرأة » الذي طبع في عام ١٩٠٠ ، عارضا آنذاك أفكاره الثورية بضرورة تعليم المرأة ومناديا بالزواج بواحدة ٠

لكن مصر الجديدة لا تعني بنساء المدن وحدهن ، وهي تبذل كل ما في وسعها من جهد لمساعدة نساء الريف في أن يعشن أحسن حياة ممكنة ٠ وهذا ما تحققه الوحدات المجمعة ذات الفوائد الضخمة ٠ وتتعلم النسوة شروط حفظ الصحة في هذه الوحدات ، في البيت والغذاء ، ورعاية الاطفال والرضع ، كما يتعلمن القواعد الصحية البسيطة ، التي

(١) راجع كتاب « الاسلام والعصر الحديث في مصر » ، ص ٥٠ ٠

تشرح لهن بمساعدة الصور والخرائط لجسم الانسان ، وذلك ليستطعن تجنب الامراض الباطنية التى كانت تنزل افدح الاضرار بصحة المجتمعات الريفية ، والتى كانت تعتبر مستوطنة فى الحياة الريفية ٠

ويعتقد ان انشاء مراكز رعاية الامومة والطفولة ، فى القرى ، حيث تلقى الامهات وأطفالهن العناية الصحية من الطبيبات والحكيمات ويجدن المعالجة والمشورة ، قد زاد من نسبة بقاء الاطفال على قيد الحياة ، وحد من انتشار الامراض الخطيرة بين الاطفال ٠ ويقدر ان نسبة وفيات الاطفال قد هبطت من ١٦٠ فى الالف قبل الثورة الى ١٣٤ اليـوم ٠ وهذه نسبة عالية ايضا ، ولكن هبوطها يتطلب اولا ، التغلب على الجهل والخرافات والرجعية قبل أن تتأصل افكار حفظ الصحة الجديدة ، وطرق التغذية فى القلوب والعقول ٠

وأدت الخـــدمات الوقائية الصحية الى الحد من الامراض السارية الخطيرة الى الحد الادنى ٠ وقد اختفى الطاعون الحبيبى وغيره من الامراض الفتاكة تماما ٠ وتدرس القواعد الابتدائية فى حفظ الصحة فى المدارس وتعطى لطلبة المدارس فى المدن والقرى على السواء الاولوية فى الوصول الى العيادات الطبية ٠

وتؤدى الوحدات المجمعة خدماتها لمجموعات من القرى فى الارياف، وقد وصفها بعضهم بانها « هجمات الفدائيين على مشاكل الثمانية عشر مليونا من أبناء الريف المصرى » كما وصفها البعض الآخر بانهـا « نقاط الوثوب فى الهجوم على الماضى الاقطاعى » ٠

وتتعلم نساء القرى أن يضعن مواليدهن فى الظروف الصحية الطبية فى دار التوليد التابعة للوحدة المجمعة ؛ حيث تجد المرأة فى دور الولادة العناية الفورية من خبرة الاطباء والحكيمات ٠ ولم تعد المرأة المصرية تحتمل آلام العزلة والموت أحيانا عند الولادة ٠ وروت ممرضـة تعمل فى العيادة الملحقة بالوحدة المجمعة فى الفيوم لصحيفة «آراب اوبزرفر»(١) ان العيادة تستقبل نحوا من عشرين حاملا على وشك الوضع فى كل اسبوع ، كما تتولى علاج نحو من مائتى مريض فى اليوم الواحد ، ومعظمهم من النساء ، ويشكين من مرض البلهارسيا ٠ ولا ريب فى ان اعتياد القرويين على دخول العيادات الطبية ، ومقابلة الاطباء والممرضات ، ثورة فى حد ذاتها ، ولا سيما بالنسبة الى النساء ٠ وكن يعتمدن فى الماضى على « قابلة » القرية

(١) عدد الاراب اوبزرفر فى ١١ نوفمبر ١٩٦٣ ٠

وحلاقهـــا • وكان هذان في الماضي ، كمـــا ذكرت الممرضة من الهواة ، وضررهما اكثر من نفعهما للرجال والنساء الذين يراجعونهما • ولكن كان لكل منهما انصاره ، وقد وجدت الوحدات المجمعة عند انشائها اول مرة في عام ١٩٥٤ ، مقاومة عنيدة من هؤلاء الانصار •

وذكـرت طبيبة تعمـل في وحـدة الفيوم المجمعة لمجـلة «الاراب اوبزرفر» أيضا انها ترى نحوا من ٢٥٠ مريضا في كل يوم ، وكلهم من النساء • واضافت انها تعود النسوة اللائي تمنعهن أحوالهن الصحية من الوصول الى العيادة في بيوتهن •

وتقول الصحيفة ان زيارة محرريها هذه كانت نافعة للغاية ، فقد أظهرت ان الريف المصرى لم يعد محطا للشقاء المفرط ، وان الشعب فيه لم يعد منسحقا تحت أثقاله ، وانما واثقا من الغد •

ولم اعرف مصر قبل عام ١٩٥٢ ولا حتى قبل عام ١٩٦٢ ، ولذا فلا املك السبيل للحكم على صحة ما يدعيه أنصار العهد البائد من الاجانب من ان اوضاع مصر يومها كانت خيرا منها الآن • لكنني لا أشك في ان هذه الاوضاع كانت احسن بالنسبة لهم وحدهم • فقد تكون الحوانيت في تلك الايام أكثر أناقة ، وحاشدة بالسلع المستوردة الانيقة والغالية • وقد تكون هناك نواد طيبة ، ولكنها كانت مقتصرة على الاوروبيين وحدهم• ولما كان الفقر سائدا جماهير الشعب ، فقد كان في وسع هؤلاء الاجانب ان يحصلوا على أكبر عدد من الخدم وبأبخس الاجور • وتلقيت قبل فترة قصيرة رسالة من احدى السيدات الاجنبيات تحدثت الى فيها عن الحياة الرائعة التي قضتها في مصر في الايام القديمة ، وعن البيت الجميل الذى كانت تقيم فيه عند الأهرام ، وكيف انها عادت الى مصر مؤخرا فوجدت ان كل شيء قد ساء فيها ، وان حافلات الترام باتت مكتظة ، والشوارع قذرة ، والناس غير مهذبين • حسنا أنا لا أنكر ان حافلات الترام مكتظة، وان هذه الحافلات تهدر مزمجرة في الشوارع محدثة ضجة كبيرة • ولكن جميع « الترامواىات » ستلغى عما قريب • وانا لا أنكر ان هناك بعض الشوارع القذرة في القاهرة وأسوان وأسيوط ، لكن مصر اصبحت الآن الجمهورية العربية المتـــحدة ، وهي تخص المصريين وحدهم • ففي تلك الايام التي يسمونها « طيبة » ، اى عندما كان الاحتلال البريطاني قائما ، لم يكن هناك ميدان التحرير بنصبه ونافوراته ، ولا بحدائقه ومظلاته ، وانما كانت هناك ثكنات عسكرية بريطانية • ولم يكن الكورنيش الرائع قائما ، ولا تلك الفنادق الجميلة الضخمة ، ولا مبنى الجامعة العربية •

وكان نادي الجزيرة وقفـــا على الاوروبيين وحدهم · وكان البريطانيون يقيمون هناك كمحتلين ، أما الآن ، فمن تبقى منهم ، ليسوا الا غرباء يقيمون بتذاكر اقامة ، او بتاشيرات ســياحية · ولا ريب في ان أولئك الاجانب الذين يقولون ان المصريين لم يعودوا مهذبين ، انما يعنون أنهم لم يعودوا خانعين لارادتهم · فقد اعطت الثورة لشعبها الكرامة والاعتزاز بالسيادة والاستقلال ·

وقد اتاحت له ايضا حياة افضل في المدينة والريف على حد سواء ، والشعور بالضمان الاجتماعي · وعندما يتم بناء السد العـالي ، سيزداد علوه بما سيحققه من مشروعات التصنيع في المدن ، وبما سيؤمنه من أراضي زراعية جديدة في الريف · واذا كان التخطيط العائلي لم يفلح تماما في فرض القيود على النســل لينعم شعب مصر بهبة السد العالي ، الذي هو هبة النيل ، الا ان هذا السد سيظل عاملا طاغيا في الاقتصاد المصرى · وسيكون اكماله استهلالا لحقبة جديدة في تاريخ مصر · ولم يعد في وسع مصر بعد عام ١٩٥٢ أن تعود الى الوراء ، أو تقف عند حد ، فهي مضطرة الى السير باستمرار الى الامام ، ولا يمكن لشيء أن يقف في طريق زحف الشـــعب ، اذا اراد هذا الشعب ، كمـــا قال بارنيل الزعيم الايرلندى المشهور ، المضي فيه · وقد صـدق هذا القول على ايرلنده ، وهاهو يصدق الآن على مصر الجديدة التي تعتز بأنها غدت الجمهورية العربية المتحدة ، واصبحت اكثر بلد في الشرق الاوسط اســـتقرارا واوسعه أملا · انها مخلصة لعقيدتها الاشتراكية وايمانها القومي · وشعارها هو العروبة ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان تتصل بالوحدة العربية ، الحلم الدائم لكل عربي ·



ذيل

ديمقراطية عبد الناصر :

قال الرئيس عبد الناصر ، فى حديث افضى به لايرسكين تشايلدرز فى عام ١٩٦٢ (١) ٠٠٠ « انحصر تفكيرنا بعد نجاح الثورة ، فى ان الواجب يحتم علينا ان نضع الديمقراطية فى موضع التنفيذ ٠ ورحنا نطلب الى حزب الأغلبية الذى كان فى الحكم من قبل ٠ وهو حزب الوفد ان يشترك معنا ، كان هذا هو تفكيرنا فى تلك الآونة ، ان نظل فى الجيش، وان ندع حزب الأغلبية فى الحكم ٠ ولكن سرعان ما وقع الخلاف ، وقد تركز حول موضوع انهاء الاقطاع فى البلاد . فقد طلبنا تحديد ملكية الأرض بمائتى فدان ، ولكن جماعة الوفد رفضوا ؛ وكانت هذه هى النقطة التى بدأنا عندها فى التفكير بأن نتولى الحكم بأنفسنا . وذلك لاننا تأكدنا ان الأحزاب الاقطاعية أو الرأسمالية الفاسدة لا يمكن أن تنفذ الثورة الاجتماعية » ٠

وعلق تشايلدرز فى الحديث الذى اذاعه من الاذاعة البريطانية على ذلك بقوله : « وظل تقرير النظام المقبل للحكم منذ تلك اللحظة ولحقبة كاملة ، السؤال الضخم الذى يحير الحكم السلطوى » ٠

وقدم الرئيس عبد الناصر ، فى مايو عام ١٩٦٢ ، الميثاق الوطنى الى المجلس الوطنى ، وقد قصد منه ان يكون ميثاق الشعب بالنسبة الى

(١) نشر فى مجلة الاذاعة البريطانية فى عدد ١٥ نوفمبر ١٩٦٢ ٠

الاشتراكية والديمقراطية . ورأينا فى الفصول السابقة البنيان الهرمى المتدرج لنظام الحكم ، معتمدا على قاعدة الفلاحين الواسعة التى تؤلف غالبية السكان ، والمتاصلة فى التربة المصرية ، مرتفعة فى درجات عن طريق تعاونيات القرى ومجالسها ، والحكم المحلى ، والمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية والاتحاد الاشتراكى العربى الذى حل محل الاتحاد القومى الذى ثبت فشله الى المجلس التنفيذى المسئول امام مجلس الرياسة (١)

ومضى الاتحاد الاشتراكى العربى فى طريق نموه البطىء المتدرج وعبر سلسلة من المناقشات والانتخابات على مستويات القرى والمجالس المحلية صعودا الى مجلس الأمة • وكان مجلس الأمة قد توقف عن العمل كسلطة حاكمة منذ انفصال سوريا فى عام ١٩٦١ • ثم جاء الميثاق الوطنى والاتحاد الاشتراكى العربى فى عام ١٩٦٢ ، وتقرر قيام مجلس جديد للأمة تمت انتخابات اعضائه فى مارس عام ١٩٦٤ •

مجلس الأمة الجديد :

ذكر مراسل صحيفة الايكونوميست البريطانية فى ١٤ مارس عام ١٩٦٤ : « ان مجلس الأمة الجديد سيكون قمة الهرم السياسى المتعدد الدرجات فى مصر ، ضمن اطار الاتحاد الاشتراكى العربى الذى يضمها كلها ... » .

ومجلس الأمة برلمان بلا أحزاب سياسية ، وهو يمثل الديمقراطية فى مفهومها الاشتراكى • ويؤمن عبد الناصر على ضوء تجارب الماضى فى التاريخ السياسى بفساد الأحزاب ، وتبديدها لقوى الشعب وهدمها لها • وهو يهدف الى بناء نظام عملى للاشتراكية الذرائعية المتطورة يصلح لأوضاع مصر الخاصة التى لا تتفق ، كما يؤكد مع حاجات الغرب وأوضاعه المتميزة بالوفرة • ولا تمكن المقارنة بين الأوضاع المتحققة فى بلد فقير زراعى فى جذوره كمصر ، لم تخلص الا منذ اربعة عشر عاما فقط من مظالم قرون طويلة من الاقطاع ، وبين بلد صناعى كانجلترا ، تتميز بارتفاع مستوى الحياة فيها ، ومجتمعها الزراعى الصغير والمتحول الى حياة المدن • ويعتبر أقل عامل زراعى فى بريطانيا أجرا ،ثريا بالنسبة الى الفلاح

---

(١) حدثت تبدلات جديدة فى نظام الحكم ايضا ، فاصبح مجلس الوزراء بدلا من المجلس التنفيذى . والغى مجلس الرئاسة • وقامت تشكيلات الاتحاد الاشتراكى وبينها الهيئة البرلمانية لهذا الاتحاد •

(المعرب)

المصرى . ولا تشبه مشاكل بريطانيا الزراعية والصناعية والاقتصادية مشاكل بلاد ما زال القسم الغالب من اقتصادها يعتمد على نهرها . وكان يقال عن مصر ان من يملك النيل يسيطر على البلاد ، ولا ريب فى ان خطة الرئيس عبد الناصر تقضى بأن يسيطر شعب مصر على نيلها عن طريق حكومة ينتخبها هذا الشعب ، وممثلين يختارهم من الرجال والنساء من مختلف القطاعات كالفلاحين والعمال وأساتذة الجامعات ، وجميع ممثلى الدرجات المختلفة فى اهرام البنيان الاجتماعى المصرى . ويصور ايرسكين تشايلدرز الوضع فى رسالة شخصية بعث بها الى المؤلفة ، فى مارس عام ١٩٦٤ : « ان هناك مواجهة فعلية فى الجمهورية العربية المتحدة بين فريقين ، فريق فلاحى الريف ، وفريق المتعلمين من رجال الأعمال والحرف الذين يؤلفون الطبقة الوسطى فى المدن » . ولابد لضمان تحول الديمقراطية الى واقع ان يقترب هذان الفريقان من بعضهما وان يعملا معا فى مسئولية قومية مشتركة . ويتميز الفلاحون فى كل مكان بميول فطرية محافظة يجب التغلب عليها ببطء عن طريق المجالس القروية والوحدات المجمعة التى يجرى تعليمهم بوساطتها فى مصر ، على الأفكار التقدمية والليبرالية . يضاف الى هذا ان نشر أفكار الاصلاح الزراعى يساعد كثيرا فى تحقيق هذه الغاية .

وكان بين الذين رشحوا انفسهم للثلاثمائة وخمسين مقعدا فى مجلس الأمة والذين بلغوا ١٨٤٩ مرشحا نحو من ٥١٢ من العمال و ٤٨١ من الفلاحين و٢٨ سيدة .

وكان يشترط فى المرشح أن يكون حاملا لبطاقة العضوية العاملة فى الاتحاد الاشتراكى العربى ، وأن يكون قد انقضى على انضمامه الى الاتحاد عام واحد على الأقل . ويجب ألا يقل سن المرشح عن الثلاثين ، وان يعرف القراءة والكتابة ، وحاملا جنسية الجمهورية العربية المتحدة منذ عشر سنوات على الأقل . ويجب الا يكون من المعزولين سياسيا أو من الذين كانوا نشطين على الصعيد السياسى فى عهد ماقبل الثورة ! والذين فرضت الدولة عليهم الحراسة أو تعرضوا لقوانين الاصلاح الزراعى .

ويمكن اعتبار أحد المرشحين عاملا أو فلاحا اذا كان لا يملك مع زوجته وأطفاله الصغار أكثر من خمسة وعشرين فدانا ، أما اذا كان يملك أكثر من هذا الرقم فلا يعتبر مرشحا عن الفلاحين وانما عن الفئات الأخرى .

وقد سبق لى أن بينت ان الميثاق الوطنى نص على ان يكون نصف أعضاء مجلس الأمة على الأقل من العمال والفلاحين .

وسمح للعمال بالحصول على قروض بمعدل مائة وخمسين جنيهـا للعامل الواحد ، ينفق منها على حملته الانتخابية ، لكن مثل هذه المساعدات ماكانت لتدفع الى عاملين يتنافسان على مقعد واحد ، وينتميان الى النقابة نفسها .

وصفت « الاراب أوبزرفر » فى عددها الصادر فى ٩ مارس عام ١٩٦٤ . مجلس الأمة الجديد بأنه « مجلس محكم العرى لممثلين عن مختلف قطاعات المجتمع كالفلاحين والعمـــال والجنود والراســـمالية الوطنيـــة والمثقفين . ولم يعط المستغلون والاقطاعيون السابقون اية فرصة فى هذا المجتمع الديمقراطى الجديد ... ويستبعد الميثاق وهو الحارس الامين على الاشتراكية الديمقراطية جميع العناصر المعادية للقومية والاشتراكية من جميع التنظيمات السياسية ، ولكنه يسمح من الناحية الأخرى لجميـــع القوى الاشتراكية والقومية الأصيلة ، بأن تتولى عملية الحـكم وتسيطر عليها » .

ومجلس الأمة الجديد هو السلطة التشريعية العليا فى الجمهـــورية العربية المتحدة . وتقول الايجبشيان جازيت فى عددها الصادر فى الثالث من مارس عام ١٩٦٤ « ان القوانين التى سيصدرها ستكون من الشعب والى الشعب » . ولا يبقى أمامنا فى الواقع الا أن نرقب المدى الذى يمارس فيه مجلس الأمة فى الواقع وضع القوانين لا مجرد التصديق عليها أو رفضها (١) وقد صدرت وعود شاملة فى هذا الصدد ، ولا ريب فى ان مفهوم الديمقراطية البرلمانية كله ، سيفشل اذا لم تتحقق هذه الوعود. وقد أعلن المقال الافتتاحى الذى نشرته الجازيت فى هذا الصدد بشكل قاطع ، ان مجلس الأمة الجديد سيكون السلطة التشريعية فى البلاد ، ولما كانت هذه الصحيفة اليومية تصدر بالانجليزية ليقراها الزوار الاجانب

---

(١) نريد أن نطمئن السيدة المؤلفة ، ان مجلس الأمة الجديد قد مارس سلطاته كاملة فى الميدان التشريعى وفى ميادين الرقابة على الحكم . وقد برز هذا الدور الكبير فى الخطبة الختامية التى اختتم بها سيادة رئيس المجلس دورة انعقاده العادية قبل يومين معددا فيها ماحققه المجلس . وكانت الاستجوابات والأسئلة والاقتراحات والمناقشات تنقل الى الشعب يوميا عن طريق وسائل الأعلام المختلفة . كما ان سيادة الرئيس عبد الناصر . تحدث الى المجلس فى مختلف القضايا المهمة فى جلسات عدة .
(المعرب)

الذين ياتى معظمهم من الغرب، فانها وجهت اليهم حديثها قائلة: «قد يصدم بعض الناس فى الغرب اذا قلنا ان النظام الحزبى غير صالح للتطبيق فى الجمهورية العربية المتحدة · واذا ما استثنينا الحقيقة الواقعة وهى ان الجهد القومى سيتبدد فى صراعات حزبية لا ضرورة لها ، فان النظام الحزبى سيعيد فتح الباب للشرور القديمة ، وهذا آخر مايمكن للبلاد ان تتحمله فهى تريد ان يركز كل جهد وطاقة على المهمة الهائلة أمامنا وهى بناء البلاد لتكون مجتمع الرفاه للجميع· وقد وضعت الخطط لتحقيق هذه الغاية كما وضعت للتعاون مع جميع الدول الصديقة فى العمل من اجـــل الرفاه والسلام العالميين · لكن السلطة يجب ان تنبع عن الشعب فى ظـــل الديمقراطية ، والديمقراطية هى ماتمثله الجمهورية العربية المتحدة حتما فى سياساتها الداخلية » ·

الديمقراطية الذرائعية :

لا ريب فى ان الرئيس عبد الناصر ، انسان متطور · فعندما يجد ان تجربة من التجارب قد فشلت ، كما وقع فعلا بالنسبة الى تجربة الاتحاد القومى فى عام ١٩٦١ ، فانه لا يتردد لحظة واحدة فى التخلى عنها ، غير متخوف أبدا من الاعتراف بالخطأ الى جماهير شعبه المؤمنة به · وكان قد اعلن فى خطبه وفى مجالسه الخاصة انه لا يرغب فى ان يظل رئيسا مدى الحياة ، وان على الشعب أن يختار حكومته ورئيس جمهوريته وان يكون قادرا على تغييرهما · وقد تحدث عن هذا فى خطاب القاه فى المؤتمر الوطنى للقوى الشـــعبية قبيل الانتخابات وفى حـــديث أفضى به الى ايرسكين تشايلدرز · ورفض بالفعل اقتراحا تقدم به المجلس بان يعلن اختيـــار الرئيـس عبد الناصر رئيسا مدى الحياة ، وظل يوزع المسئوليات الرياسية على مجلس الرياسة والمجلس التنفيذى · وهو يؤمن بالقيادة الجماعية ، ويريد ان يكون نظام حكمه قائما لا على أساس حكم الحزب الواحد ، مصرا على ان الاتحاد الاشتراكى لا يمثل حزبا بل اتحادا يضم فئات الشعب فى مختلف القطاعات ·

ونقلت الصنداى تايمز فى الثانى والعشرين من مارس عام ١٩٦٤، أى بعد أيام قليلة من الانتخابات عن صحيفة الاهرام القاهرية قولها : « ان آخر مظاهر الحكم العسكرى واحكام الطوارىء سـلغى ، وان جميع الباقين من المســجونين السـياسيين سيصبحون مطلقى الســراح » · واضـــافت الصحيفة ان هذا يعنى ان لا اعتقال سيتم دون محاكمة ، وان الحـــرية الكاملة ستكون مضمونة للكلمة المقولة والمكتوبة ·

وقد اطلق سراح المعتقلين السياسيين بالفعل ، ولم يعد فى السجون اى معتقلين سياسيين ·

الدستور الجديد :

نقل مراسل التايمز فى القاهرة فى الرابع والعشرين من مارس نص الدستور المؤقت الجديد ، الذى صدر بعد الانتخابات وقبل الجلسة الأولى لمجلس الامة الجديد ، أى فى الثالث والعشرين من مارس على ان يصبح سارى المفعول اعتبارا من الخامس والعشرين منه · ونص الدستور الجديد على تحديد مدة رياسة الجمهورية للدورة الواحدة بست سنوات وعلى اعطائه الحق باعلان الحرب بعد موافقة مجلس الأمة · ويكون رئيس الجمهورية هو القائد الأعلى للقوات المسلحة ويرأس جلسات مجلس الدفاع الأعلى · ومن حق الرئيس أن يحل مجلس الأمة وأن يدعو الى انتخابات عامة جديدة ·

اما الحكومة فقد نص الدستور على أن تؤلف من رئيس للوزراء ونواب له والوزراء ·

وضمن الدستور حرية الصحافة والتعبير عن الراى وعقد الاجتماعات دون اذن · ونص على أن يكون رئيس الجمهورية مصريا وألا يقل سنه عن الخامسة والثلاثين · ويجرى انتخابه بترشيح من مجلس الأمة واستفتاء شعبى عام ·

ونص الدستور على مساواة المصريين جميعا امام القانون ، والا يعتقل اى انسان او يسجن دون امر من سلطة قانونية مخولة ·

وسيطرح الدستور الدائم بعد اقراره فى مجلس الامة على الاستفتاء الشعبى العام ، وهو ما سيقع فى القريب العاجل ·

مصادر الكتاب

١ – كتاب شارلز ادامز ·· «الاسلام والتحول العصرى فى مصر · دراسة لحركة الاصلاح العصرية التى جاء بها محمد عبده » طبـــاعة عام ١٩٣٣ ·

٢ – جمال احمد ·· «الجذور الفكرية للوطنية المصرية » – طباعة عـام ١٩٦٠ ·

٣ – قاسم امين – تحرير المراة عام ١٩٠٠ ·

٤ – ببكر – · فروع النيل فى الحبشة » عام ١٨٩٤ ·

٥ – جون بول – «واحة الخارجة » عام ١٩٠٠ ·

٦ – دبليو – جى براون – « رحلات فى افريقيا ومصر وسوريا» عام ١٧٩٩

٧ – براتون – جلادستون » فرعون الكافر » ١٩٦١ ·

٨ – جون بريستيد » تطور الدين والفكر فى مصر القديمة » – نيويورك ١٩١٢ ·

٩ – براون – ار · اش · » الفيوم وبحيرة مويريس » ١٨٩٢ ·

١٠ – ابرسكين تشابلدرز – » الطريق الى السويس » – ١٩٦٢ – تعريب خيرى حماد ·

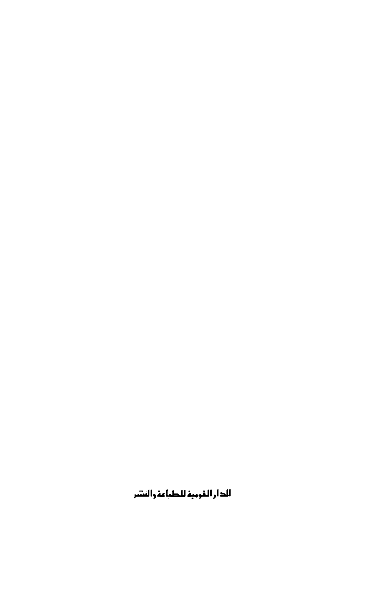
١١ – تشارلز كريميانز – «العرب والعالم – سياسة عبد الناصر القومية» بريجر – نيويورك ·

١٢ ـ انطونى دى كوسونز ـ « المريوطية » ·
١٣ ـ ادواردز ـ آى · اس · « اهرام مصر » ١٩٤٧ ·
١٤ ـ اوالد فولر ـ «ثلاث سنوات فى الصحراء الليبية» الطبعة الانجليزية فى عام ١٩١٣ ·
١٥ ـ سى فيرث و جى كويبل و جى لوير ـ «الهرم المدرج» ـ جزءان القاهرة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ ·
١٦ ـ اى · فورستر ـ «الاسكندرية» ١٩٢٢ ·
١٧ ـ اى · فورستر ـ «فاروس وفاريلون» ١٩٢٣ ·
١٨ ـ اى · جاردنر و اش بيل ـ «اسم بحيرة المريوطية» ·
١٩ ـ بسب هووين ـ « سيدة على حمار ـ قصة ليليان ترانر » ـ نيويورك ١٩٦٠ ·
٢٠ ـ يواكيم جوستين ـ «ناصر ـ وصوله الى الحكم» ـ ١٩٦٠ ·
٢١ ـ هيرمان كليس ـ «مصر القديمة ـ طوبوجرافيا ثقافية» ـ ١٩٦١ ·
٢٢ ـ ستانلى لين بول ـ قصة القاهرة ١٩٠٦ ·
٢٣ ـ توم ليتل ـ «مصر» ١٩٥٨ ·
٢٤ ـ لودفيج ـ «النيل ـ قصة حياة نهر» ـ ١٩٥٠ ·
٢٥ ـ اندل مانين ـ «رمح للعرب» ـ ١٩٦٣ ·
٢٦ ـ جمال عبد الناصر ـ فلسفة الثورة ١٩٥٤ ·
٢٧ ـ مارى روليت ـ «مؤسسو مصر الحديثة» ـ ١٩٦٢ ·
٢٨ ـ دوروثيا راسل «قاهرة القرون الوسطى واديرة وادى النطرون» · ١٩٦٢ ·
٢٩ ـ جلفيدا سبونر «حبا فى الجياد ـ يوميات السيدة بروك» ـ ١٩٥٩ ·
٣٠ ـ ديزموند ستيوارت ـ «مصر الفتية» ١٩٥٨ ·
٣١ ـ توماس واجهورن ـ « مصر فى عام ١٨٣٧ » ·
٣٢ ـ دورس وارنر ـ «الاصلاح الزراعى وتنمية المجتمع فى الجمهورية العربية المتحدة» ـ ١٩٦١ ·
٣٣ ـ روبرت ولسون ـ «تاريخ الحملة البريطانية على مصر» ـ ١٨٠٢ ·

فهرس الصور

تابع فهرس الصور

فهرس الكتاب



الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر



العدد ٣٧٣

الثمن ٥٠

١٩٦٥/١٠/٣١